الأعمال القصصية الكاملة

زيد مطيع دماج



- مجموعة طاهش الحوبان
- مجموعة العقرب
- مجموعة الجسر
- مجموعة أحزان البنت مياسة
- مجموعة المدفع الأصفر



إصدارات
تريم
عاصمة
الثقافة
الإسلامية
2010 م




ارشيف اليمن
@YemenArchive
yemenarchive.com

الأعمال القصصية الكاملة

لزيد مطيع دماج

١- مجموعة طاهش الحوبان
٢- مجموعة العقرب
٣- مجموعة الجسر
٤- مجموعة أحزان البنت مياسة
٥- مجموعة المدفع الأصفر



١٤٣١ هـ - 2010 م

لوحة الغلاف: للفنان عبد السلام الأثوري

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء
(٢٠٠٤/٩٢٧)

الناشر
الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة
صنعاء ص.ب. (36) - (237)
هاتف: 384532 - فاكس: 384533
بريد ألكتروني: moc@y.net.ye

"الكتاب ذاكرة الشعوب"، وأول مبدأ في ثقافتنا الإسلامية هو "اقرأ"

ولأن "تريم" كانت على الدوام المنارة الإسلامية التي أهدت أنوار معارفها إلى العالم، كان لابد للكتاب أن يكون في صدارة عرسها الثقافي في عام تتويجها عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠١٠م؛ إيماناً منا بدور الكلمة في خلق آفاق جديدة للتواصل والحوار من أجل أن يكون عالمنا أكثر بهاءً وإشراقاً، ولتكون هذه الإصدارات نافذة العالم على مهد الحضارات "اليمن"، وعرفاناً بفضل مدينة زيّنت الثقافة الإسلامية بأبهى حللها.

د. محمد أبوبكر المفلحي
وزير الثقافة

تقديم

د. عبد العزيز المقالح

ثمة شخصيات إنسانية يكون غيابها عن الساحة بمثابة غياب جزء أصيل وحميم من الحياة نفسها، هكذا شعرت عند غياب زيد مطيع دماج القاص والروائي والإنسان. وعندما شرعت في كتابة هذا التقديم للأعمال القصصية الكاملة التي أبدعها تساءلت: كم مضى على زيد منذ غاب جسده عن هذه الحياة الفانية؟ وكان الرد مذهلاً: أربع سنوات فقط، نعم أربع سنوات، لكن هذه السنوات الأربع تبدو لنا ـ نحن أصدقاؤه المقربين ـ وكأنها الدهر. لماذا؟ هل لأن غيابه أحدث غياباً آخر في حياتنا كما في مجال الإبداع القصصي والروائي بخاصة؟ أو لأن زيداً كان الوحيد القادر على جمع شتات الأشياء الجميلة وتأليف ما بينها؟ أم لأن كل يوم لا نرى فيه زيداً أو لا نسمع صوته ولا نسعد بتعليقاته وحكاياته هو أشبه بعام كامل وليس بيوم فحسب؟؟

تساؤلات كثيرة سيظل غياب زيد يثيرها بيننا ـ نحن أصدقاؤه المقربين ـ

حتى نلتقي في عالمه الهادئ الجميل.

اشتهر زيد مطيع دماج بكونه قاصاً وروائياً، ولم يشتهر بصفته رساماً ولا صحفياً أو برلمانياً أو دبلوماسياً. وشهرته كقاص وروائي غطت على مواهبه الأخرى كما غطت على دوره في الحياة العامة، وما تركه من إنجازات وإضافات في كل الأعمال التي تولاها أو شارك فيها. فقد كان ـ حتى في سنوات مرضه الذي طال أمده ـ رجلاً عملياً لا يهدأ ولا يستقر. وكثيراً ما كان يطرح علينا سؤاله الجوهري: لماذا لا يمارس كل منا حريته القصوى في مجال اختصاصه إلى أن يقال له: قف؟

كانت الإجابات تأتيه متناقضة لكنه لم يكن يأبه بتلك الإجابات الهروبية التي تدعو إلى التخلي عن المسئولية، ولا يرضيه من كل الإجابات سوى الإيجابي منها ذلك الذي لا يرى في العمل العام نزهة مترفة بل جهداً شاقاً

وعملاً دؤوباً. كما كان يرى في رفض العمل العام ـ تحت عبارات مبهمة ـ ضرباً من التخلي عن أداء الواجب لا يقل خطورة عن الإهمال في هذا العمل نفسه والتقصير في أدائه على الوجه الأكمل والمفيد.

يتضح هذا الموقف في كل ما كتب زيد من قصص ومقالات، ويظهر في أساليب وسياقات مختلفة، إذ كانت كلها تدور حول ضرورة احترام العمل واعتباره الفضيلة الإنسانية المدفوعة الأجر. ولعله كان يدرك أن حياة الإنسان قصيرة، وأن بلادنا التي حكم عليها القهر الاجتماعي والسياسي أن تعيش في أدنى سلم التخلف لن تخرج من وضعها هذا بالكلام وحده، ولا بالمواقف الرافضة والمستفزة وإنما بالعمل وحده وبمواجهة التخلف بالأفعال لا بالأقوال باعتبار العمل السبيل إلى تحقيق كل ما نحلم به ونريده.

لم يكن زيد يكتب ليصبح مشهوراً، وإنما كان يكتب لأن الكتابة دعوة إلى الفعل وأداة لإيصال رسالته إلى الناس الذين يحبهم، ويسعى إلى تغيير أوضاعهم إلى الأفضل. كل قصة كتبها زيد كانت تشكل موقفاً، وكل مقال نشره كان تعبيراً عن رؤية وطنية أو إنسانية، وكل رسم كاريكاتوري ما هو إلا دعوة مباشرة إلى التحرر من عيوبنا الأخلاقية والفكرية التي أضافت إلى الواقع المشوه تشوهات لا تقل سوءاً وبشاعة، ولعل تلك العيوب، عيوب القادرين على التجاوز هي التي تشوه الواقع وتصنع فيه من دوائر اللامسئولية أكثر مما صنعه التخلف ومرادفاته. وكان زيد يرى الكتابة الصادقة تجربة للحوار بين المبدعين، وعن طريقهم ومن خلال سلوكهم ستنتقل إلى الآخرين، إلى هذه الجموع الغفيرة التي لا تقرأ أو تلك التي إن قرأت لا تدرك ما بين السطور، ولا حتى ما في السطور نفسها.

لم يكن زيد عنيفاً في تعامله اليومي والإنساني، حتى أنه يرى أن الصراع العنيف مع السلطة والأفكار والمبادئ يأكل الوقت، وقت المصارع ولا يؤثر في الخصم. وما قد يؤثر على الخصم، وربما يزعزعه هو أن نحاصره بالأسئلة، وأن نتحداه بالإبداع. وكان بينه وبين السلطة مساحة تتسع أو تضيق بحسب ما تحققه من إنجازات للصالح العام، وما تحققه له شخصياً من حرية التعبير عن نفسه كتابةً أو كلاماً. ولم يكن مستعداً ـ تحت كل الظروف ـ إلى الاستسلام لغيبوية الذات والقبول بدور الضحية البريء المحاصر من كل الجهات. كانت متعته العميقة والجميلة والراقية عندما يخلو إلى نفسه ليكتب قصة جديدة أو فصلاً من رواية.

وهنا، يأتي الحديث عن بعض قصصه ورواياته التي لم تكتمل بفعل المرض الذي داهمه وامتص طاقاته الإبداعية، بالقدر نفسه الذي امتص معه طاقاته الجسدية. كان المرض قاسياً، بل متوحشاً، ولهذا ليس غريباً أن يدعى بـ «الخبيث» تمييزاً له عن بقية الأمراض التي تنشب أظفارها بالجسد الإنساني، وتظل تناوشه إلى أن يرفع الراية البيضاء، وهذه الراية هي الكفن، ذلك الذي يلف فيه الأحياء موتاهم قبل أن يواروهم في القبور. وفي هذا الصدد سوف يذكر الجميع لزيد شجاعته، وقدرته الفائقة على تحدي المرض الخبيث، حين لم يرفع الراية إلا بعد خمسة عشر عاماً واصل خلالها عطاءه وحياته وصداقاته.

وهي فترة قياسية لم يصمد لها سوى قلة قليلة من المؤمنين الشجعان.

كثير هم كتاب القصة القصيرة ـ في بلادنا وغيرها ـ الذين يمتلكون براعة لغوية تفوق براعة زيد، لكن الإبداع ليس براعة وحسب، وإنما هو اختزال فني لرؤية وموقف إنساني. وذلك ما حققه زيد للقصة وبالقصة. لم يكن زيد يكتب إلا بعد اختزان واستبطان تتمكن التجربة خلالهما من امتلاك تكوينها، وحينما تصل ذروتها يعكف عليها ليضعها على الورق. وكان لماحاً شديد الذكاء يقرأ الإنسان منذ اللحظة الأولى، ويصدر حكمه الذي لا يقبل الشك. هذا الذكاء وتلك الروح اللماحة تجلت بأدق معانيها في رموزه القصصية وبدلالاتها المختلفة من اجتماعية إلى سياسية إذ لا تخلو قصة لزيد من رمز أو أكثر، وأزعم أنني عايشت ولادة معظم تلك القصص الرامزة ورأيت كيف كانت تبدأ في ذهنه فكرة صغيرة ثم تتبلور وتأخذ شخوصها في الوضوح، والمجال لا يتسع لإيراد الأمثلة، وتكفي الإشارة ـ هنا ـ إلى قصة «رجل على الرصيف» وكيف تكونت ملامحها الأولى.

كان زيد قد سافر إلى الاتحاد السوفييتي السابق قبل سنوات من انهياره وعندما عاد من رحلته تلك كان يخامره شعور بأن هذا البناء العظيم يوشك أن يتهاوى، ولكي ينقل إلى القارئ هذا الإحساس استغل حادثة واقعية رآها والتقط خيوطها بالقرب من النهر الذي يشق موسكو، كان أحدهم يسير بجوار هذا النهر، وهو يقرأ ثم يلقي بالكتاب في الأرض بعنف، ويعود إليه مرة ثانية ليقرأ سطوراً منه ثم يرميه ثالثة ورابعة، هكذا عشرات المرات. استخلص زيد من خلال هذه الحادثة الصغيرة أن شيئاً ما سيحدث، وأن الفكر الذي قامت عليه الدولة العظمى

لن يصمد، وأن الذي يلقي بالكتاب إلى الأرض دون مبالاة قد يتخلى عن محتواه بسهولة. كان البعد الرمزي للقصة ـ يومئذ ـ غامضاً بعض الشيء فما الذي يعنيه للقارئ رجل يقرأ في كتاب، ثم يرمي به عشرات المرات غير الإحساس بالسأم والاستنكار أو الرفض لكل ما انطوت عليه صفحاته من شعارات.

إن سطحية القراءة هي أسوأ ما بلينا به في واقعنا العربي الحديث، وأزعم أن غالبية قراء نجيب محفوظ لا يحفلون بما في أعماله الروائية من أبعاد رمزية كانت وراء وصوله إلى العالمية. أما زيد فقد كان يرى أن «المرايا» أهم أعمال هذا الكاتب الكبير، وأنه استخدم فيها قدراته الرمزية من خلال تناوله لصور من الحياة، عن طريق وصفه لأشخاص عايشهم، أو قرأ لهم وأبدع في تقديم ملامحهم الداخلية للقارئ، وأعترف أنه فاجأني بهذا الرأي حين سمعته أول مرة، وحين أعدت قراءة «المرايا» وجدتني على اتفاق تام معه، فالمرايا مجموعة من اللوحات الرمزية البالغة الأهمية لشخصيات من المجتمع المصري يلتقي عندها السياسي بالصحفي والأديب بالممثل، والذين يحتلون مواقع المسئولية مع الذين لا يحتلون أي موقع، لكنهم يؤدون في القصص دوراً رمزياً ووجوداً تتسع دلالته لتشير إلى أعمق ما أراد الكاتب أن يلامسه من خلال خلق هذه الشخصيات والأحداث.

كان زيد كاتباً محبوباً ومحترماً يحظى بمحبة الناس والقراء منهم بخاصة. ولم تكن هذه المحبة مجانية، وإنما كانت نتيجة طبيعية لإعجابهم بكتاباته التي يجدون فيها أنفسهم ويتابعون صوراً حقيقية من همومهم ومشكلاتهم، ولعل حضوره في حياة مواطنيه يعكس حضوره العربي خارج اليمن سواء لدى القراء والمهتمين بالإبداع الأدبي أو من كتاب أو نقاد لا يكفون عن متابعة إنتاجه القصصي والروائي. وليس غريباً أن تظل أسرته تتلقى رسائل عديدة تطلب ترجمة أعماله أو إعادة طبعها أو الاستفادة منها في مجال.. وليس غريباً أن تظل أسرته تتلقى رسائل عديدة تطلب ترجمة أعماله أو إعادة طبعها أو الاستفادة منها في مجال المسلسلات الدرامية. ومنذ أيام فقط تلقت أسرته مجموعة من الخطابات كانت إحداها من مصر العربية يطلب فيها أحد المخرجين الموافقة على تحويل بعض أعمال زيد إلى مسلسلات تلفزيونية وخطاب آخر تطلب فيه مترجمة صربية الموافقة على ترجمة «الرهينة» إلى اللغة الصربية.

هذا هو زيد الحاضر الغائب، أو الغائب الحاضر بعد أربعة أعوام من رحيله عن هذا العالم الذي كان يحلم له بالأمن والسلام ولأبنائه بالمحبة والشعور بالمزيد من الدفء الإنساني في العلاقات الطيبة التي تحفظ لهذا الكوكب سلامته من كل ما يدبره الأشرار الذين باتوا يسيطرون على إمكاناته المادية بقوة الحديد والنار لا بقوة العقل والمنطق. ولعل في المنشور هنا من قصصه القصيرة تأكيداً لتلك الأحلام، واستجلاء لمظاهرها السردية وتجلياتها في مخيلة زيد القصصية وأسلوبه ورؤيته العربية المعاصرة.

كلية الآداب ـ جامعة صنعاء
في 29/ 6/ 2004م

تقديم

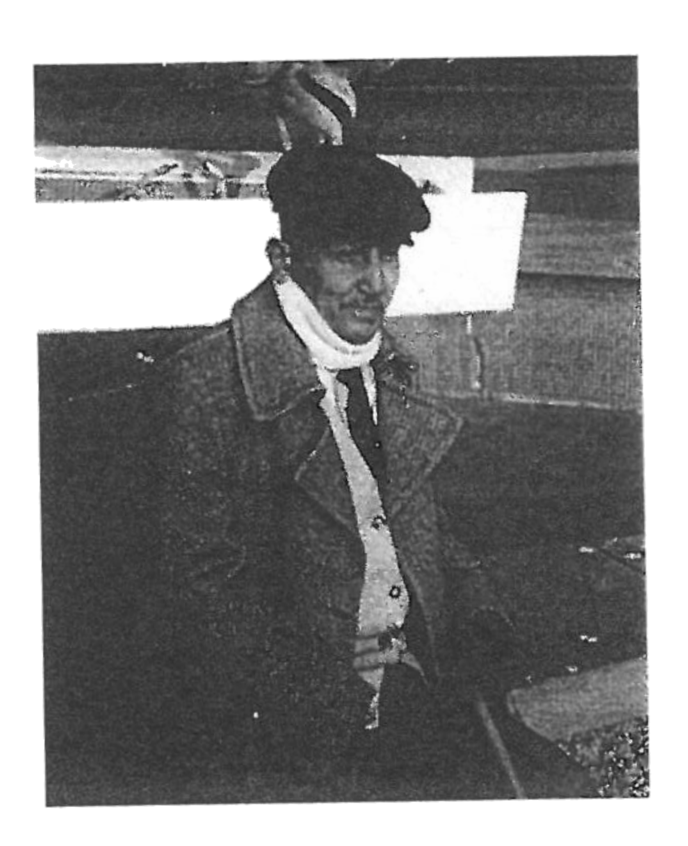
بقلم الأستاذ خالد عبد الله الرويشان

لقد أحب زيدٌ وطنه وشعبه حتى العشق. وكان حتى آخر لحظة في حياته وفياً للقيم التي نذر نفسه من أجلها، وهي تلك التي تمس الناس مباشرة وتمس حياتهم وآلامهم وآمالهم.

كان زيد معجوناً بتلك الآلام والآمال.. كان يتنفس أنينهم وهم يصعدون الجبال الوعرة حفاة مشاة؛ وغناءهم وأهازيجهم وهم ينحدرون صوب قراهم المسكونة بالصمت، المغسولة بالدمع والأحزان. لم يتنكر يوماً لعالمه: ريفاً أو مدينة، لم يأبه يوماً لمغريات الخروج عن جلده كما فعل ويفعل الكثيرون من محترفي السياسة والثقافة.

كان مهموماً بالإنسان البسيط بأحواله وآلامه. كان مترعاً - حتى الثمالة - بأغاني الرعاة ورائحة الورد البلدي في (باب اليمن)، وحيرة فتاة صغيرة لم تبع خبزها (باب السبح).

كان يتأوه لتأوهات المساكين والمظلومين، ويحزن لأحزان الجبال في مواسم الجدب وامتناع المطر.



مجموعة
طاهش الحوبان

الإهــداء

إلى روح والدي . .

الإنسان الذي فقدناه

وفي ذكرى الزميل محمد عبد الولي

الفنان الذي غاب

زيـد

في القصة..

بقلم د. عبدالعزيز المقالح

إلى منتصف هذا القرن ـ العشرين ـ تقريباً، والشعر في اللغة العربية يعد سيد الأنواع الأدبية، أو كما يقال: فن الفنون، ولكنه ومنذ ذلك الحين بدأ الشعر ينحدر إلى الدرجة الثانية وربما الثالثة رغم محاولات التجديد المتعددة وربما بسبب الفهم المغلوط لعملية التجديد نفسها، وبدأت القصة بأشكالها وأحجامها المختلفة تحتل المركز الأول بين الأنواع الأدبية المعاصرة.

وحتى في بلادنا ـ اليمن ـ حيث ظلت الغلبة فيها للشعر لأسباب عديدة منها ندرة الطباعة، وتأخر نمو الطبقة المتوسطة، والتخلف الشامل عن متابعة روح العصر وفنونه أقول إنه حتى في بلادنا ـ أصبحت القصة ـ والقصيرة منها بالذات ـ تقترب من مركز الصدارة الأدبية، وأصبح لنا من بين القاصين من لا نتردد في وضعه جنباً إلى جنب مع كبار كتاب القصة في الوطن العربي.

وصارت أسماء: محمد عبدالولي، علي باذيب، صالح الدحان، زيد مطيع دماج، أحمد محفوظ عمر، أحمد شريف الرفاعي، علي محمد عبده، محمد الزرقة، حسن اللوزي، محمد المساح، عبدالكريم المرتضى، صارت هذه الأسماء في اليمن، وبعضها أيضاً خارج اليمن رمزاً لحركة قصصية ناشطة.

وإذا كانت القصة قد حظيت في عصرنا بكل هذه المكانة، وبكل هذا الاهتمام، فإنها على مر العصور قد ظلت ـ خاصة في اللغة العربية ـ تشغل حيزاً كبيراً من موروثنا الأدبي، وإذا ما استبعدنا الأسلوب الفني، وروح التناول المعاصر للقصة الحديثة، فإن أمهات الكتب الأدبية العربية تزخر بهذا النوع من الحكايات والقصص التي تحمل الملامح الأولى للقصة والرواية الحديثة.

ولعل أطرف وأعمق ما قرأته عن العلاقة الوثيقة بين العربي والقصة ما كتبه الناقد الفرنسي المعاصر «توفتان تودروف» (Tzvetan Todorov).

في دراسة له قصيرة ورائعة عن «الناس والحكايات في ألف ليلة وليلة»[1] الكتاب العربي الساحر المترف، الذي طاف بالعالم شرقاً وغرباً وملأ مدنه بأنغام القوافل، وعبق القصور.

فماذا يقول هذا الناقد عن العلاقة بين العربي والقصة؟

هو يقول: «إذا كانت جميع الشخصيات «يقصد شخصيات ألف ليلة وليلة» لا تنفك عن القص فهذا يعني تقديساً سامياً لهذا الفعل. فأن تُقص مساو لأن تعيش. والمثل الأكبر صدقاً على ذلك هو مثل شهرزاد التي لا تعيش إلاِ إذا استطاعت أن تستمر في القص. هذا الموقف يتكرر دون انقطاع داخل القصة».

هكذا يقنعنا الناقد بأن القصة عند العربي تساوي الحياة. فأن يقص أو يحكي، تساوي أن يعيش. . أن يحيا. وهل كانت شهرزاد قادرة على الحياة لو لم تشد إليها شهريار بأقاصيصها التي لم تعرف النهاية؟ ثم إن شهرزاد ليست وحدها التي كشفت سر الحياة في الحكاية أو القصة، إن أبطالاً كثيرين في ألف ليلة وليلة، يواجهون الموت فلا ينقذهم منه سوى أن يسردوا حكاية، تماماً، كما حدث للدرويش والعفريت، وللحمال والجواري، وفي قصة الأحدب.

ومرة أخرى يشير الناقد إلى أن الحكاية تساوي الحياة وغيابها يساوي الموت، إذا لم تعد شهرزاد تجد قصصاً لترويها فسيقضى عليها «ويسوق الناقد على ذلك شاهداً من بين قصص أبطالها وهي قصة» الطبيب دوبان أراد هذا الطبيب السيء الحظ أن يحكي للملك قصة التمساح فرفض الملك أن يستمع إلى قصته وأمر بقتله، ولكن الطبيب قبل أن يموت عرف كيف ينتقم من الملك إذ ترك له كتاباً مليئاً بالأوراق البيضاء المسمومة، وأوهمه أنه يحوي كثيراً من الأسرار وما كاد الملك يفتح صفحات الكتاب المتلاصقة مبللاً إصبعه في فمه حتى سرى السم فيه.

وتفسير ذلك عند «تودروف» «أن الصفحة البيضاء مسمومة، الكتاب الذي لا يروى أي قصة يقتل، غياب القصة يعني الموت».

أثار هذا التحليل كل إعجابي، وبالذات هذا الربط الواعي بين الحكاية

---

(1) راجع مجلة «مواقف» العدد 16 ص146.

والحياة، بين الصمت والموت. وخرجت من هذه الدراسة الصغيرة بمعنى كبير، ربما لم يتبادر إلى وعي الناقد الكبير، ذلك هو أن فجر القصة في وطن ما يمكن أن يرتبط بفجر الحياة في ذلك الوطن، بداية انتشار القصة تعني بداية الرفض للصمت، .وبدأت ذهنياً استرجع التاريخ الحديث والقريب جداً للقصة القصيرة في بلادنا، ووجدت بالفعل أن الإخوة علي باذيب، ومحمد عبدالولي، وصالح الدحان، قد كتبوا أقاصيصهم الأولى في ظروف إرهاصات ثورة سبتمبر، كما كتب هؤلاء وغيرهم عشرات القصص في ظروف مخاض الثورة المسلحة على جبال جنوب البلاد، وفي حواري وساحات المدن الرافضة للمحتل الغريب.

إذن فميلاد القصة الحديثة في اليمن يرتبط بالثورة أكثر ربما من ارتباطه بالشعر، لأن هذا الأخير وليد قديم جداً، وباستثناء ولادته الثانية على أيدي الشعراء الجدد فإنه يشبه شيخاً عجوزاً مجدراً فقد كل أسنانه وأظافره.

* * *

إلى الآن مازال الحديث خارج نطاق المجموعة القصصية التي منحتني حق الحديث في صفحاتها الأولى.

أين يقف صاحبها من قصاصينا؟

ثم ما هي السمات الموضوعية والفنية التي تعبر عنها مجموعته الأولى؟

والرد على السؤال الأول يمكن إيجازه في القول بأن الفنان زيد مطيع دماج من خلال إنتاجه المنشور يقف وسطاً بين جيل الرواد الذين يمثلهم القاص الأول محمد عبدالولي، والجيل الثاني من كتاب القصة الشابة الذين يشقون طريقهم الآن بين المحاولة والوصول. أما عن السمات الموضوعية في هذه المجموعة فربما تمثلت فيما يلي:

أولاً: المحلية.

ثانياً: الريفية.

ثالثاً: الثورية.

والسمة الأولى «المحلية» وهي هنا «اليمنية» تكاد تلمس، وتشم، وتطعم من خلال كل قصة من قصص المجموعة، وباستثناء أقصوصة واحدة هي

«عقدة» كتبها زيد مطيع في مصر العربية وجعل بيئتها القاهرة حيث كان يتردد عليها أثناء دراسته الثانوية في طنطا، وهي أولى قصص المجموعة ـ باستثناء تلك القصة ـ فإن بقية الأقاصيص ذات بيئة محلية لا تخطىء العين ولا الأذن ملامحها ومكانها، يزيد من واقعيتها انتشار بعض المفردات المحلية مثل: المقهاية. والسمسرة، والطاهش، والجمنة، والعجور، والدخلة، والفتاشة، وغيرها من الألفاظ التي وضع القاص لبعضها شرحاً على هوامش الصفحات.

ويبدو أنني مضطر هنا للتوقف قليلاً ـ رفقاً بمشاعر النقاد البرانيين ـ لكي أثبت أن المحلية لا تعني بأي حال الإقليمية، وأن الطابع المحلي الغالب في أقاصيص المجموعة لا ينفي كونها عربية السمات والانتماء. وأن وجود بعض المفردات العامية لا يمكن أن يحررها من رحمة السماء التي لا تتكلم إلاّ بالفصحى..

أما السمة الثانية وهي «الريفية» فهي أبرز ما يميز القاص الشاب زيد مطيع، عن بقية القاصين في اليمن، وإذا كان المرحوم محمد عبدالولي قد تفرد بأعماله القصصية المتنوعة والمتعددة عن المهاجرين فإن «زيداً» يتفرد هو الآخر ويتخصص بأقاصيصه عن القرويين، فكل قصص هذه المجموعة ترتبط بالريف، وكل أبطالها باستثناء بطل أو اثنين كلهم قرويون لحماً ودماً يرتبطون بالأرض عن طريق الفلاحة أو عن طريق سكنى القرية. ومعظم هذه القصص تناقش جانباً من قضايا هؤلاء القرويين العائشين في قاع التخلف، وتطمح إلى تقديم ملامح واقعية عن صراعاتهم اليومية المختلفة مع الفقر، والشيخ، والعسكري، والمدينة.

وهذه السمة تكاد تكون غالبة على قصص المجموعة كلها فـ «ليل الجبل» و«طاهش الحوبان» تتحدثان عن صراع القروي ضد القوى الأسطورية، والمفترسة، و «علي بن علي العائد من البحر» تصور العلاقة الإقطاعية القائمة بين الشيخ والفلاح، وحالة استعداد الفلاح للهجرة ترويها قصة «عمر النسور» أما قصة «العسكري ذبح الدجاجة» فهي قصة كل فلاح مع العسكري القديم ومع بقايا ممثلي السلطة القديمة في الريف، وفي قصتي «بياع من برط» وربما «الذماري» يتجسد رعب القروي من المدينة وحنينه إلى العيش فيها بحثاً عن «المنزل» النظيف وعن «وردة» الجميلة التي تمنح بدون مقابل..

وعن السمة الثالثة والأخيرة وهي «الثورية» فإنها تكاد تكون الطابع العام للإنتاج الأدبي في اليمن خاصة بعد ثورة سبتمبر 1962، وكل أعمال زيد مطيع لا تخرج عن هذا الخط العام فهي ثورية برؤيتها النافذة لأعماق الواقع، وهي أيضاً رافضة لهذا الواقع الذي يجعل أبطالها ضحايا ومعذبين، وينهشهم الجوع والرعب، حتى أبناء المشايخ والنقباء تبرزهم هذه الأعمال في حالة عذاب وثورة، عذاب من الواقع وثورة للخروج من جلودهم بعيداً عن الآباء والعائلات، فهم يعلنون الثورة على التقاليد والعادات البالية كما فعل «بن ثوابه» في قصة «بياع من برط» إنه يرفض الواقع القائم، يرفض مجتمع النبالة والحسب والنسب و «العنطزة»، ويريد أن يعرف معنى الاستقرار والتحضر، ويناضل ليكون له بيت نظيف في المدينة بنوافذ واسعة بدلاً من قلاع الحرب ومعاقل الإرهاب، ولكن طريق الثورة عند «زيد» ما زال كما هو في الواقع مليء بالمعوقات والإحباطات المختلفة، لذلك فإن بطل قصته «بياع من برط» بعد أن حقق ثورته بالخروج على الأسرة، وبعد أن تصور أن أحلامه قد بدأت في التحقق، وأن فرداً آخر من أفراد أسرته يوشك أن ينضم إلى جبهة الكفاح ضد التقاليد البالية بعد ذلك كله تحدث الكارثة، ويسقط الثائر، ربما ليدلل القاص بذلك على شراسة المعوقات القائمة على طريق الجيل الجديد، ولا أدري لماذا اختار الكاتب هذه النهاية التراجيدية لبطل قصته؟ وهل كان ينقل عن الواقع؟ ربما...

وإذا كان قد نقل عن الواقع أفما كان الأفضل أن يجعل النهاية متفائلة؟ ذلك ما كنت آمل. لأن شباناً كثيرين في الواقع المعاش يثورون ويحققون أحلامهم وأحلام جيلهم ولا يتعرضون لمثل ما تعرض له «بن ثوابة» من إحباط وموت.

تبقى بعد كل هذا كلمات قليلات أوجز فيها ملاحظاتي عن السمات الفنية لأقاصيص المجموعة، ولا أغالي أبداً إذا ما قلت أن الفارق كبير وشاسع بين أسلوب «عقدة» وهي الأقصوصة التي كتبت عام 1961 في طنطا، وبين أسلوب «رمال عابرة» التي كتبت في الحديدة عام 1971، وهذا يثبت بيقين تصاعد مستوى هذا الفنان وعدم توقفه عند حد من تطور أدواته الفنية، ولكنه مع ذلك ولأسباب أعرفها ويعرفها معي كل زملائنا الأدباء في اليمن لم يستفد كما كان

ينبغي من الفترة الزمنية الممتدة من عام 1967 إلى عام 1973 فقد تعرض خلال هذه الفترة لكثير من المتاعب الصحية والمشاكل العائلية دفعه بعضها إلى قطع دراسته في كلية الآداب جامعة القاهرة وجعله ينصرف نهائياً للعناية بالقضايا العامة وبشئون والده المناضل العجوز.

ويبدو أن حياة «زيد مطيع» قد بدأت الآن تجنح نحو الاستقرار لذلك فهو مطالب فنياً بمتابعة ما كان قد بدأه من قراءات، وأن يعوض ما فاته على طريق الفن. وإذا كانت معظم أقاصيص «طاهش الحوبان» محكمة البناء تتحدث بواقعية وبساطة، وتستطيع أن تشد نحوها مشاعر القارئ بقوة، فإن أسلوب بعض هذه القصص مازال محتاجاً إلى التخلص من تأثير بعض القاصين الكلاسيكيين كما هو بحاجة أكثر إلى حذق واستيعاب التكنيك الحديث في السرد والحوار، مع اهتمام خاص باللغة وهي الوسيلة الأولى في العمل الفني.

ومع كل الملاحظات التي يمكن أن يثيرها الحديث عن السمات الفنية لهذه المجموعة المختلطة بتراب اليمن وروائح البن والقات، فإن قصاصاً كبيراً يوشك أن ينهض من بين صفحاتها، ويتهيأ لكي يحتل مكانه المرموق ليعوض القصة الحديثة في اليمن عن خسارتها الفادحة والكبيرة بغياب تشيكوف اليمن الفنان الراحل محمد عبدالولي.

فمرحباً بطاهش الحوبان ليأكل بعض مخاوفنا، ولكي يمنحنا الشجاعة والصبر على معانقة التضحية والثورة.

الجيزة في 19 سبتمبر 1973
عبدالعزيز المقالح

ليل الجبل

أقفل المقهوي[1] باب مقهايته بعد أن صلى صلاة العشاء، ولم يكن لديه في المقهى الكثير من المسافرين سوى عدد قليل قد تجلمشوا بجوار دوابهم بعد أن شربوا القهوة ومضغوا بعضاً من أوراق «القات». ونام بعضهم بينما كان آخرون يتفقدون دوابهم... فهذا يخلع سرج دابته ويزيل من على ظهرها ما علق بها من عرق بيده ثم يعطيها عشاءها من الحبوب داخل «مخلة» ربطت إلى عنقها وكادت تكتم أنفاسها.. وذلك آخر يتفقد خرج دابته خوفاً من أن يكون قد فقد منه شيء في الطريق.. أما أصحاب الجمال التي تحمل التجارة في ذلك الوقت فقد «غرزوا»[2] لجمالهم بشيء من البرسيم و «العجور»[3]. وقفلوا راجعين إلى داخل المقهاية حيث كانت الجمال بالخارج لا يخشى عليها من نمر أو «طاهش»[4] فقد عرف عن الجمال أنها تدافع ببسالة عن نفسها..

كانت المقهاية تربض بجوار عين ماء بنيت عليها شبه قبة صغيرة بجوارها بركة لتروي منها الدواب المسافرة ويطلق على هذه العين اسم «سبيل المرحل»[5] وبجوار المقهاية شجرة يطلق عليها «الطولق» قد مدت فروعها على جزء كبير من المقهاية و «السبيل» وبجوار الشجرة كانت هنالك سمسرة[6] قد امتلأت بالدواب والجمال التي لم يرض أصحابها الدخول إلى المقهاية ليوفروا بعض النقود..

وهدأت الحياة على سفح هذا الجبل الأشم الذي حجب ضوء القمر عن الطريق وسكنت حتى أشجاره المطلة من على البواسق الصخرية ولم يكن يسمع

(1) المقهوي: صاحب المقهى (الخان).
(2) غرزوا: أطعموا الجمال بالعلف لأفواهها.
(3) العجور: قصب الزرع.
(4) طاهش: حيوان مفترس في اليمن وهو نتاج من ذئب وأنثى ضبع أو بالعكس.
(5) المرحل: الطريق الذي يشق الجبل صاعداً أو هابطاً وغالباً ما يكون معبداً بالحجارة.
(6) سمسرة: بناء كبير لإيواء المسافرين الذين يصادفهم المطر أو الليل ليلتجئوا إليه أثناء ذلك.

في أحشاء الجبل إلاّ زقزقات لحشرات صغيرة ونعيق البوم وعواء الكلاب في القرى المجاورة. . وفجأة دوت في أرجاء الجبل زأرات متتالية صادرة من لبؤة كانت تقطن في أحد أحراش الجبل وتناقلت الجبال الأخرى صداها فهمدت زقزقة الحشرات واكتتمت صيحات الكلاب وأجفلت الدواب مع أصحابها في المقهاية وكل قد تجلمش وهو يتمتم وينظر إلى دابته شزراً. . إلاّ ذلك «المقهوي» فقد صعد إلى سطح مقهايته حيث أشعل ناراً وجلس بجوارها يصنع له القهوة ويشوي له بعض كيزان الذرة. . وفجأة لمح من بعيد في سفل «المرحل» شبحاً يكاد في خطاه يسابق الريح يتسلق الدرجات المتباعدة «للمرحل» ويتلوى مع الطريق في منحنياته وعصراته الكثيرة. . ونهض المقهوي إلى حافة السطح ليمعن النظر في القادم المجهول، ثم سمع نغمات غنائية صادرة من ذلك القادم كأنما يسلي بها تعبه من المشي ويؤنس وحدته في الطريق الكئيب. ولما اقترب من ينبوع الماء أدخل رأسه في فجوة داخل القبة وشرب حتى ارتوى ثم تلفت حوله فوجد المقهاية خامدة لا حياة فيها. . وأمعن المقهوي بنظرة فاحصة ليعرف من أي «القبل» يكون هذا القادم فوجد شاباً في مقتبل العمر حافي القدمين يلبس السواد. . . وعلى رأسه «صبيغة» [1]. وجلباب أسود وحول خصره «جنبية» [2] ومن الحزام يتدلى سيف لا يملكه إلاّ أفراد قبيلة اشتهرت بالشجاعة. . ولما هم القادم الشاب أن يصعد الجبل صدرت من المقهوي «نحنحة» فزع لها الشاب والتفت وراءه بغضب وهو يقول:

ـ من. . . ؟

ـ أنا المقهوي يا سيدي. .

ـ وهل لديك قهوة حامية وعشاء دسم يا مقهوي. . ؟

ـ نعم يا سيدي. . لدي كل ما قلت. . وفراش وثير. .

ـ لا حاجة لي بفراشك الوثير فأنا على عجل من أمري. . إنزل وافتح لي الباب.

ـ نزل المقهوي وأيقظ زوجته وابنته وأمرهما بإعداد «جمنة» [3] من القهوة

---

(1) صبيغة: عمامة مصبوغة بالنيل.

(2) جنبية: خنجر يمني.

(3) جمنة: إناء القهوة.

وكذلك إعداد دجاجة وخبز في الحال. . ثم فتح الباب وسلم على الشاب الذي دخل ووضع من على كتفه كيساً من الجلد بجانبه وقال له المقهوي:

ـ إذا فضلت الابتعاد عن شخير هؤلاء ورائحة دوابهم فعندي على السطح مكان يليق بمقامك. .

وأجابه الشاب إلى ذلك. . وقام وقد حاول المقهوي أن يحمل كيسه الجلدي ولكن الفتى نهره عن ذلك. . ولما استقر به المقام داخل المكان على السطح أدخلت ابنة المقهوي مصباحاً زيتياً وضعته على رف في المكان ونظرت نحو الفتى بخجل. . ونظر إليها وهو بدهشة لجمالها الجذاب وسأل المقهوي قائلاً:

ـ هل هذه ابنتك يا مقهوي. . ؟

ـ نعم يا سيدي. . ليس لي سواها. . أما أخوها الأكبر فهو في جيش الملكة «أروى بنت أحمد» في حامية «زبيد».

ولم يعره الفتى اهتماماً بل أمعن في النظر إلى تلك الفتاة التي انسحبت من داخل المكان وهي تبتسم بدلال.

وتنبه الفتى لقول المقهوي سائلاً:

ـ ما الذي جعلك تسافر في الليل. . ؟

ـ أمر هام. .

ـ وهل مررت من هنا قبل اليوم. . ؟

ـ بل كان والدي يمر من هنا كل شهر يحمل البريد.

ـ هل «الحاج صالح» والدك. . ؟

ـ نعم. . وهل تعرفه. . ؟

ـ كيف لا أعرف ذلك الإنسان الطيب. . لقد كان كل شهر يصل عندي في مغرب الشمس ولا يسافر إلّا في صباح اليوم التالي أو لم يخبرك عن اللبؤة التي تقطن في رأس هذا «النقيل» [1]. ؟

ـ لا. . لقد كان مريضاً عندما كلفت بحمل هذا البريد بدلاً عنه. .

ـ ولماذا لم تتأخر في سوق «القاعدة» حتى يأتي الصباح. ؟

---

(1) النقيل: المرحل أي الطريق الصاعد إلى قمة الجبل.

ـ لقد أخبرتك أن ما أحمله مهم جداً.. فهو بريد من قائد الملكة في «زبيد».

ـ على ذلك ستذهب إليها في «جبلة».؟

ـ نعم..

وهنا دخلت الفتاة وقد أزالت من على وجهها ما علق به من آثار النوم وحملت في يدها «جمنة» القهوة وفنجاناً من الفخار وتقدمت من الفتى الذي حملق بها إعجاباً.. ثم صبت له القهوة وأمرها والدها بأن تستعجل والدتها في طبخ الفرخة ولكن الشاب قال مسرعاً:

ـ لا داعي للعجلة..

وأمعن النظر بها فتلاقت نظراته بنظراتها وهنا تدخل المقهوي فقال سائلاً ابنته:

ـ ألا تشبهينه يا «فاطمة»..؟

وأطرقت الفتاة نحو الأرض ثم قالت بحياء وبصوت أذاب الفتى

ـ إنه يشبه عمي «الحاج صالح» صاحب البريد..

وضحك المقهوي بينما انتشى الفتى وهم بأن يتكلم ولكنها خرجت مسرعة فأطرق بوجهه نحو الأرض..

وبعد برهة، دخلت الفتاة تحمل الخبز تصحبها أمها وهي تحمل الدجاجة المطبوخة وقالت مرحبة:

ـ يا أهلاً وسهلاً بابن «الحاج صالح» على الرحب والسعة.. ثم سلمت الأم عليه وقدمت له العشاء..

وسألهم أن يشاركوه عشاءه ولكنهم أجابوه بأنهم قد تعشوا في أول الليل.. وجلست الفتاة بجوار أمها ترمقه بنظراتها وهو يتناول أكله ويحاول أن ينظر إليها فيجدهم ينظرون إليه فيغض الطرف عن ذلك. وهنا بعد أن أكمل الفتى عشاءه قال المقهوي وقد أشار لزوجته وابنته بالانصراف:

ـ ندعك لتنام هنا..

ـ لا لن أنام. فلدي أمر بتسليم البريد في فجر الليلة.

ـ ولكن يا ولدي لن تستطيع صعود «المرحل» وهذه اللبؤة تتقطع فيه.

ـ لا يهمني من أمرها شيء.

ـ لا يسافر أحد في الليل يا ولدي في هذه الطريق.

وأكملت زوجة المقهوي حديث زوجها فقالت:

ـ وخصوصاً أنها قد ولدت وزاد بها الجوع. إنها لا تترك عيناً تنام في هذا الجبل..

ورمقته الفتاة بنظرة إعجاب فكأنما زاده ذلك غروراً فقال باسماً:

ـ وأنا عائد من «جبلة» سأحضر لكم أشبالها لأتعشى بهم.؟

وعبثاً حاول المقهوي وزوجته أن يثنياه عن عزمه.. ودفع قيمة العشاء والقهوة ثم خرج من المكان بينما كان المقهوي يحاول معه مرة أخرى.. وحاولت الفتاة أن تترجاه ولكنها خجلت عندما نظر إليها فوجد في عينيها نظرة خوف وفزع فلم يأبه لذلك.. وفتح باب المقهاية بينما قال له المقهوي راجياً:

ـ أرجوك يا ولدي لا تذهب.. فما فرق هذا الوقت القصير..؟

ـ لا تحاول.. فأنا أحمل أنباء هامة للملكة.. ويجب أن أوافيها وهي تصلي الفجر في المسجد الكبير..

ـ مادمت مصراً.. فخذ حذرك.. جرد حسامك من الآن ولا تضرب به إلّا حين تتمكن منها فهي ماكرة يا ولدي..

ـ لا تخف عليّ فقد صرعت طاهشاً..

ـ ولكنها لبؤة يا ولدي.. واللبؤة لا تنطح. بل تغدر..

ومرق الفتى من باب المقهاية بينما صيحات التحذير من المقهوي وزوجته تعلو إلى أن غاب في منحنى من منحنيات «المرحل» الصاعد إلى الخطر.. وضرب المقهوي كفاً بكف ثم قفل باب مقهايته وصعد مع زوجته إلى السطح بينما ترقرقت في عيني الفتاة الدموع وهي تلحق بهما..

وصعد الفتى بخطوات ثابتة درجات «المرحل» المعبدة بالحجارة السوداء.. وظل يمرق من منحنى إلى آخر وفجأة سمع صوت طرقعة حصى صغيرة من جوار أذنيه فاقشعر «بدنه» ومشق سيفه الذي لمع على ضوء القمر الخافت ونظر أمامه فرأى صخرة صغيرة تسد عليه ممر الطريق ودقق النظر فوجد لبؤة قد وثبت إليها وربضت فوقها بهدوء.. وخف من خطاه بينما اللبؤة

هامدة لا تبدي حراكاً ثم وقف وتمالك نفسه ونظر حوله باحثاً عن منفذ يعبره فلم يجد. . لقد كان الطريق هنا ضيقاً جداً وتحته «حيد»[1] يطل على الوادي الأخضر وفوقه مرتفع أملس لا تستطيع حتى المعيز تسلقه. .

وتردد في أن يعود أدراجه فشعر بالعار إذا ما عاد وقابل الفتاة. . ولم يكن له بد من أن يقتحم الطريق. . فشمر عن ساعديه. وقد أشهر حسامه إلى الأمام، وهو يهزه في الهواء كمن يريد تجربته إلى وقت الموقعة المرتقبة. واقترب أكثر فأكثر ولم تتحرك اللبؤة من مكانها. . فاقترب وصاح صيحة الحرب الجنونية. . فلم تتحرك اللبؤة من مكانها. . واقترب منها حتى إذا ما سمع أنفاسها تزفر وشم رائحتها أخذ نفسه على يمينها فحركت رأسها في اتجاهه وقد كشرت عن أنيابها البيضاء بدون صوت بل بفحيح مخيف يصدر منها فما كان من الفتى إلّا أن هوى بحسامه بكل ما لديه من قوة الشباب عليها فمرقت من الحسام نحوه بينما هوى الحسام على الصخرة فانكسر إلى نصفين وارتبك الفتى وهو يجد في يده نصف سيفه فقط، وعاجلته اللبؤة بضربة من مخالبها أطاحت به على درجات «المرحل» المعبدة بالحجارة السوداء مضرجاً بدمه. .

وعلى سطح «المقهاية» كان المقهوي وزوجته ينصتان لأصوات المعركة غير المتكافأة وفجأة سمعوا صوتاً يصيح صيحة الموت ثم صوت فرقعة مدوية قال بعدها المقهوي بتأثر:

ـ يا إلهي. . لقد التهمت رأسه. .

وهنا صاحت الزوجة وهي ترى ابنتها تهوي على الأرض فاقدة الوعي. .

وما أن بزغ الفجر حتى أخذ المقهوي نفسه إلى مكان الحادث فلم يجد للفتى أثراً سوى دماء متناثرة هنا وهنالك وسيفه المكسور، وكيسه الجلدي الذي يحتوي على بريد الملكة وعمامته وخنجره. .

تلفت نحو عرين اللبؤة البعيد فوجد آثار دماء تشير نحوه. وعاد وهو يذرف الدمع. فوجد المسافرين قد تأهبوا للسفر كل يشد خُرج دابته ويحاسب زوجته على أجر المبيت وثمن القهوة والعشاء ولم يحاول إخبارهم بما حدث ماداموا يعرفون بأمر تلك اللبؤة.

---

(1) حيد: هاوية.

وسافرت القوافل نهاراً بدون خوف أو فزع وقد امتلأ «المرحل» بالدواب والناس الهابطين من القمة والصاعدين إليها يغنون ويتحادثون وأجفلت الدواب عندما كانت تمر بمكان المعركة.

لم يكن بيد «المقهوي» شيء يعمله سوى أن يعلق تلك المخلفات في سقف «المقهاية» ليراها المسافرون أو من يعرفون ذلك الشاب إذا ما مات والده.

ومرت الأيام والأسابيع بدون أن يتعرف عليها أحد. فأيقن «المقهوي» أن «ابن الحاج صالح» قد مات.

وفي ليلة من الليالي الموحشة صعد «المقهوي» كعادته إلى سطح «مقهايته» يصنع لنفسه القهوة ويشوي بعض كيزان الذرة.. ولمح شبحاً من بعيد يسرع الخطى ويمرق من بين منحنيات «المرحل» المعبد بالحجارة السوداء فأحس برعشة في بدنه وأطل من حافة سطح «المقهاية» ليمعن النظر ثم نزل وأخبر زوجته بأن تعد قهوة وعشاءاً.. وصعد ثانية.

ولما اقترب ذلك الشبح من منبع الماء لم يتجه إليه بل اتجه نحو باب «المقهاية» وهنا صاح «المقهوي» قائلاً:

- من بالباب؟

- أنا يا مقهوي..

- من..؟ الحاج صالح؟

- نعم يا مقهوي.. افتح الباب فأنا أحمل لك بريداً من ابنك من زبيد مع ما أحمل من بريد الملكة «أروى»!

ونزل المقهوي وهو يرتعش ثم نظر إلى مخلفات الفتى المعلقة فأمر زوجته بأن تخفيها في صندوق كبير.. وفتح الباب وعانق «الحاج صالح» الذي قال له:

- أريد قهوة فقط ولا أريد عشاء.. أخبر «نعيمة» بذلك.

ثم أخرج من كيسه الجلدي بعد أن استقر في المكان العلوي مكتوباً أخبر «المقهوي» أنه من ابنه في «زبيد» ثم تنهد وقال متسائلاً:

- ألم يمر بك فتى يحمل البريد قبل شهر؟

ولم يستطع «المقهوي» أن يجيب بل حاول أن يخرج عن الموضوع فقال وهو يعطي الحاج صالح مكتوب ابنه:

ـ اقرأه لي. . . فأنا كما تعلم لا أعرف القراءة.

ـ لقد سألتك يا «مقهوي» عن فتى يحمل البريد؟

ـ سأتذكر بعد أن تقرأ المكتوب.

ـ على رسلك. .

وأخذ الحاج صالح يقرأ للمقهوي خطاب ولده الذي يخبره أن الحالة مستقرة في «زبيد» وأن الجميع قد بايعوا الملكة ورضوا بها وأن المدينة جميلة فيها كثير من المدارس الفقهية والمساجد وأنه قد انتظم في الدراسة هنالك وربما تزوج عن قريب بعد أن يصبح فقيهاً.

ولما نظر الحاج صالح نحو المقهوي الذي لم يكن يعره انتباهاً قال. .

ـ ألم يفاجئك بنبأ زواجه يا مقهوي. .

ولم يجب بل طفرت من عينيه دموع حاول إخفاءها بينما قال الحاج صالح باسماً:

ـ يالكم من بشر يا معشر «المقهويين» دعك من البكاء السخيف لأن ولدك يريد الزواج.

وهنا قال «المقهوي» بصوت مبحوح:

ـ لا أبكي على ذلك. .

ـ إذا لماذا تبكي. . ؟

ـ لشيء آخر. . لا أود إخبارك به يا حاج صالح. .

ـ إذاً على رسلك. .

وأدخلت الفتاة «القهوة» وهي تذرف الدمع ثم وضعتها وانسحبت من المكان مسرعة واستغرب الحاج صالح لذلك فقال:

ـ ما بالكم. . هل جننتم جميعاً. .

ولما لم يجبه أحد قال:

ـ المهم. . أجب عن سؤالي الأول. .

ومسح المقهوي رأسه ثم قال:

- نعم لقد مر بنا ابنك قبل شهر..

- وهل نزل عندك هنا في المقهاية..

- نعم..

- لقد خفت عليه.. فلم يعد منذ ذلك الوقت.. وهل بات ليلته هنا..

- لا..

- أو تركته يذهب ليلاً..

- لقد حاولت المستحيل يا حاج صالح..

وهنا وقف الحاج صالح وقد تغير لون وجهه ثم قال:

- أتقصد أنه سافر من هنا ليلاً؟

- نعم..

- عليك اللعنة.. وتركته..

- لقد عملت المستحيل بدون فائدة.. وأخبرني بأنه يحمل بريد الملكة..

وأيقن الحاج صالح أن ابنه قد هلك، فجلس واجماً ثم قال بهدوء:

- وأين ثيابه؟

- هنا في الصندوق..

- أرني إياها..

ونهض المقهوي ليحضر ثياب الفتى بينما أطرق الحاج صالح واجماً وقد علت وجهه مسحة من لون أصفر وكادت عيناه أن تخرجا من مآقيهما.. وأخرج المقهوي ثياب أبنه فأمره بالخروج ولما خرج المقهوي نظر الحاج صالح إلى ثياب ابنه نظرة فزع ثم احتضنها وأجهش بالبكاء..

ومرت لحظة وإذا بباب المكان ينفرج ويخرج منه الحاج صالح الذي ناهز الستين من عمره وقد مسح عينيه وأمسك بذقنه الأيمن ثم استل حسامه ومرق من أمام المقهوي إلى حافة السطح ثم وثب إلى الطريق وانطلق صاعداً بينما المقهوي يصيح ببكاء وقد حاول أن يستنجد بالقوم النائمين الذين هبوا من مراقدهم على صوته:

- يا مسلمين.. يا أمة محمد.. إلحقوا بالحاج صالح.. فهو في خطر..

وتجمهرت جموع المسافرين على سطح المقهاية ولم يجرؤ أحد على اللحاق بالحاج صالح.

وبخطى ثابتة وبيد تحمل ذلك الحسام ترتعش ليس من الخوف ولكن من الحمية والنشوة للانتقام تسلق الحاج صالح العجوز «المرحل» الملتوي.. ولما وصل إلى تلك المنطقة سمع فرقعة الحصى فوقف وقد وجد اللبؤة قد وثبت إلى تلك الصخرة.. ثم فكر بسرعة.. فرجع عدة خطوات حتى تفادى ذلك الممر الضيق فتسلق جانب الطريق العلوي.. بينما كان رأس اللبؤة يتحرك صوبه.. بخطوات هادئة اقترب الحاج صالح من موقع اللبؤة التي بانت له من تحته على ضوء القمر، ثم بدأ في الانزلاق نحوها بهدوء وحسامه موجه نحوها.. وبدأ يقترب منها رويداً رويداً حتى إذا ما كاد يسمع أنفاسها اللاهثة تلذع وجهه عندما كشرت عن أنيابها محدثة ذلك الفحيح الرهيب الخافت هوش بحسامه كمن يريد ضربها فوثبت من مكانها إلى مكان آخر ثم اندفعت نحوه بوثبة عالية وقد فتحت ذراعيها لتطبق عليه.. فما كان منه إلّا أن نصب حسامه إلى نحرها فاخترقه حتى ظهر من خلفها.. فارتمت بعيدة عنه تتلوى على درجات «المرحل» المعبد بالحجارة السوداء.. ثم أطلقت صيحة الموت ولفظت أنفاسها..

اقترب منها الحاج صالح واستل سيفه من نحرها فلم تبد حراكاً.. ثم اتجه صوب الصخرة فوثب عليها وسيفه بيده ومن فمه تعلو أنشودة حزينة يرثي بها ابنه..

وبدأ الناس بعد ذلك اليوم يصعدون الجبل ليلاً...

العسكري ذبح الدجاجة

في الطريق بين المزارع . .

ـ صباح الخير . .

ـ صباح النور . .

ـ عليك عسكري . .

ـ ياساتر لماذا . ؟

ـ لا أدري . . إنه في بيتك وقد ضيق الخناق على زوجتك لتذبح له الدجاجة . .

ـ إذاً مع السلامة . .

ـ مع السلامة . .

ونشط في خطاه وقد انتابته الهواجس . . لابد أن يكون غريمه «مصلح» قد أنفذ عليه ذلك العسكري من عند «عامل» الناحية . . لابد أن يكون «مصلح» ولا أحد غيره .

وشعر بالحقد على «مصلح» وهو يمرق من بين المدرجات الزراعية صوب قريته وقد وضع فأسه المحمل بالأتربة اللزجة فوق كتفه العاري وتمتم ببعض عبارات الشتم لغريمه «مصلح» الذي جعل من الحبة قبة . .

وخطر بباله وهو يشرف على مدخل القرية أن يذهب إلى عدلها[1] ويقترض منه أجرة للعسكري ، ولكنه تروى وقر عزمه على الذهاب إلى منزله خوفاً من أن يؤذي العسكري زوجته وأطفاله وبقرته ودجاجته .

وشعر برهبة وهو يخطو عتبة منزله المظلم وكاد يصطدم ببقرته الرابضة في مدخل الدار . قابلته زوجته لاهثة وهي تقول :

ـ لقد أراد العسكري ذبح الدجاجة .

---

(1) العدل : العمدة .

ـ وأين هو؟

ـ أخذ له رداءاً من هنا وذهب إلى المسجد.

ـ لماذا. . ؟

ـ لم يعجبه البقاء هنا.

ووضع فأسه في زاوية مظلمة ثم قال متوعداً:

ـ بيني وبينك يوم يا «مصلح».

ـ إنه ليس مصلح.

ـ ومن هو؟

ـ «مسعد». .

ـ أتقصدين جارنا «مسعد النجار». . ؟

ـ نعم. .

ـ ولماذا. . ؟

ـ لا أدري. .

ولم يصدق أن «مسعد النجار» جاره الطيب ينفذ[1] عليه عسكري من عند «عامل» الناحية وليس بينهما شيء. لقد تصور أن يكون «مصلح» لأنه تشاجر معه حول ساقية الماء. ولكن «مسعد النجار» لم يختلف معه أبداً. وقالت زوجته:

ـ إذهب إلى «العدل»[2] واقترض منه أجرة العسكري قبل أن يذبح الدجاجة.

واتجه صوب بيت «العدل» وطرق بابه. فأجابته زوجة «العدل» بأن زوجها ذهب لصلاة الظهر. . واتجه صوب المسجد ولم يدخل فناءه بل اتجه صوب ينبوع الماء يتوضأ منه. .

وفي فناء المسجد قابله سكان القرية بنظرات عادية بينما قال صائحاً:

ـ هل رأيتم. . «مسعد النجار» ينفذ علي عسكري من عند العامل؟

ـ «مسعد النجار» ليس موجوداً هنا. .

---

(1) ينفذ: يرسل.

(2) العدل: العمدة.

أجابه أحدهم بينما استمر هو قائلاً:

ـ هل له حق عندي ليعمل بي هكذا؟

وخاطبه آخر قائلاً:

ـ أجر العسكري اليوم.. وغداً إذهب إلى «عامل» الناحية وأنفذ عليه عسكري «قضاء بسلف..».

وقال آخر بصوت هادئ:

ـ لا تؤجر العسكري بل إذهب معه إلى «عامل» الناحية وهو الذي سيقرر من تكون عليه أجرة العسكري.. فإذا كان تنفيذه عليك باطلاً فسيلزمه «العامل» بالأجرة.

واقترب منه آخر وهو يقول:

ـ يا جماعة.. لا تطولوا الحكاية.. أجر العسكري وسلم نفسك المتاعب..

ـ ومن أين لي الأجرة؟

ـ اقترضها من «العدل».

ـ وهل يرضيك أن أأجر العسكري باطلاً بباطل؟

ولم يجبه بل نظر إليه بحدة وصاح غاضباً:

ـ قم وصل الظهر.. فأنت معاند وتريد جلب المشاكل لنفسك.

وسكت الجميع عندما خرج العسكري من داخل المسجد حاملاً بندقيته ومن ورائه «عدل» القرية بعمته البيضاء ولفيف من القرويين عراة الظهر والصدر، وقال «العدل» مخاطباً العسكري:

ـ هذا ضالتك المنشودة.. أريه أمر «العامل»..

ـ ألم تره أنت؟

ـ نعم ولكن

وقاطعه العسكري بحدة وهو يقول:

ـ ولكنك ماكر.. تريد هذا «الرعوي»[1] أن يتعبني.

---

(1) الرعوي: الفلاح.

وابتسم العسكري وهو ينظر إلى «الرعوي» وابتسم الجميع بينما كان «العدل» قد تصنع الابتسامة وقد أحس بالحرج فقال:

ـ ليس لي دخل بينكما..

ولكن العسكري تجاهل قوله واقترب من «الرعوي» وهو يربت على كتفه ثم قال:

ـ إنه رعوي طيب. سيذبح لي دجاجة للغداء..

ـ ولكن ليس لدي دجاجة..

ـ هه.. لقد رأيتها في بيتك.. فلا تحاول خداعي وإلا ذبحت البقرة..

ـ ولكن ليس لدي سواها..

وهنا سكت العسكري وحملق فيه كمن يريد إخافته ثم قال بغضب:

ـ أتريد أن تقدم لي عصيداً؟

ـ هذا كل ما أملك..

ـ عليك اللعنة.. إذهب وأعد الدجاجة وإلا..

ثم دفعه بيده صوب الفناء. ولكن «الرعوي» عاد وهو يقول:

ـ حرام عليك ليس لدي سواها..

ـ ليست كبشاً يا رعوي. خيرة اللّه عليك.

ـ ولكن وعدت ابني بشراء ثوب له للعيد من ثمنها.

وعبثاً حاول. بينما قال أحد الحاضرين: «العدل» يتكلف بغداء العسكري وينتهي الإشكال.

ولكن أحد الحاضرين أيضاً اقترب من «الرعوي» وقال له هامساً في أذنه:

ـ لا تصدق «فالعدل» سيطالبك بالكثير مقابل ذلك.

وصاح آخر مخاطباً «الرعوي»:

ـ إذهب واذبح الدجاجة.

ـ ليس لدي سواها ياخلق اللّه.

ـ إذاً دع «العسكري» يذهب إلى بيت «العدل» مادمت مغفلاً لا تفهم.

وكأنما شعر «العدل» بذلك التلميح فقال:

ـ بيتي ليس فارغاً لأحد. دعوه يذبح الدجاجة فليست كبشاً يا خلق اللّه.

ونفد صبر العسكري فاتجه صوب «الرعوي» وجذبه من مئزره نحو القرية وهو يقول:

ـ أمري على هذا «الرعوي» ولا أعرف غدائي إلّا منه.

وحاول «الرعوي» عبثاً أن يتملص من قبضة «العسكري»، ولكن بدون جدوى. ولما وصلا إلى المنزل اتجه العسكري نحو الدجاجة التي كانت تغفو فوق أحد عيدان الحطب المشوكة، وحاول الإمساك بها ولكنها أجفلت ثم قفزت نحو الباب هاربة فحاول اللحاق بها ولكنه تعثر في عتبة الباب فكاد أن يقع على الأرض لولا أن أمسك بعارضة الباب بينما كانت بندقيته قد ارتمت من على كتفه إلى الأرض فلم يعرها انتباهاً، وقد ازداد غيظه من الدجاجة فاتجه نحوها وهي تصيح ولما اقترب منها وثب عليها ولكنها مرقت من بين يديه بينما سقطت عمته وتدحرجت في الوحل فلم يعرها انتباهاً أيضاً. بل زاد ذلك من غضبه فاتجه صوب الدجاجة مرة ثالثة وحاصرها في زاوية في عرض المنزل، وأطبق بيده عليها حتى كتم أنفاسها. ورجع نحو «الرعوي» وعيناه تقدحان بالشرر بينما كان الأخير قد أخذ البندقية من الأرض ثم لحق بالعمامة في تدحرجها فالتقطها، وبدأ في تنظيف ما علق بها من الوحل.

ومد «الرعوي» يده بالبندقية نحو العسكري الذي جذبها منه ثم أخذ عمته وهو يلهث واتجه نحو الزوجة وصاح بها وهو يعطيها الدجاجة قائلاً:

ـ قسماً باللّه إن لم تذبحيها لأنحر هذه البقرة الآن.

وارتاع الرعوي وزوجته لقول العسكري فما كان من الرعوي إلّا أن خاطب زوجته بحسرة قائلاً:

ـ أمري للّه. إذبحيها يا امرأة وأمري للّه.

حاولت الزوجة أن تتردد ولكنها انصاعت بإشارة صارمة من زوجها.

وفي المكان الوحيد في بيت الرعوي علق العسكري بندقيته في عرض الحائط بعد أن تفقد خدوشها بينما كان الرعوي يصلح له مكاناً ليجلس فيه. ولما جلس قال مخاطباً الرعوي:

ـ هل اشتريت لي «القات» لأقيل به؟

ـ ليس لدي «قات».

ـ هه.. أتريد أن نعيد الكرة مرة ثانية؟

ـ ولكن ليس لدي «قات» وأقسم على ذلك.

وبصوت غاضب قال العسكري:

ـ لا ينفع معكم إلّا القوة.. قم واشترِ لي «قاتاً» ولا تدفعني لاستعمال العنف معك فأنا منهك من الطريق.

ـ ولكن لا أزرع القات..

ـ قلت لك اشتره يا رعوي.

ـ ولكني لا أملك نقوداً لأشتري لك القات.

ونظر إليه العسكري كمن نفد صبره ثم قال مهدداً:

ـ خيرة اللّه عليك يا رعوي!

وشعر الرعوي بذلك فقال بصوت خافت:

ـ ولكن من أين أشتري لك قاتاً؟

ـ أنت أخبر مني بذلك.

ـ لا يوجد هنا «قات» إلّا مع «العدل»

ـ إذهب إليه وأخبره أن القات من أجلي فلن يخالف ذلك.

وخرج من منزله متجهاً صوب دار «العدل»، بينما كانت زوجته تذبح الدجاجة.

ولما وصل إلى دار «العدل» قال له:

ـ أريد شراء «قات» منك.

ـ هل جننت يا هذا؟ أتريدني أن أتلفه ومازالت غصونه صغيرة؟

ـ إنه العسكري!..

وما أن سمع «العدل» ذلك حتى قام من مكانه وخرج معه صوب مُدرج زراعي صغير قد امتلأ بشجيرات «القات» خلف منزله وشرع في قطف الأغصان التي بانت له كبيرة ثم قال متذمراً:

ـ لا يأتي منكم سوى المتاعب..

ـ وماذا جنيت؟!

ولم يجبه بل ناوله حزمة «القات» وهو يقول:

ـ إعلم أن ثمن هذه الحزمة ريالان..

ونهض الرعوي من على الحجر الذي جلس عليه ثم قال محتجاً:

ـ إنه لا يساوي ريالاً واحداً!..

ولم يجبه «العدل» بل خطف حزمة «القات» من يد «الرعوي» واتجه نحو منزله وهو يقول:

ـ إذاً إذهب عني وابحث لعسكريك عن قات!..

ـ ولكن لا يوجد هنا قات سوى قاتك..

ـ يوجد منه الكثير في قرية «جَلبَ» وهو صالح للقطف.

ـ ولكنها بعيدة.

ـ وماذا أفعل لك؟!

ولحق به وقد غلب على أمره وقال:

ـ سأدفع لك ما قلت به.

وابتسم العدل لسماع ذلك وناوله حزمة «القات» بينما قال «الرعوي» متسائلاً:

ـ كم أدفع أجرة للعسكري؟

ـ ألم تتفقا؟

ـ لا..

ـ إدفع له ريالين كغيرك من الرعية.

ـ إذاً أقرضني الريالين..

ـ إلحق ورائي إلى البيت..

ودخلا المنزل ثم اتجه «العدل» صوب صندوقه الخشبي حيث فتحه وأخرج ريالين وقال:

ـ يبقى عندك لي خمسة ريالات..

ـ ولكنها أربعة ريالات فقط..

ـ لا تعارضني إن لم يرضك ذلك.. فقد قلت خمسة ريالات.

ـ لا داعي. لقد قبلت وأمري إلى الله..

وأخذ الرعوي «القات» والأجرة واتجه صوب منزله وهو يلعن «مسعد النجار».

وتناول العسكري غداءه الشهي وقد جلس إلى جواره الرعوي وأسرته، ولما حان وقت تناول اللحمة نهض الرعوي وأسرته وأكل العسكري الدجاجة وحده كاملة..

وقدم للعسكري المغسل ليغسل يديه فغسلهما وهو يتمتم بالحمد والثناء لله. ثم مسح وجهه بيديه ولبس عمته وجذب بندقيته من الحائط ثم أدخل حزمة القات في لحفته التي رماها وراء ظهره وقال مخاطباً الرعوي بتأفف:

ـ لا تظن أنني سأقيل عندك هنا في هذا المكان المظلم. فسأذهب أنا الآن وأنت تلحق بي في صباح اليوم الثاني.. وإياك أن تتأخر وإلا عدت لك من جديد.

ـ وهل غريمي هناك؟

ـ لا أدري.. المهم إياك أن تتأخر.

ثم خرج من باب المنزل والرعوي يصاحبه بينما خرج بعض القرويين من بيوتهم لوداع العسكري وكل يظهر له المودة نفاقاً وخوفاً من أن يرميه القدر مرة أخرى على أحدهم.

وصاح أحدهم بأحد الصبية ليذهب يخبر العدل برحيل العسكري من القرية فانطلق الصبي ورجع وبصحبته «العدل» الذي سلم بحرارة على العسكري مودعاً إياه..

وفي خارج القرية قال العدل للعسكري:

ـ هل استلمت أجرتك؟

ـ لا.. وسآخذها منه عند ما يلحق في الصباح.

وكأنما تنبه الرعوي لذلك فأخرج الريالين من طيات ثيابه ودفعها إلى يد العسكري الذي نظر إليهما بغضب ثم رماهما إلى الأرض وهو يقول:

ـ ريالين؟ وكل هذا الطريق بريالين يا رعوي..

ـ لا أملك سواها..

ـ دعك من المخادعة يا رعوي..

ـ والله لا أملك سواهما وقد اقترضتهما من العدل.

ـ هه.. أتريد أن نعيد الكرة مرة ثالثة؟

وهنا قال العدل للعسكري وهو يحاول الابتسام:

ـ لقد أقرضته الريالين الآن.. فخذهما..

ـ مادمت قد أقرضته الريالين فأقرضه ريالين آخرين لكي تكتمل الأجرة..

ـ ولكنها الأجرة المقررة من قبل الحكومة..

ـ لا تتدخل بيني وبينه يا عدل.. هه..

وسكت العدل بينما نظر العسكري نحو الرعوي وقال بهدوء:

ـ لقد رحمتك، وأخبرتك أن تلحق بي في الصباح وكفيتك شر المبيت والعشاء والإفطار ولكن المعروف لا ينفع هذه الأيام.

وتحرك كمن يريد العودة إلى منزل الرعوي ولكن أحد القرويين قال مخاطباً العدل:

ـ أقرضه ريالاً ثالثاً..

وتوقف العسكري ثم حملق في القروي وهو يقول:

ـ بل ريالين.. ثم من سألك رأيك يا حمار؟

وسكت الجميع بينما اتجه العسكري نحو العدل وقال كمن نفد صبره.

ـ هات ريالين إلّا ربع.. هه!.. رحمتك مرة أخرى يا رعوي.

وكأنما كان ذلك حلاً وسطاً في نظرهم فأخرج العدل المبلغ المطلوب من طيات ثيابه ودسه في يد الرعوي الذي دسه بحركة لا شعورية في يد العسكري ووضعه الأخير بدوره في حافظته الجلدية وهو يبتسم بينما قال العدل مخاطباً الرعوي:

ـ يبقى عندك سبعة ريالات.. تذكر ذلك.

ـ ولكنها سبعة ريالات إلّا ربع ريال..

ـ لقد قلت سبعة ريالات.. يعني سبعة ريالات.. فإذا لم يرضك ذلك ف..

ولم يقل الرعوي شيئاً بل سلم بالأمر الواقع بينما كان العسكري يودعهم مرة أخرى وهنا قال أحد القرويين بعد أن ابتعد عنهم العسكري مخاطباً الرعوي:

ـ لماذا أنفذ عليك «مسعد النجار» هذا العسكري..

ودهش الرعوي لسؤال جاره فهو إلى الآن لم يعرف السبب فما كان منه إلّا أن صاح بالعسكري قائلاً:

ـ لماذا أنفذ عليّ غريمي من عند العامل يا عسكري..

وأجابه صوت العسكري ومازال قريباً منهم:

ـ لأن دجاجتك نقرت عين ابنه..

وصعق الرعوي لسماعه ذلك بينما كان القرويون في حالة تعجب عادية..

وارتبك الرعوي وهو لا يدري هل يضحك أم يبكي لذلك فقال مرة ثانية مخاطباً العسكري:

ـ ولكنها لم تنقره في عينه..

وأجابه صوت العسكري:

ـ المهم أنها نقرته يا رعوي..

ـ ولكن هذا ابنه أمامك ليس به أي شيء وهو الذي ذهب يدعو العدل لوداعك!..

ـ المهم أنها نقرته يا رعوي..

ـ ولكن هذا ظلم!..

ـ إياك أن تتأخر في الحضور صباحاً وإلا عدت لك مرة أخرى..

وأسرع العسكري في خطاه عندما رأى السُحُب تتجمع منذرةً بهطول الأمطار. بينما نظر الرعوي إلى الصبي نظرة تأمل؛ ليرى نقرة دجاجته ـ الراحلة ـ له.. بينما كان الصبي يبتسم ببراءة جاهلاً ما يدور حوله..

طاهش الحوبان(*)

لم تمض سوى عدة أسابيع منذ عاد النقيب عبدالله بن صالح إلى داره بعد عام قضاه في عدن، هارباً من الإمام يحيى . . وكان قد عاد إثر عفو عام صدر من الإمام عن مجموعة من الأحرار اليمنيين الفارين في عدن .

عاد النقيب، ومكث في داره في الريف بين أسرته وعشيرته . . ولم يكن يشعر بالأمان أثناء ذلك بل كان متوقعاً أنه لن يسلم في يوم من الأيام من بطش الإمام . . وكم ندم لعودته من عدن وتركه زملاءه . . ولكن لم يكن بيده حيلة فلم يكن بقاؤه هنالك يجدي بالنسبة له . . بل لقد أصابه الملل والضجر وهو جامد هناك لا يقوم بأي عمل كبعض زملائه الذين يكتبون المقالات الرنانة في الصحف والقصائد الثورية . . وهو يستطيع أن يقرأ ويكتب ويتكلم ولكنه غير قادر على أن يسوغ كلامه في قصيدة شعرية أو مقالة صحفية . . . هو يستطيع أن يطلق الرصاص ويؤلب القبائل ويثير العشائر ويجلب الغوغاء . . ولكن كل ذلك في الشمال . .أما هنا فالسلاح هو القلم . . لذلك عاد إلى عشيرته حاملاً معه لقب «النقيب» عنهم . .

(*) الطاهش هو حيوان مفترس يوجد في وديان اليمن الكبرى . وهو كما قيل مسخ ذئب وضبع . . أي نتاج أنثى ضبع اتصل بها ذئب أو العكس . وكان أشهرها صيتاً هو ذلك الذي عرف بطاهش وادي الحوبان . ويقع ذلك الوادي بالقرب من مدينة «تعز» وتمر به القوافل الصاعدة إلى (صنعاء) والهابطة منها . والوادي في حد ذاته مؤهل لتسكنه الوحوش الكاسرة، ففيه الكثير من الأحراش والمستنقعات والأدغال . . وما أن يخيم المغيب حتى تخمد فيه الحياة . . وإذا ما سافر الإنسان فيه ليلاً ووحيداً يعد من الأبطال المغامرين . .

ذلك هو وادي الحوبان . . وذلك هو طاهش الحوبان الوحش الذي بات أسطورة تسكت به الأمهات أطفالهن عند البكاء أو المشاغبة . . !!

وبطل القصة حقيقي إذ إن القصة في حد ذاتها واقعية . . فالكل يعرف الشهيد (عبدالله بن حسن أبو رأس) أحد شهداء قبيلة (ذو محمد) . .

حاول ولي العهد أن يتخلص منه فأرسل إليه رسولاً يطلب منه الحضور من دون إبطاء وقد تعمد ولي العهد ألا يكون الرسول من أحد أفراد حرسه لكي لا يفطن «النقيب» لذلك..

ولما كان الوقت ليلاً فقد خاف أهله عليه من الخديعة وذكروه بما حدث لأحد أفراد الأسرة الذي دبرت له خديعة على يد الأتراك.. ولكنه لم يحفل بذلك.. بل أسرج حصانه وأخذ تابعه واتجه صوب «تعز» لملاقاة ولي العهد.

ووصل سوق «القاعدة» ومازال أمامه قاع «الجند» ووادي «الحوبان» الرهيب الذي يسكنه ذلك الوحش الذي عرف «بطاهش الحوبان» الذي لم يدع قرية من قرى الوادي إلّا غزاها ولا طريقاً من طرقه إلّا وقطعه.. بل كان يغزو مدينة «تعز» نفسها..

واتجه «النقيب» نحو «قاع الجند» وكان الليل قد انتصف وأرسل القمر أشعته البيضاء الفضية من خلال السحائب راكضة نحو قمم الجبال الشاهقة والقاع من حولها ملأته السكينة والصمت الذي لا يقطعه غير عواء ذئب أو نعيق بومة.. وحوافر الفرس تدك الحصى وهو يقطع قاع «الجند» الكبير..

وعند مقهى في الطريق.. وقف التابع خائفاً أن يستمر سيده في مسيرته وأمامهم وادي «الحوبان» بوحشه الكاسر.. وأخذ التابع يقدم الرجاء لسيده أن يبيتا ليلتهما في هذا المقهى. ولكن كيف يخضع الرجل الذي خضعت له الرجال لوحش.. كان يتمنى أن ينازله منذ زمن بعيد..

ونهر «النقيب عبدالله» تابعه بحدة، فما كان من التابع إلّا أن أطاع كارهاً لعلمه أن سيده لن يتورع عن قتله إذا علم بخوفه وجبنه وقد اختاره من بين صفوة رجاله لكي يرافقه في هذه الرحلة.. وواصلا السير.. ومن «قاع الجند» وصل بهم الطريق إلى رقعة واسعة من الأرض ملآى بالحجارة والرمال تشير إلى أن ذلك هو بداية لوادي «الحوبان» وزاد هلع التابع عندما شاهد قبة لضريح أحد الأولياء فهي تتوسط الوادي ولا يبعد عن عرين «الطاهش» إلّا قليلاً.. وبينما التابع في فزعه كان «النقيب» يدندن بلحن شجي غير عابئ بما سيواجهه من أخطار..

وفجأة.. أجفلت الفرس.. وعلا صهيلها.. وما أن سمع التابع ذلك حتى صاح بسيده بصوت مرتعش..:

ـ لقد داهمنا «الطاهش» يا سيدي..

فأجابه النقيب محاولاً السيطرة على مخاوفه:

ـ لا تخف يا هذا..!

ـ ولكنه يحاذينا الآن يا سيدي..!

ـ لقد رأيته منذ دخلنا الوادي يسير محاذياً لنا.. وقد اقترب الآن قليلاً لأن الطريق ضيق.. فلا تخف وكن رجلاً..

لم يتمالك التابع نفسه وكان يسير بجوار الفرس من ناحية الوحش.. فأمسك بقدم سيده من الناحية الأخرى بينما كان «النقيب» يحاول السيطرة على فرسه. أما «الطاهش» فقد بدأ يظهر أمامهم بين أشجار الأثل وخلال مستنقعات الوادي.. يقفز تارة ويمشي الهوينى تارة أخرى.. وكان «لطاهش الحوبان» طريقة عجيبة اشتهر بها للقضاء على فريسته.. فهو يسير محاذياً فريسته مسافة كافية لتحطيم معنويتها، وعندما تفقد الضحية معنويتها تتصلب هلعاً وحينئذ يهاجمها ولا ينشب مخالبه فيها وإنما ينطحها حتى يلقيها أرضاً ثم ينطلق يصيح بعيداً عنها مسافة كبيرة مزهواً فخوراً. ثم يعدو إليها ليخلصها من ثيابها بعملية وحشية.. يسحبها إلى عرينه.. وكثيراً ما كان الناس لا يجدون من الضحية إلّا ثيابها..

ولما يئس «الطاهش» من فريسته هذه المرة أن تنهار اقترب أكثر حتى بانت ملامحه تماماً «للنقيب» الذي عرفه من أول مرة.. طويل المنكبين واسع الصدر أبيضه له رأس لبؤة ومخالب فهد أما يداه فطويلة غليظة ورجلاه الخلفيتان قصيرتان، وكان ممشوق القوام إلى درجة النحول في الوسط..

وأجفلت الفرس عندما شمت رائحته.. وانهار التابع وبدأ يتصلب ونزل «النقيب» من على صهوة فرسه.. وأمسك بها بقوة ثم صاح بتابعه أن يربطها في جذع شجرة كانت بجواره فلم يجد للتابع أثراً.. وصاح من جديد ولكنه سمع صوت حركة من فوقه فالتفت إليها فإذا به يجد التابع قد تسلق الشجرة وهو مغمض العينين غير شاعر بأي شيء حوله..

وربط النقيب عبدالله فرسه وأحكم ربطها في جذع الشجرة وهي تحاول الإفلات من رباطها ولا تدري أنها بمحاولتها هذه ترتكب حماقة كبرى وتغامر بحياتها..

وكان «الطاهش» في أثناء ذلك قد توقف وانتصب على مؤخرته بينما كان «النقيب» قد أمسك ببندقيته القديمة ورفع مفتاح الأمان وسار عدة خطوات مجاوراً لشجرة أخرى ربض بجوار جذعها.. واقترب «الطاهش» منه لينطحه النطحة الأولى وضغط «النقيب» زناد بندقيته فانطلق صوتها يدوي ممزقاً سكون الوادي، بينما اخترقت الرصاصة نحر «الطاهش» فانقض على جذع الشجرة وارتطم بها بينما كان «النقيب» قد وثب إلى مكان آخر وعبأ بندقيته برصاصة أخرى وأطلقها فاخترقت رأس الوحش الذي أخذ يتلوى من الألم ولكنه انقض من جديد قاصداً مهاجمة «النقيب» الذي لم تطاوعه البندقية في الانطلاق..

وتمالك «النقيب» أعصابه فأفرغ وعبأ البندقية من جديد ولكن بدون جدوى.. بينما الوحش قد اقترب منه وجهاً لوجه. وفتح ذراعيه ليطبق على «النقيب» الذي أدخل ماسورة البندقية في فمه المفتوح واستل خنجره وأغمده في جوف «الطاهش» عدة مرات..

سحب «النقيب» جسمه من تحت جثة «الطاهش» ثم أصلح من شأنها وصاح بتابعه أن يأتي ليشاهد «الطاهش» ولكن التابع كان في سبات عميق من الرعب فلم يسمعه، وعندئذ قذفه بحجر فوق الشجرة فانتبه مذعوراً وتحرك..

وتقدم «النقيب» من الطاهش ليقطع لسانه كدليل يفخر به دائماً ولكن الوحش مازال يتلوى ويعاني من سكرات الموت فخاف «النقيب» على يده إذا أدخلها فمه أن يطبق عليها ولذا فقد أدخل مؤخرة بندقيته في فم «الطاهش» فلاكها بين فكيه حتى كاد أن يقع «النقيب» أرضاً..

وهنا ولأول مرة يبدي التابع حركة واعية فيأخذ حجراً كبيراً ويقذف به داخل فم الوحش وكانت المفاجأة عندما تحولت تلك الحجرة إلى رمال داخل فكيه.. ولم يجد النقيب بداً من الانتظار حتى مات «الطاهش» وانقطعت منه الحركة فقطع لسانه..

وتحرك النقيب مع تابعه نحو «تعز» وقد بدأ يشدو مغنياً والتابع يردد بعد ذلك..

العائد من البحر

كان الشيخ صالح ولفيف من «خبرته»[1] وعسكره المحيطون به في فناء المسجد الصغير المطل على الوادي الأخضر الذي يمتلك الشيخ نصف أرضه يتمازحون ويمرحون أمام الشيخ الذي بدا لهم صباح اليوم كئيب الوجه محمر العينين فاتحاً فمه يستنشق الهواء منه وقد تدلت شفته السفلى حتى كادت تلمس ذقنه الصغير.

وكان لفيف من القرويين أيضاً قد صلوا صلاة الظهر وانزووا في ركن من الفناء يرقبون شيخهم وخبرته يتمازحون وقد بدت على وجوه القرويين بسمة ساذجة لما يحدث أمامهم.

ولما نهض الشيخ معلناً توجهه نحو داره سارع «خبرته» لأخذ بنادقهم ليسيروا أمامه وخلفه.. وما أن هموا بالمسير حتى وصل قروي من «رعية» الشيخ يحمل على ظهره حزماً كثيرة من القات وبادره الشيخ وقد وقف عن المسير قائلاً:

- لقد حسبت أنك ستتأخر. أرني نوع القات الذي اشتريته.

وفتح القروي التابع لحافه الكبير الذي امتلأ بالقات وجلس الشيخ يقلب الحزم بينما «خبرته» يرمقون القات بنظرات جشعة. وكان يهز رأسه مستحسناً لكل حزمة جيدة ويهز شفته المتدلية لكل حزمة رديئة من القات ثم صاح بتابعه:

- عليك اللعنة.. لم تحضره كالمرة السابقة.

- لقد جمعته من كل شعب.. ولم أجد أحسن منه.

- وبكم..؟

- بعشرين ريالاً فقط.. وهذه خمسة ريالات لم أشتر بها.

---

(1) خبرته: الخبرة نوع من الحرس الخاص.

ـ لماذا؟

ـ خفت أن لا يناسبك القات فأعود به إلى موطنه كما حدث في المرة السابقة.

وابتسم التابع بينما قهقه «الخبرة» والعسكر ونظر إليه الشيخ وقد استلطف قوله:

ـ خذها.. لك مني.

وركع التابع على ركبة الشيخ يلعقها بحرارة.. ولم يحاول الشيخ منعه من ذلك.

وربط التابع حزم القات من جديد ثم قال مخاطباً الشيخ:

ـ لقد عاد «علي بن علي» يا شيخ.

ـ ومن هو «علي بن علي».؟

ـ ابن «علي عبده» شريكك في الأرض سابقاً.. الذي أشركت في الأرض آخر بعد وفاته.

ـ ومن أين عاد؟

ـ من البحر..

ـ منذ متى؟

ـ منذ شهر..

وعقد الشيخ حاجبيه غضباً وقال:

ـ ولم يزرني..؟!

ـ لا.. وقد علمت اليوم وأنا اشتري القات من بلده أنه قد بنى له طبقة[1] مكلفة..

ـ لابد أن لديه المال الكثير..

ـ طبعاً يا شيخ. وخصوصاً أنه قد غاب عن البلاد خمس عشرة سنة.

ـ وأين كان يعمل.؟

---

(1) طبقة: منزل من طابق واحد.

ـ في البحر.. بحاراً متجولاً على باخرة إنجليزية كما قالوا..

ـ وكم عمره؟

ـ لقد سافر من هنا وعنده عشر سنوات في عهد والدك الله يرحمه.

ـ مازال صغيراً إذاً..؟

ـ نعم عنده خمس وعشرون سنة، وقد خطب ابنة «حمادي الحاج» ونزل عنده ضيفاً إلى أن ينجز داره.

وصمت الشيخ لحظة ثم قال متعجباً:

ـ وهل رضي حمادي الحاج..؟!

ـ كيف لا يرضى يا شيخ..؟ لقد أنزله في دراه.

ـ ولكن ليس معنى ذلك أنه راضٍ عن زواجه بابنته..

ـ هل تعتقد يا شيخ أن «علي بن علي» «رعوي»[1] عادي؟!.. لا لقد عاد من البحر ومعه المال الكثير يلبس الأبيض والأزرق ولديه بندقية «زكي كرام» وجنبية مذهبة وحذاء من «عدن» ويشرب السجاير الفاخرة ويحمل له الماء البارد في ثلاجة صغيرة أينما ذهب ليقيل في مقايل القات..

ـ إلى هذه الدرجة..؟!

ـ بل إلى أبعد من ذلك.. فالكل هنالك يتسابقون لدعوته لديهم.

ـ ربما كان كريماً معهم.؟!

ـ لقد علمت يا شيخ أنه لا يوزع المال إلّا للفقراء فقط..!

ـ إذاً لماذا يوجهون إليه الدعوات..؟

ـ يقولون أنه يحكي لهم مغامراته في البحر ومشاهداته في البلدان التي رآها.. ثم لا تنس يا شيخ أن والده قد مات وهو في الغربة..!

وتناول الشيخ في ذلك اليوم غداءه مع خبرته وعسكره وبعض من رعيته وكان واجم الوجه قلقاً ولم يلفظ بكلمة على غير عادته عندما يتناول غداءه.

وفي مفرجه[2] الفخم في رأس الدار جلس أمام النافذة الكبيرة المطلة

---

(1) رعوي: الرعوي: الفلاح.

(2) مفرجه: مكان المقيل.

على الوادي الأخضر الذي يمتلك نصف أراضيه وإلى جواره اتكأ القوم مرتبين بحسب أهميتهم لديه.. فعلى يساره جلس وكيل أعماله الكبير ثم فقيه الناحية وعدلها[1] ثم رئيس خبرته وعسكره ولفيف من أبناء عمومته.. وفي سفل المفرج جلس الخدم إلى جوار «المدائع»[2] وبجوارهم بعض رعيته.. ووزع الشيخ القات بينهم بأن يرمي لكل واحد حزمة منه بحسب أهميتهم لديه أيضاً.. فالوكيل له الحزم الفاخرة وهكذا..

وفي منتصف المقيل قال الوكيل ليبدد الصمت مخاطباً الشيخ:

- لقد علمنا يا شيخ أن «علي بن علي» يريد شراء أرض هنالك ليفلحها وقد رحب الرعية بأن يبيعوا له..

وكأنما بهت الشيخ لذلك فقال غاضباً:

- يشتري أرضاً..؟ هل بلغت به الجرأة إلى هذا الحد.؟

- لقد عرض عليهم أي ثمن يريدونه..

- ومن باع له أرضاً..؟

- لم يبع إلى الآن سوى «محمد حسن» فقط.

وتجهم وجه الشيخ وتناول ورقة في يده ثم كتب فيها وهو يقول ما يكتبه بصوت غاضب: ينفذ[3] عسكري حالاً على «محمد حسن» لإحضاره.

وأمضى الورقة بعصبية ثم طواها بينما كانت أعناق عسكره ترتفع وكل يتمنى أن يرميها الشيخ إليه.. وطوحت يده بالورقة إلى عسكري من خبرته وقال:

- الآن!.. أحضره على وجه السرعة.

وانطلق العسكري كالبرق وقد أخذ بندقيته.

وما كاد الليل يخيم بظلامه على تلك الجبال حتى دخل العسكري ومعه الرعوي المدعو «محمد حسن» يلهث وعلى وجهه أمارة الفزع فرمى لحفته في الأرض واتجه مسرعاً صوب الشيخ وارتمى على ركبتيه

---

(1) عدلها: عمدة.

(2) المدائع: جمع مداعة وهي النارجيلة أو الشيشة.

(3) ينفذ: يرسل.

يقبلهما بحرارة بينما كانت يدا الشيخ تهوي على ظهره العاري وهو يقول مازحاً:

ـ مازال جلده قوياً كجلد الثور.

وضحك الحاضرون بينما رفع الرعوي رأسه من جديد ثم هوى على ركبتي الشيخ يقبلهما وهنا تدخل العسكري الذي كان مايزال واقفاً وأمسك بالرعوي وهو يقول:

ـ يكفيك ذلك.. قم معي إلى سفل المكان.

ونهض الرعوي واستقر به المقام في سفل المفرج بينما أخذ الشيخ حزمة صغيرة من القات ورمى بها نحوه فالتقطها شاكراً. وما كاد الرعوي يدخل القات إلى فمه حتى بادره الشيخ قائلاً:

ـ كيف حال «علي بن علي».؟

ـ على ما يرام يا شيخنا.

وصمت الشيخ بينما قال الرعوي متسائلاً:

ـ لماذا أنفذت علي عسكرياً يا شيخنا وأنا رعويك المطيع المخلص.

ـ أريد أن أراك فقد اشتقت لذلك.

وقهقه الحاضرون بينما ابتسم الرعوي بسذاجة واضحة، ولكن الشيخ صاح به:

ـ لقد بعت «لعلي بن علي» أرضاً.. هه..

وذابت ابتسامة الرعوي.. وجم وقد أحس بالحرج ولكنه تشجع وقال:

ـ لقد كنت محتاجاً يا شيخنا.

وكأنما زاد قول الشيخ غضباً على غضب فصاح بالجميع متسائلاً:

ـ أرأيتم..؟ أنا هل اختفيت من الوجود يا «محمد حسن».!؟

ـ لا سمح الله بذلك يا شيخنا.

ـ ألا تدري أنني أعين كل محتاج. من يكون «علي بن علي» هذا؟

ووجم الحاضرون والشيخ ثائر يهدد ويرعد ويتوعد ثم هدأ وقال:

ـ بكم بعت له القصبة.؟

ـ بأربعين ريالاً يا شيخنا.

ـ كنت سأدفع لك في القصبة خمسين ريالاً.

ـ لم أكن أعرف ذلك. وكنت أحسب أنك ستدفع لي كما دفعت «لأحمد ناجي» جاري في الأرض.

ـ وكم دفعت «لأحمد ناجي» يا «محمد حسن».؟

ـ لقد قال أنك دفعت له خمسة ريالات ثمن القصبة.

ـ كذاب.. عليه اللعنة أيكذب علي.؟

وهنا تدخل الوكيل لأول مرة وقال مخاطباً الرعوي:

ـ ربما لم تسمعه جيداً فقد دفعنا له خمسين ريالاً في القصبة الواحدة وربما سمعت الخمسين على أنها خمسة.

ـ ولكني متأكد من قوله.

ـ إنك لست متأكداً، بل غبياً..

ولم يكن بيد الرعوي إلّا أن يسلم بالأمر الواقع فانكمش في زاويته وقد جف حلقه فرمى بالقات من فمه والعرق يتصبب من جبينه وهدأ المكان إلّا من قرقرات المدائع ونحنحة من كاد يشترغ بالقات ورمى الكثيرون بالقات من أفواهم وقد حان موعد صلاة العشاء أما صلاة العصر والمغرب فمجرد قضاء. وقام الحاضرون ينفضون عن ملابسهم عيدان القات وأوراقه التي لم تمضغ ثم أخذ كل لحافه واستأذنوا الشيخ بأن يصلوا في المسجد وبقي الشيخ مع الوكيل ورئيس الخبرة.. وكذلك الرعوي الذي لم يتحرك من مكانه قيد أنملة بل كان ينظر إلى الأرض وقد أظلمت الدنيا من حوله.

وبعد أن خلا المكان قال الوكيل مخاطباً الشيخ بصوت أراد به أن يسمعه الرعوي..

ـ أنا متأكد أن «محمد حسن» رعوي طيب ويحبك كثيراً..

وهنا صاح الرعوي في شبه بكاء:

ـ نعم لقد خدمته وخدمت والده الله يرحمه وأنا دائماً تحت الخدمة..

وصاح الوكيل بغضب:

ـ أسكت ولا تتكلم أبداً. .

وحول الوكيل نظره عن الرعوي ثم قال مخاطباً الشيخ:

ـ إنه مستعد أن ينفذ ما تقول به.

ـ أنا مستعد يا شيخنا لكل ما تأمر به فأنا رعويك المطيع. .

ـ لقد قلت لك أسكت وإلا أخرجتك من المكان. .

وقال الشيخ مخاطباً محمد حسن:

ـ قم وصل وأجر العسكري وارجع لتنام هنا. .

ونهض الرعوي وهو يقول:

ـ أمرك يا شيخنا، ولكن كم أدفع للعسكري أجرة. . ؟

ـ اتفق معه على ذلك. .

ـ ولكن ما تأمر به سأدفعه. .

ـ قلت لك اتفق معه هيا وإذهب. .

وأخذ الرعوي لحفته وخرج من المكان، ولما خرج اقترب كبير الخبرة من الشيخ والوكيل وقال:

ـ عندي رأي يا سيدي. .

ـ ما هو. . ؟

ـ نقضي على «علي بن علي». .

ـ كيف. . ؟

ـ دع الأمر لي. .

ـ لا. . أريد أن أقضي عليه بطريقة أخرى.

وهنا قال الوكيل بهدوء:

ـ نقضي عليه بالغرامة. . ونجره إلى المشارعة عند كل عامل وحاكم حتى ينفد ما عنده من مال. .

ـ وما الفائدة. . فلن يستفيد من ذلك إلّا العامل والحاكم. .

ـ إذاً كيف. . ؟

ـ سأنفذ عليه عسكري من عندي وبعد ذلك سترون. .

وصمت الوكيل وكبير الخبرة بينما قال الشيخ مخاطباً كبير خبرته وهو يبتسم:

ـ استدع العشاء.. ولا تنس الشراب..

ونهض كبير الخبرة ثم اتجه إلى باب المفرج وصاح بصوت عال:

ـ يا ولد هات عشاء الشيخ.. وإياك أن تنسى الشراب..

وبعد لحظة أقبل خادم الشيخ الصغير الذي يملك حرية الطلوع والنزول في داخل الدار وبيده طبق من اللحم المشوي مع كسرة من الخبز وثلاجة صغيرة مليئة بالخمر البلدي المعصور من العنب في سفل دار الشيخ.

* * *

كان الفجر قد بزغ وبدأ القمر في الانسحاب من الكون تاركاً مكانه للشمس التي بدأت أشعتها الحمراء تنساب من قمم الجبال الخضراء وتساقطت قطرات الندى من على الأغصان الهامدة وبدأت صيحات الديوك تعلو وزقزقة العصافير ترتفع في أرجاء الجبال وتراكمت طبقة من الدخان الصادر من مطابخ البيوت تخترق الأجواء وخرج كل إلى عمله في الحقول والأسواق..

أما في القرية فقد خرج «علي بن علي» من منزل «حمادي الحاج» متجهاً نحو البناء الذي كاد ينجزه.. وتوافد عليه العمال يلقون عليه تحية الصباح وكان يرد عليهم التحية باسماً..

كان «علي بن علي» فتى في الخامسة والعشرين من عمره، حليق الذقن مفتول العضلات فارع الطول معتدل السمنة، أضفى عليه البحر سمرة جميلة وكان قد شمر عن ساعديه ولبس طاقية مزخرفة فوق رأسه وجلباباً أبيض.. وحزم وسطه بخنجر جميل مذهب وكان بيته المكون من طابق واحد قد قارب على الانتهاء.

ونظر «علي بن علي» إلى داره الجديدة وهو يقول لنفسه «هذه غرفة للنوم.. وهذه غرفة للأولاد وتلك للأكل وهذا مطبخ وهذا حمام.. وهذا مخزن للحبوب.. أما بيت البقرة فسيكون خارج الدار».

وابتسم عندما رأى العمار ينظر بإعجاب إلى الخشب المستورد الجميل وإلى أكياس الأسمنت الذي لم يعهده من قبل في القرية.. وجاء صبي صغير

يحمل بيده طبقاً من الخبز وجمّنة من القهوة وهو يقول «لعلي بن علي»:

ـ هذا فطورك من البيت..

وابتسم «علي بن علي» وهو يتناول من يد الغلام فطوره ثم نظر إلى نافذة صغيرة في دار «حمادي الحاج» حيث رمق فتاة تبتسم وهي تنسحب من أمام النافذة مولية الأدبار..

وعندما هم «علي بن علي» في تناول إفطاره سمع ضحكات هامسة من العمال فنظر إليهم بخجل وقال:

ـ تفضلوا معي.

فأجابوه ضاحكين:

ـ لقد سبقناك..

وفجأة سمع جلبة فالتفت فوجد عسكري مقبلاً نحوه وحوله لفيف من القرويين صامتين ولما اقترب العسكري من مكان البناء قال بصوت متعجرف:

ـ أين «علي بن علي»..؟

ـ أنا علي بن علي ماذا تريد.؟

ـ لدي أمر عليك..

ـ ممن؟

ـ من عند الشيخ..

ـ ومن هو الشيخ..؟

وصمت العسكري ثم حقق فيه النظر وقال:

ـ من الشيخ «مصلح بن محمد»..

ـ ولماذا.؟

ـ لإنصاف غريمك.

ـ ومن غريمي..؟

ـ «محمد حسن»..

ونهض «علي بن علي» من مكانه وقد دهش لذلك ثم اقترب من العسكري وقال:

ـ والسبب..؟

- لأنك نهبت أرضه..

ودهش القرويون لذلك بينما قال «علي بن علي» بغضب:

- لم أنهب أرض أحد

وقال العسكري:

- المهم هو حضورك معي فهيا بنا..

- أرني الأمر..

وأخرج العسكري من جراب خنجره ورقة أخذها منه «علي بن علي» ثم نظر إليها بسخرية ومزقها ثم رماها إلى الأرض وقال:

- أنت مُضَمّر يا عسكري..

وبهت العسكري لذلك فقال:

- هل أنت ممتنع يا «علي بن علي»..؟

- لقد سمعت قولي..

- هل «تُضَمّر» عسكري الشيخ..؟

- نعم..

وحاول بعض القرويين التدخل ولكن علي بن علي قال غاضباً:

- أرجوكم كل في حال سبيله.

ولكن «حمادي الحاج» الذي كان قد أقبل عليهم قال مخاطباً «علي بن علي»..

- لا يصح ذلك.. إذهب مع العسكري إلى عند الشيخ..

- وهل نهبت أرض «محمد حسن» يا عمي..؟

- إذهب وقل الحقيقة للشيخ ونحن سنشهد بذلك معك.

- لن أذهب إلّا إلى الحكومة.

- ولكن هذا شيخنا وأمره مطاع..

- دعك من هذا الهراء يا عمي فما فائدة الحكومة إذاً..؟

وهنا تدخل العسكري وقد بانت على ملامحه علامات الغضب فقال مخاطباً «حمادي الحاج»:

ـ هل رأيت يا «حمادي الحاج». .؟ لقد مزق أمر الشيخ، ولولا خوفي من الشيخ لسحبته إليه سحباً. .

واغتاظ «علي» عندما سمع ذلك من العسكري فاقترب منه وقال صائحاً:

ـ لا أنت ولا غيرك يستطيع ذلك يا عسكري.

ـ كذاب أبوك. . . !

ـ كذاب أبوك أنت ياسفيه يا ابن السفيه. .

ورفع العسكري بندقيته إلى نحره بينما استل «علي بن علي» خنجره من جرابه وكاد أن يهوي به على رأس العسكري لولا تدخل «حمادي الحاج» ولفيف من القرويين أمسكوهما ثم أخذوهما بعيداً وكل من العسكري «وعلي بن علي» يصيحان بالشتائم. .

وقال «حمادي الحاج» مخاطباً «علي بن علي»:

ـ هل جننت يا ولدي. .؟

ـ لم أجَنَّ. .

ـ هل تريد جلب المصائب لنفسك.؟

ـ دعك من الخوف يا عمي فما هو إلّا مجرد عسكري «ضمرته» وانتهى أمره. .

ـ لست أعني العسكري وإنما أعني الشيخ. .

ـ وماذا سيفعل الشيخ. .؟

ـ يا ولدي. . الشيخ يملك نصف هذه الأرض وبما عليها من أشياء، حتى الرعية هم ملك الشيخ يا ولدي. .

ـ ولكني لست من أملاكه. .

ـ أعرف ذلك ولكنك تعيش فوق أرضه. .

ـ إنني أعيش على الأرض التي عاش عليها أبي وجدي إنها أرض اللّه. .

ـ لقد عاش جدك على أرض يملكها جده وعاش أبوك على أرض يملكها أبوه. .

ـ ولكنني لن أعيش مثلما عاشوا ويجب أن تفهم ذلك. .

ـ إذاً بعنادك هذا ستجلب لنا الخراب والدمار وستحيل هذه القرية إلى بؤس وشقاء..

ـ أتخافونه إلى هذه الدرجة..؟

ـ إسمع يا ولدي.. لقد كنت غائباً فترة طويلة، أما نحن فعشنا هنا ونعرف كل شيء فقم معي أرضِ العسكري وسأتوجه معك إلى الشيخ..

ـ لن أذهب.

ـ لمجرد معرفة شكوى «محمد حسن» بك..

ـ إذا أراد أن يشكوني محمد حسن فأمامه الحكومة بعاملها وحاكمها.

وعبثاً حاولوا إقناعه وأقبل لفيف من القرويين وخاطب أحدهم «حمادي الحاج» قائلاً:

ـ لقد عاد عسكري الشيخ وهو يتوعد..

وقال «حمادي الحاج» بجزع مخاطباً «علي بن علي»:

ـ انتهى الأمر إذاً.. فتحمل نتيجة عملك..

ـ وماذا جنيت يا عمي..؟

ـ لست عمك يا «علي بن علي»..

بغضب اتجه «حمادي الحاج» نحو داره وتفرق القرويون من حول «علي بن علي» ما عدا لفيف منهم وما أن رأى «علي بن علي» ذلك حتى اتجه نحو دار «حمادي الحاج» مسرع الخطى ودخل الدار ثم اتجه إلى مكان «حمادي الحاج» وخاطبه قائلاً:

ـ لم يكن لائقاً أن تقول ذلك أمام الناس..

ـ وماذا أعمل لك..؟ لم تسمع نصيحتي..

ـ هذا أمر خاص بي أنا وحدي لا تدخل لك به..

ـ ولكنك أحمق..

ـ أنا أتحمل نتيجة تصرفي هذا..

ـ ولكنك ستجر عليّ المشاكل والشيخ يترقب لي أدنى هفوة ليبطش بي..

ـ إذاً سأخرج من دارك وأفسخ خطبتي لابنتك..

- لم أقصد ذلك..

- إذاً ماذا تقصد..؟

- لست أدري.. نم الآن والصباح رباح..

وخرج «علي بن علي» صباح اليوم التالي وقد احتزم بحزام الذخيرة وبندقيته معلقة على كتفه واتجه صوب البناء وكم دهش حيث لم يجد أحداً هناك فتلفت حوله ولما هم بالرجوع إلى أدراجه رأى حمادي الحاج مقبلاً عليه:

- هل رأيت لم يحضر أحد من عمالك؟

- ولماذا.؟

- لا تسلني.

- ولكني أسألك السبب.

- لأنهم خافوا.

- إلى هذه الدرجة.. يالكم من جبناء إلى هذه الدرجة..

- لا تقل ذلك..

- إنك تحمل على كتفك سلاحاً وعلى وسطك حزاماً مليئاً بالذخيرة وخنجراً مذهباً.

- لكن هذا هو الواقع.

- دعك من ذلك.

- هذا هو الواقع وتأكد أن ذلك لن يفيدك في شيء فأنت وحيد والشيخ لديه العشرات من أمثالك يحملون البنادق ويحتزمون بالذخيرة والخناجر المذهبة.

- الحق بجانبي يا عمي.

وكأنما سئم حمادي الحاج كلامه فقال:

- إسمع يا ولدي.. قم معي نأخذ كبشاً ونتوجه به إلى دار الشيخ.

- لن أفعل ذلك.

- إسمع مني ذلك ولن يضرك شيئاً.

- لا تحاول.. فلن ألبي طلباً إلّا إذا أتى من قبل الحكومة.

واسترعى انتباههما موكب كبير مقبل نحوهما وصاح حمادي الحاج وقد ارتجف صوته.

ـ إنه الشيخ يا علي بن علي.. لقد جنيت علينا.

ـ لا تخف إلى هذه الدرجة.

ـ تحمل المسئولية وحدك يا علي بن علي.

ـ لقد قلت لك ذلك مساء البارحة.

* * *

واقترب الموكب وكان الشيخ راكباً بغلة وحوله لفيف من عسكره وخبرته وقد تجمع حولهم القرويون كل يقبل ركبته حتى وصلوا إلى مكان البناء فنزل الشيخ من على بغلته بينما هرول نحوه حمادي الحاج يقبل ركبته والشيخ ينظر إليه باسماً وقد تمطت شفته السفلى حتى كادت تلمس ذقنه الصغيرة وقال الشيخ:

ـ «طبقة» مكلفة لا بأس بها.

وتحركت شفته إعجاباً ثم نظر إلى «علي بن علي» وقال:

ـ هل هذا «علي بن علي»؟

وتحرج «علي بن علي» فما كان منه إلّا أن اقترب وصافح الشيخ وهو يقول:

ـ نعم أنا «علي بن علي».

وصمت الشيخ برهة وهو يمعن النظر نحوه ثم قال مشيراً نحو بندقيته «علي بن علي»:

ـ «زكي كرام»..؟ من أين حصلت عليها..؟

ـ من ساحل «الحبشة»..

ـ وبكم..؟

ـ بسبعمائة ريال..

ـ رخيص جداً..

واستغرب الحاضرون للحوار الذي دار بين الشيخ و«علي بن علي» وشعر «حمادي الحاج» بالارتياح لذلك وحاول الكلام ولكن الشيخ خاطبه بتهكم:

ـ وهل لديك يا «حمادي الحاج» بندقية مثلها..؟

وبهت «حمادي الحاج» لقول الشيخ فقال متلعثماً:

ـ نحن رعيتك يا شيخنا.. وأنت حامينا..

ـ ولكني سمعت أن معك بندقية..

ـ ومن أين لي المال لذلك..؟

ـ من صهرك «علي بن علي»..

ـ ولكنا رعية لا نحمل السلاح يا شيخنا..

ـ ولكن «علي بن علي» يحمل السلاح..

ـ لقد فتح اللّٰه عليه الرزق في بلاد الغربة.

وهنا تقدم «علي بن علي» وقال باسماً:

ـ يا شيخ ليس حراماً أن نحمل سلاحاً.

والتفت إليه الشيخ وصاح:

ـ نعم ليس حراماً أن تحمل سلاحاً. ولكن حراماً إذا أشهرته على عسكري من خبرتي «يا علي بن علي».

ـ لم أشهر سلاحي فوق أحد.

ـ لقد أشهرت بندقيتك فوق هذا العسكري.

ـ لم أكن أحمل بندقية لأشهرها عليه.. بل العكس هو الذي أشهرها علي وكلهم يعرفون ذلك.

ـ ولماذا لم تأت معه؟

ـ لم يكن عندي الوقت فأنا كما ترى مشغول ببناء منزلي.

ـ ولماذا مزقت أمري؟

وتمهل «علي بن علي» في الإجابة عندما رأى القوم ينظرون إليه وقال بهدوء:

ـ لقد كان أمراً باطلاً..

وارتعش القرويون عند سماع ذلك بينما تحفز خبرة الشيخ ببنادقهم ولكن الشيخ صاح بهم:

ـ لا أريد أحداً أن يتصرف إلّا بأمري. .

وقال «علي بن علي» ويده على سلاحه وقد رجع خطوة إلى الوراء:

ـ لن ترعبني بقولك هذا يا شيخ. .

ـ ستندم على قولك هذا «يا علي بن علي». .

وتدلت البندقية من يد «علي بن علي» وقد اتجهت فوهتها نحو الأمام وقال بهدوء:

ـ إسمع يا شيخ. . أنا لا أعرفك ولم يكن بيني وبينك على ذلك أي عداوة فاتركني في حالي. .

ـ ولكنك نهبت أموال «محمد حسن». .

ـ إذا كان ذلك صحيحاً فأمامه الحكومة يطلبني فيها لإنصافه. .

ـ ولكني شيخ هذه البلاد وأمرها بيدي وأنا حامي رعيتها. .

ـ مع احترامي لك يا شيخ إلّا أنني لا أحتكم إلّا بأمر الحكومة. . فإذا كان «محمد حسن» يريد مقاضاتي فأنا مستعد لذلك حتى عند الإمام نفسه. . ؟

ـ وأنا أقسم لك باللّه يا علي بن علي أنه لن يقاضيك إلّا عند الإمام وفي مقامه الشريف. .

ـ وأنا قابل يا شيخ وما جاء به شرع اللّه فأنا متحمل له. .

ـ ولن يقف وحيداً. .

ـ أنا معي اللّه يا شيخ. .

وعاد «حمادي الحاج» وبيده لحم وقهوة ووجد أن الجو قد تكهرب وأحضر «العدل» من منزله فراشاً وأجلس عليه الشيخ وتناول القهوة مع خبرته وقال مخاطباً «حمادي الحاج»:

ـ أريد «هجراً» من علي بن علي ويكون ثوراً يذبح أمام داري.

ـ ما أمرت به يا شيخنا. . ؟

ولكن علي بن علي قال:

ـ ثوراً. . لماذا يا شيخ. . ؟

ـ رد اعتبار لأمري الذي مزق. .

ـ لا أملك ثوراً يا شيخ. .

ـ اشتري ثوراً. .

ـ لم أتعود شراء الثيران. .

ـ ماذا تقصد. .؟

ـ أقصد أن عسكريك هو الذي يذبح لهذه القرية ثوراً لأنه اعتدى علي. وهنا تدخل «حمادي الحاج» وهو يصيح «بعلي بن علي»:

ـ أسكت يا «علي بن علي» ونفذ ما قاله الشيخ.

ثم التفت نحو الشيخ وقال بتودد:

ـ أمرك مطاع يا شيخنا. والثور إليك الآن. .

وصاح بأحد القرويين قائلاً:

ـ إذهب وأحضر الثور من سفل داري الآن واذهب به إلى دار الشيخ.

وحاول علي بن علي أن يعترض ولكن مجموعة من القرويين سحبوه بعيداً وهم يراجعونه ويجادلونه بل ويناشدونه أن يسكت. وابتعد علي بن علي عن الجموع مع لفيف من القرويين وقال الشيخ «لحمادي الحاج»:

ـ إنه سفيه ولن أتحرك من هنا إلّا وقد تركت خبرتي تؤدبه.

وما أن سمع عسكر الشيخ قوله حتى تأهبوا فما كان من «حمادي الحاج» إلّا أن أخذ عمامته ورماها أمام الشيخ وهو يصيح:

ـ لا داع لذلك يا شيخ فهو سيكون خادمك المطيع ولا تأخذ عليه جرأته هذه. . لأنه مجنون يا شيخنا. .

وحاول الشيخ أن يزيد في القول لولا أنه رأى الثور يقاد من أمامه متجهاً نحو داره فقال:

ـ لولا معزتك عندي يا «حمادي الحاج» لسوّيت به الأرض.

ـ أنا رعويك دائماً وهو كذلك كما كان أبوه وجده. .

ولم يزد الشيخ بل نهض واعتلى بغلته ثم صاح بالقرويين قائلاً:

ـ واللّه لو علمت أن أحداً منكم عمل مع «علي بن علي» لأسحب من تحته الأرض والبيت وأطرده من بلادي وأجعله يموت وتأكل منه النسور. . وبعد ذلك فقد أعذر من أنذر. .

وهز القرويون رؤوسهم بالطاعة واتجه الشيخ بموكبه نحو داره.

* * *

توافد القرويون على دار «حمادي الحاج» حتى امتلأت بهم وفي داخل ديوانه المظلم كان يعلو الصياح والهرج والمرج وانبعث صوت «حمادي الحاج» صائحاً:

ـ كل يذهب إلى داره وكفاني متاعب.

ولكن أحد القرويين قال:

ـ كيف تقول ذلك يا حمادي الآن.. لن نذهب إلّا ونحن على بينة من أمرنا..

ولم يجبه «حمادي الحاج» بل اتجه بنظره نحو النافذة الصغيرة وهو يتمتم بعبارات مبهمة وكان «علي بن علي» ينظر من حوله فيجد القرويين قد انتابهم الفزع وكأنما يريدون منه أن يغادر البلاد. حتى أولئك الذين أحسن لهم لم يجد في نظراتهم له سوى القلق منه والضجر به..وتمالك نفسه وقال:

ـ لا أدري ما الذي تخافون منه..

والتفت نحوه «حمادي الحاج» وقال بضجر:

ـ يا ولدي.. نحن أعلم بأحوال بلادنا أحسن منك فلا داعي لتأنيبنا.

ـ ولكن..

ـ لن تجد بعد اليوم من يبني معك منزلك ولن تجد أحداً يعرفك.

ـ لست بحاجة لأحد.. سأجد لبنائي عمالاً من قرى أخرى.

ـ ومن سيتركك تبني؟

ـ الحق..

ـ هه.. الحق..؟

وضرب «علي بن علي» كفاً بكف بشبه سخرية وقال:

ـ لم أجد في العالم حكماً كهذا.. ولم أجد أناساً في العالم يتقبلونه صاغرين خائفين..

ـ المشكلة أنت المسبب لها..

ـ إذاً لا تقلقوا أنفسكم ودعوني أتصرف مادمت مسئولاً عنها ومادمت المسبب لها.

ـ ولكنها جرت علينا الغرامة..

ـ لم أقل لك أن تعطي الشيخ ثورك..

ـ لقد أعطيته الثور خوفاً عليك.

ـ إذاً هذا ثمنه وسأتحمل من الآن كل ما سيحدث لي ولا تقلقوا.

وأخرج من جيبه عدة ريالات فضية ورماها أمام «حمادي الحاج» الذي قال:

ـ يا ولدي.. ما الذي سيضرك لو جاملت الشيخ وذهبت إليه؟

ـ بأي حق..؟

ـ أنه شيخ هذه المنطقة.

ـ يا لدنياكم العجيبة التي تعيشون فيها.

ـ لم نعرف دنيا غيرها لنعيشها.

ـ ولكني عرفت العالم كله وتجولت في أنحائه فلم أجد شيئاً يحدث كهذا.

ـ إذاً لماذا عدت يا «علي بن علي». كان من الأحسن لك أن تعيش الدنيا التي تجولت بها.

ـ هذه بلادي..

ـ إذاً تقبل عذابها.

ـ بل سأقاوم كل مسبب لهذا العذاب.

ـ هراء..

ـ ليس هراء.. بل سأقاوم حتى ولو دفعت كل ما أملك.

ـ كنت ستدفع للشيخ مبلغاً وتريح نفسك..

ـ لن أدفع له شيئاً ولديه كل شيء..

وصمت «حمادي الحاج» وصمت معه «علي بن علي» ولم يحاول أحد من الحاضرين الكلام وتجلمش كل بردائه الصوفي وبعد برهة تجاهل «حمادي الحاج» «علي بن علي» وخاطب الجميع:

ـ لقد قررت أن أذهب مع عدل القرية وأربعة آخرين منكم إلى الشيخ . .

وهز الجميع رؤوسهم بالموافقة بينما أكمل «حمادي الحاج» كلامه قائلاً:

ـ فاذهبوا إلى العدل الآن وادفعوا له المال اللازم لرد اعتبار الشيخ.

وتدخل «علي بن علي» قائلاً:

ـ وما دخلهم في ذلك.؟

ـ هذه قريتهم. . يا «علي بن علي».

ـ أنا أعرف ذلك. .

ـ ولكنك لا تعرف أنهم شركاء الشيخ في هذه القرية وأرضها.

ـ هل تقصد أن بيوت القرية ملكٌ للشيخ. .؟

ـ نعم جميع البيوت ما عدا بيت اللّه. .!

ـ والأرض التي أبني عليها داري. .؟

ـ ليست أرضك بل هي أرض الشيخ. .!

ـ ولكنها كانت خالية من الزرع. . ولا يمكن أن يملكها أحد.

ـ لا شيء في هذه البلاد إلا وهو ملك للشيخ. . فاسمع نصيحتي.

ـ وهل عند الشيخ وثائق بهذه الملكية.؟

ـ وماذا ستفعل إذا لم يكن لديه وثائق. .؟

ولم يجبه «علي بن علي» بل أطرق إلى الأرض ثم نظر إليهم نظرة كلها رثاء.

تصاعد الدخان من البيوت في صباح اليوم التالي كعادته إلى السماء ببطء ومرقت أشعة الشمس الصفراء من خلال قمم الجبال الخضراء وذهب كل إلى عمله ونهض «علي بن علي» ثم اتجه إلى داره التي مازالت كما هي منذ ذلك اليوم وألقى نظرة إلى المطبخ وغرفة النوم والمخزن وغرفة الأطفال التي مازالت بلا سقف. . ثم وضع بندقيته على كتفه واتجه نحو طاحون القرية الذي بدأ يرسل صيحاته المتقطعة. .ورأى القرويات يدخلن وكل تحمل غذاء زوجها من الحبوب.

ـ صباح الخير يا «محسن». .

ـ صباح النور يا «علي بن علي». . كيف حالك اليوم. . ؟

ـ كالمعتاد. .

لم يكن «محسن» سوى شاب حليق الذقن يعمل في إدارة الطاحون الذي يملكه الشيخ وقد عاد إلى القرية من بلاد الغربة ليعمل في هذا الطاحون فهو ليس بفلاح ماهر ليزرع أرضاً بعد أن كان يعمل في هندسة السيارات في عدن وكان «علي بن علي» يقضي معه كل وقته فقد وجد لديه أفكاراً تلائم أفكاره. . ربما لأنه عرف الغربة والتشرد مثله.

ـ ألم تجد عمالاً. . ؟

ـ لقد تعبت من البحث فلم يرض أحد. . !

ـ وهم في أمس الحاجة للنقود. . !؟

ـ نعم. . بل عرضت عليهم ضعف ما كنت أدفعه من أجر.

وفجأة سمعا جلبةً خارج الباب فخرجا وإذا بمجموعة من القرويين متجمعة أمام الباب. .

وقال أحدهم وهو يلهث:

ـ لقد بحثنا عنك في كل مكان يا «علي بن علي».

ـ لماذا. . ؟

ـ هنالك خمسة عساكر يبحثون عنك. .

ـ وأين هم. . ؟

ـ في بيت عمك «حمادي الحاج».

وذهب «علي بن علي» معهم وأسكت «محسن» الطاحون ولحق به وفي ديوان «حمادي الحاج» كان هناك خمسة من العسكر يلبسون الجلابيب الزرقاء وقد علقوا بنادقهم على الحائط وجلسوا يرشفون القهوة ولما دخل «علي بن علي» الدار قابله حمادي الحاج قائلاً:

ـ أدخل إليهم يا علي بن علي وأنا سأذهب لأذبح كبشاً غداءً لهم.

ـ ولماذا كبشاً. . ؟

ـ إنهم ليسوا عساكر عاديين. . أنهم من العكفة حرس الإمام الخاص.

ولم ينتظر بل اتجه مسرعاً خارجاً من الدار قبل أن يسأله علي بن علي.

ودخل علي بن علي ومن خلفه محسن إلى الديوان ووضع بندقيته جانباً وقال أحد العساكر:

ـ من منكم علي بن علي..؟

ـ أنا علي بن علي..

ـ عليك أمر من «المقام الشريف»..

ـ ومن غريمي..؟

ـ «محمد حسن».. فهل تريد أن تقرأ الأمر..؟

ولما هم علي بن علي أن يأخذ الأمر ليقرأه سارع محسن قائلاً:

ـ لا داعي لذلك.. أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم..

ونظر إليه علي بن علي مستطلعاً فلم يعره محسن انتباهاً..

* * *

وصل «علي بن علي» إلى المقام الشريف ودخل إلى مجلس حاكم المقام فوضع بندقيته جانباً واتجه نحو الحاكم العجوز فصافحه ثم جلس بعيداً.

ودخل على إثره «محمد حسن» فاتجه نحو الحاكم فقبل ركبته ثم دخل على إثره وكيل الشيخ الذي انحنى على الحاكم مقبلاً ركبته فلما عرفه الحاكم أجلسه بجواره..

كان المجلس مكتظاً بأناس يلبسون العمائم البيضاء المدورة من أصدقاء الحاكم وكبار علماء القوم وهم يمضغون القات كل قد اتكأ على كوعه الأيسر وأحس علي بن علي بأنه غريب بين هؤلاء القوم ينظر إلى زاوية المكان التي كان يقبع فيها محمد حسن منكساً رأسه إلى الأرض وابتسم ابتسامة باهتة ثم سرح ذهنه ولم ينبهه إلا صوت الحاكم المبحوح قائلاً:

ـ هل حضر علي بن علي..؟

ـ نعم.. أنا علي بن علي يا سيدي الحاكم..

ـ إذاً تكلم يا محمد حسن.

ورفع محمد حسن رأسه ثم نظر إلى وكيل الشيخ وقال مخاطباً الحاكم:

ـ لقد وكلت عني «محمد عبدالجبار» يا سيدي الحاكم.

ونظر الحاكم من خلال كتفه شزراً نحو «محمد عبدالجبار» وكيل الشيخ وخاطبه:

- ما دعواك يا «محمد عبدالجبار» على «علي بن علي»..؟

وتمهل محمد عبدالجبار ثم قال:

- يامولانا لقد جاء «محمد حسن» إلى الشيخ «مصلح» يشكو إليه شخصاً يدعى «علي بن علي» قد بسط على أرضه بدون حق شرعي فلما حاول الشيخ معرفة الحقيقة استدعى المدعو «علي بن علي» فلم يحضر بل أشهر سلاحه على رسول الشيخ وبعد ذلك صرف «محمد حسن» لحاله ونصحه باللجوء إلى مقامكم الشريف..

- ولكن ما هي دعواك على «علي بن علي»..؟

- هذه دعواي يا مولاي.. فقد بسط على أرض موكلي بدون حق شرعي..

- ما ردك على قوله يا «علي بن علي»..؟

- يا سيدي الحاكم لقد اشتريت أرضاً من «محمد حسن» ولدي ورقة الشراء وهو يعرف ذلك وليس هو غريمي..

- ومن غريمك..؟

- الشيخ غريمي.. يا سيدي الحاكم..

وهنا صاح وكيل الشيخ «محمد عبدالجبار»:

- كيف اشتريت أرضاً..؟

- هذه ورقة الشراء..

ونهض علي بن علي نحو الحاكم ووضع الورقة أمامه بينما قال «محمد عبدالجبار» مخاطباً «علي بن علي»:

- ومن كتب هذه الورقة..؟

- فقيه القرية يا «محمد عبدالجبار»..

واستدار محمد عبدالجبار نحو الحاكم واستل خنجره من جرابه ووضعه أمام الحاكم وهو يقول:

- هذه «جنبيتي» مقابل مائتي ريال إذا كان الفقيه قد كتب هذه الورقة بخط يده يا مولاي..

واستشاط «علي بن علي» غضباً فما كان منه إلّا أن استل خنجره هو الآخر ووضعه أمام الحاكم وهو يقول:

ـ وهذه جنبيتي مقابل مائتي ريال إذا لم يكن الفقيه قد كتبها.

وقال الحاكم:

ـ وأين الفقيه..؟

فأجابه محمد عبدالجبار قائلاً:

ـ في البلاد يا مولانا..

ـ وما الحل..؟

ـ تخرج بنفسك بيننا ناظراً لترى بعينك إدعاء «علي بن علي» الكاذب

وصاح «علي بن علي» غاضباً:

ـ احترم نفسك في مقام سيدي الحاكم يا «محمد عبدالجبار»..

وحاول «محمد عبدالجبار» أن يرد لولا تدخل الحاكم قائلاً:

ـ هل تقبل يا «علي بن علي» أن أخرج ناظراً بينكما..؟

ـ نعم يا سيدي الحاكم وسترى أن الشيخ حاول محاربتي باطلاً في باطل بل ومنع الناس من العمل معي في بناء بيتي..

وهنا صاح «محمد عبدالجبار»:

ـ هل لديك بيت يا «علي بن علي»؟ إذا كان له بيت في البلاد يا سيدي الحاكم فسأدفع ألف ريال غرامة مني. وإذا صح أنه لا يملك داراً يدفع ألف ريال غرامة لكم..

ـ أتنكر أنني أملك بيتاً..؟

ـ نعم.. كيف تملك داراً.؟ إننا لا نعرف من أين أنت ولا من أين أتيت تنهب أرض الرعية المساكين..

وبهت «علي بن علي» لذلك فاتجه نحو الحاكم وهو يقول:

ـ لقد قبلت يا سيدي الحاكم أن تخرج غداً وستعرف الحقيقة كلها وترى أعمال الشيخ التي لن ترضوا عنها.

وعارضه «محمد عبدالجبار» قائلاً:

ـ مولاي الحاكم يعرف الشيخ يحمي رعيته ويعمل من أجلهم الخير.. وهي بلاده وبلادهم أما أنت فمن أين..؟

ـ هي بلادي كما هي بلاد الشيخ يا «محمد عبدالجبار»..

ـ أنا منكر أنها بلادك..

وهنا قاطعهم الحاكم وهو يسعل..

ـ لا داعي لكثرة الكلام فموعدنا غداً هنالك.

* * *

دوى في أحشاء الجبال صوت النفير معلنا قدوم الحاكم فهرع إلى مشارف القرية مجموعة من القرويين ينظرون إلى أسفل الوادي حيث شاهدوا موكب الحاكم يجتاز الوادي متجهاً نحوهم..

وكان الحاكم يمتطي بغلته ومن حوله عساكر يهرولون أمامه وخلفه وبينهم نافخ النفير ينفخ فيه محدثاً صوتاً موسيقياً.. مزعجاً.. أجفلت له طيور الوادي..

وكان «علي بن علي» يسير مع الموكب وهو ينظر إلى «محمد عبدالجبار» الذي كان يمتطي حماراً محاذياً به بغلة الحاكم.

ولما اقترب الموكب من القرية لمح «علي بن علي» الشيخ وصحبه يهرعون لاستقبال الحاكم وهم يطلقون الرصاص ابتهاجاً بمقدمه وجاوبهم عساكر الحاكم فأطلقوا الرصاص من بنادقهم إلى السماء بينما علا صوت النفير.. ولما اقترب الشيخ وخبرته، نزل الحاكم من على بغلته وصافح الشيخ ثم تعانقا وأمسك كل بيد الآخر حتى وصلا إلى مسجد القرية الذي كان قد فرش فناؤه وبحث «علي بن علي» بين الجموع عن «حمادي الحاج» فلم يجده بل وجد «محسن» ينظر إليه بحسرة لم يعرفها ولما استقر بهم المقام في فناء المسجد قال الحاكم:

ـ أين علي بن علي..؟

ـ أنا هنا يا سيدي الحاكم..

ـ أرني منزلك الذي قلت عليه..

ـ إنه في الجانب الآخر من القرية.

ونهض الحاكم بعصبية فساعده الشيخ على النهوض واتجه الموكب إلى

الجانب الآخر من القرية و «علي بن علي» أمامهم وبندقيته على كتفه ولما وصلوا توقف «علي بن علي» عن السير فجأة وارتسمت الدهشة في عينيه وتلفت يميناً وشمالاً بعجب فلم يجد لداره أثراً بل وجد زرعاً صغيراً قد نبت. . . ودارت به الأرض ولم يصدق أن ذلك حدث. . لم يصدق أن بيتاً يختفي عن الوجود وتقوم مكانه أرض صالحة للزرع ومنبتة أيضاً. . وظن أنه قد أخطأ المكان ولكن هذا منزل «حمادي الحاج» أمامه وذلك الطاحون أيضاً ونظر إلى «محسن» فوجده لا يحرك ساكناً بل أطرق بوجهه إلى الأرض محاولاً إخفاء وجهه. .

وهنا صاح الحاكم:

ـ أين دارك يا «علي بن علي»؟

وتلعثم «علي بن علي» وقال وهو تائه:

ـ هنا كانت داري يا سيدي الحاكم. .

ـ وأين ذهبت؟

ـ لا أدري. .

وهنا قال الشيخ مخاطباً الحاكم وهو يبتسم:

ـ هل حدثكم «علي بن علي» أنه يملك داراً هنا يا سيدي الحاكم؟

ـ نعم يا شيخ مصلح وقد خرجت على هذا الأساس. . !!

ـ هذه أرضي يا سيدي الحاكم أزرعها منذ الأزل.

وهنا صاح «علي بن علي» والدموع تكاد تخرج من عينيه:

ـ لقد خرب الشيخ داري يا سيدي الحاكم. .

وأجابه الحاكم بهدوء:

ـ وأين آثارها؟ لابد من حجارة أو خشب لتثبت ذلك يا «علي بن علي». .

وتلفت «علي بن علي» بين القوم عساه يجد أثراً لداره تحت أقدامهم بدون جدوى فقال بتأثر. .

ـ لا أدري يا سيدي الحاكم ولكن كلهم يعرفون ذلك. .

وقاطعه الشيخ قائلاً:

ـ يا سيدي الحاكم. . إسأل أي رعوي هنا عن ذلك. . إذا أخبرك أحد بأن

لعلي بن علي داراً هنا فأنا مستعد أن أعطيه داري وكل ما أملك. .

وقال الحاكم مخاطباً الجموع:

ـ ماذا تقولون. . ؟

ـ لا نعرف «علي بن علي» هذا ولا يملك هنا داراً. .

وأظلمت الدنيا في عين «علي بن علي» عندما سمعهم يقولون ذلك وتلفت حوله فلمح «محسن» بين الجموع تكاد تذرف من عينيه الدموع فقال بتأثر مخاطباً الجموع:

ـ يالكم من جبناء، إلى هذه الدرجة تخافون الشيخ. . إلى درجة قول الباطل وشهادة الزور. . ألا تعرفونني. . ؟

ولم يجبه أحد، فوجه كلامه نحو «محسن» قائلاً:

ـ ألا تعرفني يا محسن. . يالك من بائس مسكين. .

ولم يجبه محسن بل خرج من بين الصفوف مهرولاً نحو الطاحون وألقى «علي بن علي» نظرة على دار «حمادي الحاج» فوجدها هامدة لا حياة لها وسمع صوت الطاحون يدوي محدثاً ذلك الصوت المتقطع واقترب من الحاكم وبندقيته متدلية إلى الأمام بيده تترنح وأشار الحاكم نحو عساكره فتحركوا نحو «علي بن علي» ليطوقوه. . ولما اقتربوا منه دوت طلقة نارية سقط على إثرها الشيخ مضرجاً بدمه. .

الرمال العابرة

تحت شجرة صغيرة صحراوية يابسة ربض في ظلالها بجوار الطريق المعبد يحرك رأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار وقد سال اللعاب من فمه المفتوح وعظامه تكاد تبرز من جلده... لم يكن أمامه تحت ذاك القيض أي بوادر للحياة سوى عشة متآكلة يرقد فيها بضعة من الأطفال العراة وعجوز عمياء... الشمس تقترب من الظهيرة وتكاد تصهر تحتها كل شيء.. وسكينة مميتة... لكن الطريق مازال خالياً... كان عليه أن ينتظر «الباص» تلك الحافلة التي أغاثت سكان الطريق بما تلقيه من نوافذها من أقراص «الروتي» الأبيض اليابس غذاء سكان المدن... تثاءب بملل ثم نظر بألم نحو الطريق المقبل من الحديدة وطرح رأسه فوق يديه... كان منظر الطريق قطعة من جهنم والوهج الحار يتصاعد منها والسراب الشفاف يتناثر فوق الطريق الطويل الممتد كخط مستقيم وأعمدة التلغراف قد شقتها الشمس وأسلاكها تأثرت من شدة الرياح العاتية...

وكان أكثر ما يسليه منظر الرمال التي تعبر الطريق مسرعة كأنها هاربة من وهج الحرارة التي تأتي من جهة الساحل... وكم كان يضايقه إذا ما قررت الرمال العبور من مكانه فقد كان عليه أن يقترب من العشة ليحتمي ويكلفه ذلك حجراً يقذف على ظهره من صبي أو من الفتاة الشرسة...

وعبرت الرمال وهو في استرخائه المميت في مكانه واضطر بملل أن يقترب من العشة بهدوء ليحتمي بها.. لم يكن يستطيع تفسير العداوة التي يكنها له سكان العشة... صحيح أنهم أغراب جميعاً وجياع أيضاً اضطرهم الجوع جميعاً للجوء بجوار الطريق العام..

لقد ترك أسياده في عشتهم يموتون جياعاً في أعماق «تهامة» واستطاع أن يقطع القفار ويهيم نحو لا يدري أين.؟ ولما استقر به المقام بجوار الطريق العام عثر صدفة على قرص «روتي» أبيض أكل نصفه ودفن نصفه الآخر بمنخاره ب لكنه في اليوم التالي سمع هدير سيارة كبيرة حمراء هي «الباص»

ففر مسرعاً بعيداً فلم يكن قد رأى من قبل مثل هذا الوحش الصاخب لكنه لاحظ تسارع سكان الطريق الجياع يهرعون نحو «الباص» ويلتقطون من بعده بعض أقراص الروتي الأبيض فوقف وشده المنظرب لقد رأى أناساً لكنهم ليسوا من «أسياده» وفجأة قذف من النافذة أحد أقراص الروتي الأبيض اليابس فاصطدم بالطريق المعبد وبشدة اندفع القرص نحوه نتيجة سرعة «الباص» وبلمح البرق اندفع بدون شعور وقبض بفمه على القرص وانهالت عليه بعض الحجارة من الصبية العراة والرجال العجزة ومن نساء نظر فيهن التوحش فترك القرص وفر يعوي بألم بعيداً. . .

كان ذلك أول درس تعلم منه البعد عن الناس وأخذ مكان لائق بالخطف السريع للقرص والفرار به قبل أن يتمكن أحد الجياع اللحاق به وقذفه. . .

طابت له الحياة نوعاً ما فكان باستطاعته في بعض الأحيان أن يصطاد قرصاً في اليوم الواحد وإذا لم يحالفه الحظ كان يوفر لنفسه نصف قرص من المكبوس تحت التراب. . .

لكن الحالة ساءت عندما حلت في العشة الهادئة المجاورة له عجوز عمياء وشرذمة من الأطفال العرايا. . . كانوا يطاردونه دائماً قبل مرور «الباص» ويقذفونه بأحجام متفرقة من الحجارة كانت نتائجها تعيقه بعد ذلك عن الخطف السريع. . . وقل محصوله فلم يعد يستطيع كبس أي قرص احتياطي بل كان إذا قدر له أن يصطاد قرصاً في خلال ثلاثة أيام أصبح رابحاً. . . لذلك قرر الابتعاد نحو شجرة يابسة صحراوية صغيرة بعيدة عن الكوخ المحتل من قبل العجوز العمياء وشرذمتها. . .

وانتهت الرمال في عبورها للطريق هاربة نحو الجبال. . . جبال الهضبة الخضراء. . . وانسحب بهدوء نحو المكان وبحذر شديد عاد وطرح رأسه فوق يديه ونظر، نحو الطريق الآتي من الحديدة. . .

لقد كان موعد الباص فالوقت ظهراً وأصبح ظله تحته تماماً وقد لاحظ بالممارسة السيارات تنقطع عن المرور خلال الظهر إلّا ذلك «الباص» الكبير. . . وفجأة من خلال سراب الطريق لمح شبحاً أحمر يمخر عباب السراب المبعثر ويتمايل كأجزاء منسقة من خلال وهج الحرارة. . .

وخرجت فتاة من الكوخ ثم عادت وخرجت مع العجوز العمياء وشرذمة

الأطفال العراة وتسارعت جحافل مبعثرة تهرول نحو الطريق وتلتقط من الأرض أقراص «الروتي» الطائرة فوق الطريق وعلى جانبيه. . .

واستقام وقد ارتكزت أذناه. . ووقفت العجوز العمياء وبجوارها الشرذمة العارية. . . وهون «الباص» سرعته ثم وقف بجانب العجوز ونزل منه «قاطع التذاكر» وقد أمسك بيده طاقيته المزركشة المتصببة عرقاً وقد أفلتت نقوداً متفرقة ثم سلمها العجوز وعاد فقفل الباب. . لكن بعض المسافرين ممن هزهم المنظر لأول مرة يريدون مزيداً من التبرع والإحسان لذلك فقد فتح الباب مرة أخرى. . .

وانتظر وقد تألم وغضب لهذا الإجراء غير العادي. . . وقرصه الجوع فاقترب من الجهة الأخرى من «الباص» لكي لا تراه الشرذمة. . . وتلفت نحو النوافذ لكن المسافرين كانوا ينظرون من الجانب الآخر نحو العجوز وشرذمتها. . .

واستاء لذلك ولعدم اهتمامهم به. . . وعاد بعض الرفاق إلى مقاعدهم في الجانب الآخر. . . حاول استرعاء انتباههم فابتعد قليلاً لكي يروه. . . ولمحه أحد المسافرين فنظر إليه وهز ذنبه مستعطفاً وبدون إرادة نبح بلطف ثم ذعر كأنه ارتكب خطأ قاتلاً. . . وما هي إلّا برهة حتى انهالت عليه حجرة قذفها صبي عاري الجسد باغته من الخلف. . . فارتبك وعلا صوته بألم بدون إرادة فانهالت عليه قذيفة أخرى في عموده الفقري. . . وحاصرته الشرذمة بينما تحرك «الباص» ورمى الرجل بقرص من «الروتي» الأبيض. . . ولشدة ارتباكه حسبه حجراً مقذوفاً لكن رائحته أعادت له الأمل فخطفه بفمه بينما اشتد عليه الحصار ولم يعد أمامه منفذ للعبور سوى من تحت «الباص» فمرق لكن «الباص» كان قد تحرك. . . وما هي إلّا ثانية حتى كان جثة ممهودة ملطخة بالدماء واختلط الدم بالقرص وبجثته الممزقة. . . وعبرت الرمال مسرعة من فوق جثته نحو الجبال جبال الهضبة الخضراء. .

عمر النسور..!

كنت في حانوتي الذي هو جزء من منزلي البسيط... منه أرتزق وأعيش مع زوجتي وأولادي... كنت «مقيلاً» أمضغ القات مع بعض سكان القرية الذين هم عادة زبائني الخصوصيين جذبهم إلي «مداعتي» الجديدة وتبغي النكه المذاق...

لم أكن أحسب أي حساب لمصروفاتي في التبغ مادامت من الحانوت. قد يطلق عليّ محتكراً في القرية لكوني الوحيد الذي فتح حانوتاً فيها أو الوحيد الذي استطاع ذلك لأني عدت إلى القرية بمبلغ من النقود فتحت بها حانوتاً صغيراً في القرية... حاول الكثير منافستي بدون جدوى فما أن يصل أحدهم إلى القرية إلّا وأول ما يقوم به هو شراء الملابس لزوجته التي تكون في بيت والدها «حانقة» ثم يصرف ما تبقى في شراء راديو وبطاريات ويشتري القات فترة كبيرة ويبذخ إرضاءاً لزوجته التي هو في الواقع متلهف لإرضائها... وبعد شهر تعود حياته كما كانت قبل الغربة..

نفض جيراني أرديتهم من بقايا عيدان القات المستهلك ودخلت زوجتي من باب جانبي وكنست ما تبقى من عيدان القات ثم أسرجت لمبة الغاز لأني مازلت مستمراً في «مقيلي» وكم زجرتني دائماً لعدم ذهابي لصلاة المغرب والعشاء فكنت أقنعها دائماً بأني أقوم بذلك جمعاً..

ودخل في الباب رجل عرفته بارتياح... إنه حمادي غانم وبيده فأسه وعدة قطع من الحديد مدببة الرأس... أنه «مفلق» البلدة كلها.. ذلك الرجل الذي يقطع الأشجار التي يبست وأثر عليها الدهر إلى قطع صغيرة تكون حطباً للأفران... فرك يديه من بعض نقط الدم ثم مد رجليه بعد أن ألقى التحية وحاول إخراج بعض الأشواك من قدميه المتقطعتين... ظننته يريد شراء ملح أو قليلٍ من الغاز لسراجه لكنه لم ينطق بذلك بل أخذ له ركناً من الحانوت وأخرج من لفافة تحت إبطه «ربطة» من القات طرحها أمامه وأخذ في تقطيف

أوراقها ومضغها. . . فرحت بذلك لأنه لابد أن يعطيني بعض ما معه ثم نتجاذب أطراف الحديث ونقتل الملل بذلك.

هو قد اعتاد التأخر في «المقيل» بحسب عمله. . وأنا كذلك بحسب مهنتي لأن نسوة القرية لا يزرنني إلّا عند ما يكون الأزواج في المسجد لصلاة المغرب والعشاء. .

لم يبادلني الحديث وإن كان قد أكرمني بالقات. . . لم يخطر ببالي أنه يفكر في أمر يشغله ويجعله شارد الذهن. . حاولت أن أناوشه حتى يسترسل في الحديث ويطيب المقيل. . . وفكرت في أي موضوع يمكن أن أستدرجه لبدء الحديث وقتل الملل. . . ذكرت أننا كنا قد تبادلنا الحديث في أول المقيل عن الذين يذهبون الحجاز هذه الأيام دفعات ويجتازون المخاطر في سبيل لقمة العيش وكيف يعود بعضهم في أثناء الطريق بعد أن تنهبه بعض القبائل أو المرتزقة في الحدود إلى غير ذلك من العوائق؟

ـ لقد سافر اليوم من القرية المجاورة أكثر من عشرة أشخاص هم أحمد الحاج وعلي بن علي و. . .

ـ أعرف ذلك. .

ـ وهل تعتقد أنهم سيعودون؟

ـ ربما يعود بعضهم. .

كان يحدثني وهو شارد الذهن وفجأة تحرك وفرك يديه:

ـ أريد منك تسعين ريالاً. .

استغربت بدهشة طلبه. .

ـ لماذا؟

أجابني وفي صوته رنة جادة حازمة:

ـ لكي أسافر الحجاز. .

زاد عندي العجب. . . شخص «كحمادي غانم» يذهب الحجاز. . ! ماذا سيفعل. ؟. هل سيقطع عيدان الحطب أو يقلم الأشجار اليانعة. . . قلت وقد حاولت المزيد من المعرفة:

ـ من أشار عليك بالذهاب إلى هنالك. . ؟

- الفقيه . . الفقيه عبدالرحمن الذي يرافق الكثير إلى الحدود مقابل أجر يدفع له . . .
- أعرف ذلك . . . لكن حالتك هنا مستقرة وعملك يكاد لا ينقطع . .
- إنه عمل متعب جداً . . فكم أطوف قرى الجبل أبحث عمن يبست له شجرة أو حان قطع فروعها . . .
- ومع ذلك فأجرك في اليوم الواحد أكثر من أي عمل يقوم به غيرك .
- صحيح ذلك . . لكن الشوك ووخزه . . وأناملي كما تعرف قد كادت تختفي وهذه المطرقة قد سلخت ساعدي . . وهذه الفأس كم قد سقطت على يدي . . ألا تعلم أنني قد قدمت حياتي هدراً عدة مرات وأنا أتسلق الهاويات أتتبع الشجر . !
- لكن الطريق غير مأمون . أو لم تسمع بحصار صنعاء . ؟
- لا تهمني صنعاء ومن فيها ، المهم أنني صممت على ذلك .
- لكن الوصول حتى إلى خارج صنعاء أصبح صعباً حيث تقطع الطريق أمام المهاجرين قوات من الشرطة والأمن .
- لا يهمني ذلك أيضاً لقد اتفقت مع الفقيه ومعنى ذلك أنه كفيل بوصولنا الحدود فهو كما تعرف ماهر وماكر وله أسلوبه الخاص بهذه الرحلات .

كم حاولت تعريفه بالحالة البائسة التي يقاسيها اليمنيون باعتباري مجرباً لذلك لكنه كان يحاول أي شيء ليغير من وضعه الاقتصادي ومظهره وخصوصاً بعد أن وفق بالزواج من فتاة جميلة تريد الثياب المزركشة والراديو المسموع عند الجيران وفرش الإسفنج المريح عند النوم . . . كل تلك المتطلبات كان لابد منها . . . لكن تكاليف الزواج كانت قد كلفته كل ما ادخره طوال سنين عديدة بل واستلف فوق ذلك لسداد متطلبات الأشهر الأولى من الزواج وحق «الفتاشة» «والدخلة» بعد ذلك . .

تمنيت له النجاح وأقرضته المبلغ . تذكرت نوادره الجميلة وحياته المرحة لقد كان شعلة في النكتة اللاذعة وكم كان يزهو عندما يشبه نفسه كمثل النسر ذي العنق الطويل ذلك النوع الذي يقال إنه يعمر ألف سنة وإن رزقه دائماً من بعيد في حالة موت بقرة أحد المزارعين في أي قرية كانت قريبة أو بعيدة .

كان القرويون يحكون أيضاً نوادره مع زيادة فيها وكانت بعضها تظل

متداولة فترة كبيرة مثل تلك الحادثة التي رويت عنه فقد حدث أن شجرة عملاقة يبست أمام دار أحد المزارعين الأثرياء تسلقها «حمادي» برشاقة وبدأ في قطع فروعها لكنه اندهش عندما وجد ابنة المزارع الرائعة الجمال والذائعة الصيت ترمقه من النافذة المقابلة بنظرات مغرية فاستطاب له المقام فوق تلك الشجرة عدة أيام وكان بإمكانه إنجاز مهمته خلال يوم واحد. . . كان السذج يتلذذون برواية ذلك وهم يموتون من الضحك لكن الدهاة منهم كانوا يعللون ذلك بطمع «حمادي» في مضاعفة أجره ولم يتفق اثنان على وصفه أو على تحديد معنى واحد لنوادره.

لذلك كان بالنسبة لي صديقاً محبوباً أنزوي معه ساعة الغروب حتى انقضاء الربع الأول من الليل نمضغ القات ونتبادل النكات ونتناقل الأخبار غير السارة عن العساكر والتنافيذ وعن الفروقات التي يأخذها العدول والأعيان والمشايخ. . . كان يضحك دائماً مزهواً لأنه لا يدفع. لأن له طرقه الخاصة بإقناعهم بعدم جدوى ذلك عن طريق النوادر التي كانوا يعجبون بها في مقايلهم. . .

* * *

ودعته فجر أحد الأيام مع مجموعة من الشباب يتقدمهم الفقيه عبدالرحمن بثيابه البيضاء ووجهه الذي أكله الجدري. . . الضاحك دائماً بدهاء. . . لقد أصبح يجمع من ذلك أموالاً طائلة استطاع خلال سنوات الحرب أن يشتري طاحوناً يزعجنا بصوته داخل القرية. . .

كان «حمادي» الباسم الوحيد في المجموعة المسافرة في الرحلة وقد عمل كغيره صرة من الزاد. . . نظر نحوي باسماً وبطريقته المرحة قال:

ـ وداعاً للجيف يا صديقي. .

ـ أرجو أن تكون نسراً هنالك. . .

ـ بل سأكون «بازاً» أنقض على الأعمال بكل جرأة. .

ـ أرجو ذلك. .

ـ لا تكن متشائماً يا صديقي فحيث فشلت أنت هنالك نجاحي. . . وقاطعه الفقيه عبدالرحمن ليشرح له عملية الدخول إلى مدينة «إب» بحيث لا يشعر رجال الأمن أنهم مسافرون إلى السعودية. . . وقال لهم أنه ليس هنالك

قانون منع وإنما رجال الأمن يرتزقون من هذه العملية. . . وأخبرهم أن أول شيء يجب عليهم عمله هو عدم الظهور بمظهر المسافرين كمجموعة بل الدخول أفراداً إلى داخل المدينة ثم يكون الملتقى «مقهاية» عامة. . . وقال «حمادي» مازحاً:

- ثم بعد ذلك يا زعيم. . .؟

- ثم نبحث عن سيارة نقل صغيرة بأجر معقول تنقلكم إلى «خولان». . .

- ثم. . .

- إذا وفقنا. . . لذلك يجب الخروج من المدينة أفراداً إلى وادي «السحول» بين المزارع لانتظار السيارة. . . على أنه يجب أن أنبهكم إلى نقطة هامة وهي أن تكونوا في الوادي أيضاً مجموعات صغيرة سأحدد مكانها بعد ذلك. . .

- ثم. . .

- ثم أصل أنا مع السيارة إلى كل مجموعة. . . وأنادي عليكم بأسماء سرية سأختارها فيما بعد. . . فمن كان موجوداً ويثب بسرعة إلى السيارة كان أحسن حظاً من غيره لأن السيارة لا يمكن أن تقف أكثر من لحظات. . .

- لماذا. . .؟

- لأن رجال الأمن يراقبون ذلك ويرتابون ولن نعلم بهم إلّا وهم وراءنا. .

- وإذا داهمنا رجال الشرطة؟

- سيكون العمل شاقاً وخسارة كبيرة عليكم إذا كنتم بني آدم ولستم حميراً ستقولون أنكم تتسوقون السوق الأسبوعي للسحول. .

- وإذا لم يصدقوا ذلك؟

- ستضرب يا «حمادي». . . ثم دفع أدب مال كبير هو مصروف رحلتك. . !

- وأنت هل ستغرم أدباً مالياً يا فقيه. . .؟

وتعالت ضحكات بعضهم بقول «حمادي» هذا فهم يؤمنون أن «الفقيه» داهية وماكر ويعرف كيف يتجنب ذلك. . . والأذكياء من أهل القرى ممن قد فشلوا في مثل هذه الرحلات يؤكدون أن «الفقيه» على وفاق تام مع رجال الأمن. . .

كان «الفقيه» من النوع الذي يشعر الغير بأنه ذو خطط عملية مرسومة

بالدقيقة وبالثانية وأن من يخالف تلك الخطط لابد أن يفشل ويلاقي المتاعب وقد أثبت حجة ذلك بعد أن أصبح «عدلاً» للقرية وخصوصاً عندما كان يصل إلى القرية عساكر من المركز لأي سبب فيقوم بدفع الأجرة للعساكر مقدماً عن الرعية ليأخذ ضعفها عند الحصاد...

وقد رسم للقرويين خطة كان يعتبرها حكمة خالدة وهي «أن من لم يسلم أجرة العسكري تتضاعف عليه العساكر عدة مرات ومعنى ذلك تضاعف الأجرة... ومن لم يخضع للشيخ من أول مرة ولا يستمع ويقبل الصلح لابد أن يغرمه الشيخ أدباً باهظاً»...

وقد كان «حمادي» يتندر بذلك قائلا:

ـ لقد كسب «الفقيه» الشيخ وجهنم...!

ملت المجموعة البقاء تريد السفر... لكن «الفقيه» أوهمهم أن الوقت ليس مناسباً لعدة أسباب وجيهة شرحها لهم وأنه بعد لحظات سيكون التحرك للوصول إلى الطريق العام في الساعة التي رسمها في خطته.. واقتنع الجميع..

وبعد لحظات تحرك «الفقيه» في مقدمة الرحلة بعد أن مر بنظره عليهم جميعاً خوفاً من تخلف أحدهم..

ولوحت بيدي مودعاً «حمادي» وقد أخذ مركزه الثاني بعد «الفقيه»..

بياع من برط

عاد إلى دار والده من «العنان» تراوده فكرة لم تختمر بعد... كان منقبضاً واجماً وبادره والده قائلاً:

ـ ماذا بك يا ولدي..؟

ـ لا شيء..

ـ لكني ألاحظ عليك الانقباض... ماذا حدث في «العنان» ؟

ـ لا شيء هناك قد حدث.. فهم في النعيم ولن يحدث عندهم إلّا كل خير وعافية!

وتمهل الأب في الرد.. ثم قال:

ـ وأي نعيم هم فيه..؟

ـ أي نعيم..؟ تصور... حوانيت حياة كلها الراحة والرفاهية...

وضحك الأب ساخراً ثم قال:

ـ هه... حظ «البياعة» في هذا الوقت.. لكنهم مهما كان فهم «بياعة».

ولم يستطع الابن الصبر على إخفاء شعوره فنهض قائلاً:

ـ «بياعة».. وما ضرهم إن كانوا «بياعة».؟

وهم بمغادرة المكان لكن والده استوقفه قائلاً:

ـ وهل تغتر بهذه المظاهر الباهتة؟.. إنهم حثالة... لا أصل ولا نسب ولا قبيلة... ليس لهم وزن ولا ثقل ولا قواعد عرفية يحتكمون بها...

ـ لا تردد على سمعي ذلك... أصل ونسب ولا قبيلة... كأنهم جاءوا من أعماق الصحاري... أغراب عنا يدينون بدين آخر...

ـ نعم أغراب وسيعيشون دائماً أغراب.. تحت حمايتنا وفي ظلنا..

ـ ... يا والدي... لقد أصبح أصغرهم يفوقنا ثراءً...!

ـ مازلت تردد على مسمعي تلك المظاهر الباهتة... ولقد كنت ألاحظ عليك دائماً شذوذاً في أفكارك ومسلكك أمام القبائل... انظر إلى إخوتك وأبناء عمومتك انظر إليهم تتعلم كيف تكسب أشرف العيش... ولا أريدك بعد اليوم أن تردد على مسمعي تلك المظاهر الباهتة للبياعة والجزارين والحلاقين..!!

وكأنما شعر بالإهانة لذكر الطائفتين الأخيرتين فقال مستنكراً:

ـ لم أتكلم عن الجزارين والحلاقين... وإنما عن «البياعة»...

ـ نعم لقد كلمتني اليوم عن «البياعة»... وغداً سوف تنبهر بغيرهم وتكلمني أن الحلاق الفلاني قد أصبح يتجاوزنا ثراء... وكأن المال هدفك وهدف كل قبيلي مثلك له الحسب والنسب والرياسة...

* * *

لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره مع أنه قد تزوج مبكراً ولديه من الأبناء خمسة ثلاثة منهم ذكور... وشعر «بن ثوابة» في دار والده بتكاثف السكان ونتائج ذلك السيئة... لقد كان والده ومازال من كبار نقباء «برط» ومن عقال قبيلة «ذو محمد» البارزين... لكن ليس معنى ذلك أنه في بحبوحة من رغد العيش بل على العكس من ذلك فكل ما حصل عليه من مكاسب الحرب من سلاح وذهب قد تبخر في شراء «بومبة» للبير وحراثة صغيرة مستعملة ضاعت بعض أجزاء منها في سفح جبل «برط» عندما نقلت على ظهر الإبل إلى رأس الجبل...

وفي جبل «برط» الفسيح يلحظ المرء أن هناك معالم حضارية بدأت تغزو ذلك الجبل... عجلات نارية... وسيارات لوري... وبعض «بومبات» وحراثات... أصبحت معاصم الرجال تزين بأفخر الساعات السويسرية الغالية الثمن... أجهزة الراديو «الترانزيستور» معلقة على فروع شجر العلب وفي الحوانيت وأصبحت التجارة واسعة الحركة فالحوانيت مملوءة بشتى أنواع البضائع... أقمشة ملونة... أدوات معدنية... روادي ومسجلات وعلب فاكهة وخضروات... وأهم حدث حضاري لديهم هو وجود ثلاثة مطارات لنزول الطائرة... مع كونها بدائية إلّا أن طائرة «الداكوتا» الصغيرة تثير الزوابع الرملية في كل أسبوع مرتين...

وسوق «العنان» هو عاصمة «برط» وملتقى قبيلتي «ذو محمد وذو حسين» بفروعها المختلفة. . . و«العنان» مدينة متوسطة شيدت معظم مبانيها من «اللبن» فيها المنازل الفاخرة وقد يتجاوز علو الدار سبعة طوابق ذات نوافذ زجاجية مسدلة بالستائر الحريرية المزركشة. . . أما الحوانيت فهي في شوارع متراصة بعضها قد تزين بيافطات ملونة. . .

وهكذا تنتعش الحياة في «العنان» بينما لا يوجد من حولها سوى قرى صغيرة وحصون متفرقة في أعالي الآكام والتلال الجرداء صغيرة النوافذ تكثر فيها المتاريس الحربية العليا لصد الغزاة. . .

من هنا كان الفرق شاسعاً بين مدينة «العنان» كعاصمة «لبرط» وملتقى لقبلة وبين ضواحيها. . . لكن عاصمة «برط» يسكنها أناس آخرون غير القبائل هم «البياعة» أي التجار الذين يتأفف القبيلي منهم ويعاملون على أساس انحطاط في العرق. . . وكم كان «بن ثوابة» يحتار لذلك وهو يتسكع في طرقات «العنان» مشدوهاً مما يراه في الحوانيت والعجلات النارية والأبهة والرفاهية التي يعيشها سكان «العنان». . . وكان في بعض الأحيان يتساءل عن سبب ذلك: لماذا نعيش نحن في الحصون المظلمة على قمم التلال الجرداء في بؤس بينما يعيش سكان «العنان» في قصور راقية على سهل أخضر وفي بحبوحة من العيش؟. . .

ولم يستطع النوم تلك الليلة فصعد إلى سطح الدار يريد أن يرى أنوار «العنان» الساطعة المتلألئة. . . لكن المتاريس الحربية حالت دون ذلك فعاد إلى غرفته وفي كوة صغيرة نظر وأمعن النظر. .

* * *

اكتظ سوق «العنان» بالناس من مختلف المناطق فاليوم هو يوم السوق الأسبوعي، الكل قد انتبه لعمله تاركاً كل همومه ومشاكل الحرب جانباً. . . بيع وشراء وتبادل. . . ولم يستطع بن ثوابة أن يشق طريقه إلى هدفه إلّا بصعوبة ولما وصل إلى باب حانوت كبير كان يريد أن يجلس داخله عند صديقه «صالح» يتبادلان أطراف الحديث لكن شدة زحام الناس على حانوت صديقه منعته من الدخول بل وأحرج موقفه فكيف يدخل وصديقه في مهمة كبرى وربما عطلة عن العمل فانسحب مكرهاً بين الأكتاف المتراصة يزيحها. . .

وخارج السوق بعيداً عن الضجيج استقر به المقام تحت شجرة وافرة وقد طرح بندقيته جانباً بضجر. . . لكن الحظ لم يساعده في خلوته فقد ظهر من بعيد والده ومن ورائه غلمه مدججين بالسلاح تحيط به شرذمة من القبائل معظمهم من «نقباء» «برط» وأعيانها. . . واتجه موكبهم نحو تلك الشجرة. . . وكم لعن نفسه لقدومهم لكنه أحرج في أن ينسحب بعيداً. . . ولاحظ أن القوم تعلو وجوههم الكآبة والجدية في موضوع هام. . .

وانتصب واقفاً وتكلف ابتسامة مرحبة. . .وصمت القوم بينما توافد «نقباء» جدد مع أتباعهم زرافات في كل صوب وما هي إلّا لحظات حتى طغت أصواتهم على ضجيج السوق. .

ـ يا نقيب عبدالله. . . في كل خميس من أخماس «ذو محمد» عاقل يمثله. . .

قال ذلك أحد «النقباء» الحاضرين يريد أن يحصر الاجتماع على خمسة أشخاص فقط. . . فبادره النقيب عبدالله قائلاً:

ـ أنا موافق. . . لكن من سيمثل خميس آل صلاح؟ فعاقلهم غير موجود. . .

وسئم «ابن ثوابة» ذلك وهم بالانصراف لكن والده أوقفه صائحاً:

ـ إذهب وادع لنا النقيب عبده من السوق. . . واحضر معه. . .!

وذهب «ابن ثوابة» وقد غضب لذلك الاستثناء الأخير بالحضور وكأنه أمر إلزامي. . . ولما عاد مع النقيب عبده جلس مع باقي الأفراد بينما كان «النقباء» الخمسة قد انتحوا جانباً في حلقة دائرية. . . وطال بهم الحديث حتى ضجر «ابن ثوابة» فسأل جاره قائلاً:

ـ ماذا معهم اليوم من مشكلة يناقشونها؟

ـ مشكلة خطيرة. .

ـ هل قلت خطيرة؟

ـ نعم خطيرة جداً. . . أو لم تسمع بها؟.

ـ لا. . .

ـ عجيب ذلك!

ـ ما هو العجيب في ذلك؟.

ـ عجيب أنك لم تسمع بها مع أنك ابن أحد عقال خميس كبير من أخماس «ذو محمد» !

ـ لم أكلف بعد بولاية العهد يا صديقي!

وتعجب جاره لرده لكنه قال:

ـ مشكلة خطيرة وهي شق طريق في الجبل للسيارات.. ونحن لا يمكن أن نقبل ذلك..

ـ وما الخطورة في ذلك؟

ـ خطر جداً يا صديقي... أو لم تكفينا مشاكل الطائرة؟

ـ ما هي مشاكل الطائرة..!؟ ألم توفر لنا الاتصال بكل المناطق مع تسهيل السفر ونقل المهمات... لم يكن ينقصنا إلّا طريق للسيارات لنستطيع الاتجار مع جميع المناطق...

ـ الاتجار...؟! التجارة «للبياعة»... أما نحن فسنكون تحت الخطر مهددين ولن نستطيع رفع رؤوسنا بعد ذلك أبداً.

ـ بالعكس سأشعر بالراحة والأمان!

ـ عجيب قولك هذا!

ـ العجيب هذيانك هذا...! نحن في أمس الحاجة لطريق فكم أتمنى شراء سيارة أنقل بها المسافرين من الجبل إلى المناطق الأخرى وتأكد أنني سأقودها بنفسي كما يفعل ذلك أهالي «الجوف» و «سحار».. ألا تعلم أنهم يسافرون بها من عدن حتى الرياض ويربحون المال الكثير من ذلك؟..

وقَطع حديثهم بعد أن نهض الخمسة «نقباء» من جلستهم وتوجهوا نحوهم... وهنا نهض جاره من جانبه وهو يبتسم وقال مخاطباً والده:

ـ هل تعلم يا «نقيب» أن ولدك يريد شراء سيارة ينقل بها المسافرين من «برط» إلى عدن والرياض؟!

وضحك بسخرية بينما نهض بن ثوابة ساخراً لكن والده همس في أذنه قائلاً:

ـ أولم أقل لك أنك أصبحت شاذاً بين «القبل» !!؟

ولم يجبه بل انسحب تاركاً المكان نحو السوق وقد قلّ الزحام نوعاً ما وتطلع إلى صديقه «البياع» الذي كان قد جلس في حانوته يراجع خزانته ويصف النقود بترتيب منسق...

ـ هل فرغت يابياع من عملك.!؟

وضحك البياع لذلك وقال:

ـ نعم يا نقيب النقباء... لقد فرغت... تفضل بالدخول!

ودخل «بن ثوابة» حانوت صديقه ورمى ببندقيته جانباً بضجر وقال محتجاً:

ـ يا لهم من جهلاء..؟!.. هل سمعت بالمشكلة الخطيرة التي يناقشها «النقباء» الأفاضل؟

ـ نعم نعم ... لكن ماذا قرروا...؟

ـ لا أدري...

ـ سيقررون الرفض أولاً...!

ـ وبعد ذلك..؟

ـ سيبدأون بالمماطلة والمفاوضات مع الحكومة والأهالي...

ـ ثم؟

ـ وبعد أن يدركوا أن العمل قد أصبح مهيئاً للكسب سيجمعون التبرعات من الأهالي والحكومة...

ـ وما مكسبهم من ذلك..؟

ـ ربع المبلغ يا صديقي...

ـ مادامو سيكسبون ربع المبلغ فلماذا الرفض أولاً..؟

ـ لابد من ذلك حتى لا يحاسبهم أحد... لا الحكومة ولا الأهالي... لعبة ظريفة من لعب «نقباء» برط يا صديقي...

وفجأة سمعا صوتاً ينادي من على المرتفع في السوق والتفتا من الباب فوجدا رجلاً مزركش الثياب بيده حربة طويلة عرفا أنه «دوشان» القبيلة يصيح في الناس منبهاً لاختفاء بعير أحد «النقباء» ولمن يجده لديه جائزة ثمينة...

ـ إنه بعير النقيب عبدالله...

ـ في محلها يا عزيزي... أتمنى ألا يجدوه...

وبعد برهة ارتفع صوت «الدوشان» مجلجلاً فقال «بن ثوابة» :

ـ «ظاهرة» جديدة. . . أنصت إنه يعلن عن رفض القبيلة لشق الطريق. . .

وأنصتا بينما استمر «الدوشان» يعلن قرارات «النقباء» الخمسة. . .

ـ هل سمعت؟ لقد رفضوا. .

ـ لقد قلت لك. .هذه بداية اللعبة الظريفة!!

* * *

أمضى «بن ثوابه» يومه عند صديقه بمضغان القات. . . كان واجماً تجول في فكره هواجس شتى. . . وفجأة بعد أن تأكد من خلو الحانوت من الزبائن قال لصديقه متسائلاً:

ـ ما رأيك يا صديقي لو مارست التجارة. . فلدي مبلغ من المال أستطيع استثماره. . .

ـ وهل تريد أن تصبح بياعاً يا «بن ثوابة»؟ وأنت من علية القوم؟

ـ إني جاد ولا تحاول السخرية. . .

ـ لكنك من علية القوم وهذا واضح. . .

ـ دعك من هذا وأجبني. . .

ـ الواقع أنها مهنة مربحة. . . لكنها منحطة في نظركم. . !

ـ لا تقل ذلك فأنتم معشر «البياعة» تخافون المنافسة وتخافون أن يصبح أكثر القبائل «بياعة». . !

ـ لا نخاف المنافسة. . . إنما نخاف مشاكلكم. . . !

ـ لن أفشل. . .

ـ لقد فشل غيرك. . . خذ مثلاً «بن بلال» لقد هاجر من البلاد بعد أن قاطعته معظم القبائل ورفضوا الشراء منه. . .

ـ لقد فشل هنا. . . هذا صحيح لكنه في «صنعاء» نجح في شراء سيارة أجرة وسواقتها وأصبح يمتلك منزلاً فاخراً. . .

ـ إنما أخاف عليك الفشل ولن تستطيع بعد ذلك العودة إلى عرفك القديم. .

ـ لدي الثقة في عدم الفشل. . .

ـ وأنا على استعداد لأستأجر لك حانوتاً بجانبي وأرشدك في عملك..

ـ صحيح؟

ـ وأقسم على ذلك.

ترك «بن ثوابة» العنان بعد الغروب وقد حشى بندقيته بالذخيرة كالعادة... ووصل دار والده الحصينة... كان عليه أن يكون شديد الحكمة قوي التصميم والإصرار... بادره والده كالمعتاد قائلاً:

ـ هه... ماذا حدث في «العنان» يا ولدي..؟

ـ حدث شيء خطير...!

ـ ما هو؟

ـ سيفتح حانوت جديد ليس له نظير يا والدي..!

ـ ليس هذا بالشيء الخطير...!

ـ أصحيح قولك هذا...؟

ـ ما الخطورة في ذلك؟

ـ وإذا قلت لك لمن هو هذا الحانوت..؟

ـ عسى لمن يكون «سوى» لبياع من حثالة «البياعة»..!

ـ وإذا قلت إنه لي يا والدي.

وصمتا وقد تجهم وجه والده ثم نهض متأثراً وقال:

ـ أتقصد أنه لك...؟... أنت «بن ثوابة» ابن عاقل من عقال «برط» «ذو محمد»؟... يالك من سافل حقير.

ـ وما السفالة في ذلك؟ وقد كان رسول الله يمارس التجارة. وقريش كلها «بياعة» وهم من أشرف القبائل وأعرقها حسباً ونسباً.

ـ لقد كانت عاداتهم وأسلافهم أباً عن جد... أما نحن فليس من عاداتنا ولا من أسلافنا

ـ في قبيلتنا من مارس التجارة مثل «بن بلال» وغيره ولم يتغير فيهم شيء سوى أنهم كسبوا المال الكثير.

ـ لقد فشلوا وأصبحوا كلاباً منبوذة...

ـ بمحاربتكم أنتم فشلوا. ولو فتحتم لهم صدوركم. . .

ـ أتريد أن نفتح صدورنا أيضاً لمن ينحرف عن عاداتنا وتقاليدنا ويمرغ نواميسنا في العار؟

ـ يا والدي. لم تعد التجارة على ما كانت عليه في سالف العصر والأوان. . . !

ـ التجارة هي هي. . و«البياعة» هم هم. . منذ سالف العصر والأوان.

ـ ليس هذا صحيحاً يا والدي. . . لقد تغير كل شيء وأصبحوا يربحون المال الوافر. . . لقد كان «البياع» يأخذ حماره بخرجه ويذهب إلى صنعاء ويعود به محملاً بأشياء تافهة يظل يبيعها طوال السنة كاملة. . . أما اليوم فالحوانيت مملوءة بمختلف ألوان البضاعة والطائرات تنقل شتى أنواع المستهلكات التجارية. . . أصبحوا في قصور وفي نعيم. . .

صمت الأب قليلاً ثم قال:

ـ مهما يكن فالعيب كل العيب في ذلك. . . لا تدع الخزي والعار يلاحقاني أينما ذهبت. . . ولا يمكن أن أتصورك قابعاً خلف حانوت حقير وأنا أمر مع نقباء «ذو غيلان» من أمامه. . . هذا مستحيل. . . مستحيل. . إطلاقاً.

ـ أمستحيل هذا؟ وأي خزي وعار في أن أكسب عيشي نظيفاً وبشرف. . .؟

ـ إخرس. . . أي شرف هذا. .؟! لا أريد أن أراك بعد اليوم. . . أخرج من أمامي. . .

* * *

وفي يوم سوق «العنان» الأسبوعي ارتفع رجل مزركش الثياب بيده حربة طويلة من على مرتفع يصيح بالناس فاشرأبت الأعناق نحوه تنصت ولم يكن ذلك سوى «دوشان» القبيلة قد ارتقى ليسمع الناس «ظاهرة» جديدة. . . ولما هدأت الأصوات ارتفع صوته مجلجلاً وهو يعلن لكل قبائل «أبناء شاكر» بأن «بن ثوابة» قد أصبح «بياعاً». . .

ومرت فترة حوار وهرج بين القوم ينذر بالاشمئزاز والغضب والنفور. . . وفتح «بن ثوابة» حانوته وقد ملئت جوانبه بأنواع البضائع المختلفة وقد وقف بداخله مزهواً ينظم بضاعته. . . كان ذلك اليوم أسعد أيامه لكنه لم يكن يسلم من الكآبة بعض الوقت. كان يتمنى أن يمر ذلك اليوم بسلام.

وتوقف عنده بعض الزبائن. منهم من يهجوه ومنهم من يصمت وآخرون يرنون إليه بكلمة عطف وتشجيع. لكنه لم يشاهد أحداً من أسرته.

وفي نهاية ذلك اليوم دخل عليه صديقه ليمضغ معه القات. وبادره قائلاً:

- هل أعجبك الحانوت يا محمد؟

وأدرك «بن ثوابة» هدف صديقه ولم يعره اهتماماً لعدم مناداته «بابن ثوابة» بل باسمه المجرد.. فأجابه:

- نعم. وأشكرك لمساعدتك.

ولما استقر بهم المقام قال صديقه:

- هل كان العمل ناجحاً اليوم؟

- نعم. لكني لم أر أحداً من الأسرة والأقارب!

وضحك صديقه لذلك فاستفسره عن السبب فأجابه قائلاً:

- لم يكن لهم أثر في السوق كله يا عزيزي فاليوم بالنسبة لهم يوم شؤم.. وحداد أيضاً.!!

- هل تقصد أنهم لم يحضروا السوق قطعاً.؟

- نعم يا عزيزي. وهل كنت تتوقع حضورهم ليقوموا بقص الشريط وافتتاح الحانوت.؟

وضحك ثم استطرد قائلاً:

- وهل كنت تتوقع أن يحتفلوا ويسارعوا إلى إلقاء الخطب الحماسية بهذه المناسبة؟

تألم «بن ثوابة» لذلك لكنه قال:

- لم أتوقع ذلك... مع أنني كنت أحب أن أبيعهم بلا مقابل...

مكث بن ثوابة عدة أيام لم يغادر فيها «العنان» إلى دار والده. كان مشغولاً بإعداد منزل لأسرته في «العنان» وقد سئم ضيافات «البياعة».

طرق باب دار والده بعد العشاء وكم كان يتمنى أن ترد عليه زوجته لتكفيه حرج اللقاء مع والده وأفراد أسرته... لكنه سمع من كوة في رأس الدار صوتاً يسأل عن الطارق. إنه صوت أحد أبناء عمومته. ولما أجابه نزل وفتح له الباب وبادره قائلاً بصوت ساخر:

ـ وأين بندقيتك يابن العم؟

ـ تركتها في الحانوت.

ـ لا تتركها مرة أخرى فالأمور سيئة.

ـ لماذا؟

ـ الوضع توتر بيننا وبين «المهاشمة».

لم يعره اهتماماً وسأله عن والده فأخبره أنه قد أوى فرشه فصعد إلى مكان زوجته فوجده موصداً فطرقه فأجابته مستفسرة فأجابها. . . لكنها لم تعره اهتماماً فكرر الطرق عدة مرات سمع أثنائها أولاده فرحين بمقدمه بينما كانت الأم تنهرهم. . واستطاع أخيراً إقناعها ففتحت الباب فدخل وسلم ثم احتضن أولاده.

كان ينوي أن يأخذها مع الأولاد في تلك الساعة لكنها رفضت. وبذل تلك الليلة مجهوداً سخياً، مادياً وجنسياً حتى أقنعها بالرحيل إلى «العنان» إلى منزله الجديد.

وفي الصباح بادره والده قائلاً:

ـ خير ما ستفعل الرحيل مع زوجتك وأولادك.

أدرك في لهجة والده أمراً بالطرد فأجاب:

ـ لقد فرشت بيتاً جميلاً، وكم أتمنى أن تزوروني فيه مع بقية الأسرة.

ابتسم الأب ساخراً ولم يجب بينما شد الرحال مع زوجته وأولاده وقليل من العفش، ولما وصل إلى باب الدرب سمع والده يتساءل بصوت مرتفع:

ـ هل أتيت ليلاً بدون بندقيتك؟

لم يجب. .واستمر في مسيره مع أسرته.

استقرت الحالة «لبن ثوابة» في حياته الجديدة وأصبح «بياعاً» بكل جوارحه وأحاسيسه في بحبوحة من العيش. لكن صلته بأسرته أصبحت شبه مقطوعة وقد فرضوا عليه حصاراً ومقاطعة تألم لها كثيراً. .

وفي يوم السوق الأسبوعي كان في مقدمة حانوته يباشر عمله مع مختلف «القبل» وقد أصبح في نظرهم بياعاً كغيره من زملاء مهنته ولم يعد يسمع ألفاظ التقريع والتأنيب والتوبيخ من أفواههم بل بيع وشراء. لكن أسرته وعشيرته

مازالت على ما هي عليه من المقاطعة له بل وأصبح من النادر رؤية أحد من أفراد عشيرته يطيل البقاء في الجزء الذي يقع فيه حانوته بل يسرع الخطى وقد أشاح بوجهه جانباً آخر. لكنه لمح في هذه المرة ابن عمه ذلك الذي كان يود الدخول معه في أحد الأيام وكان يبتاع له بعض الأشياء في حانوت مقابل لحانوته. وتردد «ابن ثوابة» في مناداته ومع ذلك فقد نهض من مقعده وأسرع نحوه وبعد جدال محرج أقنعه بدخول الحانوت. وفي زاوية منه قبع يتأمل ذلك الوهج الرائع لمختلف ألوان الأقمشة والبضائع التي ضاق بها حانوت ابن عمه.

تركه «ابن ثوابة» سابحاً في أفكاره ولم يعره اهتماماً بعد أن فتح له أحدى علب الفاكهة واستمر في عمله وقد ارتفع صوته مع الزبائن في جدال حول الأثمان وفي نهاية السوق جمع نقوده في حزم أمام ابن عمه وقفل حانوته ودعاه للغداء معه.

وفي منزله تعمد تقديم أفخر أنواع الغذاء الذي لم يعهده في دار الأسرة المنزوي خارج «العنان» وكم انبهر ابن عمه وقد جلس القرفصاء في حلقة أمام مائدة شهية من مختلف أنواع الطعام أكثرها معلب. ودار حديث طويل بينهما كان خلاله «ابن ثوابة» فخوراً مزهواً بحياته الجديدة لكن ابن عمه كان يخلد للصمت أحياناً فسأله عن سبب ذلك فأجابه قائلاً:

ـ ليتني أستطيع أن أمتلك حانوتاً مثلك!

ـ إذا كنت جاداً فأنا على استعداد لمساعدتك.

ـ إنني جاد فعلاً لكن هنالك مشكلة نمر بها جميعاً فإذا مرت بسلام فلن أتوانى عن ذلك.

ـ وما هي هذه المشكلة؟

ـ «المهاشمة». لقد أصبحت الحالة بيننا وبينهم تنذر بحدوث الفتنة.

ـ أما زلتم مع «المهاشمة» في خصام؟

وأطرق ابن عمه قليلاً ثم ضحك. فسأله:

ـ ماذا يضحكك؟

ـ قولك هذا..

ـ وما المضحك فيه؟

ـ كأنك لم تعد منا؟

ـ لقد شئتم ذلك. . .

* * *

كان فجر يوم من أيام سوق «العنان» الأسبوعي وقد توافد الناس نحو السوق يسوقون أمامهم الحمير والإبل. وكان الجو مفعماً بالغبار والرياح المحملة بالأتربة مما أدى إلى تذمر «البياعة» الذين يفترشون ببضاعتهم أرض السوق فهم لا يملكون الحوانيت وتجارتهم لا تظهر إلّا يوم السوق الأسبوعي ولابد للزبائن من اللجوء إلى الحوانيت هروباً من الجو المفعم بالحرارة والأتربة. وكان حظ «بن ثوابة» رائعاً في ذلك اليوم لصنعه مظلة من المعدن «الزنك» أمام حانوته أقامها على أعمدة من الخشب المستورد المربع الجميل مما جعل الزحام على حانوته شديداً. .

ومع ذلك استطاع صوت «الدوشان» أن يسكت كل ضجيج السوق حيث أعلن أنه قد حدث قتل خارج العنان وعرف من هو المقتول فقد دوت طلقة نارية خارج العنان سقط نتيجة لذلك أحد الرجال مضرجاً بدمه وانسحب من أكمة بجواره ثلاثة من الشبان المسلحين واتجهوا نحو دارهم. دار «آل ثوابة» أما القتيل فقد كان أحد أفراد «المهاشمة» البارزين.

وتوتر الموقف بشكل خطير بعد حدوث تلك الجريمة ولم تعد ترى أحداً من عشيرة «آل ثوابة» يتجول داخل «العنان» أو خارجها وقد اعتصموا بحصنهم المنيع ورتبوا مواقعهم بجوار ذلك الحصن. كان من العسير على «المهاشمة» اقتحام الحصن وباتوا يترقبون لأي فرد من «آل ثوابة» ربما يصادفونه خارج «العنان». لذلك فقد أعيتهم الحيلة «للأخذ بالثأر» لحذر ودهاء ومكر «آل ثوابة».

في عصر ذات يوم والناس في ملهاة يمضغون القات كل في حانوته أو داره مع مجموعة من أصدقائه. دخل «العنان» ثلاثة من البدو مدججين بالسلاح يتلفتون حولهم بحذر شديد وهم يمرون من أمام حانوت صديق «بن ثوابة». عرفهم فاصفر لون وجهه. نهض بعجلة شديدة وهو يتمتم بألم مكبوت. وفيما هو يسرع الخطى سمع ثلاث طلقات نارية مكتومة متتالية وصياح قتيل لفظ أنفاسه الأخيرة. وقف واجماً وقد فاضت عيناه بالدمع. . أسرع يجري نحو حانوت صديقه فوجده مرمياً أمام حانوته مضرجاً بدمه وعيناه إلى حانوته كأنما انبهرت بذلك الوهج الرائع لمختلف أنواع الأقمشة والبضائع.

الذماري

صنعاء 1949م... الدستور شخص مطلوب القبض عليه... كافر... قبيح المنظر في شكل وحش يلبس أشكالاً مختلفة... ربما يكون حليق الذقن له قرنان في رأسه أو أكثر... يلبس البنطلون لباس الفرنجة في بلاد الكفر... بلاد مدخل... زوّجه الدستوريون بالشورى في عقل قصير...

«باب اليمن» يفتح في الصباح ويقفل في الغروب كسائر الأبواب المحيطة بصنعاء...

رجل عادي شد انتباه الناس إليه ذقنه الحليق ولباسه الغريب... بنطلون و«بلوفر»... الغبار يعلوه وحقيبته الصغيرة بيده... دخل من «باب اليمن» ظهراً والغبار يحتزم بشتى أنواع القشاش والجراثيم...

سأل حارس الباب:

- سيدي...!

- سيدك اللّه... ماذا تريد؟

- أين أجد مطعماً أو فندقاً؟

- لا أفهم ماذا تعني؟

- مكان آكل فيه واستريح وأنام..

- فهمت.. «سمرة وردة» داخل المدينة بجوار سوق الملح...

واتجه نحو سوق الملح يمشي في أزقة ضيقة... سحره رونق البناء اليمني.. كان يتوقع أن يجد يافطة تشير إلى فندق «وردة»... حاول أن يسأل لكنه وجد الناس تكاد تلتهمه بأعين مستنكرة.. لم يهمه ذلك أكثر من أن يجد مكاناً يأكل فيه ويستريح بعد رحلة شاقة وطويلة على ظهر حمار..

كانت صنعاء مدينة قديمة محاطة بسورها الترابي وأبوابها المزنجرة خالية

من أي مظهر عصري. . وكان سوق الملح هو السوق الوحيد الذي تجد فيه الحوانيت خارج المنازل فأكثر حوانيت صنعاء كانت غرفاً داخل منازل التجار. . التجارة فيه كانت من نوع الأسواق الشرقية القديمة التي وصفها الرحالة العالمي «ماركوبولو» في رحلته عبر الشرق. . كان سوق الملح قطعة مصغرة من أسواق بخارى وسمرقند القديمة. .

وكانت الأحداث التي سبقت هذا العام وأدت إلى مقتل الإمام يحيى مازالت حديث الناس. والدستور كان له صور مختلفة في أذهان المواطنين حسب المعرفة الخاصة لكل شخص، كان الأكثر معرفة يعرف الدستور بأنه كفر وإلحاد وكتاب وضع ليعارض القرآن.

وأصبح «الدستوريون» رجالاً زنادقة مغضوباً عليهم. . قتلوا وسحلوا وصلبوا في الشوارع وشردت أسرهم وأصبح أبناؤهم «دستوريين» يتلقون الشتائم من زملائهم عند فقهاء المدارس الصغيرة «الكتاتيب».

كانت صنعاء مغضوباً عليها أيضاً من قبل الإمام الجديد ومازالت آثار النهب والسلب بادية على معالم البيوت والحوانيت.

* * *

انزوى في ركن مظلم في «سمسرة وردة». بجوار أناس مشعثين من رجال القبائل الداخلة إلى صنعاء، كم كان يود الحديث مع أي شخص لكنه صدم منذ أول وهلة بفظاظتهم فانقطع حديثه فترة. . .

وجد ضالته في شخصية «المقهوية» تلك المرأة اليافعة، أعطاها من العمر تخميناً عشرين عاماً لكنه اكتشف بعد ذلك أنها تجاوزت ذلك فعجب لجمالها الرائع. كم حاول في نفسه أن يبدي لها نصحاً في تحسين نظافتها والمحافظة على جمالها، تملأ المنزل بحيويتها وسعيها الدائم إلى كل ركن من أركان «السمسرة» الفسيحة حاملة كل شيء.

استطاع أثناء «المقيل» أن يخلوا بها في مقر إدارتها العلوي تاركاً جيرانه من النزلاء المشعثين يمضغون «القات». وجدها مهيأة للخوض معه في حديث جديد ومعرفة حكايات غريبة بعد أن عرفت أنه جاء من وراء البحار. . رحبت به:

ـ ألا تستعمل «القات»؟

- تركته منذ الغربة.. فهنالك أشياء تقتل الملل بطرق أفضل من مضغ القات..

- لابد أنها مجالس أنس ومرح... ومجون...؟!

راعه إدراكها لمثل هذه الأمور ولمح في لهجتها رنة خاصة أكثر بكثير من دعابات الغواني في المواني المشهورة... تحفظ في بداية الأمر لأنها في شغل دائم الحركة... وصف لها البحار والمواني ونوادر اللغة وفتيات الحانات في هونج كونج وزنجبار...

- أصناف الخمور البلدية في صنعاء جيدة وخصوصاً إذا كانت من أول قطفة... ويصنع بمهارة وحذق كما يصنع اليهود الحلى الذهبية والفضية...

- كل شيء يبذل فيه مجهود فردي فهو نادر ومحبب... لكني لم أذقه إلى الآن...

- أتحب أن تشرب...؟

- و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»..؟!!

- في المساجد فقط..!

تردد في الإجابة فهو لم يحقق بعد الغرض الذي جاء من أجله إلى صنعاء.. ولديه عملة أجنبية تريد من يعرف بها أولاً ويخاف أن تنفد قبل أن يستقر... لكنه قال متسائلاً:

- وكم الثمن..؟

- لكل نوع ثمن... حسب الجودة...

- النوع الملائم...

ثم استدرك قائلاً:

- ولكن كما تعرفين... زملائي في المنام كثيرون وهم من قبائل شرسة فأرجو المعذرة...

- لا يهم ذلك... لقد أمرت أحد الصبية بنقل متاعك إلى مكان مجاور على سطح «السمسرة»...

- هذا كرم منك...

ـ مع فارق الأجرة. . .

شعر بالراحة بمسكنه الجديد. . . غرفة ضيقة محشورة السقف لكنها تتيح فرصة للهدوء. . . ويمتد سطح «المقهاية» الواسع كأنه ساحة «لكازينو» جميل وخيالي حالم. . . وانتهى الضجيج الذي احتمله أول ليلة. . .

دقت عليه الباب بعد آذان العشاء. . . فتح لها فدخلت وأخرجت من تحت إبطها زجاجة مملوءة بخمر بلدي نقية صافية كزلال الماء. . . وأقفلت الباب فأخرج مقداراً من النقود الفضية ودفعها نحوها فابتسمت ورفضت أخذها قائلة:

ـ هذه ضيافة بمناسبة انتقالك إلى هنا. . .

ـ أهي عادة لنزلاء هذا المكان. . ؟!. . .

لم تعره إجابة بل فتحت الباب وخرجت. . . شعر بأنها جرحت في كبريائها وندم لقوله المتسرع. . . خلع ثيابه ثم ارتدى لباس النوم وأخذ كأساً ثم خرج إلى السطح. . . كان يفكر في سلوكه المشين نحوها. . . لعن نفسه فقد كان يأمل منها المشورة وأشياء أخرى. . !

* * *

نهض مبكراً وقد عزم على إرضائها. . . بادرها بالتحية فردت عليه بأسلوب عادي. . . كانت تحاول تجنب النظر إليه لكنه وقف بإصرار تائب ولما لم تعره انتباهاً تململ فالتفتت إليه بنظرة حادة قابلها بفرحة انبسطت لها أساريره فأرجعت كلاماً جافاً كانت ستلقيه عليه ثم سألته:

ـ هل نمت جيداً. . . ؟

وثب نحوها ثم انحنى وقد رفع عطفات بنطلونه وقال:

ـ لم أنم جيداً. . .

ـ أظن أن هناك ما تشكو منه. . .

ـ نعم. . .

ـ قمل. . . براغيث هائجة؟ هذه حال بلادنا.

ـ لا شيء من ذلك. . .

ونظر إليها بندامة ثم استطرد قائلاً:

ـ لقد تألمت كثيراً لذلك الموقف السخيف الذي وقفته أمس البارحة. . لم

أقصد جرح شعورك.. وإنما قصدت بقولي أن يؤخذ مأخذ المزاح..

وتمهل حتى يتيح لها فرصة عسى أن ترد عليه لكنها أطرقت قليلاً وانشغلت مع نزلاء آخرين وقد لاحظ تورد وجنتيها فقال:

ـ سيدتي... أرجو المعذرة وصفحك عني حتى أستطيع أن أطلب الله وأبحث عن عمل...

نظرت إليه بحزم مسبوغ بتودد خفي قائلة:

ـ كنت أظن أنكم معشر المغتربين قد تعلمتم الحياة وآداب الناس النصارى.. ولكن اليمني متوحش ومغرور حتى ولو دخل الجنة..

ـ أرجو المعذرة.. فلم يكن قصدي ما تعتقدينه..

ولم تجبه فاستمر قائلاً:

ـ أرجوك أن تبتسمي على الأقل..

وبعد إلحاحٍ ابتسمت عن ثغر ارتسم أمام عينيه طول تجواله في أزقة المدينة...

* * *

عاد خائباً مكتئباً لكنه مفعم بأمل آخر... اقترب من «المقهاية» فانبسطت أسارير وجهه وأحس بانتعاش لطيف... استسخف نفسه لعدم معرفة اسمها... لقد كان الكل يدعوها «بالمقهوية» أو يا هذه... ربما يكون اسمها «وردة»... وياله من اسم... اقتنع بذلك..

توقف أمام الباب وأخرج منديلاً ومسح به الأتربة اللزجة من على جبينه وداخل أذنيه ووجهه... يريد أن يظهر أمامها بصورة جميلة لن تفلت من ذاكرتها بعد ذلك... وجدها في خلوتها تمضغ «القات» مع بعض السذج ممن يرتزقون بجوار المقاهي والحوانيت... لاحظ رونقها الجديد وقد اغتسلت وتزينت بجلباب حريري محتشم ومع ذلك فقد برز نهداها من خلاله كجبلين صغيرين خارج صنعاء وأسبلت شعرها من خلال «العصاب» المزخرف... واقترب منها وقد ألقى التحية بتودد كمن قد أصبح من أهل البيت فنظرت إليه مبتسمة باستغراب لهذا التودد فقال متسائلاً:

ـ وردة... وردة.. أظن أن هذا اسمك..

فنظرت إلى السذج الذين بدأوا يضحكون لذلك ويتغامزون للباسه الغريب فنهرتهم فخرجوا مجفلين بينما قال فاخراً:

ـ كم يعجبني فيك قوة الشخصية وانصياع الناس لأوامرك. !

ـ أنت تبالغ...

ـ لم أقل إلّا الصدق والحقيقة...

ـ إنهم رعاع سذج مساكين. ثم أرجوك عدم الإقدام هكذا ففيه إحراج لي.

ـ تواضع منكِ يا عزيزتي.

وجلس أمامها وهو يحدق إلى وجهها بإمعان فنظرت إليه قائلة:

ـ ما كل هذا..؟ أرجوك..؟

ـ ماذا؟

ـ إمعانك إلي بالنظر.

ـ لا أستطيع مغالبة ذلك.

ـ هذا كلام مسموع.

ـ ممن؟

ـ أنعود مرة أخرى؟

ـ أرجو المعذرة...

وساد الصمت فترة وجيزة فسألته قائلة:

ـ هل تناولت شيئاً.؟

ـ أكلت بعض الحلوى من أحد الحوانيت..

ـ وماذا عملت؟

ـ لا شيء...

ـ ماذا تريد عمله؟

ـ مترجم..

واستغربت لهذا اللفظ الجديد فشرح لها أنه يجيد عدة لغات إحداها الإيطالية التي يجيدها جيداً، ويريد أن يعمل مع الطبيب الإيطالي الوحيد في البلاد فقالت:

ـ لقد عرفته... أعني هذا الطبيب.. أحمر البشرة كأنه مؤخرة قرد وكلامه

غريب لا يفهم... ويبدو أنه سوقي..

ضحك فطلبت منه أن يتكلم بلغة الطبيب فأجاب رغبتها وبدأ يتكلم بالإيطالية ويترجم لها وهي تضحك بلذة لكلامه.. وسرعان ما كانت تداعبه بلطمات مرحة على فخذية فأمسك بيدها.. وساد الصمت فترة...

* * *

ظل منتظراً لمقدمها في مقصورته وقد أحاط الظلام بكل شيء وبزغ القمر من خلال قمة جبل «نُقم» العالية فقال لنفسه: «ياللعاصمة تنام مبكرة كأن «نقم» سيدهمها خوفاً ورعباً أثناء الظلام».. أبطأت في مقدمها وحادث نفسه «ربما تتعمد ذلك».

خرج إلى السطح الفسيح وتمشى قليلاً ثم سمع وقع أقدام نحو الغرفة... وجدها قد سبقته إلى بابها فقال:

ـ لقد تأخرتِ كثيراً..؟

ـ أولم تتعود الانتظار..؟

ـ الفارق كبير..

ـ أتريد أن أصدق ذلك؟

ـ هذه هي الحقيقة...

ابتسمت ونظرت إلى القمر وهو يعلو جبل «نقم» فقالت:

ـ هذا جبل «نقم»... أو لم تسمع عنه...؟

ـ لقد سمعت به كثيراً من خلال صحف الأحرار الصادرة في عدن وغيرها

وصمت قليلاً فقالت:

ـ أتقصد أولئك الذين قطع الإمام رؤوسهم..؟

ـ ربما...

ـ وهل أنت دستوري..؟

ـ ما هو في نظرك الدستوري..؟

وتوقفت وقد احتارت ثم قالت:

ـ يقال عنهم إنهم كفار.. أصدقاء للشيطان.. وقد خلقوا كتاباً يشابه القرآن.. وزوجوا الدستور بالشورى زواجاً غير شرعي.

ابتسم ولم يحاول العودة إلى ذلك الحديث... لكنها انشغلت وقالت:

ـ هل أنت منهم؟ أرجو أن لا تكون كذلك فهي مصيبة.

ـ لماذا؟

ـ ستجلب لنفسك الأذى..

ـ لا أعتقد ذلك...

ـ كيف تقول ذلك؟

ـ أتخافين علي؟

ـ لا أقصد ذلك... إنما ما الداعي لتجلب لنفسك الأذى...

ـ الحقيقة... أنني لست منهم ولا أعرفهم وحالي كحالك...

ـ أتقول الحقيقة...؟

ـ أقسم على ذلك...

سرت لنجاته كما تمنت ودخلا الغرفة وقد تلطف الجو... أعد لها مكاناً بجواره... سألته وهي تصب الخمرة عن حياته السابقة أجابها مفصلاً وقد لطفت الخمرة ذهنه وذكرياته فأسهب. كان يريد إيهامها أنه يحاول إخفاء مغامراته الجنسية في بلاد الخارج فقالت متحدية:

ـ لا أعتقد أنكم ناجحون في هذا المضمار..

فانبسط كثيراً لتحديها له وقرع لها الكأس قائلاً:

ـ في صحتك...

ولم تفهم المراد من المعنى فقال:

ـ هذا أول شرط لنجاح أي صداقة يا عزيزتي..

ضحكت وقالت:

ـ سخف...

فضحك ومال نحوها فتحركت وطوقته بيدها فقبلها في يدها لكنها قبلته على خديه فلم يمهلها فقبلها مرة أخرى في شفتيها بدون أن يترك لها فرصة في التملص... وكانت الرغبة لديها فاحتضنته وقد تمايلت نحو الأرض فأبعد من على رأسها «العصاب» وذابا مع الرغبة...

* * *

أثارت الرياح في ذلك اليوم الأتربة في أزقة صنعاء فانكشفت أنواع الأقمشة الهندية المزركشة التي تلبسها النساء من تحت «الشراشف» وجمال جذاب يخفي تحت الستائر السوداء أياد بيضاء كالشمع مخططة بخضاب أسود بتطريز مبدع مع أساور من الذهب تجعلها آية في الفتنة.. وخصور نحيلة تبرز انثناءً جذاباً وأنثوياً صارخاً لأجساد كالشهد...

لشدة الرياح ارتفعت البراقع الشفافة لتبرق عيون رائعة براقة لم يشاهد مثلها من قبل وأنوف كالسيوف المهندة تبرز من تحت النقاب النصفي تغطي نصف الوجه...

تخيل «وردة» في كل واحدة ينقشع عنها السواد لعصف الرياح.. وعجب لهذا الجمال الدفين. وقال لنفسه بأسلوب شاعري «فالكنوز دائماً مدفونة والمجوهرات الثمينة تختفي عن الأعين فترات كبيرة في الزمن.. لهذا كان سر القيمة في الندرة والحفظ الحريص..».

ظل طوال النهار كذلك وقد كاد أن ييأس مما جاء من أجله في غمرة السعادة التي لقيها في «سمسرة وردة»... وعاد ليجد «وردة» على حيويتها الدائمة...

تحدث معها في المساء عن صنعاء ونساء صنعاء والجمال الدفين كما قال. فضحكت قائلة:

- ينقصهن لفحة شمس ليكون «الدم حالي»..

وفهم عكساً كما تخيلت فقال:

- العمل ليس عيباً يا «وردة».. إني أقدر كسبك للحياة بعرقك بدون الركون لثروة أو رجل غني..

- لا تكن مختالاً

- ماذا؟

- هن بنات دور وقصور ومهور عالية... والوصول إليهن صعب...

- والهوى...

- يمارس بأقل التكاليف... المهم هو الإعجاب...

لم تكمل سهرتها معه تلك الليلة مع كل إلحاحه الشديد... عرف أنها تعمدت ذلك لتحد من طموحه الجشع والنهم نحو الأفضل... فقدر شموخها واعتزازها...

وخلى لنفسه تلك الليلة وعزم على أن يجد العمل أولاً قبل الراحة لكنه عجب للقدر الذي وفر له الراحة قبل العمل وبدون جهد يذكر... وتعشم في ذلك خيراً... فبات ليلته متفائلاً...

سألها في الصباح عن الطريق للوصول إلى غرضه فسألته:

ـ من أي مكان أنت؟

عجب لسؤالها الغريب فأجاب:

ـ من قضاء «ذمار»...

ـ «ذماري»!

ـ نعم.

ـ «نار صنعا ولا جنة ذمار»..

ـ مثل غير صحيح... فالغربة تغير الكثير... ومع ذلك فلم تعطني الرشد السليم...

ـ العمل لن يتسنى لك إلّا عن طريق «عامل صنعاء» وهو من «تعز»... شيخ كبير وعساكره من بلاده ستعرفهم من زيهم الغريب...

سأبحث عن أحدهم ليصلني «بالعامل»... فأنا أعرف قيمة «العامل»... عندما وصلت «ذمار» وجدت أن كل شيء مربوط «بالعامل»... كل شيء...

ـ ربما يختلف ذلك في صنعاء لوجود الأمراء والسيوف والقضاة الكبار.

ـ وأين أجد «العامل»؟

ـ في «باب السباح» تجد عساكره... أو لم تعرف مقر الحكومة إلى اليوم..؟

ـ لا...

ـ لقد سبحت كثيراً في الأزقة...

ـ غريب...

ـ يالك من غريب. . .

وصمت قليلاً ثم حاول أن يعطيها مبلغاً من المال أجرة المبيت والأكل فقالت:

ـ وهل تزمع الرحيل بعد إيجاد العمل؟

ـ لن أرحل من هنا. . . ولكني غريب وأريد أن أعطيك مستحقك. . .

ـ لا تعجل. . . إبحث عن العمل أولاً. . .

وتمهل قبل خروجه ثم عاد وسألها:

ـ لماذا لم تعودي ليلة البارحة. . .

ـ سؤال في غير محله. . .

ابتسم ثم خرج نحو «باب السباح». . . سأل عنه فوجد أنه قد سار به من قبل عدة مرات. . . رأى أنواع الفواكه المحلية. . . عنب. . . برقوق. . . لوز. . . جوز. . . بهارات. . . ذكر أنه قد شرب عصير أحد مستحضرات صنعاء الحلوة. . ذهب إلى المحل نفسه وطلب العصير نفسه. . . لمح أنواعاً مغرية من الحلوى. . طلب صحن من حلوى «الرواني» تلذذها. .

ثم سأل صاحب الحانوت:

ـ سيدي. . . أين مقر «العامل»؟

ـ هنالك. . .

وأشار له إلى مبنى مرتفع حوله جلبة من الناس فقال:

ـ كيف الوصول إلى مقامه. . .

ـ إذهب وزاحم الناس وادخل. . .

ـ هكذا. . . ؟

ـ هكذا. . . ؟

ـ أريد تجنب الزحام. . ألا يمكن بواسطة عساكره. ؟

ـ يمكن. . .

وتلفت التاجر إلى الشارع ثم قال:

ـ هنا أمامك واحد منهم. . . فهم دائماً يلبسون «الدساميل المعثكلة» لباس اليمن الأسفل. . .

شكره وذهب. . . وجد ضالته في أحد الجنود وقد أحسن الاختيار لكي يصل بسرعة. . . تقرب منه بتودد وبعد مقدمة تعريفية أخبره بطلبه. . . تفرس فيه الجندي بإمعان وأخذ بيده إلى زاوية وقال:

ـ عملك مطلوب ومربح. . . والوصول إليه صعب. . . ولذلك فلابد من هدية «للعامل» لكي تصل إلى عملك بسرعة. . .

ـ ما تراه لا أمانع فيه. . .

وأخذ بيده وسارا نحو سوق الأقمشة بجوار سوق البقر. . . ودخلا محلاً للأقمشة الشامية والمصرية. . . فتكلم العسكري مع صاحب الحانوت فأعطاه «طاقتين قماش» حريري «ممتاز» وبعض «دساميل» هندية مزركشة وكان المبلغ غالياً فقال العسكري لصاحب الحانوت فجأة.

ـ سأذهب بكل هذا إلى مولانا «العامل». فإذا ناسبه سندفع لك الثمن.

ـ لا مانع عندي ولكن عجل بالثمن إذا ناسب مولانا «العامل».

وأخذ العسكري بيده وذهبا فقال له متسائلاً:

ـ لماذا لا ندفع له الثمن الآن.؟

ـ لا تكن جواداً. أنت لا تعرف تجار صنعاء؟ من أين أنت. .؟

ـ من «ذمار».

ـ إيه «نار صنعا ولا جنة ذمار»، لا أعتقد إلّا أنك أحذق من ذلك.

ضحك للمثل المعاد في اليوم نفسه بينما قال العسكري:

ـ أعطني الثمن. فأنا أخبر منك.

تحير قليلاً وقد شده المثل المعاد فتحذق وأعطاه نصف الثمن وقال:

ـ وإذا رأيت الصباح أن نزيده فلا مانع عندي.

وأخذ منه ذلك على أن ينتظره في الصباح الباكر أمام دكان بائع «الرواني» وسيمر عليه لإدخاله إلى «العامل».

عاد إلى «وردة» وقد عمل لها هدية مصرورة في قرطاس اعتقد أنها أحق بالهدية من العامل.

لمحت فيه انبساطاً أثناء دخوله. صفر لها بنغم «البالة» فجذبها النغم.

لكنها نظرت إلى النزلاء فوجدتهم ملتفتين إليه بانتباه. خاطبهم وقد اقترب منهم أكثر والصفير مازال يشدو:

- «البالة». من أرقى الفنون الشعبية في العالم. لكن هنا يموت كل شيء حتى النغم الحزين.

لم يفهموا قوله فكرر بطريقة خطابية رأيه عن الفنون والمزامير والطبول و«البرع»...

ضحكت فاتجه إليها وقد أخفى صرة الهدية خلف ظهره وقال:

- نار صنعاء ولا جنة «ذمار».

- لقد أصبحت ناراً.

- النار في قلبي.

غمغمت بحياء واتجهت نحو مكانها فتبعها وهو يصفر بنغم «البالة».

قالت وقد أقفل الباب وراءه:

- إنك تحرجني أمام النزلاء.

- كم تحتاج صنعاء إلى جو نقي يعيد لها رونقها.؟

- لا تكثر من هذا الكلام الغريب فقد يظن غيري أنك من بقايا الدستوريين.؟

- يالطيف. أعوذ بالله. وألوذ إلى وردة،

ابتسمت ثم أشارت إلى الصرة التي لمحتها وهو يحاول إخفاءها فقالت:

- ما هذا..؟

نظر إلى الصرة وحاول إخفائها مرة أخرى. لكنه ضحك وقال:

- هدية متواضعة لمن خلقت من صنعاء الكئيبة مدينة أحلام، ولمن جمعت بين نار «ذمار» وجنة صنعاء.

- لمن..؟

- «الوردة» الخالية من الشوك.

- لا ورد بلا شوك!!

- من أجل ذلك عشق الناس الورد.

ـ كلام جميل. . .

ـ أجمل ما في الوجود هو «سمسرة وردة». . .

فأطرقت حياءاً. . . وصمتا لحظة قام خلالها بفتح الصرة وأخرج من داخلها قماشاً حريرياً مزركشاً غالي الثمن وطرحتين شفافتين وقدمها إليها. .

ـ هذا شيء كثير. . .

قالت ذلك وقد زاد تأثرها فحاول الخروج من موضوع الهدية قائلاً:

ـ لقد وجدت العمل. .

ـ صحيح. .

ـ تقريباً. . .

روى لها القصة. . . فرحت لقرب استقراره ثم أطرقت قليلاً وقالت:

ـ وهل ستترك «السمسرة» إلى مكان آخر تستقر فيه مع عائلتك؟

ابتسم لتساؤلها وقد عجب لسؤالها عن العائلة لأول مرة فقال:

ـ أتقصدين زوجة؟

ـ نعم وأولادك. . .

ـ ليس لي أحد من هذا القبيل. . .

ـ هل معنى ذلك أنك ستبقى هنا. .؟

ـ لقد قبلت الحلال في نار صنعاء. .

ـ وجنة «ذمار»؟

ـ إلى الجحيم. . .

وأمسك بخصرها فتمايلت متملصة فأطبق على شفتيها بقبلة. . . وسمعا صياح نزلاء جدد فخرجت وقد أصلحت هندامها. . .

* * *

قضى ليلة ممتعة أخرى مع «وردة» اكتشف مجالات أخرى في ذكائها وحسن طباعها. . .

ـ هل من اللائق مقابلة «العامل» بلباسك الغريب هذا. .؟

ـ ليس معي غيره. . .

ـ كان بإمكانك تدبير ذلك من قبل. . .

ـ لا يهم. . . فربما يزيد من أهميتي لباسي الغريب هذا.

ـ قد يستاء «العامل» من لباسك هذا. . .

ـ لماذا. . ؟

ـ لقد كان معظم «الدستوريين» يلبسون هكذا. . .

ـ لا يهم. . . فلقد تحول العالم إلى زي واحد. . .

ـ أتقصد أن هنالك بلدان تلبس مثلك. . ؟

ضحك لقولها. . . شرح لها لباس البلدان التي زارها. . . طلبت منه التكلم بلغة النصارى. . . تكلم لها وترجم. . .

* * *

انتظر طويلاً أمام حانوت صانع «الرواني». . . كاد الظهر أن يحين ولا وجود لعسكري «العامل». . . انتابه القلق لذلك. تعلل بأن يكون العسكري قد أعاد البضاعة إلى صاحب الحانوت فربما لم تصادف رغبة العامل وذوقه. ولكن كيف التأكد من ذلك فهو لا يتذكر حانوت الأقمشة.

أخذ يتجول في مكانه بقلق. . .

لمح صاحب حانوت الأقمشة مقبلاً نحوه وخلفه ثلاثة من عساكر «العامل» بزيهم الخاص وقد أشار لهم صاحب الحانوت نحوه وهو يقول بفضاضة:

ـ هذا هو. . الذي كان مع العسكري. . .

اندهش لذلك فخاطبة أحد عساكر «العامل».

ـ أجب مولانا «العامل».

ـ لماذا؟

تساءل بدهشة بينما تفرس فيه الجنود ملاحظين لباسه الغريب ودفعه أحد الجنود أمامهم. .

فسر الموقف بنجاح العسكري في وساطته عند «العامل».

زحم به الجنود ومن خلفهم صاحب حانوت الأقمشة بين الناس الشاكية عند «العامل». أوقف خارج باب «ديوان العامل» حتى بُلِّغ به.

دخل والجنود من ورائه وقد صاح صاحب الحانوت مخاطباً «العامل»:

- مولانا «العامل» اللّه يحفظكم. هذا هو الرجل..

ونظر إليه «العامل» من خلف نظارته المكبرة للحروف وتفحصه بدقة وقد حدق نحو ملابسه فقال لصاحب الحانوت:

- هل تأكدت بأن العسكري الذي أخذ منك البضاعة ليس موجوداً بين عساكري؟

- نعم يا مولاي. لقد تأكدت وليس موجوداً. اللّه يحفظكم.

- وهل هذا الرجل كان مع العسكري؟

- نعم يا مولاي وقد ذهب معه بالبضاعة. اللّه يحفظكم.

اندهش لهذا الموقف بينما اتجه نظر «العامل» إليه قائلاً:

- هل أخذت من هذا الرجل بضاعة؟

- لم آخذها أنا. بل أخذها العسكري.

- لماذا؟

- لجنابكم كهدية متواضعة.

ضج الديوان بالتساؤلات الهامة وقد انتبه «العامل» فوضع نظارته وقال:

- أتقصد أنها لي؟

- نعم...

- وممن هي؟

- مني يا مولاي.

- ومن أنت؟

- مترجم يا مولاي. أترجم اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.

- ومن أي بلد؟

- من «قضاء ذمار». كنت مغترباً ورجعت.

- «ذماري»؟

- نعم.

غمغم «العامل» وقد أُحرج أمام الحاضرين الذين أخذتهم الدهشة ففيهم

من سينقل ذلك لمن يخشى عقابهم. فقال وقد أعاد رباطة جأشه.

ـ أتعرف ذلك العسكري يا «ذماري»؟

ـ نعم بلباسه كأمثال هؤلاء.

ـ وهل هو موجود بينهم؟. تأكد من ذلك.

وتفحص عساكر «العامل» فلم يجد له أثراً، فقال العامل:

ـ هه.. هل عرفته؟

ـ ليس موجوداً.

تحير الحاضرون فنهض أحد الكتبة إلى «العامل» وقال:

ـ مولاي. ربما يكون بعض العساكر في السوق.

ونادى «العامل» على رئيس عساكره وقال:

ـ هل أحد غائب من العساكر؟

ـ لا يا مولاي فكلهم حاضرون.

وهاج الديوان من جديد بتساؤلات هامسة. واحتار في هذا الموقف الذي لم يكن يتوقعه وتصبب عرقاً وقد شعر بصدمة لأول مرة منذ وصوله. ولما ساد الصمت صاح يخاطب «العامل».

ـ سيدي.

ـ ماذا؟

ـ لقد جئت آملاً أن أعمل مترجماً مع الطبيب الإيطالي.

ـ وبضاعة الرجل؟

ـ ليست معي إنها مع العسكري..

ـ لكنك كنت معه...

ـ هذا صحيح... لكنه أخبرني أنها هدية لكم وقد دفعت نصف ثمنها له وأعطاني موعداً إلى صباح اليوم... وانتظرت ولم يحضر...

ـ وهل سلم القيمة لصاحب البضاعة...؟

ـ لا أعلم فقد تركناه على أساس الدفع عندما تناسبكم الهدية...

ـ هذا هراء...

ـ انه الواقع. . . سيدي فقد قطعت مسافة طويلة وتحملت أعباء كبيرة للحصول على العمل هنا. . .

واستمر يشرح قصته بلباقة وقد أنصت الحاضرون بإمعان لسرده. . . ولما أكمل قام كاتب «العامل» بلباسه الأبيض وخاطب العامل:

ـ مولاي. . . اللّه يحفظكم. . . هل تسمحوا لي بالاختلاء مع الرجل عسى أن يعترف لي بالحقيقة. . ؟

ونظر إليه «العامل» بتردد ثم وافق على اقتراح كاتبه. . . فأمر الكاتب بعض العساكر لأخذ المتهم وراءه إلى مكان مجاور. . . فلما دخلوا المكان أمرهم بالخروج والانتظار خارج المكان والتفت إليه قائلاً:

ـ هل تريد أن تخرج من هذا المأزق. . ؟

ـ ما هو المأزق. . ؟

ـ أتريد التلاعب مرة أخرى. . ؟

ـ أظن أنك قد فهمت قصتي من أولها إلى آخرها. . . وسأوجز لك. . . فأنا يمني مهاجر. . . عاد من المهجر. . . يريد العمل كمترجم يفيد بلاده ومواطنيه. . . و. . . و. . .

وقاطعه برنة آمرة مستخفاً:

ـ لا تردد على مسمعي هذه القصة الغريبة فأنا أعرف أنك «ذماري». . .

ـ وما الخلل في ذلك. . ؟

قال ذلك وقد تقلص وجهه بتسائل غاضب بينما قال الكاتب:

ـ إن كنت تريد الخروج من المأزق. . ما عليك إلّا أن تدفع مبلغاً من النقود نرضي به «العامل» ويفك سراحك. . .

ـ أتعني أنني محتجز. . . ؟

ـ نعم. . .

ـ لا أجد مبرراً لدفع أي شيء ويكفي ما قد أخذه العسكري ألا تفهم ذلك أم أنكم جميعاً نصابون. . ؟

استاء كاتب العامل من ذلك وقد علاه الغضب فنادى على العساكر. . .

فلما أدخل على «العامل» مرة أخرى قال الكاتب:

ـ مولاي. . . لقد تبين لي أن الرجل نصاب كبير. . . وأرى حبسه حتى يدلي بالحقيقة. . فلا يمكن أن يحدث هذا أمامكم وفي صنعاء. . .

تمهل «العامل» قليلاً وقد احتار في حكم كاتبه الذي له من التقرب عند الأمراء أكثر مما «للعامل» فقال:

ـ يا «ذماري» ألا تقول لنا الحقيقة!؟

ـ الحقيقة أن العسكري قد أخذ الهدية والثمن ورحل. . . هذه هي الحقيقة وإلا ما كنت منتظراً له طوال النهار. . . أليس هذا شيء يفهمه ذوو البديهة والعقل والمنطق. . ؟

فحاول الكاتب الاحتجاج على ذلك لكن «العامل» لم يتح له فرصة واستمر في حواره قائلاً:

ـ هذا صحيح فأنت لم تأخذ البضاعة. . . لكنك اعترفت أنك كنت مع العسكري وتعرفه. . .

ـ أعرفه كما يعرفه صاحب الحانوت وإلا لما أعطاه البضاعة بلا ثمن. .

استحسن الحاضرون لباقته وقد علت أصوات بعضهم ببرائته إلى آذان «العامل» مما دفع بكاتبه إلى الاقتراب منه وقد استشاط غضباً وقال للعامل هامساً:

ـ مولاي. . . الله يحفظكم. . . ألا ترون لباسه الغريب. . ؟

ـ نعم. . . وما في ذلك. . ؟

ـ لقد عرفت منه أشياء توحي بالشك والريبة. . .

ـ كيف. . ؟

ـ ربما يكون من بقايا «الدستوريين». . .

ـ أيعقل هذا. . ؟.

ـ وأخاف أن تلام على إفلاتك له من قبل مولانا سيف الإسلام.

ـ وما العمل. . ؟

ـ أدخله السجن. . . فما الضرر من ذلك حتى يتسنى لنا التأكد. . .

ترقب الحاضرون نتيجة التهامس الذي دار بين «العامل» وكاتبه وقد انتابت العامل نوبة تفكير فيما أورده كاتبه فنهض وقال:

ـ خذوه إلى «الرادع». . .

سأل العسكري الذي أخذ بتلابيبه مستفسراً:

ـ ما هو «الرادع»؟

ـ سجن مظلم ياعاق والديك. . .

تعجب لقول العسكري المقلد لعساكر الشمال فقال:

ـ لفظك غريب. . .

ـ هنا أو هناك. . . لفظ العسكري واحد. . .

سيق مع ثلة من العساكر مشياً على الأقدام نحو سجن «الرادع». وجده من الخارج عبارة عن سور من الطين وبوابة من الحجر الأسود. . . قد اكتظت أمامه جموع من النساء والرجال يعلو صياحهم كل يطلب صاحبه ليقدم له الغذاء أو الكساء للجدد من نزلاء السجن. . وحراس الباب يماطلون حتى تدس في أيديهم رشوة متواضعة بعدها يسمح للغذاء والكساء بالدخول. . .

أُدخل بسلام من البوابة الرئيسية ثم فتح باب آخر فوجد حرساً بعصي غليظة وصياحهم يعلو بعنف. . . شعر بالرهبة والحزن لأول مرة. . . وأقعد على مقعد حجري ثم أمر بمد رجليه إلى فوق حجر صغير. . .

قام أحد الحراس فأخذ قيداً حديداً من مجموعة من القيود كانت معلقة بمسمار أمام الباب الداخلي. . . نظر الحارس إلى الرجل متعجباً للباسه الغريب فأعاد القيد الأول وأخذ يتفحص قيداً كبيراً آخر. . . وقال متذمراً:

ـ من أين جئتم لنا بهذا. .؟

ـ من عند العامل. . .

ـ هل هو من بقايا الدستوريين. .؟

ـ الله أعلم. . .

دق له القيد ونهض ثم قاده أحد الحراس وزج به من الباب الداخلي للسجن وقفل وراءه. . .

وجد نفسه في ساحة كبيرة ومن حوله وجوه قد اشرأبت للنظر إليه. . .

كان يتوقع أن يقوده الحارس إلى مكان معين. . . واقترب منه بعض

السجناء وقيودهم ترن محدثة أصواتاً مزعجة اعتادها بعد ذلك وتحولت إلى نغم لحنه بالصفير بفمه. . .

وجد الساحة متربة والذباب يتكدس فوق أكوام هائلة من بقايا القاذورات. وجد أيضاً غرفاً اعتقد أنها محفورة داخل الأسوار كخلية نمل أو كجحور الفئران البرية. . .

واستمر تدفق النزلاء عليه حتى أحاطوا به ترحيباً بزائرهم الجديد. . . استسلم بصدر رحب لكل أسئلتهم ونكاتهم اللاذعة.

* * *

استطاع خلال الفترة الأولى لدخوله السجن أن يعرف الكثير عن زملائه النزلاء. . . استطاع أيضاً رغم القيد الحديدي الثقيل الذي أكرمه به الحارس أن يجد عملاً يلهيه عن القلق ويكسب منه ما يقتات به. . . عمل غسالاً للنزلاء وعساكر السجن. . .

وتعرف إلى نوعيات مختلفة من النزلاء. . .

كانوا جميعاً عبارة عن معسكر كشفي يتسامرون ويقيلون في «مفرج» مدير السجن الذي يوفر التبغ الجيد «بمداعته» المزركشة. . .

كان الليل ثقيلاً لعدم وجود الإضاءة وكانت الشمعة تكلف داخل السجن الشيء الكثير. . . وضع في مكان مع مجموعة لا بأس بها من الوعي والثقافة. . . أبرزهم شيخ قبيلة مجاورة لصنعاء. . . سريع البديهة لاذع النكتة مرح الحديث صادق في إخلاصه لأصدقائه النزلاء. . . كان يلجأ إليه في همومه وقد تحمس لقضيته. . .

تعرف أيضاً في مكان مجاور إلى شخص نظر فيه الوقار والاتزان وكان ممن يحضرون «مقيل» مدير السجن. . . في حديثه رنة عصرية عن القانون والنظام. . . وكانت لديه كتب معدودة استطاع أن يلخصها لمريديه من النزلاء في مكانه وقد استغرب كيف استطاع هذا الرجل الوقور الحصول على مثل هذه الكتب. تأثر وهو يسمعه كل يوم في درسه للنزلاء بقوة إيحائه عن «أهوال الاستبداد» والمنفلوطي. . . الرافعي. . . تاريخ الإسلام السياسي. . . واستطاع أن يستعير منه رواية «لجرجي زيدان» عن الانقلاب العثماني عاش معها عدة

ليالي على ضوء شمعة أنسته الملل.......... قرأها مرة أخرى على زميله الشيخ الذي تأثر بها كثيراً...

ـ لم يكن عبدالحميد مثل الإمام «يحيى» حتى يقوم عليه الانقلاب..

ـ لماذا.؟

ـ لم يكن بخيلاً...

ـ ما أدراك؟

ـ لديه الجيوش الجرارة والقصور العامرة ... والرفاهية... وإنما كان قاصراً عن إدراك دور الخلافة والطموح لتحقيق ذلك...

ـ والإمام يحيى...؟

ـ لقد كان الإمام «الشهيد» بخيلاً على نسائه فما بالك بالبلاد...

ـ أتقول الإمام «الشهيد» وأنت ممن ساهموا في الانقلاب.؟

ـ لقد كنت مستاءاً كغيري ممن ضحوا في سبيل إخراج الأتراك من البلاد بدمائهم وأموالهم... ولولا حاجة الناس للقوت والأمان لما تربع الإمام يحيى على عرش اليمن...

ـ أكان لديه ذلك؟

ـ نعم لقد كدس الطعام وكل أنواع الحبوب وكم كانت حاجة الناس لذلك في فترة المجاعة...

* * *

أخذ مكانه في «مفرج» مدير السجن يمضغ «القات» بعد أن رمى له المدير بغصن من «القات» وما لبث الآخرون أن أكرموه أيضاً...

كان الحديث متنوعاً ومزاج المدير رائقاً فانبسط بالحديث مع خليط من السجناء ذوي الشخصيات الاجتماعية البارزة... كان الشيخ موجوداً في مكان الصدارة لأن أقاربه يرسلون له كمية وفيرة من «قاته» المشهور يقوم بتوزيع أكبر كمية منه للمدير وحراسه وللخصوصيين من النزلاء...

قال المدير مخاطباً الحاضرين:

ـ لقد نجح «الذماري» في عمله...

ـ نعم لكنه لا يحسن التنظيف جيداً.

ـ بالعكس يا سيدي. . . إنني أعتني بملابس «الدستوريين» أكثر من غيرهم. .

ضحك مدير السجن وقد نظر إلى الرجل الوقور بينما قال الأخير:

ـ الحقيقة أنه منذ جاء «الذماري» أضاف إلى مجلسنا شيئاً من المرح ونتمنى أن لا يفارقنا أبداً. . .

ـ لم يحكم علي بالمؤبد مثلكم وإلا كان يشرفني ذلك. . .

ـ لا تفرح يا «ذماري». . . فهنا لا توجد أحكام زمنية معروفة ترتاح إليها وإنما حسب المزاج.

ـ أتمنى أن يكون مزاج «العامل» رائقاً. . .

فقاطعهم المدير قائلاً:

ـ لقد نُقل «العامل» التعزي يا ذماري وجاء «عامل» آخر من صنعاء. .

وذهل لقول مدير السجن فقال:

ـ وقضيتي لديه. . .

أجاب مدير السجن بهز كتفيه جاهلاً. . .

* * *

قضى ليلة كئيبة في زنزانته بينما حاول صديقه الشيخ أن يهون عليه. . .

وفي الصباح ذهب مع الشيخ متجهين إلى مدير السجن وقد رافقهم الرجل الوقور متحمساً. . . كان الزحام على أشده أمام مكان المدير عند البوابة الثالثة والتصايح يعلو عن سجناء جدد حبسهم «العامل الجديد» وصكيك القيود يكاد يصم الآذان.

قال للشيخ:

ـ أرجو أن يكون مزاج العامل الجديد رائقاً. . .

أجابه الشيخ وهو ينظر إلى زميله الرجل الوقور باسماً:

ـ لا أعتقد ذلك مع وجود هذا العدد من السجناء الجدد. . .

ـ ربما يكون نتيجة لارتفاع الجريمة هذه الأيام. . .

فأجابه الرجل الوقور:

ـ ليس هذا هو السبب فالجريمة تكاد تكون معدومة في المجتمع اليمني. . .

ـ إذاً ما هو السبب؟

ـ إجراء إداري يثبت به «العامل» الجديد عند «الإمام» حزمه وصرامته ليظل مدة أكبر مما قضاها «العامل» الأول. . .

ـ أرجو أن يكون المدير متفهماً ويسمح بنقل الشكوى؟

أجاب الشيخ قائلاً:

ـ إنه مبسوط المزاج هذه الأيام. . . فدخله مرتفع وهو لا يحب بقاء السجناء فترات كبيرة. . .

ـ لماذا. .؟

ـ لأن فك القيد يعطي أجراً مضاعفاً . . . والمدير يحب أن تنشط حركة الخروج بما يساوي حركة الدخول. . .

لمحهم المدير فاستأذنوا منه بالدخول فسمح لهم. . . فقدم الشيخ مراجعة «الذماري» إلى المدير وأخذ يجامله ويترجاه في إرسالها إلى العامل الجديد. . .

هز المدير رأسه بالموافقة فاستأذنا بالخروج بينما بقي الرجل الوقور لمتابعة إرسالها. . .

عاد مع الشيخ إلى الساحة وقد أفعم بالأمل.

ـ أعتقد أن «لقاتك» يا سيدي الشيخ الفضل الأول في قبول المدير.

ضحك الشيخ لقوله فاستمر بتفاؤله متسائلاً:

ـ هل تعتقد أن مراجعتي ستنجح عند «العامل» الجديد.

ـ لماذا التشاؤم؟

ـ أرجو أن لا يكون الكاتب موجوداً.

* * *

مرت عدة أيام قاتمة. . . كان يتوقع في كل «مقيل» أن يفيده المدير بما يتمناه. .

وفي يوم ألح على صديقه الشيخ بسؤال المدير وكان «المقيل» قد تأخر قليلاً لتأخر قات الشيخ الذي هدأت أعصابه حال وصول رسوله «بالقات» فقال الشيخ مخاطباً المدير وقد قام بتوزيع هباته من القات كالمعتاد:

ـ هل وصلت إفادة بخصوص «الذماري»؟

ـ وصلت. . . وتفيد بالإفراج عنه. . .

هزته الفرحة وهنأه الجميع لكن المدير قال:

ـ لكنها معلقة بشرط الضمان والكفالة عنه. . . ومغادرة صنعاء نهائياً:

قال الشيخ بحماس ظاهر:

ـ لا يهم ذلك فأنا على استعداد للضمانة والكفالة عنه وبمغادرته صنعاء فوراً.

ـ وهل تضمن عليه بأن لا يعود إلى توريد الحبوب إلى صنعاء أو الاتجار بها؟

واندهش الجميع لذلك بينما قال المدير:

ـ لقد دهشت أنا أيضاً من شرط «العامل». . . ولذلك أخرتها لدي حتى يجيب على «العامل» بأن الرجل لا يورد الحبوب وإنما قضيته تختلف عن ذلك. . .

واحتار «الذماري» لهذا الموقف المفاجئ العجيب وقد شعر أن أمنية الرجل الوقور ببقائه تكاد تتحقق فنظر إلى الشيخ فوجده يفكر ملياً وفجأة قال مخاطباً المدير:

ـ لقد ضمنت وكفلت على الذماري بما هو مطلوب منه.

ـ لكن.

ـ لكن إذا أرجعت الإفادة إلى العامل. . فأنا على يقين بأن «الذماري» سيعرقل مرة أخرى وإلى الأبد. . . وأنتم تعرفون قضيته تماماً فلا داعي للعرض مرة أخرى للعامل فربما يكون هنالك «ذماري» آخر يورد الحبوب في سوق الطعام قد عرضت قضيته صدفة عند العامل الجديد عند وصول شكية الأخير. . . فهذا من حسن حظ صاحبنا. .

اقتنع المدير بذلك ونظر إلى الذماري الذي تململ بألم لمغادرته صنعاء وقد اقترب من الشيخ وهمس له قائلاً:

ـ لكن ما السبب لمغادرتي صنعاء؟

ـ وما الفائدة لبقائك؟

ـ أريد أن أعمل.

ـ لقد نفذت بجلدك ولا داعي لبقائك.

كان يود أن يقول أنه يتمنى البقاء لرؤية «وردة» مرة أخرى والتي لم يرها منذ دخوله السجن ولم يستطع الاتصال بها خوفاً عليها وعلى سمعته. . .

* * *

قال له صديقه الشيخ وقد تهيأ للنوم:

ـ لا تبدو عليك ملامح السعادة لمغادرتك السجن صباحاً. .

ـ لقد آلمني الأمر بالمغادرة من صنعاء وكأنني أجنبي.

ـ قد يكون ذلك خيراً لك.

ـ لكن عشت فيها لحظات سعيدة.

ـ في السجن. .؟

ـ لا. . . وإنما في «سمسرة وردة».

وسبح قليلاً في خيال هبط عليه مفعماً بالأمل في رؤية «وردة» مرة أخرى. . فتنبه لصديقه الذي قال محتجاً:

ـ لم تحدثني من قبل عن لحظاتك السعيدة هذه.

ـ كنت أخجل من الحديث وأخافه. .

ـ لماذا؟

ـ لقد أحببتها وعشت معها لحظات ليست في العمر كله.

ـ أتعني «المقهوية». . .

ـ أعني «وردة». . .

ضحك الشيخ قائلاً:

ـ خيالك رائع. . .

قال وقد تنهد بحسرة:

ـ أود البقاء عسى أن يغير «العامل» أمره بالطرد من صنعاء. . .

ـ لن يفعل ذلك. . . وخصوصاً إذا سأل ذلك الكاتب عن قضيتك فلا تكن ساذجاً واحمد الله على هذه المصادفة التي حدثت. .

وجم قليلاً ومازال سابحاً في خياله فقال متسائلاً:

ـ هل أستطيع رشوة العساكر لكي يسمحوا لي بالبقاء في صنعاء؟

ـ لقد رفضت أن ترشو العامل وكاتبه من قبل. . .

ـ كان ذلك موقفاً آخر. . .

ـ والآن. . .

ـ في سبيل الحب. . . ثم ما الضرر من بقائي؟

ـ لم تخبرني من قبل عن حبك هذا فمن هي. . ؟

ـ «وردة» يا عزيزي. . . «وردة» أو لم تسمع بها. . .

ـ أسمع وأعرف «سمسرة وردة» فقط.

ـ أعني «وردة» المقهوية صاحبة «السمسرة».

ـ لقد ماتت منذ زمن بعيد.

فقال مذهولاً:

ـ ليس معقولاً.

ـ لماذا؟

ـ عشت معها أسعد لحظات عمري قبل دخولي السجن.

ـ ربما تقصد «المقهوية».

ـ نعم.

وضحك الشيخ قائلاً:

ـ «وردة» هو اسم «السمسرة» منذ القدم.

ـ وهي ما اسمها؟

ـ من هي؟

ـ أعني المقهوية.

ـ لا أعرف إلّا أنها «المقهوية» فقط.

ونام ليلته على ضحكات صديقه.

* * *

كان وداعه من زملائه في الصباح مؤثراً بعد أن قام الشيخ بكتابة الضمانة والكفالة والتعهد بالمغادرة من صنعاء وبعدم توريده للحبوب إلى سوق الطعام.

وفك قيده وقد رفض المدير أخذ «الرسامة» منه فاعتبر ذلك منه كرماً. .

ونهض وقد رافقه نفران من الحرس لكي يصحباه إلى خارج صنعاء فخرج معهما من البوابة الخارجية وعاد كمن تذكر شيئاً نسيه ونادى على صديقه الشيخ الذي مازال واقفاً على البوابة:

- أصحيح ما قلته مساء البارحة عن «وردة»؟

وضحك الشيخ مودعاً قائلاً:

- كل ما قلته صحيح. . وإذا أحببت التأكد فاسأل العساكر المرافقين لك.

والتفت نحو العساكر المرافقين له فنهروه بسرعة العزم فأذعن.

عقدة!

ربما كنت مخطئاً عندما أرى فتيات المدينة يرمقنني بنظرات الرغبة... ولهذا فقد كان من عادتي النظر إلى المرآة كل صباح بتأن قبل خروجي... كنت أرى وجهي الوسيم بعض الشيء... ولونه المائل إلى السمرة العربية الموحية بصحاري العرب الشاسعة... وشعر رأس «لا يشبه من قريب أو بعيد شعر «جون كندي» أو «تشومبي»...

أقول الواقع... فقد كنت ملفتاً للفتيات... وربما زاد وسامة وجهي شارب يبدو كخيط الغسق وذقن بدأت في النمو بأركان مبعثرة... فعمري لم يتجاوز الثامنة عشرة...

وما أن حلت أو هبطت علينا معشر الطلبة الإجازة حتى سارعت كغيري بالسفر إلى «القاهرة» عاصمة النور والأفلام والملاهي والطعمية والفول «الدمياطي» ومشاهدة أفلام ب.ب م.م ـ وهند رستم... الخ...

وصلت «القاهرة» واختلطت بالشباب والكهول من زبائن الشارع الدائمين... أحسست بأني لست ذلك الشاب... شاب المدينة الريفية... الوسيم المطارد من الفتيات...

كنت إذا سرت في أحد شوارع القاهرة وبالأخص شوارعها النظيفة المطرزة بالملاهي ودور العرض راعني طول قامة الشاب الذي يمر من حولي ووسامته... وعندما أمر من أمام واجهات محلات البيع لا تفوتني رؤية نفسي على زجاجها أمام هؤلاء العمالقة فأكاد أجن من الغيظ ويدفعني ذلك إلى دفع عشرة قروش قيمة تذكرة دخول إحدى دور العرض الكبرى... وربما صدفة أجلس بجوار فتيات وفتيان كلهم يتبادلون نظرات الغزل فأجلس لأستعيد خيالي عندما قطعت التذكرة من أمام تلك الفتاة الحسناء وعندما دفعت لها ثمن التذكرة وإذا بها تبتسم لي بدلال فأكاد أستعيد ثقتي بوسامتي... ولكن ما إن ابتعدت

حتى صدمتني ضحكتها اللاذعة وهي تداعب الواقف خلفي... وكان من العمالقة...

مرة جلست خلف فتاة كانت في كل دقيقة تلتفت إلي وتبتسم... جذابة... شعر ذهبي يتهادى على أطراف وجنتيها... شفتان تكادان تنشعان بالدم... لكنني كنت كما ذكرت قد فقدت آخر أمل في الثقة بوسامتي فلم أبتسم لها... ولكن ربما... وأحاول أن أبدأ بابتسامة إعجاب لكنها تذوب بعد ذكرى بائعة التذاكر... و.. صممت على مبادلتها الابتسامة وما أكاد أفتح فمي عن ابتسامة تكلفت لها كثيراً حتى اكتشفت أنها تبتسم لشاب خلفي وقد جعلت من أذني «نيشاناً» عليه كما يوجد في بندقية الصيد... وكان الشاب عملاقاً...

وهكذا أجرح في كبريائي... مهموماً أكاد أرمي بكل شيء أمسكه بيدي... و... وأذهب إلى مطعم بعد أن أكاد أموت جوعاً... ولا أدخل المطعم حتى تنساق عيناي إلى المرايا المعلقة على حيطانه... حتى عندما أغسل يدي لا أستطيع كبح رغبة عيني عن النظر إلى المرآة فأجد من حولي من العمالقة فأكاد أشرع في مبارزة تلك الوجوده التي خلفي.

مللت البقاء كثيراً في عاصمة العقد فصممت على العودة إلى مدينتي التي تكفلني فيها بالراحة وإعادة الثقة بالنفس بعد تكبد العقد النفسية «الوسيمية».

كان الحر شديداً عندما وصلت إلى ميدان «الأوبرا» فاضطررت للانزواء في أحد أركان قهوة عتيقة من النوع الذي يجذب بعض السائحين الأجانب لقرب فندقهم المفضل منها... وما إن استقر بي المقام على أحد كراسيها الخيزرانية على طاولة رخامية حتى لعنت القهوة وصاحبها لأنه قد ملأ حيطانها بالمرايا فامسكت بجريدة الصباح وبدأت أقرأ خبراً أنساني كل العقد والحساسيات... كان الخبر عن إصدار ناصر الزعيم القائد قرارات اشتراكية ثورية...

حضر النادل فطلبت عصيراً بالثلج.. وانهمكت في قراءة تلك القرارات

وقد تخيلت وقعها على جموع البقايا من مُتْرَفي الأرض. . أفزعني خبط عنيف وصوت يصيح قائلاً:

- تمسح «يا بيه». . ؟

- لا. . .

- جزمتك وسخة «يا بيه»؟

- لا يهم. . .

وتابعته بنظري حتى مر على جموع من البهوات والبشوات. . . رجعت إلى قراءتي وإذا بائع متجول يصيح بصوت قد بح:

- زراير. . أمشاط. . بقرش صاغ. . عاوز زراير يا بيه؟

- لا يا سيدي.

- أصل قميصك فيه زرار مقطوع يا بيه؟

- لا يهم.

- وشعر رأسك.

- ماذا. . ؟

- مبهدل. .

- لا يهم.

- لماذا؟

- موضة العصر. . ألم تسمع عن «جمس دين» ؟

وانبهرت من فمه الناقص قليلاً من الأسنان ضحكات استخفاف واستهجان فقلت:

- ما يضحكك؟

- لا شيء «يا بيه»

وشيعته وأنا لا أدري ما الذي دفعني لقول هذا الكلام. . . هززت رأسي لأتأكد من صدق وصفي. . . لكن الشعيرات لم تحرك ساكناً.

وعدت للقراءة فمرق من أمامي كالبرق رجل بجلباب بالي وقد رمى بورقة وكتب أمامي كالريح وما هي إلّا ثوان حتى ملأ القهوة كلها. . أخذت الورقة وقرأتها وكانت إعلاناً عن إحدى الروايات الرخيصة الأسلوب الغالية

الثمن وزاد نفوري ذلك العنوان المايع «حب وهوى» ورميتها جانباً فإذا به قد عاد محاولاً ترغيبي بشرائها بطريقة إرغامية فعمدت إلى الصمت حتى بدأ في استرخاء ذوقي وشعوري قائلاً:

ـ ثقف نفسك «يا بيه».

فقلت وقد عجبت لهذا النوع من الثقافة:

ـ وهل هذه ثقافة؟

ـ نعم «يا بيه»... حب وجنس... ومن الذي بالك منه.

ابتسمت باشمئزاز وهززت رأسي إعلاناً بعدم الشراء رغم تكراره العنيف فأنصرف وكدت أشتريها لأريح نفسي منه.

عدت إلى متابعة تلك القرارات الاشتراكية وقد بدأ ذهني يشرد إلى مجالات أخرى من الحس الثوري لمعنى الخنوع الراسخ عند العامة بترديد آيات المذلة «كالبيه والباشا» وألفاظ أخرى تدل على مخلفات عصور مظلمة.. ومازالت تتردد بعد كل المحاولات التي تلت الثورة.

واستفقت على مناداة أخرى لشخص آخر بجلباب مماثل يصيح مستحسناً.

ـ يا سلام.. يا سلام.. مناديل.. شربات.. كله نيلون في نيلون.

واتجه نحوي قائلاً:

ـ خذ.. رخيصة «يا بيه».

ـ لا أريد.

ـ شرابك مقطوع «يا بيه».

ـ لا يهم... الحالة غلبانة.

ـ مش معقول... شكلك «كالبيه» تماماً.

ابتسمت له بالرفض فتركني باشمئزاز.

وهكذا توالت علي الهجمات من جحافل البائعين المتجولين زادتني ألماً ولكنها فتحت أمامي لأول مرة الفهم لمعنى الفوارق الطبقية وأشياء أخرى.

حانت مني التفاتة إلى ركن في المقهى فوجدت الجحافل قد تكومت على شاب وشابة أدركت أنهما سائحان أجنبيان.

كرهت الصورة التي سينقلها الشابان عن مستوى الحياة وفقر الطبقات المسحوقة إلى درجة الخنوع مع توجيه بعض العتاب لهم بالانصراف وليس من اللائق عمل ذلك وكادت تقوم بيني وبين أحدهم مشاجرة تخلصت منها بلباقة وأخذت السائح ورفيقته إلى طاولتي وطلبت لهما مشروباً... وقد حاولت بما أملك من كلمات إنجليزية أن نتعارف وأفهمهم أنه لا يخلو أي بلد من هذه العادة وهي عادة البائعين الجائلين والشحاذين..

كان ردهما يحمل مقداراً من الثقافة والوعي لإدراك مثل هذه الأمور... وشدني شيء... فكلما كنت أتكلم تنفرج عن تلك الفتاة ابتسامات ناعمة ومشجعة أيضاً وقد اتجهت بوجهها كله نحوى حتى خجلت... كدت أطير فرحاً لأنها أعادت إلي ثقتي المفقودة... وقلت لنفسي ربما يكون تصرفي اللائق وكلامي المؤدب وشكلي أيضاً قد جلبها... وبدأت تراودني أفكار مقدامة جريئة... ولكن ما إن قمنا ودفع السائح الحساب بعد معارضتي الشديدة طبعاً حتى كانت زميلته تشرح له أسباب ضحكاتها... لقد كانت تضحك على أشياء موجودة في... نعم... ربما في شعر رأسي أو ثيابي... أو مدى قصر قامتي أشياء ربما زادتني نفوراً من البقاء.

وصلت المحطة وكان الشوق يهزني للعودة واكتشفت أنني لا أملك سوى قيمة التذكرة فقط... وزاد بي الحنين نسمات المساء المقبلة من نافذة القطار المكتظ بجحافل من البائعين... ولطف الجو أملي في العودة لمعاكسة فتيات مدينتي حيث أجد الثقة بنفسي.

بني سويف 1961

مجموعة
العقرب

مقـدمة

بقلم: د. عبد العزيز المقالح

عندما ظهرت «طاهش الحوبان»، وهي المجموعة القصصية الأولى للقاص زيد مطيع دماج أثارت حولها من الاهتمام ما لم تثره أية مجموعة قصصية يمنية أخرى، وخارج اليمن على وجه الخصوص، فقد استقبلها عدد من النقاد والدارسين استقبالاً أعترف أنني لم أكن أتوقعه بالرغم من أنني كنت قد قدمت المجموعة بكلمات طيبات، وتفاءلت كثيراً بظهورها في عالم القصة القصيرة في اليمن بعد شهور من غياب رائد هذا الفن في بلادنا الصديق المرحوم محمد عبد الولي.

وقد أثار الاهتمام غير العادي بالمجموعة من قبل بعض النقاد القاصين في مصر فضولاً في نفسي لمعرفة الأسباب، وبخاصة عندما رأيت الصديق الأستاذ فاروق خورشيد ينكبُّ على المجموعة، ويبدأ في تحويل قصصها إلى أعمال إذاعية وتلفزيونية فضلاً عن الأحاديث المتناثرة عنها هنا وهناك. وهو ما لم يحدث لمجاميع قصصية أخرى قدمتها إليه وكنت أعتقد أنها تفوق قصص مجموعة «طاهش الحوبان» فناً، وتجربة، وفي مقدمتها مجموعة فارس القصة اليمنية الراحل.

ولا أخفي وأنا أسترجع ذكريات مضى عليها أكثر من ثماني سنوات، أنني ناقشت الصديق فاروق عن السر وراء اهتمامه الخاص بمجموعة زيد مطيع دماج، وأتذكر أنه قال لي وهو يحمل المجموعة بين يديه: «في هذه القصص شممت رائحة اليمن. اليمن وليس أي مكان آخر. صورة اليمن في هذه المجموعة واضحة أكثر منها في أية مجموعة قصصية أخرى قرأتها. وعلى سبيل المثال فإن قصته «الذماري» في مجموعة «طاهش الحوبان» تعبر عن البيئة اليمنية وتعكس الواقع اليمني بشفافية عميقة أكثر من تلك القصص التي تعتمد على الصياغة الفنية الباذخة والتعبير الجميل».

وشارك في الحديث يومئذ الدكتور عبد القادر القط، وهو من أساتذة نقاد القصة القصيرة والطويلة في الوطن العربي، وكان مما علق بذهني من حديثه أن في كل قطر عربي عدداً من القاصين المبدعين الذين برعوا في التقنية القصصية، وهم يكتبون أحياناً قصصاً على مستوى عالمي لكنها غالباً ما تخلو من رائحة الأرض التي خرجت منها. ولا تحمل ألوانها الخاصة ولا الأبعاد الاجتماعية للواقع. إن الطاقة التعبيرية وحدها لا تكفي إن لم ترتبط ببعد إيجابي ومتفاعل مع الواقع..

من هنا إذن تميزت قصص زيد دماج ليس لأنها من النوع الذي يرسم ملامح البيئة وتضاريس الهم العام والمباشر وحسب، وإنما لأنه يحرص كذلك على اختيار شخصياته من الوسط الشعبي العام وإعطاء دقائق حياتهم النفسية والاجتماعية بعداً واقعياً واضحاً مهما شاب ذلك الجهد من تبسيط. وهذا التميز والخصوصية في التقاط الشخصيات وتناول الأحداث وكيفية التعامل مع هذه الشخصيات والأحداث هو الذي أعطى لمجموعة «طاهش الحوبان» نكهة محلية خاصة وملمحاً وطنياً متميزاً.

وبما أن صديقي القاص زيد مطيع دماج قد منحني فرصة أخرى لتقديم مجموعته القصصية الثانية إلى القراء، فقد كان أول ما تبادر إلى ذهني أن أمهد للحديث عنها بالإشارة من خلال الذكريات التي احتفظت بها إحدى رسائلي القليلة إلى الصديق زيد عن صدى مجموعته الأولى ومن ثم لكي تكون الملاحظات التي تضمنتها تلك الذكريات مدخلاً طبيعياً يساعد على فهم العالم القصصي لهذا الفنان وإدراك مستويات رؤيته المتطورة تبعاً لتطور الموقف الاجتماعي وتطور أدوات الفنان وأساليبه التعبيرية.

في الخمسينات، أي منذ ثلاثة عقود مضت كانت الاتجاهات الجمالية في الأدب تتساقط، وكانت موجة من الاهتمام بالمضمون والواقع تسود الكتابات الإبداعية، وكانت القصة هي الفن الأدبي الذي استجاب للمطالب الجديدة استجابة وصلت به أحياناً إلى درجة من السطحية والإسفاف. وقد أدى الانحراف في فهم الواقعية إلى إعادة النظر في الكتابات الخالية من الفن واعتبارها تصويراً رديئاً ونقلاً حرفياً للواقع يفتقد أهم العناصر التي تجعل منه أدباً يعنى بالإنسان ويعبر عن أحاسيسه من خلال لغة فنية، وتعبير إبداعي. وقد تحدث النقاد كثيراً عن المعادلة الصعبة التي ينبغي للأديب أن يتقنها من خلال

عنايته الفائقة بمضمون العمل الأدبي وأسلوبه، بجمالياته، ومكنون محتواه.

ولم يعد هذا الإشكال، في الآونة الأخيرة، وقفاً على الأعمال الأدبية الإبداعية، بل ربما تعداها إلى غيرها كالنقد مثلاً، وهو عمل وصفي تحليلي. يقول الدكتور عز الدين إسماعيل رئيس تحرير مجلة «فصول» في افتتاحية العدد الثالث: «إننا نواجه مأزق الفكر ومأزق اللغة في آن واحد، ولكننا على غير استعداد لتحاشي المغامرة إيثاراً للسلامة». وكان يشير بذلك إلى أساليب النقاد المتطورة، وإلى شكوى القارئ غير العادي، بل القارئ الكاتب والمبدع من صعوبة فهم الكتابات النقدية، وغموض مصطلحاتها. وإذا كان النقاد ـ خلافاً لما يقوله الدكتور عز الدين ـ سوف يتحاشون المغامرة في مجال كتاباتهم النقدية، وأنهم إيثاراً للسلامة سوف يلجأون إلى استرضاء القارئ فإن ذلك قد يجرهم إلى مراعاة ما يتطلبه القارئ العادي من تبسيط يصل إلى درجة الإسفاف، مالم يكتشفوا قوانين المعادلة الصعبة. وإثارة مثل هذا الإشكال في مثل هذا المكان وفي مقدمة مجموعة قصصية تأكيد ضمني على أننا ما نزال نتلمس طريقنا في كل المجالات، ولم نستحوذ بعد على المعادلة الصعبة في العملية الكتابية، فما يزال الناقد كالشاعر، كالقاص تماماً، ما يزالون جميعاً يبحثون عن أساليب تعبير لا تحرم الكاتب من متلقيه ولا تحيل عمله إلى ثرثرة سطحية وكلمات جامدة. وزيد مطيع دماج في مجموعته الثانية يواصل البحث ربما أكثر مما كان في المجموعة الأولى، وذلك عن المعادلة الصعبة التي سوف تقود إلى كتابة القصة القصيرة المعاصرة التي يتلاحم الفن والحياة في نسيجها كما يتلاحمان في الواقع نفسه عندما يتخلص هذا الواقع من عناصر التشويه والإفساد.

وزيد مطيع لا يقف وحيداً في هذا الميدان، وإنما تشاركه جماعات من فرسان القصة العربية القصيرة هنا في اليمن، وهناك في الأقطار العربية الأخرى، وهذه الجماعات لا تشارك القصة وحسب، وإنما تشاركه همّ فن القصة، وهمّ الخروج بها من منطقتي «الثرثرة» أو «التجريد».

ومن يداوم المتابعة إلى ما ينشر من هذا الفن يدرك أن غالبيته تقع تحت تأثير الثرثرة والتجريد، والقليل جداً هو الذي يرتقي إلى مستوى الفن القصصي ويحرص على أن تكون علاقته بالحياة وبمعطيات الواقع، مهما كان حظه كبيراً وعالياً من الجمالية التعبيرية والصياغة اللفظية.

السؤال التقليدي الذي يرافق ظهور أي عمل جديد لأي كاتب أو شاعر هو: ما الذي أضافه هذا العمل إلى سابقه، وما نوع التجاوز الذي حققه؟ وهو السؤال نفسه الذي سوف يتردد عندما تصبح هذه المجموعة بين يدي القارئ.

وقبل الإجابة على السؤال نفسه تجدر الإشارة إلى أن كل قاص يبدأ عادة كتابته للقصة وفي ذهنه الحكايات أو «الحواديث» والأساطير التي يسمعها عن طريق الجدّات، والأمهات وعجائز الحي أو القرية، ومهما كان حظه من التحصيل الثقافي، فإنه يظل متأثراً إلى حد كبير بذلك العالم القادم من الطفولة، والذي لا يمكن التخلص منه منذ المحاولات الأولى. لكنه عن طريق الممارسة، ومع اقترابه من أشكال الواقع السياسي والثقافي ومتابعته للأنماط الأدبية المختلفة، يتيقظ وعيه الفني ويبدأ في التخلص تدريجياً من قبضة الأساليب التعبيرية الخاضعة لفن الحكاية والأسطورة. وتقوده قدراته الفنية نحو الأحدث والأرقى والأكثر استيعاباً للواقع من أشكال التعبير، وتيارات التجربة القصصية المعاصرة.

وفيما يتعلق بزيد مطيع أستطيع أن أدلّل على أن قصة «ليل الجبل» مثلاً، وهي واحدة من قصص مجموعته الأولى «طاهش الحوبان» قد كانت واحدة من القصص التي يتوهج فيها أسلوب الحكاية، وفي المجموعة الجديدة قصة أخرى تمتُّ بصلة القربى إلى الأسلوب نفسه، وهي قصة «الحياة». وزمن كتابتها هو زمن كتابة أغلب قصص المجموعة الأولى. أما بقية قصص المجموعة الجديدة ومعظم قصص المجموعة الأولى فقد تخلصت نهائياً من أساليب الحكي القديم - إذا جاز التعبير - وزاد وضوح الاتجاه الواقعي التحليلي فيما يكتبه من أقاصيص، سواء هذه المنشورة في هذه المجموعة أو تلك التي لم يعدها للنشر بعد.

وإذا كنا قد أشرنا إلى قضية الاتجاهات الفنية فإنه من الضروري التأكيد على أن زيد مطيع قاص غير مهتم بمتابعة الأشكال أو الانبهار بأساليب التعبير القائمة على تيار الوعي أو اللاوعي، لأنه مشغول بما هو أهم، مشغول بتقديم صورة الواقع الاجتماعي والسياسي من خلال شخوص واقعية، ومشغول برصد إيقاع الحياة المتطورة سلباً وإيجاباً. وهذه المهمة تجعله يبتعد عن كل ما يبدد

ملامح الرؤية، ويفتت العلاقة بين فن القصة، وأبعاد الواقع ومعطياته. وما تزال المفاجأة التي سادت قصص الواقعيين في خمسينات وستينات هذا القرن عنصراً هاماً من العناصر الفنية البارزة في قصص زيد، وهي تبدو أوضح ما تكون في قصصه القصيرة جداً، كما في «العقرب» «والبغلة»، و «هاي هتلر». ويبرز دور الرمز في معظم قصص المجموعة الجديدة، ويصل ذروته في قصتي «فتاة مدبرة» و «العقرب»، وتشكل «الرحلة»، و «أول المنتحرين»، وهما أطول قصتين في المجموعة نواة عملين روائيين شاء لهما إيقاع الحاضر السريع أن يكونا ضمن هذه المجموعة من القصص القصيرة.

وبعد.. فإن القصة القصيرة في بلادنا لا تفتقر إلى النضج الفني والموضوعي، ولا تهرب على أجنحة الغموض إلى عوالم الإبهام والإنغلاق ـ كما هو الأمر مع نماذج كثيرة للقصة القصيرة في معظم الأقطار العربية ـ إلا أن القصة القصيرة في بلادنا تشكو من محنة فريدة، وهي محنة تتمثل في افتقارها إلى الجودة اللغوية وشيوع الأخطاء النحوية إلى حد الإزعاج، وإذا كان زيد مطيع في مجموعته الجديدة قد تجاوز الأخطاء اللغوية، فإنه لكي يستكمل قدراته الفنية، ولكي تتوازى هذه القدرات مع قدراته الموضوعية، فإنه مطالب بأن يسعى إلى تجاوز الكتابة باللغة العادية. واللغة العادية هي تلك التي تصبح مألوفة، ومتداولة إلى حد التكرار، وتجاوزها يعني الاقتراب الحميم من اللغة الحديثة الموحية، ذات التركيب الشعري، والمحتفظة في الوقت ذاته بقدر من البساطة والتوصيل.. لا أريد أبداً من زيد أن يخرج عن نهجه، وأن يتابع موجة اللعبة اللغوية التي انساق إليها عدد من القاصين العرب الذين يغرقون القارئ بثرثرات لغوية شعرية مملة، وإنما أريده أن يتبنى لغة فنية جديدة تلتصق بمعانيها، وتعبر بوضوح عن قضيته الكبرى، قضية الإنسان والوطن.

كلية الآداب ـ جامعة صنعاء
9/ 9/ 1981م

العقـرب

أن ترتطم السماوات بالأرض. . شيء يتوقعه الإنسان، كحدث سينهي خرافة هذا الكون اللامتناهي، وسيسبح مع روحه المنتشَلة من جسده، في ألوان من الطيف تتهادى بين أمواج شفافة، لا . . ولن يدري مستقراً لها. . !

لكن أن يحيد عن مبادئه في الحفاظ على منزله، ولو خسر أطفاله وزوجته، وربما حياته، فهذا شيء لم ولن يتوقعه، كحدث سيحدث. . وحتى لو حدث، سيظل متشبثاً بالأمل. . !

قد يُفاجأ، وذلك متوقع، بأمور تحدث. وهي في توقعه القلق بأنها ربما تحدث. . حتى ولو طغت عليه الساعة «السليمانية» في مقيله مع أصدقائه في أي منزل. . ينتابه ذلك الإحساس المتشائم من المستقبل القريب الذي قد يبدأ بعد دقائق.

دائماً يتوقع أنباءً جسيمةً، وهائلةً في أحداثها الفظيعة، ويجهد نفسه ـ وهو يقود سيارته ـ دائماً بعد المقيل. . يحاول أن يطمئن، ويؤمِّن نفسه بأنه سيصل إلى منزله، وبأن الأمور تجري على ما تركها، فلا يخاف على أطفاله من وقوعهم في حادث أو إصابتهم بما لا تُحمد عقباه. يفكر في نشوب حريق، ربما يحدث في منزله أثناء نوم طفله الصغير، وقد تركته والدته في سريره وذهبت لتقضي بعض الوقت مع جيرانهم. . أو ربما انفجر «البوتجاز» بزوجته وهي تعد العشاء للأطفال وبجوارها بعض منهم. . أو أن يقتحم لصوص المنزل في غيابه لينهبوا ما فيه، فلا يجدوا مقاومة، وأي مقاومة. . ؟! الزوجة والطفل الصغير مثلاً قد يقتلونهما، أو يقتلون الطفل الكبير الذي يمكث عادة لحراسة البيت. . أو ربما تنزل الأمطار بغزارة فتغرق السيول المنزل. . . كل ذلك متوقع دائماً. . يقلق له بجدية تصل في المقيل إلى درجة الهوس، فيتصبب منه العرق، ليمسحه بحركة عصبية ملفتة لزملائه. . !

حمل همومه بعد المقيل كالعادة. . هي نفسها «لم تتغير» من توقع لحدوث كوارث ستحل به أو بمنزله أو بمن فيه. . !

وأصبحت كلمة القدر غير قادرة على بعث الإطمئنان، أكثر مما تدفعه للرعب، وتجعله يتوقع حدوث قدر قاسٍ، وظالم، ورهيب. .

وصل حسب العادة ليطمئن، من أول مدخل الحارة، على عدم وجود شيء يثير الانتباه. . !، الحارة هي هي. وبعض البقالات كما هي مفتوحة في هذا الوقت، وحوانيت مجاورة لمنزله يسكنها عمال «شقاه»[1]، ساهرون، بمنادماتهم حول مشاكل بلادهم الريفية، وما يقاسونه من مظالم وجور من قِبَل مشايخهم، وعقالهم، وموظفي الحكومة.

طرق الباب. . والخوف ما زال يحتل أقطار رأسه في توقع شيء، لكنه الآن أقل حدة وهو يقرع باب منزله. . وكالعادة فتحت زوجته. . لثمها بنظرة المتطلع الهلوع. . فتركت الباب واتجهت إلى الداخل كعادتها؛ لضيق الوقت لديها بمشاغل الأطفال.

ليلة وستمر بسلام. . ارتاحت نفسيته، وأغلق الباب، ولملم خياله بأي لحن يشدو به صفيراً. . وكالعادة، بحث فلم يجد سوى ذلك اللحن الذي انسجمت معه شفتاه دائماً. . لحن لمحمد عبد الوهاب: «عندما يأتي المساء». وضحك لنفسه. . إنها ليلة ككل الليالي. . الواقع نفسه. . ! لا تغيير أبداً!، ولا وجوب للقلق. . ! ولكن ما زالت هنالك مخاوف تتردد على وجدانه دائماً. . كأنها محنة ملازمة له. . كيف أحوال الأطفال؟ وهل البوتجاز مغلق بإحكام؟ وهل نافذة المطبخ التي كسر بيده جزءاً من زجاجها عنوة منذ سكن ما زالت مكسورة، بحيث يصبح أي تسرب للغاز عديم الأضرار؟. . ضحك هامساً لنفسه، وهو يعرف أن زوجته لن تقدم على إصلاحها خيفة منه، بعد أن قامت بذلك عدة مرات، ويقوم هو بكسرها عدة مرات. . !

دخل وقد حاول إعادة صفير اللحن إلى شفتيه، فلم يكن صافياً؛ لاهتمام حواسه باستكشاف الأحوال!.

وجد الأطفال الصغار قد ناموا، وبعض الكبار ما زالوا مشغولين بأشياء يخترعونها لكي يشغلوه عن خلوته المعتادة. . ! اندفعت بنتاه الكبيرتان نحوه وفي يديهما عروستان كان قد اشتراهما لهما من مدينة بعيدة جداً. . بنت تحمل عروستها وقد فقدت بعض ثيابها المزركشة، والأخرى تحمل عروستها وقد

(1) شقاه: مفرد شاقي. . أي «عامل».

فقدت قطعة حذائها العاجي الأبيض وجزءاً من فستانها. اندفعتا نحوه بإلحاح شرس لكي يقوم بالبحث عما فقدته العروستان، خلف دولاب الملابس، ربما!! أو أي مكان آخر في زوايا المنزل..

حدّث نفسه أخيراً، فهو دائماً يعثر على كل ما يفقده الأطفال دائماً، وعلى ما تفقده الزوجة أيضاً..!!

وبدأ على الفور ـ لكي يسكت زعيق البنتين ـ بإيجاد تلك المفقودات المطلوبة.. بدأ البحث، وهو مسرور النفسية، مبتهج الأسارير، وإيمانه كبير بدرجة عالية، بأن يعثر على مفقودات عرائس بنتيه.. بحث أولاً بين أشياء متراكمة خلف وتحت دولاب الملابس..ربما زوجته لا تدري ما وراء تلك التراكمات..؟ حيث وجد لها خاتماً ذهبياً مخفياً هناك، كانت قد اتهمته منذ فترة بأنه أخذه.. سرقه، وباعه لشراء شراب..!!

حفظه في جيبه، وفي نيته أن يكيل لها رداً يفحمها ويجعلها تؤمن به وبثقة عمياء، وهذا ما يريد تحقيقه.. استمر في البحث.. الدولاب لا يسمح ـ مع تلاصقه بجدار الغرفة ـ بالإمعان..شعر بأن هنالك شكلاً لشيءٍ ما متعدد الأطراف يحاول الاختفاء.. أمعن النظر.. إنها العقرب.. العقرب التي سبق لها أن أودت باثنين من أطفاله.. كان قد طغى على لونها الأصفر لون أحمر.. مكشرة عن سواعد متعددة، وأنياب وذيل مخيف مُعَد للقتال.. أصيب بارتياع لم يحدث له في حياته..وتمالك أعصابه بعد أن أزاح الأطفال، مع ما وجده من متطلباتهم..أخذ فردة حذائه وهوى بها على العقرب بوجل.. ورفع الحذاء.. فمرقت إلى تحت الدولاب سالمة، وقد تركت في أعماق نفسه رعباً لا مثيل له.. نهر الأطفال وأمهم مرة أخرى، وهو في تلك الحالة، فأخرجهم لكي يتمكن من البحث..شعر بالجبن.. وود في قرارة نفسه أن تقوم زوجه بتلك المهمة، لكنها كما خُيّل إليه جبنت وقالت:

ـ اتركها للصباح وسأقوم بقشع[1] الغرفة.. وقتلها..!

اعتبر ذلك منها جبناً كما خُيِّل إليه.. ونظر إليها، فلم يجد أثراً لما تخيله.. قال لنفسه أنه هو الجبان..!

مرت الأيام، وما زالت العقرب في وكرها تحت أكوام من الأدوات، وقد

(1) قشع: ترتيب.

استطاع إخلاء الغرفة التي يقبع فيها من سكانها الذين آثروا تركها له والعيش في غرفة أخرى مجاورة.

ربتت الزوجة على كتف زوجها، وقد بلغا من الحزن ذروته لما أصابهما ومنزلهما من تدهور وأحداث، لوجود ذلك الدخيل الذي غير مجرى حياتهما وطغى يرعبهما، وأطفالهما..

قالت الزوجة، وتقاسيم الأسى تعلو وجهها الشاحب الذابل نتيجة سهر طويل:

ـ ألا يمكن التفاهم حول حل أفضل؟

ـ كيف وفي طباعها العداونية تكمن فيها فظاظة الكبرياء والغطرسة وحب الإذلال..؟!

ـ وحتى بعد ما قد حدث لبنتنا؟!

ـ رحمها اللّه..! ولكن ذلك لن يثنيني عن مبدئي..

وتأوهت وهي تتذكر طفلتها.. أول ضحية للعقرب، وقالت:

ـ أتريد أن تفقد جميع الأبناء؟!

ـ فليكن..!

ـ وربما حياتي وحياتك..!؟

ـ فليكن..!

ونظر إليها وقد شدها من منكبها، ثم تراجع وقال:

ـ فليكن كل ذلك! ولكن لن أترك المنزل الذي شيد من أنقاض، وبذلتُ في سبيل إيجاده كل حبة عرق وقطرة دم من حياتي..

ـ استمرار في العناد..!

ـ وإصرار عليه..!

ومر وقت، والأمور تسير من سيء إلى أسوأ.. سهر وقلق واحتجاب داخل المنزل، ما بين متابعة وانتباه وحذر، لتقصّي خط سير تلك العقرب..

وأصبحت الوحشة تلف جميع جوانب المنزل، والرعب يسيطر على الكل.. انقطعت الابتسامة من على شفاه الأطفال.. اختفت أماكن لعبهم..

أصبحت كهوفاً مظلمة تقشعر لها أجسامهم التي بدأت تنحل. . شعروا بأشياء تُفقد وترحل من جانبهم. . سمعوا لأول مرة معنى النواح والحزن والبكاء والعويل. . هم يبكون دائماً، ويصيحون في بكائهم دائماً، إثر مشاجرات خاصة فيما بينهم، أو إثر لطمة من الأب أو الأم. ولكن مما يحدث هذه الأيام من بكاء وصياح عرفوا معنى النواح والعويل. . كانوا يشاهدون أن بعضهم يتخبط بتشنج في الأرض ثم يهمد. . لا يرقد كالعادة، إنما يؤخذ في كساء أبيض ويدخل على سرير عجيب إلى باب الجامع ثم لا يعود. . الشيء الذي يعود هو الكآبة والحزن الذي يعلو قسمات الأب والأم. لم يكن يتوقع إصرار أحد أبنائه الكبار. . كان الأبن يقول:

ـ لابد من حل لهذه المأساة يا أبي. . ! لا يمكن أن نخضع لليأس من مواجهة هذا الوضع. . هي معركة يا أبي ولا بد أن نخوضها أو سأخوضها وحدي. . !

ـ لا تكن مجنوناً إلى هذه الدرجة. . !

ـ بمقدوري إنهاء هذا الوضع في أي لحظة تأذن لي فيها. .

ـ لا يا ولدي. . !

كانت أحشاؤه تتمزق. . يكفي ما أصيب به. . لكن أن يتصور حتى مجرد أن يتصور أن يتعرض ابنه الكبير لأذى، فهذا ما لا يطيقه، وهو الذي يبني عليه الآمال الكبار والأحلام الخيالية في إسعاد الأسرة إذا ما رحل. . وقطب حاجبيه بغضب:

ـ لا أريد أن أغضب عليك. . كن مطيعاً في استماع أوامري. . !

ـ لكنها يا والدي أوامر اتبعناها وفشلت؛ لأنها صادرة من منطق العاطفة. . وكلفنا ذلك تضحيات جسيمة فقدتَ أنت فيها أحب أطفالك، وفقدتُ فيها أنا أعز أشقائي. .

ـ كن صبوراً. . !

ـ كيف. . ؟

شعر لأول مرة في قرارة نفسه بأن عليه أن ينهي هذا الوهم الخادع الخامد لأنفاسه ككابوس هائل، أن يقتل كل شيء يعكر صفو حياته. . امتشق يده القوية الطويلة الملتحفة بعروق بارزة ممتلئة بالدم المنعكس بلون أزرق داكن من

الخارج، وتوجه بها نحو مدخل المخبأ الذي استقر عليه رأيه بعد فحصه بإمعان دقيق. . توجه بيده كأنها عمود من نار تبحث عن ذلك الذي يطلب حياته للموت. . وامتدت يده كعمود من نار ملتهب بالحقد. . وانفتحت أصابع يده المتحفزة تبحث من خلال الظلام الدامس عن الوكر المخيف كأنها منظار غواصة حربية نازية تجوب أعماق المحيط. . ولمست رؤوس أصابعه ملامح ذلك الرابض. . فانقضت عليه؛ وبحرارة المشتاق الناقم. . فركته بين ثناياها بشدة. . وعلا صوته قوياً برنة انتصار تحمل نبرات الأنين والألم الشديد الذي يعانيه. . لقد لدغته. . لم يأبه لذلك، بل استمر في ضغطه وبعنف. . كان خائفاً أن تضيع وتهرب منه. .

تجمع الأبناء مع أمهم في لهفة. . سحبوه على وجهه وبطنه وما زالت يده بعروقها الخضراء الداكنة الملتحفة بيده المتصلبة المنصوبة إلى الأمام. . القابضة على ذلك الرعب مفروكاً بين أصابعه. . والذي لم يستطيعوا إخراجه من داخل ثنايا وعطفات أنامله ويده. . كانت البرودة تُلمس على جلد اليد، بل الجسم، وكانت عيناه مفتوحتين إلى آخرهما ببلاهة إلى السقف. . لكن الابتسامة ما زالت على شفتيه الجافتين اللتين ابيضتا ثم طغى عليهما اللون الأصفر الذي استدعى تواجد ذباب أزرق يحوم حولها. .

وكانت جنازة مهيبة. . شملت الحارة كآبة. . وقد مر طفح في وجوه المشيعين. . ومن خلال تتبع حوارهم مع بعضهم البعض. . السماء ملبدة بالغيوم. . ودوامات من الرياح المفعمة برذاذ متفرق من الأتربة وقطرات المطر، تؤذي الناس بوقعها على وجوههم.

النعش المسجى عليه الفقيد يتهادى على أكتاف رجال الخير الذين يتقربون إلى الجنة، فيدخل فناء المسجد. . وزعيق النسوة المولولات بالنواح الباكي ينتهي بعد أن يفقدن الأمل في دخول فناء المسجد، لكي يعدن إلى أسطح منازلهن لانتظار موكب الجنازة الخارج من المسجد من جديد. وعلا النواح والأشجان والهموم والآلام وكل عُقَد عصر العرب الراهن على المسجى في نعشه. المرفوع على أكتاف الرجال. . أما النساء فهن إما في النوافذ أو على أسطح المنازل. .

وطغت على الجميع المشاعر المشتركة. . غضبٌ يكاد أن يكون

موحداً.. وعلتهم مسحة من كآبة وغمّ وقلق على مصيرهم أيضاً! وحداهم شعور بأن مصيرهم مثل مصيره في النعش، وبأن عليهم التكاتف لكي يجلوا منازلهم ويطهروها من ذلك الشيء المرعب الدخيل على حياتهم..

ترنيم جنائزي:

لا إله إلا الله..

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

محمد رسول الله..

وفي المساء:

ابسط لنا خير فضلك في بسوط السلامة

يا دائماً لم تزل.. يا دائماً لم تزل..

الأحد: 12 أكتوبر/ 1980م

ثورةُ بغلة!

كم تهزني طرباً موسيقى الفرقة العسكرية الباقية منذ زمان طويل..؟!

أشكال عجيبة لأفراد من البشر ذوي الوجوه الحمراء المتجعدة، والظهور المنحنية قد أكل الدهر وشرب من أجسامهم المهترئة الهرمة..!

ما زال لباسهم هو ذلك اللباس التقليدي الذي أفزع في أوقاتٍ ما نفوس رجال ونساء وأطفال.. طرابيش حمراء «بعثاكلها» السوداء المتدلية، وسترات عسكرية غبراء تتألق منها أزرار نحاسية باهتة، وسراويل بعضها قصير وبعضها طويل غير «مكوية»، وتفتقد إلى الانسجام والتوافق من فرد إلى آخر..!!

كلها متآكلة قد توارثها معظمهم أباً عن جد..!! ينفخون في آلات موسيقية نحاسية قديمة حتى تنتهي أوداجهم وتكلّ أيديهم..!!

بعضهم ينفخ على نفير ضخم يسمونه «باصول»، ومنهم من ينفخ على آلة تشبه الناي ويطلقون عليها «قرنيطة».. رقيقة النغم.. أما معظمهم فيقرعون الطبول و«الحرانة» والصاجات النحاسية بحركة صارخة قوية وبعصبية..!

لأول مرة أحضر حفلاً منذ تسلمتني المدينة كرهينة في قلعة القاهرة.. تلك القلعة الشامخة الأركان، التي تحتل قمة جبل صخري صغير يقبع بأمان في سفح جبل «صبر» الكبير.. ويطل بقلعته على مدينة تعز بقبابها ومآذنها البيضاء، ويسورها الحجري القديم الذي تكون القلعة جزءاً منه..

في القلعة عشنا حياتنا.. نتجول بين أزقتها كسجناء.. وبقيود حديدية.. وتمنعنا عن العالم الخارجي بوابة منيعة، وعساكر غلاظ الوجوه والقلوب..

نحن سجناء بقيود حديدية، والنادر منا لا قيود له..!! وربما أن السجين العادي يرتثي له الخلاص من قيوده بالأمل.. أما نحن كرهائن في حوزة الإمام

فلا أمل لنا. . ولو وجد فهو أمل بعيد؛ لأن علينا أن ننتظر مولوداً جديداً يخلصنا ويشب عن الطوق ليحل محلنا. .!! أما أن يكون الرهينة وحيد أبويه فسجنه مؤبد. !

لا يمر يومٌ من دون أن نتدلى بأرجلنا من على السور لكي نطل على المدينة والجبال والسهول والأودية، نتأمل البعيد والقريب. . نتأمل بيوت المدينة والمآذن والقباب والبشر في أزقتها كأنهم نوع من النمل. .

لا صوت يصل إلى مسامعنا سوى صوت نفير السيارة الوحيدة التي تعمل كحافلة، ويعلو صوت بوقها الأجش وهي تنقل بعض الركاب من المدينة إلى «العرضي» مقر الإمام عبر عقبة مرصوفة بالحجارة السوداء. .

إنه احتفال بيوم «عيد النصر». . هكذا كنا نتلقى وصف تلك المناسبة بأنها عيد النصر، ولا نعرف أي نصر هذا وعلى من تم الانتصار. .

عُلِّق قوس النصر الوحيد على مدخل ميدان ترابي. . تتوسطه منصة مدرجة من الحجارة. . يقبع دائماً وسطها ـ كغول مهول ـ الإمام بعمته وعثاكلها المتميزة. .منتفخ الكرش والأوداج. . قد وضع يديه على حافة كرسي مصنوع من أخشاب صناديق بضائع التجار. . ممسكاً به كأنه عرش قيصر أو كسرى. !

هُرع بنا من قلعة القاهرة. . معقل الرهائن. . مع حراسنا ورئيسهم الكهل غليظ القلب واللسان. . حفاة كغيرنا. . ومعظمنا نصف عراة. . متنافرين في أمزجتنا ولهجاتنا وطباعنا. . وأيضاً في ملابسنا. .

دلفنا من تحت قوس النصر الوحيد الذي صنع أيضاً من أخشاب صناديق بضائع التجار. . تكلله أعلام الدولة المتوكلية بسيوفها البارزة المتعطشة لمزيد من الدماء.كان معلمنا وهو سجين متفقه قد أجرى علينا عدة تجارب «بروفات» قبل يوم «عيد النصر». . كيف نمشي صفوفاً منتظمة. . «يس يم. . يس يم. .». . إلى اليمين انظر. . !

لم ننجح في أن نكون مجيدين. . وربما صادف هوى في نفسه، فهو لا يريد أي نجاح لذلك اليوم. . ! وقفنا في مكان مخصص لنا. . وتطلعنا إلى قوس النصر حيث تعالت أصوات صبية يلبسون ثياباً غريبة علينا. . بيضاء من قميص وسروال قصير. . لكنهم حفاة أيضاً ما عدا الصف الأيمن منهم، والذي سيمر من أمام المنصة كانوا يمرون من تحت القوس وهم ينشدون:

هـــذه الـــرايـــة الـــعـــلـــيـــة رايـــة الـــمـــولـــى الإمـــام

وقفوا بجانبنا وكأنهم أجانب.. تبادلنا النظرات الحاقدة.. كنت أعرف أن هنالك أضغاناً بينهم وبين زملائي الرهائن في كل يوم احتفال.. عرفت ذلك أيضاً من خلال ما جرى من حوار ومناقشة حامية في القلعة يذكيها وللأسف السجين الأستاذ.. بان على الرهائن الصمود والثبات لكي يكونوا في أول العرض.. قبل طلاب المدرسة.. حتى لو أدى ذلك لاستخدام العنف الذي يجيده الرهائن طبعاً بحكم منشئهم القبلي.. ويذكيه فيهم مدرسهم السجين المتفقه بحقد واضح على الأوضاع وعلى الإمام.

تبادلنا جميعاً نظرات الحقد والكراهية..

وفجأة تخلينا عن تلك النظرات المتبادلة لقدوم حشود من الجند «النظامي والبراني»، بضباطهم و«عرائفهم» بزواملهم الصاخبة:

سادتي! أنتم نجوم الأرض دائم..!

بسعادتكم نزلنا للتهايم..!

نرضي الله والإمام..!

وطغى بعد ذلك زامل «النظام» و«الطبشية»:

منا سلام الله عليك يا سيدي..!

يا اللي لطمت ابليس واستغفر وتاب!

قد عذبه مولاي واخلص موقفه

تخشى عليه النار في يوم الحساب!

وكأنما شعر «البراني» بقوة زامل «النظام» فعلا صوتهم بزامل قوي وصاخب:

يا وادي الحوبان توسع..!

لجيش سيدي والمدافع..!

استقرت مجموعات الجيش النظامي والبراني مع عرائفهم في أماكنهم المعدة قبل بدء الاحتفال والعرض العسكري.. وشوهدت بجوارهم بعض مدافع قديمة تجرها البغال.. وعدة رشاشات ميدانية وقف بجانبها ضباط وجنود «الطبشية»..

وتوافدت جماهير من البشر من مختلف المناطق المجاورة، ومن

سكان المدينة التي تصادف يوم عيد النصر يوم سوقها الأسبوعي . .

تواجد أيضاً على المنصة الحجرية بعض الأجانب بوجوههم الحمراء النظيفة وملابسهم الأنيقة . . منهم سفراء ومنهم بعض الخبراء باليمن في مجالات أخرى . .

وُضعوا ـ كما خُيِّل لي ـ في أماكن بارزة في المنصة كي يشاهدوا عن قرب احتفال مولانا الإمام «الناصر» بيوم عيد النصر . . عيد انتصاره. لا أدري على من تم ذلك النصر . . ! هل على حركة الأحرار . . والدستور . . والشورى . ؟ أم على هتلر وموسوليني؟ إذ يصادف اليوم ذكرى انتصار دول الحلفاء على دول المحور . .

الميدان صغير . . لا يزيد عن كونه ملعب كرة قدم ترابي أخذه الإمام غصباً من مواطنين كانوا يزرعونه ضمن حقولهم المدرجة التي تنتج الذرة . . وبلا مقابل باعتباره أرضاً من وقف الغسانيين، بني رسول . .

الناس محتشدة حول هذا المربع . . وقد وقفت في بعض جوانبه فصائل من الجند النظامي والبراني، وطلبة المدرسة «الأحمدية» والرهائن وبضع بغال بمدافعها، وأطقم رشاشات خفيفة بطبشيتها . . لسعتنا حرارة الشمس فامتزجت بحبات العرق المتربة على وجوهنا لتترك أثراً مؤلماً لا نقدر على إخماده بالهرش المستمر . . حتى الأجانب في المقدمة البارزة في المنصة أخرجوا مناديلهم البيضاء ليجففوا وجوههم وجوانب أعناقهم الحمراء أيضاً.

كان الوقوف في مثل هذا اليوم بالنسبة لنا شيئاً لا يؤذينا، لأنه يوم نكسر فيه حاجز الاعتقال الممل في قلعة تحتل رأس جبل صخري . . وقد استغربنا تذمر الأجانب في المنصة وضيقهم من طول هذا اليوم الكئيب . . وقد نتفق معهم في الشعور بملل الانتظار لوصول موكب الإمام الذي تهامس الجميع بأنه ـ بحسب العادة ـ ما زال ينظر بالمنظار المقرِّبْ من نافذة قصره المطل على الميدان الترابي ليرى الناس وبأنه يتحين الفرصة المناسبة للوصول إلى ميدان الحفل . . كأنه نيرون روما.

بعد لحظات اشرأبت الأعناق نحو قوس النصر الوحيد، حيث شعر الجميع بأن الإمام في طريقه للحضور . . وتهادى موكبه التقليدي رويداً رويداً . . وظهر من تحت بوابة قوس النصر الوحيد تحفُّ به ثلة من «العكفة» ـ حرسه

الخاص ـ بلباسهم الأزرق المميز وبنادقهم «زاكي كرام» الألمانية الصنع. وتهادى إلى مسامعنا زامل عكفته التوشيحي الموسيقي الفظ:

كريم يا رحمن.. عجل بالفرج..!

دليتنا لكل صائب..

وانصر إمام الحق..

ذي تعلا له.. الرايات..

ذكره نشر فوق السحايب.!

المظلة المزركشة بعثاكلها الحريرية الملونة المتدلية تعلو رأسه يحركها ـ بدوران مستمر ـ عبد أسود يلبس زي العكفة.

وعلى أنغام الزامل التوشيحي الصاخب غير الواضح من قبل عكفة الإمام.. نزل من على صهوة جواده الأسود «الرعد» أمام المنصة.. أمام عرشه المصنوع من خشب صناديق بضائع التجار والذي يخاله عرشاً ليستقر فيه من دون أن يكلف نفسه أي عناء بتحية يرد فيها على الناس سوى هز رأسه المثقل بالعمامة.. وكان البعض يفسر ذلك بأنه يلعن الجميع ويحتقرهم..

انهالت قصائد الشعر مدحاً للإمام:

عيد الجلوس على السرير وهكذا يا ابن الأئمة والملوك الصيد

يحيى أبوك وجدك المنصور لـلّـه در أبـوة وجـدود

وتلتها خطب حماسية لأساتذة وطلاب وضع مادتها الأساتذة.. وألقيت بالحرف الواحد.. وطبعاً كان للرهائن خطيب أيضاً.. كما للمدرسة والآخرين.. كان الطالب يلقي كلمته وبجواره مدرس ينبهه للأخطاء، وبشكل واضح لم ينطل على من يقبعون في الأماكن البارزة في المنصة..

كانت أصوات الشعراء والخطباء جهورية وصارخة.. فلا وسيلة لإيصال الكلام للجماهير في ميدان الاحتفال الترابي سوى ذلك..

انتهت تلك الخطب الشعرية والنثرية، وبدأ دور العرض العسكري والطلابي الذي كنا في شوق إليه.. وبدأ رجال الفرقة الموسيقية بعزف مارشات عسكرية قديمة تحرك على إثرها بعض ضباط وجنود يلتفون حول العلم

المتوكلي الدامي، أدركنا نحن الرهائن بأن علينا، كما علمنا الفقيه السجين، ورئيس الحرس الكهل، أن نتقدم مباشرة أثناء ذلك لكي نقوم بالعرض أمام الإمام قبل أن يسبقنا طلبة المدرسة الأحمدية.

لم يكن هنالك مقدم للحفل، ولا برنامج معد ومطبوع.. الإمام ما زال متربعاً على عرشه المصنوع من خشب صناديق بضائع التجار المستوردة..

وكادت أن تحدث الفتنة بين الرهائن وطلبة المدرسة الأحمدية.. والتي يحبذ الإمام أن تحدث، لأنها تبعث في نفسه السرور، وبالطبع يخضع طلبة المدرسة ويقدم الرهائن العرض بكل تنافرهم الواضح في ملابسهم وطباعهم.

تقدمت وحدات الجيش النظامي بملابسها القبلية المعروفة.. حفاة طبعاً.. يتقدمهم ضباط بلباس عسكري أغبر في لون تراب ساحة العرض ثم تلاهم الجيش البراني بعرائفهم وخبرتهم.. و..و.. وجاء عرض الأسلحة الثقيلة.. بضع مدافع قديمة تجرها البغال الحبشية.. وبعض الرشاشات المتوسطة يجرها الطبشية الكهول..

علا عزف الفرقة المتآكلة بصخب.. اضطربت له بغلة تجر أحد المدافع القديمة.. وزمجرت بصهيل مرعب. وحاولت أكثر من يد من أفراد الطبشية أن تمتد إلى عنانها لكي تسكت وتخمد نفورها.. ولكن بدون جدوى.. وكان ذلك قد زاد في رعبها فتمادت. وتمادي بغلة في مخاوفها يحدث كارثة.. وقد أحدثتها.. حيث رفست طبشياً كهلاً في رأسه فخر صريعاً.. وقام زملاؤه بحمية لقتلها بالرصاص، لكنهم تهيبوا موقف الإمام. وصاح الإمام وقد وقف بكرشه الذي يتوسطه خنجره الذهبي:

- عليكم بها..!

فتكالبت الجند من مختلف رتبهم على البغلة ومدفعها القديم المجرور خلفها.. لكنها زادت نفوراً وعناداً بصلابة هوجاء كأنها وحش كاسر يتم حصاره.. وزاد من هيجانها كون المدفع القديم مربوطاً خلفها حيث أحدث أضراراً جسيمة بالجند..

انطلقت بين الحشود والمدفع يترنح خلفها بوحشية مرعبة. لم يبق سوى الإمام في منصته مع حرسه وحاشيته وبعض الأجانب الذين يلتقطون صوراً رائعة كذكرى لن تتكرر.

وجدت نفسي خارج الميدان، وما زالت صورة رئيس حرس قلعة القاهرة أمام وجهي. . فقد أصيب بركلة مباركة من حوافر البغلة. . أخمدت أنفاسه إلى الأبد. . وشعرت بقدمي تقودني نحو وادي الحوبان، وبين آكامه وعمقه وأثله، أجري منطلقاً وبلا توقف مخلفاً ورائي كارثة لا أستطيع شرحها لأفراد أسرتي الذين سأنعم في البقاء بينهم مدى الحياة.

الخميس: 3/ 7/ 1980م

الـرحلة

الطريق غير معبدة، وقد أُهملت ركوناً على شركة ألمانية بدأت بالرصف ببطء.. الغبار يكاد يخنق الركاب، والجو بارد، فالشمس ما زالت تحتجب خلف قمم الجبال الشامخة.. ومطبات تكاد تفقد المرء ضلوعه، وصوابه معاً... وحوار ومنادمات سامجة ومملة..

لا يخف الغبار إلا عند طلوع «الباص»[1] أحد الجبال، فتفتح النوافذ لبطء سيره بسبب الصعود اضطرارياً..

كان الجو رائعاً ومنعشاً بعد أن تركنا وراءنا جو «تعز» الموبوء بالأدخنة المشبعة بروائح المطاعم والمقاهي و«الصاص»[2] الأصفر.. وبدأ جو الجبال ينظف بعض مناسمنا العكرة من الغبار.. المزارع تعج بالمزارعين الحاصدين للغلال التي أصابها الجفاف.. لعنت الطريق وغباره، لعنت النوافذ والرياح،...

كنت أودُّ فتح زجاج النافذة لمشاهدة «الرعية»[3]، ونسائهم وحيواناتهم، وأسمع أصواتهم بألحان الحصاد..

لعنت المنادمة السامجة، والحوار الصاخب..لعنت زميلي في المقعد المتكئ بجانبي ورائحته العطرية القوية منذ الصباح. ربما قضى ليلة حمراء في حي «الجحملية»[4]..!!

فتحت زجاج النافذة، ونحن على سفح الجبل وقد انبسط الوادي بسكانه كالنمل يدبون في أعمالهم.. تأملت وقد قاطعني زميلي راجياً مني إقفال زجاج

---

(1) الباص: الحافلة.

(2) الصاص: طبيخ بالبهارات.

(3) الرعية: الفلاحون.

(4) الجحملية: حي من أحياء تعز الشعبية.

النافذة.. وانصعت لطلبه، وربما كانت فاتحة للمحاورة معه فسألني قائلاً:

ـ أتعرف هذه المنطقة؟

ـ نعم..

وهز رأسه متأملاً:

ـ إنني أعرفها أكثر من غيري فهي ممتلئة بالأشرار والعصاة..

فأطرقت مستغرباً.. فاسترسل قائلاً:

ـ إذاً فأنت لا تعرفها؟!

ـ بلى..

ونظرتُ إلى الوادي وسكانه فقال:

ـ لا يخدعونك بهذا المظهر الكادح!.

ـ يبدو أنه حقيقة..!

ـ الحقيقة أنهم أشرار وقطاع طرق.. غبر الوجوه إذا لم يُظْلَموا ظلموا..!!

سئمت الحديث معه لكنه أصر:

ـ أتدري أن الشيخ «عبد المداح» وعائلته قد أبيدوا هنا كلهم عن بكرة أبيهم؟

ولم أجب..

ـ بطحوا على الأرض، وأُطلق عليهم الرصاص فرداً.. فرداً، وببطء.. نساءً وأطفالاً..

ولم أجب فاستمر:

ـ صادروا أرضه، ونهبت ماشيته وممتلكاته، ونسفت جميع دوره..

ولم أجب، فاستمر وقد تغيرت سحنته وقوي صوته:

ـ لكنه قاتل قتال الأبطال وأبلى فيهم بلاء حسنا..

وصمت لحظة ثم بدا صوته هادئاً فقال:

ـ وفي الحقيقة لولا إعانة الشيخ «علي الدريح» برجاله، وماله، وسلطته، ونفوذه لما ثأر له أحد..!

واستمر وقد اتقدت عيناه بومضات براقة:

ـ لقد لوحقوا في كل مكان، وقتل منهم الكثير، وسُجِلَ البعض.. وخربت قرى بأكملها..

ولم أجب على حواره، لكنه لم يستمر، بل هز كتفي، وقال:

ـ ما لك ساكت؟

ـ أسمع وأنصت..!

ـ ألم تعرف الشيخ «عبده المداح»..؟

ـ ربما.. سمعت عنه..!

فقال متكلفاً الغضب:

ـ لقد أفسدت علينا الرحلة..

ـ لماذا..؟

ـ لم تكن متجاوباً في الحديث

ـ كيف وأنا أنصت منذ ساعة..؟!

ـ ربما تكون منهم..!

وأدار رأسه نحوي بغمزة خبيثة لم أكن أتوقعها؛ فقلت متسائلاً:

ـ من هم؟

ـ العصاة.. المقاومون.. جموع تلك الجبهات..!

ـ أنا موظف عادي..

ـ أين..؟

ـ في صنعاء..

ـ هه..!!

ولملم جموع غضبه بعد فترة صمت قائلاً:

ـ كم فساد ومفاسد في الحكومة..؟!!

ـ لا يخلو أي بلد من ذلك..!

ويبدو أنه قد اقتنع بعدم جدوى طرق أحاديث تعكر صفو مزاجه، وتزيد الأمر سوءاً، فصمت..

* * *

كان الانحدار شديداً، حتى كدنا نضيق بذلك.. والغبار ما زال يتصاعد، والشمس بدأت تلسع بحرارتها وجوه الراكبين على يمين «الباص».. وأسدلت الستائر من الناحية اليمنى. فتحت زجاج النافذة وحاولت الإيحاء للزميل الذي يركب في المقعد الأمامي مباشرة بفتح نافذته. ويبدو أنه مزارع عادي قد بلغ الخمسين من عمره تقريباً.. نحيف البنية شاحب الوجه، يلبس «كوفية خيزران» من النوع الرخيص، التهم العرق نصفها الأسفل.. وقد التحف «بكيس النوم» الغليظ.. وبجواره رجل مهندم بدين، في الخامسة والثلاثين من عمره.. بالبدلة «والكرافته» المشابهة للون البدلة، ونظارة طبية غالية الثمن، وقد جلس إلى جواره في المقعد الاحتياطي على الممر شاب عادي..

كانت زوجة الرجل المهندم مع أطفالهما في المقعد الأمامي له.. كانت تبدو جميلة من ومضات عينيها خلف النقاب الشفاف، أثناء محادثتها لزوجها.. كان حبه لها يظهر من خوفه عليها من الغبار والاختناق، فهو في صياح دائم مع الركاب ليفتحوا زجاج النوافذ. وكم من مرة قام بنفسه بفتح النوافذ خوفاً من أن تظهر يدا زوجته البضة المطرزة بالخضاب والأساور الذهبية..

طلبتُ من المزارع النحيف أن يفتح النافذة فلم يمانع، لكن زميلي ذو الرائحة العطرية أصر على إقفالها، والاكتفاء بالنافذة التي بجوارنا، مما دفع الرجل المهندم أن يحدقه بنظرة احتقار..

قال زميلي ذو الرائحة العطرية:

ـ لقد وصلنا «إب»..

ـ الحمد لله على السلامة..!

ـ وأنت؟

ـ إلى صنعاء.. محل الوظيفة إن شاء الله..!

تزاحمت المناكب للوصول إلى مطعم شعبي اكتظت موائده المستديرة بالزبائن، وعثرتُ على مقعد بعد جهد شاقٍ، وبجوار الرجل المهندم وعائلته، والذي لم يسر لجلوسي، كما يبدو.. لكنها الضرورة، وإلا فقد ساءني ذلك.

أدركتُ أنه يراقب نظرتي نحو زوجته التي تأكل من تحت النقاب، فأهملتُ نظراته وركزت على طعامي.. و بعد صمت، حاول أن يبدو أكثر حيوية فقال:

ـ يبدو أنه مطعم جيد . . !

ونظرت إليه فوجدت الحديث موجهاً إليّ، فهززت رأسي بالموافقة.

قال بتذمر واضح:

ـ يا له من شعب جاهل! يخاف الهواء ويرضى بالأتربة . . !

ـ جهل قديم . . !

ـ أتدري أن الغبار يسبب أمراضاً خطيرة . . ؟

ـ نعم. لكن البرد كان شديداً . .

ـ الهواء كان منعشاً ولا يسبب أي شيء من المرض . .

قلت وقد حاولت أن أطمئنه:

ـ يبدو أن الرحلة من الآن ستكون حسنة، فقد طلعت الشمس وقلّت البرودة، وسيكون فتح النوافذ أكيداً.

قال وقد لوى برأسه يائساً:

ـ لا أعتقد ذلك . . ألم تر . . ؟ ما إن فرحنا بدخول أشعة الشمس نحونا حتى قام أصحاب الجهة اليمنى بإسدال الستائر عليها، بل وإقفال الزجاج . . !

ـ ربما كانت أشعة الشمس مركزة في لسعها على وجوههم وخصوصاً بعد البرودة. !

ـ إذا فُتحت النوافذ خفت وطأة حرارة الشمس . .

وساد صمت قام خلاله بمسح أيادي أطفاله ونهر بعضهم لسقوط بعض الفتات على ثيابهم.

نهضنا وعدت إلى مقعدي . . وجاء مسافر آخر بجواري ومسافرون آخرون بدلاً عمن نزلوا في المدينة . .

اكتظ «الباص» بمزيد من الركاب وفتحت المقاعد الاحتياطية التي على الممر الرئيسي. زاد الحوار الصاخب والمنادمة السمجة. لكن صوت الموسيقى بدأ يرن من مسجل لطيف علا صوته في المقدمة.

وتهادى بنا «الباص» بين المزارع وقد امتلأت البطون، ونشطت الحيزية للمنادمة. حل بجواري رجل وزميل له على الممر، ويبدو أنهما من فطاحلة

«المشارعين» في المحاكم الشرعية.. صم أذني مع زميله بقضيته في وزارة العدل وفي الاستئناف والأحكام التي نقضت عدة مرات.. فضلت الصمت.. رأيت خلاله صاحب «الكوفية الخيزران» التي أكل العرق نصفها الأسفل يلتفت إليّ باسماً، ثم يهز رأسه.. أثار فضولي عما يريد مثل هذا «الرعوي» المسكين الطيب. قلت لنفسي: ربما يكون «مشارعاً» في وزارة العدل! لكن يبدو أنه لا يملك المال الكافي لمثل هذه المهمة.. ربما يعمل «كشاقي»[1] بسيط في أزقة صنعاء، لكن سنه لا يمكن أن يسمح له بالعمل، إضافة إلى حالته الصحية.. وربما يكون حارساً بسيطاً في فندق أو شركة..!

التفت إليّ مرة أخرى وقد أنزل «كيس النوم» من على ظهره وقال متسائلاً:

ـ أين رفيقك.. الذي كان بجوارك؟

ـ نزل في المدينة!

هز رأسه ثم ابتسم مما أثارني فقلت:

ـ أتعرفه؟

ـ لا!

وصمت قليلاً بدون أن يلتفت إليّ ثم قال:

ـ لقد كان كاذباً في حديثه..

ـ كيف؟..

التفت إليّ وقال:

ـ ليس صحيحاً ما ذكره عن الشيخ عبده والشيخ علي..!

ـ أتعرفهما..؟

ـ وأعرف القضية..!

صمت قليلاً مما أثارني فقلت له متسائلاً:

ـ كيف؟

ـ لقد كان الشيخ «عبده» من أظلم خلق الله. ينهب ويسلب وينتهك كل المحرمات، ويحبس رعاياه في بيت الغائط «النقرة» بين القاذورات، و«يبخرهم بالبسباس» حتى يحقق مآربه.

---

(1) شاقي: عامل باليومية.

ـ لا يعقل قولك هذا..!!

ـ لماذا؟

وألجمني بالحيرة عن كيفية التعليل، بينما استمر قائلاً:

ـ كل ما حدث حتى الآن هو نتيجة لكل هذه المظالم..

ـ لكن يبدو أن هنالك تطرفاً في بعض أعمال المقاومة..!

ـ لا يمكن أن تسميه تطرفاً.. إنما ردود أفعال..

أحسست أنه بدأ يلقي بكلمات رزينة وواعية، فأتحت له فرصة الاستمرار:

ـ ردود أفعال لسوء تصرف من الدولة.. فهي لا تضع الرجل المناسب في المكان المناسب.. لقد قالها «هارون الرشيد» على ما أذكر في رده على ملكة الفرنجة «إنني أحسن اختيار الرجال»..

فابتسمت مندهشاً وقلت:

ـ لكن يبدو أن الدولة تعالج الأمور بقدر إمكانها..!

ضحك قائلاً:

ـ يبدو أن الدولة تطبق نظرية «زياد بن أبيه» في الكوفة..

كنت أعرف معنى ما أراده.. قالها وكأنني لا أعرف عن التاريخ شيئاً..، وكأنه يحدث نفسه، فانحنيت وطرحت رأسي على حافة مقعده لأريحه من الدوران برأسه نحوي. نظرت إليه ملياً بينما اكتفى بالحديث ونظره نحو الوديان التي يقوم سكانها بأعمال الحصاد وقال:

ـ رعية طيبون.. همهم لقمة العيش، وتأمين ما يطلب منهم للمحافظ والقائد و«العامل» والشيخ وجميع الموظفين والوسطاء..!

ـ ربما تتحسن الأحوال..!

ـ لا أعتقد ذلك..!

ـ لا يمكن أن تكون متشائماً وأنت بهذه الدرجة من الوعي..!

ابتسم وقال:

ـ اليمني يمارس الأشياء بشراهة وفوق طاقته.. يشرب الخمرة حتى

الإدمان، يتعاطى السجائر منذ صغره، يمارس السياسة والمظالم والأفكار بالأسلوب نفسه..

ـ ليس حكماً معمماً..!

ـ لست معك.. فكل ما قلته صحيح.. لماذا؟.. نتيجة الكبت والحرمان الأبدي منذ الأزل، وفقدان التربية من أساسها.. تربية القيادة لقواعدها.. نحن في فراغ وضياع سيؤدي إلى نتائج خطيرة.

صمتَ عندما تحرك نحوه جاره الرجل المهندم لكي يفتح النافذة، وكأن الحديث لم يُفهم لديه لانشغاله بإعطاء الأوامر والنصائح المتكررة للآخرين عن مضار الغبار وعواقبه الوخيمة... فتح النافذة قبل أن يقوم بفتحها جاره المهندم..

أخذ «الباص» يتلوى بأنين مجروح وهو يصعد منحنيات جبل «سمارة» الخطرة، والرياح قد خفت، فبدأت بعض الستائر تنزاح من على النوافذ للتفرج على مزارع القات والقرى البيضاء المبعثرة على التلال والسفوح والحيود الهاوية. ما زال ذلك المسجل يصدح ـ بصوت عالٍ ـ بأغانٍ مرحة وشعبية.. كنت أتمنى أن تجمعني الظروف بالرجل مرة أخرى ولو على مقاعد مهترئة في مقهى شعبي.. قلت له:

ـ حديثك طيب..!

ـ حديث لا بد منه.. وحديث يخرج من الإنسان بالإكراه.. وحديث لا تستطيع احتمال كتمانه فيخرج!! ألا ترى أن الرحلة متعبة ولا بد من حديث يخرج..؟!

ـ نعم.. مع كل ما يعكر الحديث من صياح وزعيق وأغانٍ تافهة من ذلك المسجل..يبدو أن الرجل هاوٍ ومغرم.

ـ إنها فتاة صعدت معنا من مدينة «إب» !

واندهشت.. لكنه قال:

ـ ماذا يمنع أن تشدو بمسجلها.. مادامت محجبة وترتدي الشرشف..؟!

وهنا بدا أن الحديث قد فهم لجاره ذلك الرجل المهندم والذي قال باحتجاج شديد:

ـ كيف تقول ذلك. .؟ ألا تسمع حوارها السخيف المبتذل مع الناس، وضحكاتها الوقحة. .؟!

فالتفتَ إليه وقال بهدوء ووقار:

ـ شيء طبيعي ما تمارسه. .!

والتفت الرجل المهندم نحوي باستهجان، ثم نحو ذي «الكوفية الخيزران» بسخرية واستخفاف وقال:

ـ ما زال الجهل يعشعش على أدمغة الفلاحين في هذه المنطقة. .

وضحكت لقوله، فساءه ذلك فقال:

ـ هل أنت معه في ذلك. .؟

ـ نعم. .

ونظر إلى ملابسي فاحصاً ثم قال بازدراء:

ـ يبدو أنكما في المستوى نفسه. .!

ـ أي مستوى. .؟

ـ لابد من أخلاق واحتشام، وإلا يفقد المجتمع كل مقوماته.

ـ ما هي مقومات أي مجتمع يا أستاذ. .؟

ونظر إليّ وكأن تساؤلي قد بدا أكبر مني بكثير فقال:

ـ أين قرأت. .؟

ـ لا يهم ذلك. .!

وصمت ثم قال:

ـ يبدو أنك قرأت في الخارج.!

ـ وما المانع. .؟!

وصمت لحظة ثم استدار فجأة وقال:

ـ أتدري لماذا البحار مالحة. .؟

ـ شيء طبيعي!.

ـ لا، بل لأن الأنهار تجلب لها الملوحة من الجبال باستمرار. .

ـ وبحيرة «قارون» بمصر من أين تصلها الملوحة؟!

وصمت. ويبدو أن الحديث قد أراح صاحبي فبدرت منه ضحكة رقيقة التفت لها الرجل المهندم مستاءً فتلافى ضحكته قائلاً:

ـ يا أستاذ..! إنني معك في فتح النوافذ لأن الغبار يسبب أمراضاً خطيرة.. ويبدو أن جميع الركاب لا يعون ذلك..!

لم يجبه الرجل المهندم.. فقد قصد أن يفتح معنا سبيلاً للحوار يظهر من خلاله معلوماته العامة التي قرأها في الجامعة.. وبعد لحظة صمت التفت إليَّ قائلاً بتأمل:

ـ يبدو أن بلادنا تصيب المرء بالجمود وعدم الفهم!

فاستفسرت فاستطرد قائلاً:

ـ يعود المرء إلى بلاده وفي فكره ومضات رائعة تستمر أشهراً قلائل ثم تنتكس كل تلك الأفكار إلى جمود في الفهم، ولخبطة في التوقعات والحسابات الدقيقة..

وضحك لأول مرة مستمراً:

ـ حتى الأجانب تسقط كل حساباتهم، وتقديراتهم، وخططهم التي يبنون عليها سياستهم في هذا البلد.. وأخيراً نعود للقضاء والقدر، وما جاء جاء وما فات فات..

ـ أهذا هو الحل؟

فانمحت البسمة من فمه وقال بتذمر غاضب:

ـ «وبعدين».. ماذا يكون الحل..؟ ضعف أعصاب وقرحة في المعدة ومرض بالسكر..

وصمت.. ثم قال متندراً:

ـ ألا ترى أن جميع المسؤولين في الدولة مصابون بمرض السكر..؟

وهنا قال ذو «الكوفية الخيزران» ضاحكاً ومضيفاً:

ـ السكر والقمح..

ضحكت لذلك.. لكن الرجل المهندم عاد إلى وقاره بصرامة وقد تجاهل الإضافة فقال:

ـ إنني لا ألومهم، فأمامهم شعب لا يعرف أحد ماذا يريد..! إذا قمت

بالإصلاح قيل طغيان، وإذا سعيت له بالسلام قيل استسلام، وإذا جلبت له العون والمساعدات، قيل ارتماء في أحضان الرجعية والإمبريالية.. شعب يريد أن يظل بحيرة تتصارع بها الأمواج الهائجة..!

وهنا قال له جاره ذو «الكوفية الخيزران» :

ـ لولا تصارع الأمواج لأصبحت البحيرة راكدة!!

ـ الهدوء رائع.

ـ لكن الركود يا سيدي الأستاذ! يصيب البحيرة بالعفونة والموت لسكانها..

وكأن الرجل المهندم لم يقتنع، فنظر إليّ عسى أن أبدي رأيي، لكني فضلت الصمت الذي ساد فترة في محيطنا الثلاثي فقط، أما «الباص» فما زال يعج بالأصوات الصارخة: صوت المسجل الذي يدوي بالأغاني العاطفية الشعبية، وصوت الفتاة يعلو باستمرار بجوار شلة من شباب محروم، و«المشارعان» بجواري ما برحا يفندان «الأحكام» السابقة و«المنقوضة»، و«المستأنفة»، والأكتاف تهتز كلها بحركة راقصة رتيبة أثارت فضول شاب خلفي يبدو أنه خريج جامعي، قال لزميله في الرحلة:

ـ أتدري أن الركوب في الخلف يسبب الدوران..؟!

فرد عليه زميله قائلاً:

ـ الخلف دائماً يكون أسوأ ما في كل شيء إلا المرأة..؟!

ـ أتشوق إلى الأمام بجوار المرأة ومسجلها.!

ـ لن يتاح لي ذلك وإلا لكنت استمتعت أكثر..

والتفت إليه بدافع الفضول وسألته:

ـ وما المانع؟

ـ لقد علا حديثكم على صوت المسجل.

ـ لا يعقل ذلك.. فقد كان حديثاً هادئاً..

ـ ممتعاً حقاً بالرغم من التعكير الذي يحدث بجواركم..

وأشار إلى «المشارعين»، فنظر إليه زميله الجامعي وهو يشير إلى رجل

«الكوفية الخيزران» بإعجاب، بينما كان زميله مشغولاً بالمسجل وما حوله قائلاً:

ـ الصورة بعيدة والعوائق كثيرة..

وأشار إلى المقاعد الاحتياطية التي فتحت على الممر، فقال زميله الجامعي بروح النكتة:

ـ أتقصد خط «بارليف»..؟!

ابتسمنا ضاحكين بينما أضاف زميله قائلاً:

ـ العائق المائي ثم الحاجز الرملي.. ثم خط بارليف..

وأشار إلى الشلة التي بجوار الفتاة.

وقطع حديثنا الرجل المثقف المهندم وقد فقد أعصابه قائلاً:

ـ ألم أقل لك أنهم لن يفتحوا أي نافذة؟!

وشاركناه غضبه بإشارات عابسة مجاملة له ولمظهره الحضاري، فقام بنفسه ليفتح نوافذ الوسط، بينما كان «الباص» قد توقف في مدينة «ذمار» لنزول بعض ركاب المدينة. وكانت رغبتنا كبيرة بالنزول للراحة بعض الوقت، وتناول بعض المشروبات الغازية.. وكان الرجل المهندم أشد إلحاحاً.

لم أحاول الهبوط من الباب الخلفي حباً في رؤية الفتاة ومسجلها، ويبدو أن جيراني جميعاً قد شاركوني رغبتي، فتزاحمت مناكبنا على الممر.. كانت الفتاة قد أقفلت مسجلها.

كانت تجلس في المقعد المجاور للباب مباشرة.. تلبس الشرشف أيضاً لكن النقاب كان مفتوحاً، وقد اكتفت باللثام لتبرز عينيها البراقتين وهي تعكس صور الباعة المتجولين بالموز، والبسكويت، والسجائر الذين زاحموا الركاب على باب «الباص».

أبطأت في النزول من أمامها، لأتيح لعيني فرصة للإمعان الدقيق.. كانت عيناها تكفي للوقوع في غرامها.. وقد أتاحت فرصة لأناملها وساعديها بالظهور ليتحول الغرام إلى اندفاع وهوس.. وحركني صاحبي من ورائي فخرجت مسرعاً بينما كان التردد في النزول ببطء سجية الآخرين..!

اتجهت إلى أقرب مقهى وتناولت مشروباً بسرعة لأعود عسى أن أراها

على انفراد قبل وصول الآخرين، لكن الجميع كانوا قد سبقوني إلى «الباص». !!

قال زميلي المثقف المهندم وهو يحمل المرطبات لزوجته وأطفاله الذين مكثوا في أماكنهم:

ـ لقد عدت سريعاً. . !

قلت بدون اكتراث:

ـ وما فائدة التأخير. . ؟!

لكنه نظر إلى الفتاة وابتسم فلم أعره اهتماماً. . !

واكتظ «الباص» من جديد بركاب جدد، وعلا الصياح والهرج والضجيج، وتحرك «الباص» ليعود الحوار الممل والصياح الصاخب. . وانتشر الغبار بشدة وكثافة لنعومة تراب الطريق. . وزادت المطبات العنيفة. . وكنا في الخلف أشد بؤساً. وعلا صوت الرجل المهندم من جديد، وبعنف بأوامر صارمة لفتح النوافذ. .

وفجأة نهض صبي في المقعد الأوسط وصاح بالرجل المهندم أن يفتح نافذة مقعد زوجته فقال له الرجل المهندم ملاحظاً:

ـ ما ضرك يا ولدي. . ؟

فانبرى الصبي بنرفزة واضحة:

ـ أذيتنا وشغلتنا يا. .

ونظر الرجل المهندم نحوي ثم نهض وبدأ يحاور الصبي الذي استمر بدوره بإعلاء صوته بجدال حاد، وأصبح الشجار بينهما وشيك الحدوث، ولم يتدخل أحد، وكأن الصبي قد أنصفهم من الزميل المهندم. . !

الصبي على ما يبدو في الثالثة عشرة من عمره، متحزماً بخنجره وبيده سيجارة تحترق بسرعة، والدخان يتصاعد محترقاً في وجه صاحبنا. . وعلا صياحه ليعبر عن استعداده المباشر للشجار العنيف، وقد امتدت يده إلى خنجره. . أدركت أنه عسكري في الجيش «الشعبي» المرابط في القرى الخصبة التي عمتها الحوادث، ربما يكون في إجازة. .

قمت من مكاني وتدخلت في الموضوع بلباقة، فأجلست زميلي الرجل المهندم وقلت له:

ـ صبي صغير لا لوم عليه إن تمادى في الوقاحة.

ـ أتقول ذلك..؟!

ـ لا يهم يا أستاذي..! لا تعكر صفو الرحلة على أسرتك..!

واقتنع وقد هدأت ثورته..، لكن الصبي ما زال يهدد ويتوعد، وبعض جيرانه يحاولون تهدئته من دون فائدة ترجى. وانبرى صوت حاد من الأمام يصيح بالصبي بحدة أذهلته:

ـ ما كل قلة الأدب هذه يا ولد..؟! إجلس! وإلا أنزلناك من «الباص» هنا، وفي هذا القاع.. إجلس واهدأ..!!

كان ذلك صوت الفتاة، وقد وقفت تشير إليه، فاحمر وجهه وحاول أن يقول شيئاً ما، لكنها سارعت ففتحت المسجل ليعلو صوته على كل شيء.. بينما همد الصبي يمتص سيجارته بعنف، فلاحظه الزميل المهندم والتفت إليَّ قائلاً:

ـ أرأيت..؟! أو لم أقل لك..؟!

ـ لا يهم يا أستاذ..!

ـ نكاد نموت اختناقاً من الغبار وهو يدخن سيجارة إثر أخرى منذ الصباح.. وفي مثل سنه. يا لها من كارثة تحل بهذا البلد..!

لم أجبه.. كنت أود أن نهدأ قليلاً عسى أن يتجدد حديث آخر.

اقتنع الكثيرون بالاستمتاع بالمسجل إلا الزملاء «المشارعين» فما زالت قضية الأحكام وأنقاضها في دراسة لا تنقطع..

انحنيت نحو الرجل ذي «الكوفية الخيزران»، وسألته عن قريته وعن غرضه من السفر.. أزاح «كيس النوم» الغليظ من على رأسه فوضعت رأسي بين ذراعيَّ على حافة الكرسي لأريحه من الدوران نحوي، فتهمل قليلاً وقد علته بسمة سابحة وقال:

ـ لديَّ قضية في «صنعاء» تخص ابني القتيل..

ـ قتل في صنعاء..؟

ـ لا..

ـ أين..؟

ـ في أمريكا.

أحس باندهاشي واستغرابي فقال:

ـ كان ولدي زعيماً نقابياً.

ـ وهل كنت معه؟

ـ هاجرت قبله إلى هنالك.. وكنت أعود في فترات متقطعة لارتباطي بالأرض ومشاكل الأسرة..

صمت برهة فقلت له لأبعد عنه الحزن:

ـ حوادث القتل في أمريكا كثيرة كما أعلم..

وأراد أن يمسح لمحات الحزن عنه فقال:

ـ هذا صحيح! فالجريمة تحتل الدرجة الأولى في سلوك المجتمع الأمريكي..

صمت برهة.. ثم عاد ليقول بصوت هادئ لم ينفعل فيه:

ـ قتل ولدي في مظاهره عمالية..

ولم أحاول إعادة الحزن بهذا الحديث، لكنه استمر:

ـ قتله شرطيان في قارعة الشارع.. وقبض عليهما وقدما للمحاكمة.

وأردت أن أنهي هذا الموضوع المؤلم فقلت:

ـ انتهت القضية إذاً.. وكسبتها..؟!

فابتسم بحزن وقال:

ـ للأسف! لم أكن موجوداً أثناء الحادث والمحاكمة..

وأرغمني على الاستفسار، فاستمر ليجيب قائلاً:

ـ كنت هنا.. في سجن «القلعة». ومكثت فيه سنة كاملة..

شعرت أن الحزن قد تضاعف، فلمت نفسي لفتح مثل هذا الموضوع، واضطررت أن أسأله، وقد أقنعت نفسي بأن مثل هذا الحديث سوف يريحه فقلت متسائلاً:

ـ ولماذا سجنت؟

ضحك قائلاً:

ـ قصة طويلة يا عزيزي..!

اقتنعت بعدم فتح الموضوع مرة أخرى.. لكنه استمر قائلاً:

ـ وجد في بيتي أسلحة وذخائر.

فاندهشت لقوله، لكنه استمر وقد نظر إليّ مطمئناً:

ـ لا تعتقد أنني ممن قدموا للمحاكمة..!فالقضية مختلفة..

ـ كيف؟!

ـ كنت من المتعاطفين مع حركة الكفاح المسلح في جنوب الوطن.. وكان بيتي وكراً للفدائيين وأسلحتهم وذخائرهم..

ـ عمل وطني مقدس..

ـ كان عملاً عادياً دائماً، ومقدساً جداً، والجميع يعرفون ذلك.. لكن مع اندلاع الأحداث الأخيرة، وجرى ما جرى.. وجدت نفسي مرمياً في السجن.. وقاسيت ما قاسيت..

ـ ألم يكن لديك أحد ليوضح موقفك؟

ـ كان أكثر المحققين معي، يعرفون صلتي السابقة بالجبهة، ومعظمهم له الصلة نفسها، لكن القضايا الشخصية تحكمت..

وطغى على حديثنا صياح وهرج في مقدمة «الباص»، واشرأبت الأعناق نحو مقدمة «الباص». قال زميلي:

ـ أرجو أن لا تكون بسبب الفتاة..!

وأجابه الرجل المهندم:

ـ ليس بسببها وإنما بين قاطع التذاكر العجوز وراكب يبدو أنه جندي امتنع عن دفع قيمة التذكرة..

ـ ومتى صعد..؟

ـ في «ذمار».

وزاد الزعيق وعلا صوت قاطع التذاكر مبرراً:

ـ يا جماعة..! لا يمكن أن يركب إلا بتذكرة..هذا هو قانون الشركة..

قال أحد المسافرين:

ـ دعه يركب بالمجان، فهو جندي..!

ـ لا يمكن ذلك . .

ـ لا تكن متشدداً . . عيب عليك هذا . . !

ـ سيخصم المفتش ربع مقرري.

وفقد العجوز صبره وصاح بالسائق:

ـ يا محمد . . ! أوقف «الباص» . . !

وقام أحد المسافرين من مقعده وأمسك بكتف العجوز قائلاً:

ـ لا يصح هذا يا رجل . . ! تنزله هنا . . وفي قارعة الطريق . . ؟!

ـ لا تتدخل . . ! رجاءاً . . !

وصاح الجندي غاضباً، كما لو أهينت كرامته:

ـ لن أنزل يا «وسخ» . . !

ـ أسمعتم . . ؟! شتمني . . ! ما «وسخ» ابن «وسخ» إلا أنت . . ! أوقف «الباص» يا محمد . . !

ـ عجوز قذر . . ! بيني وبينك لقاء آخر . !

ـ أتتوعدني . . ؟

ـ وأبوك . . !

ـ أوقف «الباص» يا محمد وإلا سأرفع بك تقريراً . . !

أوقف الباص بعنف، مما جعلنا نفقد توازننا فجأة . .

ـ من يريد منكم قضاء «حاجة»، فعليه النزول، والعودة خلال دقيقتين . . !

كان ذلك تعليل السائق الذي فرحنا به كفرصة لتحريك أعضائنا الجامدة، واستنشاق الهواء النقي . . وتزاحمنا بإصرار نحو الباب الأمامي للنزول . . فانبرى لنا ذلك الجندي الصغير المشاكس صائحاً في وجه الرجل المهندم:

ـ لماذا لا تنزلون من الباب الخلفي . . هه!؟

ونظر الرجل المهندم نحوي، وقد وقف فجأة فقلت ضاحكاً للصبي:

ـ الباب الخلفي لم يفتح . .

ـ ليس هذا هو السبب . .

ـ ما هو؟

ـ لقد أزعجتمونا دائماً.. النوافذ..الهواء.. الغبار.. الباب.. أف لكم من مغرورين أدعياء..

وحاول الرجل المهندم أن يدخل معه في حوار، لكني أمسكت به.. ومع ذلك فقد حجزنا الصبي في الوسط حتى لم يبق سوانا..

لم تنزل الفتاة من مكانها، بل فتحت المسجل من جديد على أنغام تنفح بتعبيرات الحب والهيام..

وصعد ركاب الخلف للاستمتاع بالنغم والحديث، وعلا حديثهم وضحكاتهم على صياح الجندي وقاطع التذاكر العجوز.. وثب بعدها الجندي إلى قارعة الطريق، وقد علت وجهه مسحة غاضبة اختلجت مع كل قسمات وجهه الأسمر. ومع كل اهتمامات الجموع نحوه لم يولهم أي التفاتة، بل واصل نظراته القلقة الغاضبة نحو اتجاهي الطريق..ومرت سيارة من جوارنا، أوقفها الجندي بعنف حيث وقف أمامها مباشرة وسط الطريق وتسلقها ويداه تشير إلينا بتوعد..

لم يكن ذهابه المفاجئ حلاً.. بل تحول إلى كابوس..

قال أحد الركاب:

ـ لا بد أن يؤذينا في الطريق..

ـ لماذا..؟ لقد كان الصواب بجانب الرجل..

ـ لا.. لقد غلط على الجندي بإنزاله في هذا القاع..

ـ صحيح! كان المفروض أن ينزله في أقرب نقطة..

ـ هذا حلٌ منطقي..

وكأنما شعر السائق أنه أمام حوار الركاب، قد أصبح مشاركاً في الجُرم فقال:

ـ وهل يعقل أن أتركه هنا..؟! لقد كنت أزمع التروي!!

واستشاط العجوز غيظاً:

ـ هذا واجبي.. والسائق يعرف النظام..

ـ لقد أكثرت في تزمتك النظامي..

ـ أتقول ذلك يا محمد..؟!

وكاد أن يتطور الحوار إلى شجار بين السائق وقاطع التذاكر.. التفت إليَّ الرجل المهندم قائلاً:

ـ أرأيت..؟ لا يمكن أن يقوم أي حساب منطقي للأحداث في هذا البلد..

ضحكت ولم أعلق..

* * *

كان الغبار قد تركنا شبه أشباح.. وكان أكثرنا تضرراً الرجل المهندم حسب تقديري الشخصي، حيث بدأ يمسح النظارة الثمينة الطبية، ثم شعر رأسه وداخل أذنيه.. ثم توجه نحو البدلة التي يرتديها بلطمات مؤدبة!! ثم واصل عمله، حتى الحذاء الذي كان سبباً في وضوح ضحكات متتالية وسريعة بعصبية من فمه..

اتجه قاطع التذاكر نحو الرجل المهندم قائلاً:

ـ أرأيت يا سيدي..؟؟

ـ ماذا..؟؟

ـ هل أنا على حق؟

ـ لقد كنت بعيداً عن القضية..

كان استنتاج الرجل العجوز عن الرجل المهندم أن يكون ضابطاً أو مسؤولاً يقيه شر الجندي..!وقال الرجل المهندم:

ـ لم أعد أستطيع الحكم على أي شيء..!!

ولم يقتنع العجوز بذلك فقال:

ـ لكني على حق يا سيدي..! فالمفتش سيخصم ربع مقرري..

ـ لقد انتهت القضية وغادر الجندي بسلام..

ـ ليس بعد يا سيدي..!

ـ كيف..؟!

ـ لا بد أن يقطع علينا الطريق..

ـ لا يعقل هذا..

وانفرجت من صديقي ذي «الكوفية الخيزران» ابتسامةٌ وهو يجيب:

ـ يعقل يا عزيزي..

ـ فنظر إليّ الرجل المهندم باستجداء محتاراً ثم صمت..

كان العمل يجري لاستبدال العجلة التي انفجرت بمجهودات السائق، ومعاونه «الجرشبوي»، وسلبيات قاطع التذاكر العجوز الذي أصابه نوع من القلق والحزن وتوقع المجهول الآتي بكل عنفه، وإهاناته المحتملة، والتي لن يقبلها سنه المتقدم..!!

القاع شاسع، ودوامات الأتربة تتكاثر في مناطق متفرقة.. والشمس تسلط أشعتها على جباه المسافرين..لا يوجد ظل أو نسمة هواء عليلة سوى بعض دوامات مترية وعملاقة تمر على أسلاك البرق القديم الذي ما زال يستعمل من عهد «الأتراك» والممدود على أخشاب محلية صغيرة ومتعرجة وهرمة تسندها أحجار مختلفة القطع بشكل همجي.. تحدث أزيزاً متقطعاً تحول في مسمعي إلى موسيقى..!!

لم يسعدني الحظ هذه المرة أيضاً، فقد نزلت الفتاة لتتجول في الخلاء وحيدة.. ومع ذلك، فقد وجدت نفسي تلقائياً أنساق نحو صاحبي ذي الكوفية «الخيزران» فانضم إلينا الزميل المهندم، الذي ترك زوجته وأولاده في منطقة الخلف الفارغة وصوّر لنا تخوفات قاطع التذاكر العجوز بقلق، مما دعاه إلى الإيمان المطلق باستحالة الحياة في الوطن بعد اليوم..

كان تألمه واضحاً من خلال تعبيراته اليائسة في الإصلاح، أو حتى مجرد التحسن في الأوضاع، وزادته تعصباً لتشاؤمه بسمات ذي «الكوفية الخيزران» اعتبرتها أنا شخصياً مغالاة في العناد من قبل ذي «الكوفية الخيزران»..

كنا مجموعة راكبي «الباص»، قد توزعنا في شلل متقاربة، ما عدا الإخوة «المشارعين»، فقد توغلا في أعماق «القاع»، متقرفصين على الأرض وقد تبعثرت أمامهما أوراق تخص الشريعة، والأحكام، والأوامر.. وفجأة طارت ورقة مع دوامة ترابية غادرة واختلطت مع عشرات القراطيس في عنان السماء، فقاما يتابعانها بجهد مستمر..

جذبني صاحبي ذو «الكوفية الخيزران»، فابتعدنا قليلاً وقال:

ـ دع صاحبنا يعادل حساباته.. لدي فكرة طريفة.. أن نمر على شلل الركاب مروراً عابراً..

ـ أحاديثهم متنوعة..

ـ بل حديث واحد.. كله حول الفتاة..!

راقت لي الفكرة من حيث المبدأ.. وبدأنا..

أول شلة صادفتنا حكمت على الفتاة بالإعدام.. كانت نتيجة سيئة لم ترق لصاحبي من خلال تعبيرات وجهه المتقلصة، فجذبني بعنف نحو شلة أخرى كانت تضم أشخاصاً يرتدون أشكالاً مختلفة من الملابس. خرجنا بنتيجة رأيهم أن الفتاة مبتذلة، وتواقة لممارسة الجنس وأن أي فرد منهم، وفي الخلاء، على استعداد أن يمارس معها الجنس إلى أبعد الحدود مع اختلاف شكلي حول تكرم بعضهم بنفحها مقابل ذلك شيئاً من النقود، وإصرار البعض الآخر على أنها تمارس الأشياء برغبة..

امتعض صاحبي ذو «الكوفية الخيزران»، وجذبني من جديد بعنف مع استمرائي لتلك الأفكار..

كانت الشلة الأخيرة تضم أكبر جمهرة من نزلاء «الباص».. تنوع في الأزياء والألوان. أشكال ومقاسات مختلفة الحجم.. بنطلون.. عمامة.. «سماطة».. «قُبْع».. «تالوة»، «رقيص» بجوارب، رقيص بلا جوارب «كرافته»!!... بينهم الجامعي والموظف، وأبرزهم صاحبنا الأحمق الصغير، الجندي الشعبي، المدمن على السيجارة والقلق..

ـ لو اختليت بها لتركتها إرباً إرباً..

ـ وحشية..!

ـ همجية..!

ـ أمارس معها كل أنواع اللذة والجنس..

ـ وبعد ذلك أتركها وأسرع إلى «الباص».

ـ يجب أن أعرف عنوانها بعد ذلك..!

ـ وأعيش معها في «صنعاء» أجواءً دائمة..

ـ أتزوجها لكي نبني جيلاً سعيداً ينعم بالرفاهية والرقي..

ـ لو قدر لي ذلك لهاجرت بها إلى «جزر القمر» بعيداً عنكم.. أنعم معها بالموسيقى، والأغاني المتنوعة مع أنغام أمواج المحيط..

أخذنا الرأي الأخير في جو حالم فصمتنا نفكر.. كلٌ يفكر حسب خياله

الخاص.. تحول القاع الشاسع المغبر بحيرةً زرقاء..!تحولت الجبال المحدقة به والتي تمثل الجدب والوحشة السوداء.. تحولت إلى جبال مغطاة بالغابات وعلى قممها يلمع الثلج..!! تحركت قوارب الشراع داخل البحيرة، لتحل محل الحمير والدواب..!! انقلب في أسماعنا أزيز أسلاك البرق والهاتف إلى سمفونيات حالمة لبيتهوفن..!!وفجأة يعلو الهرج، والصياح..!!

لقد تم إصلاح العجلة، وبدأ التزاحم أمام الباب الأمامي..!

رأيت الرجل المهندم يتجه نحو الباب الخلفي بألم واضح..

مررت من أمامها كغيري ببطء..عينان غارقتان بالحب والمرح، وجبين ينم عن الصرامة، والإقدام.. نظرت إليّ بفروسية أخجلتني.. أحنيت نظري، وكم كنت أود معرفة الكثير عنها..؟! أهي طالبة..؟ ربما تكون عاملة في مصنع..! أو موظفة..! وربما تكون ممرضة..! متزوجة أو غير متزوجة..؟! وقد تكون أرملة..!

علا صوت المحرك، وكدنا نبدأ الرحلة.. تذكرت الزميلين «المشارعين» التائهين في أعماق «القاع».. وصحت بالسائق أن يتوقف، مما أدى إلى سيل من السباب المكتوم من السائق..ونظرنا من النوافذ.. كانا بعيدين عنا غاية البعد بمسافة لا نكاد نميزهما.. مجرد أشباح صغيرة تتطارد مع دوامات الهواء المتربة.. بدأ السائق إشعال بوق «الباص» المزعج بدرجات متفاوتة في البداية.. ثم ألهبه بضغط عالٍ حتى كدنا أن نُجنْ.

ـ ليس معقولاً عملك هذا..!

فالتفت السائق إليها ببطء.. ويده ما زالت تشعل البوق وقال بقحة:

ـ وما هو المعقول يا..؟!

ـ تنزل أنت ومعاونيك وتستدعيهما..

ـ ليس من عملنا هذا..!

وأدركت عدم جدوى تعريفه بعمله وواجبه، فاستدارت نحو الركاب، وحديثها ما زال موجهاً للسائق قائلة:

ـ يتبرع أحد الركاب باستدعائهما.

ونظر السائق إلى مجموعة المسافرين، فلم يتحرك أحد. . وساد تجاهل عام ابتسم له صاحبي ذو «الكوفية الخيزران». . !

مرت فترة صمت. .تحول الصمت إلى حوار هامس. .نهضت الفتاة فجأة، وفتح الباب ثم انطلقت نحو «المشارعين» بثبات وفتوة وحيوية أبرزها هواء دوامات «القاع» الذي داعب «شرشفها» الأسود لتبرز بعض ملامح الأنوثة. .لم يصدر منها أي صوت مناداة. . وإنما واكبت الانطلاق نحوهما. .

تزاحم جميع الركاب نحو النوافذ اليسرى للباص يشاهدون ذلك المنظر. .حاولت مع صاحبي أن نلتقط أي تعليق، لكن بدون جدوى. . كان صمتاً معيباً وعاراً على كل جبين. . وعادت بهما والحوار متبادل من خلال الحركات الهادئة. . صعدت بهما والعرق يرشح على جبينها البض. . وجلست بهدوء. . وقد أخرجت من حقيبة يدها منديلاً صغيراً مزركشاً لتمسح قطرات العرق بتروٍ. . وانهمرت سيول من التقريع، والتأنيب، والشتائم على الرجلين من جموع المسافرين بضجيج صاخب كان أبرزه قحة صوت السائق المقذع.

كان الحزن بادياً عليهما، وكاد يتحول إلى بكاء. . لقد ضاعت أهم وثيقة لديهما. . الوثيقة التي من أجلها طلعا إلى «صنعاء»، وبها بنيا أحلاماً عراض. . وثيقة النصر على الظلم. الوثيقة التي ربما تنهي غراماتهما السابقة وتوقف النزيف المالي لمدخراتهما، وانفجرا بالبكاء على حظهما السيء. . صاحت بهما الفتاة وقد صمت الجميع. . نهرتهما. . استنكرت موقفهما. . سجلت استياءها لضعفهما:

ـ الحياة رحبة وواسعة، لا تضيق بضياع ورقة. .

ـ لكنها حياتنا.

ـ الورقة لا يمكن أن تصبح حياة أحد!!

ـ إنها ورقة أرض اغتصبت منّا. .

ـ المستقبل يعطي الأمل. .

ـ المستقبل ضاع. .

ـ بل سينهي كل تلك الأوراق البالية. . ويريح الكثير من أمثالكما. .

وتشنجا وقد ارتميا على كرسيهما.

تحرك «الباص». . وساد الصمت. . وبدأ زميلي المهندم لحظتها يعيد

حساباته بينما علت ابتسامة نصر على شفتي صديقي ذي «الكوفية الخيزران» التي أكل العرق نصفها الأسفل. . لم يدم الصمت فقد مزقه أحدهم قائلاً:

ـ سيجدان الورقة أمامهما في «الاستئناف». . !!

ـ غير معقول. . ! فقد غابت الورقة خلف جبال «آنس». . !

انفرجت ـ بتفاوت ـ ضحكات مريحة، تحمس لها الأحمق الصغير العسكري المدمن على التدخين فقال بحماس:

ـ لو استطعت إقناع القائد للمراجعة من أجلهما لفعلت. .

أدركت الفتاة أن نظرته مركزة عليها أصلاً، لذلك لوت «بوزها» بسخرية. .

* * *

كان الوقت قد جاوز الظهر بساعتين تقريباً. . الجو حار. . والغبار يقتحم جميع نوافذ «الباص» والإرهاق واضح على معظم الركاب. . الصغار والكبار نائمون. . الجوع بدأ يعطي نوعاً من الاسترخاء الممل. وبدأ الغثيان يداعب فم المعدة. . وبدأت نتائجه الفعلية تظهر عند الغالبية. . كان أبرزها إيذاء للأسماع، تهوعات، وتقيؤات الزملاء «المشارعين». علا صياحهما العملي للتقيؤ على الجميع، مما جعل بعض الصامدين ينهارون. .

كانت فرصة لزميلي المهندم في فتح النوافذ رغم الغبار المتدافع لكي يتقيأ الجميع. . بدأ السائق يتذمر، وشاركه معاونه بسباب مكتوم. . والعجوز ما زال نظره مركزاً على الطريق بقلق واضح، وكأن حبل المشنقة يتراءى له مع طيات السراب. . بينما أعلت الفتاة صوت مسجلها ليخفف الحالة نسبياً. .

صمدت مع زميلي ذي «الكوفية الخيزران». . ساعدنا على ذلك طرقنا لمواضيع ذات أهمية. . لقد أعطانا السكون الذي يتبع التقيؤ فرصة لاستمرار الدردشة والخوض في مواضيع متنوعة. اندمج في حديثه ثم سبح في أفكاره الخاصة. . لكنه كان واثقاً مني وربما اعتبرني عضواً في نقابة ابنه القتيل في أزقة نيويورك. أعطاه السكون والهدوء التام مجالاً للسرد. . الغربة، ومشاقها الأولى. . الكفاح حتى الاستقرار. . الجيل الذي أنجبه ليتفاقم عن صراع طبقي حاد يمارس في بلاد أخرى ارتكازاً للخلفية المتراكمة في حياة بلاده. . فشل في

تكوين نقابة في بلاده بعد عودته لانشغال مواطنيها في مشاكل الشريعة، و«العدولات» و«الطروحات»، و«الغرائم، والنواظر».. حتى مواطنوها المغتربون في أمريكا من «الشِّعِز»، أو من «رداع»، أو «حراز».. رعاة بقر.. الزركشة في الملابس، وفي ديكور السيارات التي تنتهي بعد سنتين على الأكثر لصعوبة الطرق..

ـ اليمني يعامل السيارة كالحصان.. يسرجها، ويزينها و..

وتوقف وقد لاحظني أبتسم معتبراً ذلك تشككاً مني في حكمه..قال:

ـ إذا دخلت مطعماً أو مقهى ستجده يستعجل شرب الشاي بصحن الكأس..قلق وسريع في إبداء قلقه..!!

تذكرت نفسي وأنا أمارس العملية مع زملائي.. فاستمر قائلاً:

ـ خلفية الإمام «يحيى»..

ـ كان قائداً للحركة الوطنية ضد الأتراك..

نظر إليّ بأسى قائلاً:

ـ كان كابوساً.. خمسة وأربعون عاماً حكم فيها هي بداية القرن العشرين.. بداية نهضة الأمم النامية.. لم يعمل خلالها شيئاً..

ـ ظروف الوقت الذي عاش فيه..

ـ بل عقلية جامدة متخلفة وعفنة..

ـ حكم بحاجة إلى نقاش..

ـ أنتم هكذا! تأخذون من الأمور قشوراً فتصنعون منها هالات عريضة هي بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة.. لم يكن الإمام يحيى بطلاً استقلالياً وطنياً.. الشعب هو الذي كافح الأتراك وجعل من اليمن مقبرة لهم..

ـ لكن الشعب نصبه إماماً لخمسة وأربعين عاماً كان الأمن فيها مستتباً..

قاطعني لأول مرة مكملاً:

ـ وعصا الإمام تصل إلى جميع المناطق.. أليس كذلك..؟

وابتسم بسخرية ثم أنحنى كمجادل بارع في المنطق:

ـ لو عشت الفترة لكان لك رأي آخر..!

ـ التاريخ يقول بالقشور. . !

ـ ألم أقل إنكم تأخذون بالقشور كمنطق مفعم. .؟ لقد خاض الشعب نضاله ضد الأتراك فترة ليست بالوجيزة. . شعب يحارب إمبراطورية. . تصور ذلك. . إمبراطورية ملأت الدنيا بفتوحاتها الواسعة، حتى قلب القارة الأوربية الاستعمارية. . يقهرها شعب صغير. .

وتململ قليلاً، ثم استطرد بعد أن تأكد من عدم مقاطعتي له:

ـ أنهك الشعب نتيجة الحروب والمجاعات والحصار. . كان الشعب على استعداد للقبول بأي حل لإنهاء تلك الكوارث. .

ـ الإمام يحيى هو الحل. .؟!

ـ أتى في وقت كان الناس فيه أشباحاً جائعة، منهكة، تريد العيش والأمن والاستقرار. .

ـ طلبوا الأمان قبل الإيمان. .

ـ أتى الإمام بعقلية المزارع الثري. . يجمع المال والحبوب ويكدسها، يشتري مزيداً من الأرض ويبني مزيداً من القصور «والشذروانات»، و«يشارع» الناس ليمتلك أراضيهم، ويقتني كل ما عند الغير من تحف نحاسية، وفراشات وثيرة. . لم يخرج من عاصمة ملكه. .لم يبن في حياته أي حجر للدولة. . ولم ينشئ أي مؤسسة حضارية للشعب. . بل ما خلفه الأتراك من مدارس ومنشآت حضارية حوّله إلى سجون وقصور. . وضاقت حاشيته والناس أجمعين به، فانتهى. .نعم انتهى. . !

ـ ليخلِّف ماذا. .؟!

ـ إماماً حاقداً جديداً آخر. . !

ـ أهذه هي الحقيقة. .؟

ـ لا غيرها. . غوصوا في أعماق القشور التي تكتبون عنها بإسهاب. . !

لم أحاول الجدال، واستمرار الحوار، فقد شعرت أنه بدأ يعاني من كتمانه للتقيؤ. . تركته فترة يباشر عملية التقيؤ باتزان من النافذة. . ورغم صمودي، فقد تبعته وأخرجت رأسي أنا الآخر من النافذة. .

كم هو مُتْعِبٌ التقيؤ والمعدة خاوية. .؟! شعرت أن ضلوعي وما بداخلها

تكاد تعبر الحلقوم.. يشعر الإنسان أنه يمارس عملية الموت ببطء وبمعاناة. .التقيؤ جزء من الرمق الأخير.. من فهقة النَّفَسْ الأخير..

أغمضت عينيّ واسترخيت عسى أن يكف الإلحاح المتعب للتقيؤ. أصوات التقيؤ بجانبي مزعجة إلى درجة القرف.. وددت لو أن السائق يقف لحظة لنرتمي خارج «الباص» ولو على جمر.. المهم بدون اهتزاز. الاهتزاز يجعل المعدة «دُبْية» لهزّ اللبن.. وزادنا تهوُّعاً صعودنا «نقيل جبل يسلح» وأصبح دوراننا جزءاً من دوران «الباص». أوقفنا جميعاً صوت العجوز قاطع التذاكر. .كان صوت شبح مخيف في حلم نوم مر على الجميع:

ـ الجندي.. الجندي..

ذلك الجندي مع زملائه يقطعون الطريق في قمة الجبل ببراميل فارغة مهشمة.. كان «الباص» قد وصل قمة الجبل بعد أنين حزين أضفى علينا كآبة فوق ما نحن فيه من متاعب. القمة هي عنق الزجاجة.. ممر ضيق في القمة بين مرتفعين تطل منهما فوهات المدافع الرشاشة ودشم العساكر.. كان الوقوف في فوهة الممر خطراً جداً.. إذ لابد من وضع عدة أحجار خلف عجلات «الباص» الخلفية.. قام بعملها المعاون، ذلك الصبي، بخبرة سابقة.

واشرأبت الأعناق نحو البراميل الفارغة التي تقطع الطريق.. كان الجندي خلف تلك البراميل بكامل السلاح: قنابل.. رشاش.. خنجر.. و«قات» في فمه يلوكه بغضب، وسيجارة محترقة حتى «الفلتر».. وبجواره زملاؤه يبدو من ملامحهم استثارة زميلهم بعاطفة جياشة..

لم يتحرك الجندي، وإنما تحرك زملاؤه نحونا. قال أحدهم:

ـ نحن في قمم الجبال.. في خضم المخاطر.. نحمي ونحرس ونصون بعيون ساهرة كل مواطن بأجر زهيد و«كدم» وفول مسوس.. بين برد قارس وقيظ محرق.. ومع ذلك نُعامل بمهانة دائماً..

وأضاف آخر:

ـ لأننا لا نعطي دروساً سيئة لكي نكون في مقام الاحترام..

ـ «الباص» واسع ومتين وقوي!!

وضرب بحذائه الغليظ قاع «الباص» بعنف اهتزت له المقاعد ومن عليها.. واستمر ساخراً:

ـ عجيب أن يضيق بجندي بائس! كأنه بزيه الأغبر سيغرق «الباص» في أمواج «قاع جهران» المتلاطمة..!

كلام منطقي أعجب صاحبي ذي «الكوفية الخيزران» بينما شعرنا جميعاً بتوتر الموقف فكفَّ التقيؤ ما عدا «المشارعين».. بدأت فترة صمت رهيبة أعقبتها استفسارات هامة عن السبب..

ـ تفتيش..!

ـ تفتيش..؟!

ـ نعم..

وبدأ الهمس يعلو كل جلبة، قطعه الجندي آمراً:

ـ على الجميع النزول بحقائبهم إلى الأرض، أكانت معهم، أو على السطح وبسرعة..!

توتر الموقف أكثر، مما جعل الجميع يقتنعون بطريقة الجنود من إصرارهم وحقدهم الظاهر من خلال إشهارهم للسلاح وتصرفاتهم العنيفة..

ما أقسى المشاكل على مسافر مجهد..!!

بدأت احتجاجات هامسة.. تطاولت بعضها الهمس.. وكان لابد من إنقاذ الموقف.. فعملية التفتيش ستستغرق عدة ساعات.. قال السائق محتجاً:

ـ لم يحدث هذا من قبل.. هذا ليس معقولاً..!

ـ معقول ونص..!

كان العجوز قد تهاوى في مؤخرة الباص، وجلاً مربوكاً ليس له مخرج ولا نصير، كفأر وقع في مصيدة، فتحول إلى خوف نعامة.. أقسم في ضميره أن لا يزاول عمله بعد اليوم، إذا قدرت له النجاة.. وشرع الجنود في رفع الكراسي الاحتياطية على الممر و«الشنط» الموضوعة على الأرفف، بينما قام زملاؤهم في الخارج بتسلق سطح الباص.. وتطور الموقف مع أحد المسافرين ممن يحملون السلاح، وليس لديه تصريح من مراكز الشرطة العسكرية.

كان مطمئناً منذ بداية الرحلة، لأن «الباص» لا يفتش دائماً.. ولو كان يعرف ما سوف يحدث، لقام ببساطة واستخرج تصريحاً من أقرب مركز مر به..

وتطور الحوار الساخن إلى شبه اشتباك، كان هو الخاسر.. إنه

«خبير»[1] بمعية أحد المشايخ الذي سوف يعفيه ذكر اسمه عن طلب أي تصريح، أو بطاقة رخصة حمل السلاح.. توعد كثيراً بدون تأثير يذكر عند الجنود لحالتهم النفسية التي طغت على كل انضباط.

بدا تصرفهم في نظر بعض الركاب قد تجاوز الحدود الذوقية، فانبرت أصوات مستنكرة كان أبرزها صوت الزميل المهندم، بعد أن قذفت حقيبة زوجته مما أدى إلى كسر قارورة عطر فيها، فاحت رائحتها لتزيدنا غثياناً..

كان بعض المسافرين على استعداد للشجار مع الجنود، فقد بلغت نفوسهم الحلقوم، وأصر بعضهم أن يهدد بمعرفته للقادة أو المسؤولين عن وحدة الجنود.. وآخر بأنه ضابط في زيه المدني.. وآخر بأنه في مكتب وزير.. لكن من دون جدوى.. التفت إلينا الرجل المهندم قائلاً:

ـ أسوأ رحلة قمت بها في حياتي..

أجابه زميلي ذو «الكوفية الخيزران»:

ـ بالعكس..!

ـ رد غير واقعي..!

ـ لماذا؟

ـ عجيب أن تستفسر بعد كل هذا الذي يجري..!

ـ وماذا جرى يا عزيزي؟..

ـ أما عجيب أمرك.. طريق غير معبد، ورفاق متنافرون.. وغبار يكتم الأنفاس.. وشمس وجوع وقيء.. وأخيراً إرهاب عسكري يمارس الآن، وتقول بعد كل هذا: ماذا جرى يا عزيزي؟.

ـ شيء عادي وطبيعي..!

ـ إخرس..! أرجوك..! لم أوجه حديثي إليك منذ البداية.. كنت أخاطب زميلك.. فلا تزيدني قرفاً.. أرجوك.. لا داعي.. أرجوك!!

ابتسمت لأخفف عنهما حدة الخلاف.. وكان لابد من أن أعمقه.. لكن الظروف حرجة، والسلاح والأطفال المرعوبين المجهدين، حتم عليّ أن أجامل.. وأدليت بحديث لطيف أراحهما فصمتا برهة لكي نراقب سير

---

(1) خبير: مرافق.

الأحداث. . الجنود ما زالوا ينزلون الحقائب والصراخ يعلو باستمرار. . لم يكن لديَّ وصاحبي حقائب، لذلك قال صاحبي ذو «الكوفية الخيزران»:

- أتدري كم شهيداً سقط في هذا الممر الضيق؟

ولم يتركني حتى لمجرد أن أهز رأسي، فأكمل:

- عشرات، بل مئات سقطوا هنا. . أيام حصار السبعين. .

- ومنذ قيام الثورة أيضاً. .

- في إيامها البكر الرائعة. .

- ذكريات. . !

- لقد أسرت هنا مع زملاء من المهجر متطوعين في الحرس الوطني.

- «أخي المهاجر». . !

- وساقوني إلى كهف في «خولان». . كانت كهوفاً عديدة. . وسألني القائد الملكي عن هويتي، فقلت إنني «فقيه» أعلم الصبيان حفظ القرآن. . أخذت إلى المعركة بالإكراه. .

وضحك لأول مرة حتى كادت «الكوفية الخيزران» تسقط من على رأسه فاستمر:

- وسيق معظم الزملاء إلى معتقل في «نجران». أما أنا فقد بقيت في الكهف. . وأطلقت بعد عدة أشهر. . لقد نجوت من معتقل نجران، لأني لا ألبس ضرساً ذهبية. .

وضحك مرة أخرى، ودفعني للضحك أيضاً، وتساءلت عن الضرس، أو السن الذهبية، فقال:

- من كان لديه في فمه سن ذهبية، أخذ إلى «نجران»، لاعتقادهم إما أن يكون ضابطاً أو ابن شيخ. . وكان درساً لزملاء المهجر ممن يتباهون. . كم كانت صادقة ومجيدة تلك الأيام. . !؟

فجأة، علا صوت المسجل ليطغى على كل صخب الحوار، والشجار الكلامي. . فصمت الجميع، وتدافع بعض الجنود نحو الفتاة، وصاح بها أحدهم:

- أقفلي المسجل يا فتاة. . !

ـ ليس هذا من شأنك.. أنا حرة..!

واشتد غضب الجندي صائحاً:

ـ سأقوم بكسره إذا لم توقفيه..!

ـ ليس بمقدورك فعل ذلك..!

واندفع نحوها، لكنها واجهته بحركات متحدية، فتراجع برهة بعد أن نظر إلى زملائه وقال بصوت حاول أن يخفف فيه غضبه:

ـ إنك تعيقيننا عن إجراء عملنا.

علت منها ضحكة مستهزئة وقالت:

ـ إنني أساعدكم، عسى أن تروق نفسيتكم، وتهدأون من هذه الأعمال الصبيانية..

ـ أعمال صبيانية..؟

ـ أتقول هذا الكلام، ونحن ساكتون..؟!

وترك معظم الجند مواقعهم حول الفتاة، وقد بلغت انفعالاتهم الحد الأقصى.. لكنها تجاهلت ذلك ولم تبد أي لمحة وجل أو خوف..

بلغ الموقف درجة الخطورة.. تصورات كل مسافر أبشع من تصورات زميله. قال ذو «الكوفية الخيزران» وقد لمس قلقي:

ـ لا تخف..! الشعب اليمني حضاري بطبعه..

ـ ربما في هذا الموقف سأخالفك الرأي..

ابتسم بثقة داعماً رأيه، وبعيداً عن إحراجي كمعارض.. كنت في حالة من التحفز والغضب لإنقاذ الفتاة من أي تصرف جارح، عندما أخذ الجندي «المسجل» وقذف به بعنف من باب «الباص» ليرتطم بأحجار الطريق.. لكنه لم يسكت عن الصدح بأغنية الفتاة المفضلة.. جمعت كل قواها في صفعة دوّت على خد الجندي الذي ارتمى بوجل على أذرع زملائه.. لم يكن في حسبان أحد ذلك الرد العنيف من الفتاة.. بدأت أستعد لإقناع نفسي بوجوب التضحية.. لم يكن أمامي أي مجال. دوّى صوتها مجلجلاً كالرعد مبدداً همسات الجبناء:

ـ لستم حماة الوطن.. حماة نزواتكم الذاتية..

ـ سوف ترين.. يا..!

ـ لن أرى أسوأ مما رأيته من تصرفاتكم هذه..

ـ وقحة..!

ـ أي وقاحة أكثر مما مارستم؟!

ـ مارسنا واجبنا..

ـ أي واجب هذا الذي تمارسونه..؟!

ـ لقد شاركت بالرضى في إنزال جندي بائس من «الباص» لفقره..

ـ حادث شخصي.. وقانون سننتموه برضاكم.. ونفذه العجوز بحذافيره..

ـ عاهرة..!

ـ العهر هو الإخلال بأمن المواطنين..

اقتربت مع مجموعة غاضبة نحو الفتاة، والمسجل ما زال يشدو بأغنية الفتاة المفضلة.. كان صموده مؤيداً لموقف صاحبته.. ساءت توقعات المسافرين.. ومع كل تعبهم، وجهد الرحلة والجوع والغثيان، فإنهم لم يتوقعوا أن تصل الأمور هذا الحد من العنف.. كانوا على استعداد لتحمل الجوع والعطش والقيء وضيق الحياة.. لكنهم لم يتحملوا حتى مجرد توقع ما حدث. فتاة تجابه جنوداً مسلحين.. ما موقفهم إذا لم يذودوا عن الفتاة، ويتعرضوا للفتك بأسلحة الجند..؟!

كان همي الوحيد مع كل اندفاعي، هو أن أجد أي تعبير يؤيدني ضد رأي زميلي ذي «الكوفية الخيزران».. وصدمت، فما زال مصراً على رأيه، «الإنسان اليمني حضاري بطبعه».

أكرهت نفسي على سوء الظن به.. رجل عاش في بلاد رعاة البقر.. عصابات «المافيا»، و«آل كابوني».. لا يمكن أن يهتز لمثل هذه المواقف..

في ذهن كل راكب تساؤل رهيب عن الموقف إذا ما هجم الجند على الفتاة.. بعضهم أظهر استعداده للتضحية، والبعض فضل الصمت، والبعض الآخر حاول التدخل بوساطات سلمية لحل الأزمة:

ـ يا جماعة اتقوا الله..!

ـ الصبر جميل..!

ـ هي فتاة وأنتم رجال. . !

ـ الرجال يترفعون عن أفعال النساء. . !

ـ لا تجعلوا عقولكم بعقلها. . !

ـ المرأة ناقصة عقل. . !

لم أقتنع شخصياً لقول الوسط المستفيد دائماً لما يجاري مصالحه الخاصة الآتية.

كان أمامي حل وحيد، إما أن نذود عنها حتى النهاية وإما أن يحل الموقف لصالح الفتاة حتى بمعجزة. . وأيدني البعض بأن الفتاة على حق ويجب نصرتها بالقوة. . تساءل البعض الآخر بضجر بأن يضطر الجنود للقضاء على كل حل. . وجابه ذلك التساؤل، شعور البعض بالاستعداد للتضحية. .

بدأ حوار الوسط، إثارة على جموع الجبناء:

ـ فتاة مسكينة. . !

ـ جنود مثارون نفسياً. .

ـ الحادث عادي، ولا يجب أن يستغله ذوو الأفكار المتهورة. .

وبدأ الحماس الطلابي القديم يداعب مشاعري، ومشاعر آخرين. . كم راعتني وجوه الجند وقد صبغت خجلاً يكاد ينفجر من محياهم. .؟ علت طرقات أحذيتهم على كل همس مكبوت، ورمي المسجل بأغنيته المفضلة إلى داخل «الباص» وأقفل الباب، وأزيحت البراميل الفارغة المهشمة من الطريق عن رؤوس مطأطئة إلى الأرض، ومرق «الباص» والعجوز فاغر فاه. . وأسرع بنا نحو صنعاء بانحدار جنوني.

وتهالك الجميع بصمت على كراسيهم، وتصاعد الغبار من جديد، وعادت الرحلة من جديد. . ارتميت في مقعدي، محاولاً عدم الاهتمام بزميلي ذي «الكوفية الخيزران» الذي أكل العرق نصفها الأسفل والذي واساني بابتسامة إشفاق تروّح عن انهزامي وهبط عليّ النوم ولأول مرة أشعر بحاجتي إليه، وبإلحاح هطل تجاوباً لهروبي من الحقائق، ونمت بعنف. . وحلمت أحلاماً مزعجة لم أرها من قبل، كأحلام نوم حارس في «نقيل يسلح»، أو طريق «الحيمة»، أو على «سور صنعاء» المحاصرة. . ساعة راحة استيقظت لأجد نفسي آخر المسافرين. . لم يعد هنالك أحد في «الباص» حتى السائق. .

واندفعت بين زحام السيارات، والموترات النارية السريعة لأبحث عن زميلي ذي «الكوفية الخيزران» التي أكل العرق نصفها الأسفل، والذي ربما أشفق بي وتركني وحيداً.. وأسرعت نحو «باب اليمن» ـ «باب الحرية» ـ باب صنعاء الجنوبي المزدحم..

وجدت أناساً كثيرين يلبسون «الكوافي الخيزران» التي أكل العرق نصفها الأسفل.. لم أستطع أن أميز صاحبي. امتطيت أحد موترات الأجرة خلف صبي يقوده بمهارة، وسرعة جنونية، ومع ذلك فهو يلبس «كوفية خيزران» أكل العرق نصفها الأسفل..

صنعاء: 22/ 11/ 1973م

فتـاة مـدبرة

الميدان فسيح. . السيارات متراصة أمام الوزارة بشكل همجي غير منظم، وكثافة من الناس في حلقة دائرية وسط الميدان، وسيارات «الأمن المركزي» من ورائهم وأمامهم وبجوار ضلوعهم تعلوها شِلَلٌ من العساكر المدججين بالسلاح. . وسيارات عادية تئن بمجموعات عابرة تسلقتها لرؤية من حكمت عليهم الدائرة القضائية بالإعدام رمياً بالرصاص، والصلب لفترات متراوحة.

شدني الهوس للرؤية كغيري من العامة الذين تجمعوا لمشاهدة المنظر المألوف منذ بداية الأحداث. تسلقت درجات مدخل الوزارة، عسى أن أرى، أو أسمع، حتى مجرد صوت إطلاق الرصاص. . كان السماع يكفي في حد ذاته للتساؤل. . الكل في إصغاء مريع. .آثرت السماع بعد أن أعجزتني الحيلة للرؤية. . أمسكت بكتف أحدهم لرفع قامتي قليلاً ولم يشعر بي لأنه كان مندمجاً مع مجموعة في حوار بخصوص فتاة تقف بينهم بقوام ممشوق وصوت رنانٍ يجادل بعنف في بعض الأحيان. . قال الرجل وقد لوى «بوزه» :

ـ لقد قلت لها أنها تستاهل ذلك. .

وارتفع صوتها بقوة:

ـ لماذا؟ لدي تقرير طبي بالإجازة. . !

ـ أعذار. . ! أنت فتاة «مدبرة»[1]. .

تشنجت الفتاة بصوت متودد:

ـ محاربة في كل مكان. . وكان واجبكم المساندة لا اللوم. . !

وأفلت منها شبه شخير يدل على أنها «تمخطت» إثر دموع ذرفتها ومسحتها بطرف «شرشفها» الأسود. تأملتها بإمعان صبغته يد الخيال. . فتاة تلبس «الشرشف» الأسود الحريري الجنوني الملمس. . ونقاباً مطرز الأركان قد

(1) مدبرة: سيئة الحظ

أسدل إلى خلف رأسها، لتبرز قطعة قماش زرقاء اللون تلثمت بها لتبدي عينيها اللامعتين بالأنوثة والسحر. .وقوام ممشوق. . تناسق «الشرشف» مع كل منحنياته المرنة. .

انحنيت من الدرجة الأولى لبوابة الوزارة حتى أسمع الحوار. . ورأيت مجموعة من الأشخاص قد اشتركوا مع الفتاة في حوار صاخب. . الجميع يؤنبها، ويلومها. .شدني الفضول فسألت جاري عن الموضوع وعرفت منه أن الفتاة قد فصلت من عملها بالوزارة كممرضة، وذلك لغيابها المستمر. . لويت شفتي بالحسرة وقلت بعد تمهل:

ـ لاحق لأحد بفصلها. . !

ـ عندهم حق يا عزيزي. . !

التفتت إليّ وقد شجعها دفاعي. . وفي يدها ورقة من مكتب السيد الوزير يستوضح فيها من مدير المستشفى «الجمهوري» عن الممرضة «فاطمة علي». .

أخذت الورقة بدون شعور وقد امتلأت جوانحي بالعطف نحوها، ورمقتني من خلال «اللثمة» بعينيها الساحرتين فجمدت خيوط البصر من عيني لحظات وشعرت خلالها بتيار اللذة والجاذبية الجنسية نحوها.

كانت يدها ما زالت ممدودة لأخذ الورقة، كأنها شمعة حمراء في حفل عيد ميلاد أميرة غانية، وقد تحلت بأساور من الذهب، وبخضاب أسود مطرز بزركشة بارعة في الفن. . ولم أمنع نظري من الانحناء إلى قدميها المغطاة «بشرابات» شفافة، وحذاء عالي الكعب، آخر «موضة عصرية». .

تمالكت مشاعري، ونظرت إلى شرح المدير إلى سيادة الوزير بإهمالها، وتغيبها المستمر وأخيراً بدمغها بمرض خطير لا يمكن السكوت عليه. .أرجعت لها العريضة، وقلت ناصحاً:

ـ لا داعي لتقديم هذا إلى الوزير. . !

وقالت برنة حزن وأسى:

ـ وما العمل. .؟

واحترت في الإجابة عليها، بينما جذبها أحدهم من يدها، فنظرت إليه بدهشة لجرأته، وقال لها ويده قابضة على يدها:

ـ إسمعي يا بنت الحلال.. لابد من أن تكوني أكثر حذقاً.. وتتركي التعنت..

وتشنجت، ولم تجب، فجذبها آخر من كتفها بلمسة جنس خبيثة وقال:

ـ إسمعي..! لقد قلت لك منذ فترة أن تتركي «الدبور»، وتسمعي كلامنا..!

وقاطعه آخر، وقد احتضنها بيده كمن يحادث رجلاً آخر:

ـ سنحاول مع المدير مرة أخرى.. إذا أنصتِ لنصيحتنا..!

آلمني تصرفهم، كما راعني أنها لا تمانع، وإنما تتشنج بمخخطات متتالية ودموع بدأت تبلل اللثمة. أدركت أن الجميع موظفون في الوزارة، وأغلبهم من سائقي سيارات المسؤولين فيها.. وسألت أحدهم:

ـ لماذا كل هذا الإرباك للفتاة..؟

ـ أي إرباك..؟؟

ـ هذا الجذب، والشد، والاندفاع الوقح في مخاطبتها.. لابد من التحدث معها بلطف يليق بفتاة تعمل في وزارة محترمة..!!

ونظر إليّ بتأمل مدقق وكأن كلامي كان خارجاً عن المنطق وقال:

ـ لابد من هذا حتى تعود إلى الصواب وتترك «الدبور»..!!

ـ إنها بائسة..

ـ بل مريضة يا سيدي..!

ـ ما مرضها..؟؟

ـ مريضة، وهذا يكفي..!

ـ وما سبب فصلها..؟

ـ غيابها المستمر عن العمل..

ـ إذاً فهي معذورة..

ـ وما عذرها..؟

ـ مرضها الذي حدثتني عنه..

وضحك وقد أشاح بوجهه عني.. وعلا حوارهم الصاخب معها، والكل

يجذبها من أماكن مختلفة. استأت من ضحكته، فجذبته نحوي كمن يريد الدخول معه في شجار عنيف لكنني تمالكت أعصابي وسألته:

ـ أليس لها زوج..؟!

ـ ليست متزوجة..

ـ عائلة..؟

ـ يتيمة..

ونظر إليّ بغيظ، وقد تألم لتصرفي وقال متحرشاً:

ـ ما دخلك في هذا الموضوع..؟

ـ بحكم أنني إنسان..

ـ إذا كان لديك إنسانية فاتركها..!

لم أجبه، ونظرت إليها وقد تكدست معاني الإنسانية في وجداني لتحتل كل هواجس الجنس والرغبة.. وجدت نفسي قد تورطت في حبها من تقاطيع اللثمة الزرقاء، والشرشف الأسود، والحذاء الجديد والشرابات الشفافة.. تخيلتها ممشوقة القوام، ممتلئة الصدر، ناصعة البياض.. يدان كالشمع الأحمر المطرز بالخضاب الأسود المزركش، والأساور الذهبية الباهتة بلونها الأصفر.. اندفعت نحوها، وأخذت منها الورقة فسلمتها بثقة، والتقت يدانا لأجذبها معي نحو الدرجات العليا لسلم الوزارة بين نظرات زملائها الشرسة.. وقدتها وقد شعرت بدفء يدها الرطبة، ودوت طلقات نارية متكررة وسريعة، وتجاوب صداها مدخل الوزارة العفن، فارتمت بين أحضاني بخوف ووجل وشعرت بدنيا لم أحلم بتحقيقها من قبل..

صنعاء: 5/ 2/ 1974م

هاي هتلر

الشارع التجاري المشهور في العاصمة يعج بعشرات السيارات المارقة التي لا تترك متنفساً للرجل العادي الذي يريد العبور من جهة إلى أخرى. . ازدحام مصطنع لا مبرر له وأرتال من سيارات الأجرة والخاصة، والحكومي، والجيش، والمعونة الفنية، ومكاتب المشاريع للدول الشقيقة. . والصديقة. . تمر دائماً. . هي هي. . وقد تمر في اليوم عشرين مرة. . لم أستطع تفسير ذلك. . إلا أن الجميع يسيرون بلا هدف، ويحتل الفراغ معظم أوقاتهم. تجوال ومجابرات سامجة في الزيارات، ولقاءات حول أين يكون المقيل؟

بلا عمل. . الكل. . وشارعنا المشهور في العاصمة، هو الوحيد بشهرته، لأنه يحمل اسم أشهر شهيد في الثورة. . مزدحم دائماً من الصباح، وحتى الظهر. . وقت تعاطي «القات». .

لا توجد إشارات للمرور. . شرطيان أو ثلاثة يقومون بالعمل بصياح، وزعيق مستمر خصوصاً مع سائقي سيارات الأجرة التي تقف دائماً لإنزال الركاب الوجلين الذين لا يقدر بعضهم على فتح الباب بطريقة بصيرة، فيتعرض للشتائم من السائق والآخرين. .

كعادتي دائماً وصلت إلى «البوفية» مبكراً، والشمس لا تزال تحتجب خلف العمارة الأولى التي كانت رمزاً لكسر سور المدينة القديم، والخروج بمفهوم سكن الشقق بعد الثورة. .

أجمل ما في شارعنا، بل وكل المدينة هو موقع «البوفية» التي تحف بها الأشجار الظليلة الوارفة، والتي يعود الفضل في نموها السريع إلى جندي متقاعد من الطراز الأول، يتقاضى راتبه من البلدية ومواساة لا بأس بها من صاحب «البوفية». نشيط دائماً، بالرغم من بلوغه الخامسة والسبعين من عمره. . حريص على أدوات «البوفية» أكثر من حرص صاحبها. . شغوف بتعاطي مخلفات «الزبائن» من المشروبات الغازية. .

كنت قد تعودت أن أتناول إفطاري في ساحة «البوفية».. ولا أعرف سبباً لضيقي من تناول ذلك في منزلي..عادة واستمرت.. ناديت كالعادة:

ـ «السندويتش» !

ـ فأجابني العامل:

ـ وفنجان شاي باللبن كالعادة يا أستاذ..!

هززت رأسي بالإيجاب، وقد رشفت فنجان القهوة الصباحي الذي يعيد الدفء إلى جسمي، ويعطيني الحق في إشعال سيجارة.. وبدأت أتصفح الصحيفة اليومية كالعادة.. أخبار استقبالية.. زيارات دائمة.. بعض مقالات ركيكة وجلة، وتقارير لبعض الوكالات العالمية ـ المسموح بنشرها طبعاً ـ!

ـ أف..!! لا يستطيعون اختيار العنوان المناسب للخبر..

نظرت إليه فوجدته قد مد يده إليّ وبفمه سيجارة يريد إشعالها.. نفضت رماد سيجارتي المتآكلة وأعطيتها له..إنه أحد «مجانين» الشارع المشهور.. لكنه أخفهم وطأة علينا.. سابح في خياله ممعنٌ في تفكيره الواضح من خلال تصرفاته وحركاته. أشعث الشعر يكاد من إهماله لنفسه أن يصبح زبالة في حارة منزوية تتجمع خلفه أينما تحرك قطعان من الذباب، ثيابه قد عثت.. لا يوجد فيها مكان إلا وقد مرقته نار سجائره بتلذذ لم أفهمه.

ـ إنه أحسن من يدخن..

ابتسمت لقول جاري في المنضدة المجاورة..

يشعلها بطريقة جميلة ثم يمضغ دخانها كأنها قرص عسل بلدي.. يحرص كل الحرص على أن لا يخرج دخانها من فمه إلا بالقدر الإجباري. كان دائماً مثار تساؤلي. إنه الوحيد الذي طغى على زملائه في استثارة اهتمامي نحوه.. سريع الحركة في كل شيء.. في عينيه ومضات مجهولة قلقة كأنه يفكر في إنشاء دولة قوية.. يداه وراء ظهره دائماً.. بحركات عصبية تدق يده فجأة على إحدى «الماسات»[1] كيد زعيم عظيم انتهى من خطابه، وترتفع فجأة مستقيمة إلى الأمام لتحية الجماهير المحتشدة التي يعلو هتافها قوياً، تحية للزعيم القائد العابس الغارق إلى أذنيه في تصريف جيوشه في جميع المناطق الشاسعة..

(1) الماسة: الطاولة.

كانت «البوفية» تطل على الشارع ذي الاتجاهين: اليمين واليسار.. والدخول إليها بواسطة ممر ينتهي إلى درجات يصعد بها إلى ساحة «البوفية».. منصة للعرض العسكري تماماً.. وتعالت الهتافات مدوية بحياة الزعيم القائد.. واكتظت الشرفات بالناس، ورفرفت الأعلام على واجهات وأسطح العمارات.. وعلقت الزينات، والشعارات في أماكن بارزة.. وامتلأت فروع الأشجار بالأطفال والشباب المتسلقين فروعها، حتى كادت تنبطح إلى الأرض.

وقف الزعيم.. والقائد في مقدمة المنصة، ووقفنا خلفه.. قادة ووزراء وضيوفاً، وقد تلألأت على أكتافنا الشارات العسكرية النحاسية.. ورفع الزعيم القائد يده إلى الأمام باستقامة صارمة، ودوّت من جديد هتافات الجماهير الملتهبة، والهاتفة بحياته كزعيم وقائد للأمة.

بدأ العرض العسكري الخاص بالمناسبة.. أرتال من المدرعات «البرنز» ظلت تدك شارعنا المشهور في العاصمة «دكاً». إنها مدرعات تمر لا حصر لها.. تسير إلى جنب بصفوف متساوية وجنود يظهرون من فتحاتها العلوية يؤدون التحية العسكرية للزعيم القائد بثبات ونشوة للنصر.. هز منظرهم الزعيم القائد فجحظت عيناه بالدمع الذي بدأت قطراته تنساب بهدوء كأنها قطرات ندى تنتهي بدون لمسة منديل أو مسحة إصبع..

وتعالت الهتافات من جديد بحياة الزعيم القائد تصمُّ الآذان وتطغى على ضجيج المجنزرات.. كادت الأشجار المجاورة أن تتهاوى تحت ضغط وتكاثف الجماهير وهتافاتهم.. الزعيم القائد ما زالت يده اليمنى مستقيمة، ونظراته ما زالت صارمة والدمع يطفح منها..

فجأة انهار الزعيم القائد بجسمه إلى الأمام، ويده اليمنى ما زالت مستقيمة. وارتمى كلوح خشبي على وجهه، وسيجارته بيده اليسرى مشتعلة حتى نهايتها، وقميصه الرث قد انزاح عن ساقين مشعرين.. ثلاث درجات من الاسمنت المبلط هشمت وجهه.. ولمست أنفه التراب.. تراب الحديقة المؤدية إلى «البوفية».. وظلال الأشجار التي رعاها ذلك العسكري العجوز تظلله.. وتوقفت حركة المرور.. وهرعت شلل من الناس من مختلف الأشكال والألوان.. وعصفت الريح بالأشجار، حيث تدانت بفروعها حتى لمست الأرض..

نهضت من مقعدي بساحة «البوفية»، وقد أكملتُ تناول «السندويتش» مع الشاي واللبن، كالمعتاد، والصحيفة اليومية..

ـ لقد مات..!

ـ يا إلهي..!

ـ مات الزعيم..!

ـ مات إسماعيل الطيب..!

صنعاء: 12/ 12/ 1975م

الحيـــاة

كان العرق ينزف غزيراً عندما وصل «حمادي» مع زوجته إلى أسفل الجبل بحمولتهما من الحطب، و«العَجُور»[1]. كانت زوجته تحمل الحطب، أما هو فقد نقل على ظهره كمية كبيرة من «العجور»، أخذها من الوادي بعد عملية مقايضة مع أحد الرعية مقابل كمية من البطاطا حملها معه من الجبل.

وضع «حمادي» حمله على الأرض، ثم ساعد زوجته على وضع حملها من الحطب الذى كانت قد أخذته من أحد أحراش السهول الوافرة بالحطب.

وجلسا، ثم تطلع «حمادي» إلى قمة الجبل الذي لابد من أن يجتازه عبر «نقيل»[2] كبير مع زوجته قبل أن يحل بهما الظلام. كان الوقت عصراً، والشمس قد تهادت على جانب الجبل الغربي تنشد الهدوء والمبيت، حالها كحاله يريد العودة إلى «صبله»[3] الصغير لينعم بنوم عميق.

نظر إلى زوجته فوجدها واجمة، وقد احمرت وجنتاها ورأس أنفها، وهي تبعد الأشواك من عيدان الحطب التي توضع على رأسها مباشرة. ثم همدت ساكنة بعد أن نظرت إلى قمة الجبل عبر «النقيل» الطويل، لم تنطق شفتاه بكلمة، فقد كان يرجع بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي كان بالنسبة له فتحاً جديداً في عالم المرأة الخاص.. تذكر عندما ذهب المرحوم والده إلى المرحوم والدها ليخطبها له، وكيف وافقت.. كان يعرفها من قبل كغيرها من فتيات القرية.. عرفها في المراعي.. في أزقة القرية، وفي أيام الصراب والحصاد.. تلك الأيام التي لا ينعم بها سوى الصغار من أبناء القرية.. بل لقد عرفها في «المعلامة»[4]

(1) العجور: قصب الذرة علف البهائم.

(2) نقيل: طريق يشق الجبل إلى أعلى.

(3) الصبل: مكان واحد أو كوخ يسكن فيه الفلاح مع أسرته ومواشيه وما إليه من مطبخ وتخزن في غرفة واحدة.

(4) المعلامة: الكتّاب مكان تدريس أطفال القرية.

الخاصة بقريته وقرى مجاورة، يتلقون فيها حفظ السور الصغيرة من القرآن على يد «فقيه» غليظ القلب، قد أكل الجدري معظم تقاسيم وجهه ويديه. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد.. وكانت أجمل أيامه، وأحلاها تلك التي وضُعت الزهور والرياحين على عِمَّته المزركشة المستعارة كما استعار «جنبية»[1] من القرية المجاورة أيضاً وبندقية لا يعرف كيف تعمل، فهو لم يحمل السلاح أبداً، لأنه لا يحمل السلاح سوى المشايخ والعقال فقط.

كان ذلك اليوم ـ بالنسبة له ـ عيداً، وبالنسبة أيضاً لغيره من شباب القرية.. فهو العريس رقم سبعة في ذلك اليوم، حيث اعتادت قريته ـ توفيراً للتكاليف والنفقات ـ أن يتم زواج أبنائها في مواسم معينة من السنة بالجملة.

ومرت به الأيام والشهور والسنين، وأصبح ذلك اليوم بالنسبة له شيئاً لا يعرف تاريخه، ولا يعلم تفاصيله.. بل لم يذكره في حياته قط.. وقد كان يظن أن يصير ذلك اليوم تاريخاً تحفظه القرية عن ظهر قلب.

لكن ذلك الشيء الجميل المفرح، تحول مع الزمن إلى شيء قبيح إلى نفسه.. شيء يجعله يشمئز من الحياة.. لقد أنجبت له عدة أبناء متتالين.. واحد يرعى الغنم، وآخر يحرس المحصول «الغلة»، وغيره ما زال يسوق «الدواب» لتشرب من النبع.. «منهم الخير» لكن بسببهم تكبد الكثير من المشاق لكي يقفل أفواههم المفتوحة طلباً للزاد، وليس غير الزاد.. وزاد عمله.. زاد همه ونكده، وأصبح يعمل من الصباح حتى المساء.. يوماً هنا ويوماً هناك.. أجيراً لمالك، وآخر للشيخ، اللذان لابد أن يبخساه أجره، بل لا يعطيانه أجره في أكثر الأيام.

وأصبحت زوجته تكلفه الكثير من المال والمجهود.. فالمال ما زال يشتري لها في كل عيد ثوباً أسود جديداً «مُنَيَّلْ».. ولكن المتعب حقاً هو عندما تكون في حالة الوضع.. ذلك هو المتعب.. ففوق كل ما يعانيه مادياً من شرائه للدجاج والبيض والسمن، فهو يعاني مما يقوم به من عملها الذي كانت تقوم به.. يقدم الغذاء «للدواب»، ويحطب و«يطعم»[2]، ويأخذ حاجة الدواب من القضب والحشائش التي تجرح يده بسبب نزعها من على مدرجات

---

(1) الجنبية: الخنجر اليماني.

(2) ويطعم: ينزع الحشائش من الحقول لإعطائها غذاء للبهائم.

«الجرب»[1] و«الأحوال»، و«السلائم» وسط الحقول ويسكت الصغار برعايتهم. . . إلى ذلك من الأعمال التي تخص زوجته. وهكذا كلما أنجبت أطفالاً كلما زاد به المشيب. . وتذكر يوماً عندما اضطر إلى بيع «مفرسه»[2] مقابل توفير لحم وسمن وبيض لزوجته التي لابد أن تحتاج لها كما تقول نساء القرية المولدات لها. . ويأتي الليل، ولا يستطيع النوم لصراخها الذي لا ينقطع، ولفزع أبنائه من ذلك الصراخ. .

وفي يوم تعجب لماذا لم يمت أحد من أبنائه. .؟! بينما يموت الكثير من أبناء المشايخ والعقال. . ولماذا يولد أبناؤه أصحاء يكاد الدم ينفجر من وجناتهم. .؟! لماذا يملأون «الصبل» وأزقة القرية بأصواتهم القوية، الضاحكة تارة، والباكية تارة أخرى.؟!

نظر إلى يديه اللتين كستهما العروق الغليظة، وجلده الذي أصبح برونزي اللون، قوي التحمل. . ثم نظر إلى زوجته، وإلى وجنتيها المحمرتين مع رأس أنفها. . وابتسم، ولكنها لم تعره انتباهاً، فقام من مكانه نحوها، وسألها عما بها، فحاولت التملص من الإجابة، ولكنه عرف الحقيقة فجأة بحسه الذي ينتابه بهمّ وغمّ معتادين في حالة موسمية مؤلمة. .

لقد كانت حامل،وهي لا تريد إزعاجه أثناء الطريق بذلك الحادث الموسمي. وقامت لكي تتقيأ ما اختزنته بجوفها من زاد منذ الصباح.

وفي منتصف الجبل ـ منتصف «النقيل» الطويل ـ كان هنالك رجل وخلفه امرأة يصعدان الجبل عبر «النقيل» الطويل. . كان الرجل يحمل فوق ظهره كمية كبيرة من الحطب و«العجور» معاً. .!

القاهرة 15/ 10/ 1966م

---

(1) الجرب، الأحوال، السلائم: (الحقول والمدرجات الزراعية).

(2) مفرسه: فأسه.

الظــاهري

عدت إلى منزلي بعد المقيل حسب العادة، متأخراً بعض الوقت، لكي أصل إلى البيت وقد هدأت حدة أطفالي المشاغبين، الذين يقتحمون غرفتي باستمرار لكي يعكروا مزاجي وصفو أفكاري التي كنت قد اختزنتها في المقيل لأبثها على الورق..

بادرتني طفلتي الكبرى قائلة:

ـ بابا..!

ـ قلت لك ألف مرة.. أبي.. أبي..!

هزت رأسها بعدم مبالاة:

ـ بابي..!!

ـ يا لطيف..! لن أجيبك..!

لم تنهزم.. ووضعت ورقة بخطها الرديء أمام وجهي.. «اتصل من الحديدة شخص يسأل عن الظاهري».. أخذت منها الورقة.. أمعنت النظر فيها.. طلبت منها قراءة الاسم لأتاكد.. قرأته.. نعم الظاهري.. اسألتها ماذا يراد منه..؟ أجابت بأن عليه سرعة السفر إلى الحديدة، لأن والدته أو زوجته أو شخصاً مهماً لديه في حالة خطيرة كما فهمت.. كان عليّ أن أتأكد من الزوجة..

أسكتُّ بقية الأطفال بحدة.. احتجت والدتهم لذلك. اعتذرت وأنا أسألها عن ذلك الاتصال التلفوني، فأجابت:

ـ كنت مشغولة..

أظهرت غضبي لعدم اهتمامها الدائم بمن يتصل بي.. لوت «شفتيها» كالعادة، ورددت مقولتها الدائمة:

ـ عسى من سيتصل بك..؟!

كانت تلك هي العبارة الساخرة التي تلوكها دائماً..

لم أعرها اهتماماً. بل عدت إلى مكاني الخاص بعد أن حاولت إبعاد الأطفال عن متابعتي بأذيتهم.. كان أكثرهم إلحاحاً، ذلك الصغير الذي ما زال يزحف على يديه، والذي تعود عندما يراني أن يعبر عن شوقه إليّ ببكائه وتحفزه نحوي لكي يقضي معي بضع دقائق.. كان صادقاً فعلاً في مشاعره.. التي ربما كانت أمه قد عودته عليها كما عودت إخوته، لكي تشغلني عن كتاباتي التي تحرمها دائماً من الجلوس معي ومن ملاطفتها وسماع أخبارها الطويلة عن فلان، وفلانة، وما حققه بعضهم من مكاسب مادية كشراء أحدهم بعض الحلي الثمينة لزوجته.. إلى آ خر الإسطوانة..!

أقنعت طفلي الصغير بعبث محاولاته ورجائه لي بأخذه بين يدي، وتركته يعبر عن سخطه لموقفي الشاذ ببكائه الصارخ، ورفضه لتناول رضاعته التي كانت خير وسيلة لإسكاته دائماً..

محمد الظاهري.. زميل في درب ما أطوله.. لكن أقول الحق، لم أكن مهتماً في تلك اللحظات بما قد يحدث لعائلته، أو أعز وأقرب الناس إليه. كان اهتمامي منصباً على الكيفية التي تمت بها معرفة رقم تلفوني.. وكيف خطر لهم بأن الظاهري يتردد عليّ، أو هو على صلة بي..؟! مع العلم أنه لا يبقى إلا في حالة الضرورة القصوى، عندما يكون مختفياً إثر هروبه من سجن أو ملاحقته لاعتقاله..

هالتني الظنون والأوهام.. وزادها إزعاجاً وصول بعض زملاء يريدون قضاء جزء من ليلتهم معي لاستجرار الهموم!!

محمد الظاهري..! ذلك الشاب الملتهب حيوية ونشاطاً، والذي عركته الأيام بأحداثها.. لم تزده الملاحقات الدائمة إلا صلابة واستمراراً في طريقه الذي نهجه. ملامحه العامة توحي بالوداعة والبراءة.. وربما توحي لمن لا يعرفه بالسذاجة. عندما يدخل أي مقيل يحكم عليه من لا يعرفه أنه شخص عادي من أبناء الساحل الذين صهرتهم حرارة الشمس، فأوقدت في بعضهم قوة وصلابة في المواقف الوطنية النضالية العنيدة.. باسم دائماً.. ومنصت أيضاً.. ولكن عندما يستثار تزداد وتتسع تلك

الابتسامة فتصبح ضحكة قوية مدوية يعتبرها الذين لا يعرفونه شاذة، وفي غير محلها . . !!

كيف يتحول ذلك الوديع الساذج إلى كتلة من التفجر؟!

كيف يتحول ذلك الوجه البرونزي اللامع إلى وجه اصطبغ باللون الأحمر القاتم . . ؟!

كيف يطغى منطقه في الكلام على كل كلام . . ويصبح سيد الموقف في أي اجتماع . . وينسحب بعد ذلك من دون أن يشعر به أحد . . ؟!

* * *

إذا اختفى، يعرف الكل أنه معتقل، وكأنه لا عمل لأجهزة الأمن سوى مراقبته واعتقاله، وعندما تجتاحهم أمزجة طارئة لكي يمارسوا نوعاً من السادية في تعذيب شخص، يأخذونه من أي مكان يكون موجوداً فيه . . ويخرج بعد ذلك ليحدث الآخرين بسخريته المعهودة عن فترة غيابه، وكأنها مغامرة قام بها لتعطيه معلومات جديدة يضيفها إلى معلوماته السابقة التي ستفيده مستقبلاً لتقديم رسالته العلمية حول «الطرق المستعملة في استخراج المعلومات من المعارضة عبر التاريخ» !!.

قال أحدهم إنه رأى «الظاهري» منذ فترة . . وآخر قال إنه رآه في اليوم نفسه . . واقترح ثالث أن نتصل ببعض الأصدقاء الذين يمكن أن يكون موجوداً لديهم . . هو بلا مقر معروف حتى لدى الإدارة التي يعمل فيها . .

حاولنا الاتصال من دون جدوى . . فغرقنا في همومنا . .

* * *

أرهفت سمعي لوقع طرقات على الباب . . غمرني شعور بالخوف من أن يكون الطارق أحد المندسين الثقلاء، ممن يتصيدون لحظات الانسجام والراحة التي أخلو بها مع أصدقائي في مثل هذه الساعة . . نهضت بينما وَجَمَ الأصدقاء بكآبة . . فتحت الباب . . كان هو أمامي . . الظاهري بعينه . . !

اندهش باستغراب واضح لعناقي الحار له . . عناق غير مألوف . . البسمة تعلو شفتيه كالعادة . . اعتبر لقائي هذا الزائد عن حده ناتجاً عن صفاء السهرة . .

دخل وسلم بعد أن تخلص من حرارة الاستقبال.. لم أحاول أن أفاجئه بذلك الاتصال التلفوني.. ابتسم للجميع محيياً وهو يقول:

ـ ما فيش فايدة!!

وأخذ مكاناً استقر فيه وقال وهو يبتسم:

ـ وصلتني مذكرة غاضبة.. رسمية طبعاً!!

تقبلنا الخبر كالعادة، فهذا مألوف ومعروف.. قال بعد ذلك وبضحكته المعتادة:

ـ وصادروا جميع النسخ..!

هز الجميع رؤوسهم وكأن الحدث عادي، فتابع كلامه بسخرية:

ـ لقد كانت المواد المنشورة مصرحاً بنشرها..!!

تطلعنا إليه لنعرف السبب، فأسهب كالعادة، ما دخل مجلساً إلا وأثار أكثر من قضية، وطرق أكثر من موضوع يفرزه مستقبلاً..

* * *

كان منطلقاً مع الزملاء في حواره المعتاد.. الحوار المركز حول قضاياه الهامة.. لم أشارك.. كنت متألماً ومشغولاً.. كيف أخبره بذلك الاتصال التلفوني، وهو في نشوة الحوار الممتع..؟!

* * *

الورقة التي كتبتها ابنتي بخطها الرديء ما زالت أمامي أقلبها بين يدي فترة، وأضغط عليها بأصابعي مرة أخرى.. لاحظ ذلك.. أوقفت سير الحوار والمناقشة، فتوقع الحاضرون شيئاً.. لم أستطع إخباره بذلك الاتصال التلفوني.. لم أدرِ أكان إشفاقاً عليه أم إشفاقاً على نفسي.

* * *

كان مستمراً في حواره المهم.. ولم يأكل تلك الليلة رغم إلحاحي عليه لمعرفتي بأنه الوحيد الذي يقضي على كل ما يتبقى من مخلفات المائدة في أي ليلة نجلس فيها..

انشغلنا بالعشاء، فلم يتركنا فجأة، بل انتظر حتى تأكد من أننا قد انتهينا من الأكل فقال مستأذناً:

ـ أعزائي.. سأغادركم.. وربما لفترة.. أرجو نقل اعتذاري للأخوة الذين ارتبطت معهم بمواعيد..!

أخذ همومه معه، وتركنا لهمومنا..!

صنعاء: 20/ 5/ 1980م

أول المنتحـــرين

تم اعتقالي بطريقة عشوائية قبل ظهر ذلك اليوم، حيث اقتادوني إلى السجن من مقر عملي بدون سبب سوى أن اسمي كان ما يزال ضمن القائمة القديمة التي تظهر كلما دعت الحاجة لذلك، وفقاً لظرف طارئ، أو حادث، يجتاح البلاد، كمحاولة انقلاب مثلاً أو اغتيال شخصية مهمة في الدولة أو ظهور منشورات ثورية في الشوارع، أو انفجار لغم أوقنبلة أمام أو في فناء منزل مسؤول أو داخل سيارته أو أي شيء آخر كاختطاف، أو إعدام، أو اغتيال شيخ كبير ظالم، إلخ. .

اتجهت مع الجنود المكلفين باعتقالي، أو ـ بالأصح اتجهوا بي ـ في سيارة عسكرية «طقم». . كان همي الكبير هو ما أتوقعه من انزعاج أسرتي لاختفائي المفاجئ، ويقيني أن أحداً من زملاء العمل لن يشعرها بذلك لخوفهم الأني. .

قلت لنفسي وأنا أهتز وسط «الطقم»، ومن حولي الجنود المدججون بالسلاح لابد أن تعرف أسرتي ما حدث لي بعد يوم، أو يومين عندما تعود لزملائي الشجاعة تلقائياً. . !

كما هي العادة قذف بي الجنود من داخل السيارة إلى باب السجن. . وجذبني إثنان منهم إلى الأرض مرة أخرى لكي يوضع في رجلي قيدان حديديان طرقهما بعنف جندي آخر. .

تم إكمال المراسم الباقية من أخذ الساعة والشنطة الصغيرة الخاصة بالنقود، وبطاقات الهوية، والقراعة، والقلم وكذلك الخاتم الخاص. . خاتم الزوجية وغير ذلك. . إلخ.

وقذف بي مرة أخرى إلى طرف صحن السجن المرصوص بالحجارة، حيث قادني أحد الحراس بعصاه الغليظة إلى غرفة خالية. . بدت لي بعد أن أمعنت النظر مُعَدَّةً ومرتبة لسجناء آخرين يبدو أنهم خرجوا منها تواً. .

هناك مجموعة فرش معدة للاستعمال، كانت أجسام أصحابها مرسومة

عليها، وثياب ومناشف، وأدوات أخرى معلقة على الجدار. . و«متافل»، وصرر ثياب مطوية فوق الفرش.

أيقنت أنني الضيف الجديد على مجموعة لا أدري من هم. .

وبحسب العادة، بحثت عن مكان خالٍ من أي فراش، لكي أرتب حالي فيه. . لا يهم الليلة أو الليلتين للنوم في مكان، أو زاوية من الغرفة بدون فراش، أو لحاف، فبعدها ستعرف الزوجة، والأولاد، والأقارب، والأصدقاء، وسيدبرون موضوع الفراش واللحاف والغذاء أيضاً وحاجات أخرى أحتاجها دائماً داخل السجن. .

لم أجد أي مكان خالٍ لألقي بنفسي فيه سوى زاوية الباب، أو الحيز الذي يشغله باب الغرفة أثناء فتحه وقفله.

لم أنزعج لذلك كثيراً، بحكم الخبرة السابقة، فزملاء الغرفة دائماً يوسعون لضيفهم الجديد مكاناً، ويقابلونه بالترحاب، والكرم، والنخوة العربية التي لا توجد إلا في السجن. .

تقرفصت مردداً في سري «ما شاء اللّه كان»، وعجبت لغياب جميع نزلاء الغرفة. . وشدني الفضول بعد برهة لكي أطل من الباب، عسى أن أجد أحداً. . لم أجد أحداً. .

قلت لنفسي ربما كانوا يتناولون طعام الغداء في غرفة نزلاء آخرين، أو في بهو السجن الأصم. .

تشجعت بالمرور على الغرف الأخرى فلم أجد أحداً. . واتجهت نحو بهو السجن المرصوف بالحجارة. . رأيتهم متجمعين بخشوع، ينصتون إلى رجل جالس بينهم يحدثهم حديثاً هادئاً، ثم وقف فجأة وصرخ بصوت أكبر كمن يخطب في ميدان عام غاص بالجماهير الثائرة المتحمسة. .

ثم علا صوته أكثر فأكثر، وعلا هرجهم أكثر فأكثر أيضاً.

انزعج مدير السجن وحراسه لذلك الهرج والمرج، والصخب الذي أحدثه السجناء قبل تناولهم طعام الغداء في صحن السجن المرصوف بالحجارة، لم يعهدوا ذلك من قبل. . فامتشقوا عصيهم الغليظة بعد أن أحكموا إقفال جميع الأبواب. . كانت تصدر عن السجناء هتافات تأييد لزعيم انبرى فيهم محدثاً

حيناً، وخطيباً حيناً آخر.. بصوت عربي سليم يعظهم ويرشدهم إلى الإسلام الصحيح على حد تعبيره:

ـ لقد ناضل محمد الرسول الكريم من أجلنا.. نحن المستضعفون في الأرض.. قال عليه الصلاة والسلام: من له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له... لقد ناضل الفاروق عمر بن الخطاب من أجل تحقيق العدالة بين الناس أو بما يسمونه اليوم المثقفون الجهلاء بالاشتراكية العلمية: لو استقبلت من عمري ما استدبرت لأخذت من أموال الأغنياء ووزعتها على فقرائهم.. ولكن البغاة الطغاة المستغلين الأثرياء أو من يسميهم المثقفون الجهلاء اليوم بالبرجوازيين الرأسماليين حالوا دون تحقيق عدالة الإسلام.. وحرفوه ليلائم مصالحهم واستأجروا بل وسخروا الفقهاء بكتبهم الصفراء ليترجموا ذلك التحريف إلى أذهان العامة وخلقوا زوراً أحاديث تسند هدفهم..!

شدني حديثه، فاقتربت كثيراً نحو الجمع، بينما استمر الزعيم في خطبته:

ـ قال الإمام علي كرم اللّه وجهه.. لو كان الفقر رجلاً لقتلته.. نعم.. لقتله الإمام علي كرم اللّه وجهه.. وقال كرم اللّه وجهه.. ما ظهرت نعمة إلا وكان وراءها حق مسلوب.. وقال كرم اللّه وجهه.. ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني..

كان الزعيم يتحدث جالساً، ويخطب منتصباً بعض الوقت.. له شكل مهيب، وتزيده مهابة لحيته المرسلة السوداء.. وشعر رأسه المرسل المجعد.. وثوبه الأبيض الفضفاض..

صاح مدير السجن:

ـ ما هذه الفوضى يا حقراء؟.. اتجهوا إلى غرفكم قبل أن آمر الجند بضربكم، وسحبكم إليها..

لم يأبه أحد منهم لقوله، بل كانوا مشدودين للزعيم الذي وقف، ومد يديه نحوهم.. الزعيم يشفي المريض والمجنون.. مد يديه نحو جماهيره الكادحة البائسة.. وأكمل خطابه:

ـ لم يسلم أبو ذر الغفاري من بطش البغاة الطغاة.. من أولئك الذين يسميهم الآن المثقفون الجهلاء بالبرجوازيين، والرأسماليين

والإقطاعيين.. نعم ركلوه وضربوه، وسحلوه، وحكموا عليه بالموت، لأنه قال كلمة حق.. كلمة الله. كلمة الدين الحقة.. وأنتم يا جماهير محمد، وعمر وعلي، وأبي ذر.. ستلاقون ما لاقاه أولئك الرواد.. أصمدوا لا يرهبنكم البغاة الطغاة بعصيهم الغليظة..

ودوت زمجرات السجناء داخل صحن السجن المرصوف بالحجارة، بينما صاح مدير السجن بالجنود.. فانهالوا بعصيهم الغليظة على السجناء الذين التفوا حول زعيمهم يقونه الضرب، ويتحملون عنه عنف الجند..

استطاع المدير وجنده بالعنف إدخال السجناء إلى غرفهم عشوائياً حيث أصبح بعضهم في غرفة البعض الآخر..! وأقفلت الغرف وحرموا ذلك اليوم من وجبة الغذاء المخصصة لهم من السجن، أو المرسلة من أقاربهم..

وصاموا ذلك اليوم بعد أن تزودوا بأفكار زعيمهم الذي تم عزله في زنزانة انفرادية قذرة..!

للحقيقة بعد أن رأيت المدير، وجنده يضربون السجناء بذلك العنف اندهشت لذلك، وربما اندهش المدير أيضاً لهذا الحادث غير المعقول، والذي لم يسبق له مثيل من قبل...

وراعني أن عنف الجند كان موجهاً نحو ذلك الرجل الذي استطاع الآخرون حمايته ببسالة، وفداء منقطع النظير..

كان هذا الحادث أول ما لاقيته في سجني الأخير، وقد ترك لديَّ شعوراً بضرورة الاستفسار عنه، وعن ذلك الرجل ومن هو وماذا يريد؟.

اكتظت الغرفة بسجناء يبدو أنهم فوق ما تتحمله مساحتها حتى زواياها، وخباياها الفارغة.. ولم يعرني أحد اهتماماً، وكأنني موجود بينهم منذ أيام عديدة سابقة.. الزاوية الخالية التي كنت أعد نفسي لاحتلالها أمام الباب قد سكنها أكثر من شخص..! لأن الغرفة قد استضافت نزلاء من غرف أخرى حرموا من الخروج، أو الدخول بسبب هذا الحادث..!

وتزاحمنا، ولم يبق أي شبر من الغرفة خالياً.. وكان حظي أن اندسست بين زميلين من نزلاء الغرفة الأصليين، وكأنني ضيف من الغرف الأخرى، فشاركتهما الفراش والدفء..!

خيم الصمت، وبلغ الجوع والعطش بالجميع حداً لا يطاق.. وحتى الآن

لم أشعرهم بهويتي، وبأنني نزيل جديد ولا هم تفضلوا بسؤالي.. !

لم أحاول أيضاً السؤال عن الحادث عن الرجل.. «الزعيم».. !

ورغم صياح وزعيق الجند في الخارج ممن يحاولون ترتيب السجناء بحسب أماكنهم، إلا أن مدير السجن قد صاح بهم، أن يبقى الوضع كما هو حتى الصباح.. !

كنت أعرف صوته من قبل وخصوصاً في هذا الوقت.. ! بعد العشاء وبعد أن يكون قد تعاطى مقداراً أولياً من «الشراب البلدي» الذي يأتي إليه من قريته أو من الشراب المستورد المرسل من أقارب، وأصدقاء المسجونين، لكي «يحسن النظر» نحو مساجينهم.. !

انتهى زعيق وصياح الجند بالأوامر بأنه سيتم إطفاء النور هذه الليلة عن غرف السجناء عقاباً لهم على ما أحدثوه من فوضى.. وعلى كل سجين الالتزام منذ الغد بالنظام، أو ستطبق عليهم إجراءات قاسية جداً.. !

انطفأ النور في الغرفة فجأة بعد ذلك البيان الصارخ، وتعالت همسات عديدة بين النزلاء، كل يحاول أن يفرض على الآخر رأيه من تحسين المرقد، وعدم مضايقة كل سجين للآخر.. بعد ذلك بدأ الهمس يعلو ليصبح حواراً صاخباً حول الحادث وعن موقف «الزعيم».. !

لم أهجع في مرقدي.. لأن الظلام يرعبني منذ زمن طويل.. ومع أفكاري، وهمومي نحو الزوجة، والأولاد، ومقدار ما سيلاقونه من بؤس في هذه الليلة لعدم معرفتهم سر اختفائي.. !

أثق بذكاء زوجتي من خلال التجارب السابقة وأنها ستعتقد أنني في السجن.. وستزور منازل أصدقائي وستعرف الخبر من زوجاتهم قبل أن يتشجعوا في إخبارها.. !! لم تكن ذكية إلا في هذه الظاهرة فقط، فالغباء يطبق عليها بسبب ما حملته من تراكمات جهل القرية بحياة المدينة الحديثة..

لأول مرة يطفأ نور الكهرباء على غرف السجناء.. فالعادة هو استمرار الإضاءة الدائمة.. وهذا ما كان يزعجني شخصياً، ويزعج الكثيرين من زملائي نزلاء السجون في الماضي..

أنا دائماً أخاف الظلام، كما أخاف الظلم.. وأحس بالضيق الذي يتحول إلى رعب حين أفقد، ولو بصيصاً من إضاءة.. من خلال النافذة أو شق الباب،

أو أي فجوة تعكس ولو لمعان النجوم.. ! وفي حالات نادرة جداً كنت فيها أهدأ، وأطمئن نفسي على وهج ميناء ساعتي الزئبقي.. لذلك وجدت نفسي لا شعورياً أمسك بمعصمي، فلا أجد الساعة، وهذا ما زاد من شعوري بالرعب الذي حاولت أن أخفف وطأته على نفسي بحديث وحوار وهمسات الزملاء التي دارت حول مصير الزعيم، وما سيكون مصير قضيتهم أيضاً، وضرورة صمودهم ضد البغاة الطغاة..

سألني جاري وقد تقرفصت محاولاً كبت انفجار الرعب في نفسي لهذا الظلام المطبق:

ـ ما لك لا تتكلم؟.. ولا تنام؟..

أجبته بانقباض:

ـ متضايق من هذه الأحداث.. ومن الظلام، ومن اكتظاظ الغرفة..

وفجأة وبحس فأر في فخ، لمحت منفذاً لبصيص من ضوء تسرب من أسفل باب الغرفة.. ضوء يبدو أنه منعكس عن فناء السجن المرصوف بالحجارة.. هرعت إلى اتجاهه.. إنه مكاني الذي رتبت وضعي فيه منذ الظهيرة، والذي شغله عدة أشخاص لا يهم أن أضايقهم، فبإمكان نفرين منهم الرقود في المكان المجاور وهو أريح لهما وسيحبذان ذلك.. !

بعد مفاوضة اقتنع نفران منهم بذلك...

ما كدت أستقر، وقد داعب النوم جفني بعد أن اغتسلا بذلك البصيص من الضوء.. لم أشعر إلا وقد حدث هرج، وحوار يعلو بين الزملاء..

أدركت بعد أن قمت وعيناي متجهتان صوب ذلك البصيص من الضوء أن هنالك من يتألم بصيحات عالية تهز كبد السماء، وتبث الرعب في النفوس.. عرفت أنه الزعيم.. إنه الآن يجلد ويعذب بطريقة مدير السجن الذي يبدو أنه وصل الآن إلى ذروة النشوة العارمة من الشراب..

وبالرغم من عدم وجود ساعة، إلا أنني أعرف متى يبدأ المدير نشوته هذه... لا بد أنها الساعة العاشرة مساءً..

فمن عادته إذا كان مرتاحاً في نهاره أن ينعكس ذلك على مسائه فيتبادل مع السجناء أحاديث الظرف والأريحية.. ويسمح لهم بلعب الورق أو التندر،

وربما يسمح لهم بإقامة أمسيات أدبية شعرية. . وربما أمسيات لهو بالشراب معه في غرفته الخاصة الأنيقة الحصينة. .

أما إذا كان متعكر المزاج نهاراً، فإن ذلك ينعكس على حالته ليلاً. . حيث يقوم باصطياد من يريدهم من السجناء ليمارس عليهم أنواع العذاب. . ركل وصفع وإطفاء أعقاب السجائر في أجسامهم. . ونتف أظافرهم وجلد أرجلهم أو إلقاء بعضهم في برك الماء الباردة أو داخل براميل. . إلخ.

أتوقع للزعيم هذه الليلة أن يقاسي من أنواع العذاب ما لم يذقه من قبل. . وفعلاً علا صوته المتألم الذي يخرج منه كرهاً لأنه يحاول أن يصمد كزعيم. . علا ذلك الصوت المرعب الحامل معه إلى أتباعه صورة ما يعانيه من آلام تفوق طاقة الأنبياء من الصبر، والجلد، أهاجهم ذلك. . وعلت أصواتهم الصارخة والتي تجاوبت مع جميع أصوات نزلاء الغرف الأخرى، وبقية الزنزانات، والمطابق في السجن. .

وكان المدير قد زادت نشوته وسره ذلك الصياح فزاد في تعذيب الزعيم حيث اتضح إخراجه من زنزانته إلى فناء السجن المرصوف بالحجارة لكي يتضح صراخه، ويسكتهم به. .

لكن صوت الزعيم. . بُحَّ. . وبُحَّتْ أصوات أتباعه ومريديه، حيث تحولت إلى فحيح متوعد. .

هذه أول مرة أدخل فيها السجن وألاقي مثل هذه الأحداث المروعة. . . سابقاً. . كنت أدخل السجن لأجد نزلاء مرتبين أمورهم بوضعية مستقرة ورتيبة. . أعرف مكاني. . وأستقبل بحفاوة بالغة من التكريم وحسن الضيافة، وأجد النزلاء أساساً زملاء أعرفهم، ومرتبين أمورهم مع المدير والسجانين. . «نقيّل» ونلعب الورق. . ونمارس أنشطة مختلفة تزيل همومنا الكثيرة. .

لا يقيد حريتنا سوى باب السجن الخارجي. . وقد يخرج منه البعض لقضاء أمسيات سعيدة مع عوائلهم وأصدقائهم إذا كان مزاج المدير معتدلاً. .

لذلك لم أستغرب حديث المدير في صباح اليوم التالي:

ـ أبصرت يا «علي» الغاغة هذه الأيام. . ؟

لم يرحب بي كضيف جديد، وكأنه يعتبرني محبوساً معهم منذ فترة.. ذلك أشعرني بأنه يعاني أزمة حادة فأجبته:

ـ والله لم أكن أتوقع ما حدث..

ـ فوضى يا «علي» هذه الأيام حتى في سجن القلعة..

ـ حادثة أرجو أن لا تعكر صفوك، وتلخبط نظام الحياة المعهود في سجنك..

ـ غاغة يا «علي».. انفلات شامل يصل حتى السجون..!

استغربت لصدور مثل هذه الكلمات الجديدة في حديثه، وداريت ابتسامتي فقلت:

ـ حكمتك وحسن إدراكك للأمور يصلح كل شيء..

ـ مع من يا «علي».؟ مع من..؟

ـ يبدو أنك لا تعرفهم وأنا كذلك.. هم جدد حتى عليّ..

ـ هذه سنة الحياة أيها المدير..

ـ كيف ما تكونوا يُولى عليكم!؟..

ـ لا أقصد ذلك.. وإنما لكل زمان رجال.. ويبدو أنهم رجال هذا الزمان..!

ـ أهؤلاء رجال هذا الزمان..؟!

ـ وما المانع؟

تمهل برهة وقد حدّق في وجهي.. كأنه تذكر آخر لقاء لنا فقال:

ـ يبدو أنك قد مكثت فترة كبيرة خارج السجن!.. استرخيت فيها كما علمت في وظيفة رتيبة ومدرة للربح.

ـ والله.. معلوماتك مغلوطة.. فهي الوظيفة نفسها.. وأما الربح فقد تقلص نتيجة لغلاء المعيشة..!

كنت أعرف ماذا يقصد من وراء ذلك.. أعادني إلى زمن سابق، أول ما تعرفت به وأنا سجينه في عنفوان الانطلاق الثوري.. دار بيننا حوار في ذلك الزمن حول وضعيته الاجتماعية، وبأنه من طبقة مسحوقة، والمفروض عليه

منطقياً أن يناضل ويشعر على الأقل بتلك الوضعية. . لكنه كان يراجع نفسه ويحاول إفحامي بضرب أمثلة عن ضباط وأشخاص مرموقين هم في الأساس من طبقة مسحوقة، لكنهم أصبحوا أكثر الناس تشدداً ضد المناضلين، والمفكرين التقدميين ومع الأفكار الرجعية التي تخدم مصالح الطبقة العليا. . !

لم أحاول معه استرجاع الماضي برمته، فاكتفيت معه بذلك القدر من الحديث لأنني لا أريد أن أجازف معه، وهو في حالته النفسية هذه، ولأني حتى الآن شخصياً لم أرتب أوضاعي المعيشية داخل الغرفة ولا اتصالي بالزوجة والأصدقاء والأقارب. . ولأنني أعرف كذلك أن مدير السجن وزمرته حكمهم كحكم «المقوت»[1] والجزار. . لا يصحبون ولا يقدرون معروفاً أو صداقة مهما حاولت أن تكون عميلهم أو زبونهم الدائم، ومهما بذلت معهم من خدمات جليلة. . !!

«المقوت» «مقوت» والجزار جزار. . ! والسجان سجان أيضاً. . مهمتهم وهدفهم وغايتهم امتصاص دماء الناس من أية فئة كانوا. . إنهم شريحة اجتماعية لا تعرف أي معنى سامٍ للصداقة أو الزمالة أو الصحبة. . !

تعرف فقط كيف تستغل ظروفك وابتزازك مادياً. .

ربما كان منظوري هذا من خلال تأثري بكتب الإمام «الشوكاني» وخصوصاً في يومياته التي تضمنها كتاب «أدب الطلب». . وكان بعض زملائي الواعين ممن يأخذون على الإمام «الشوكاني» نظرته هذه يحاولون إقناعي دائماً بأن الإمام كان يرى من خلال منظور ضيق نتيجة لظروف عصره. . وقد سلمت معهم بذلك وأقنعت نفسي بأن حكمه ليس عاماً للعصور اللاحقة بعده. .

* * *

طال انتظاري ولم يتصل بي أحد من الأسرة أو الأصدقاء زملاء العمل، كما طال انتظار زملاء الغرفة لرؤية زعيمهم ومعرفة حالته. .

مكاني ما زال هو. . عند شرخ الباب. . بلا فراش ولا دفء. . فالمجموعة مشغولة بأخبار الزعيم وقلقة جداً على مصيره. . !

* * *

---

(1) المقوت: بائع القات.

ثارت الجموع داخل السجن من جديد في الأيام الأخيرة. . وعلا صياحها. . واشتد اعتصامها. . وعمت الفوضى جميع الغرف بالهتافات ودق الأبواب، ومحاولة كسرها. . وقد تطور ذلك إلى محاولة الاعتداء على الجند والرَسْم[1] الذين يحرسون النزلاء إلى مكان «الغائط» أو أثناء رمي الغذاء من الأبواب. . بل إلى القذف بالطعام من الغرف إلى بهو السجن المرصوف بالحجارة من قبل السجناء تعبيراً عن إضرابهم واعتصامهم عن تناول أي غذاء. . ما عداي. . أنا شخصياً، فقد كنت أقذف بالصحون فارغة بعد أن أبتلع ما فيها بنهم، وبطريقة سريعة، وسرية عن أنظار المجموعة. .

* * *

مرت الأمور على هذا المنوال فترة حاولت فيها مع زملاء الغرفة أن أجادلهم بحوار منطقي لكي يتخلوا عن أسلوبهم الذي سيضر بنا جميعاً، ويضر أيضاً بالرجل أو الزعيم المعذب يومياً في «مطبقه» الانفرادي. . وجرنا الحوار لتعريفهم باسمي. . قال أحدهم:

ـ هه. . الأستاذ «علي». . ؟!

ابتسمت مستغرباً لقوله فوجه حديثه إلى زملائي المندهشين:

ـ نعم. . الأستاذ «علي» من أوائل من أسسوا النقابات العمالية في اليمن. . ومن أوائل المناضلين الذين قادوا ثورة سبتمبر، ورسخوا قواعد الثورة والجمهورية. . و هو أحد زعماء قيادة المقاومة الشعبية في حصار السبعين يوماً الخالدة. .

هزني حديثه، فتلاشت ابتسامة الاستغراب لتحل مكانها تجاعيد المعاناة. .

قال شاب آخر باستغراب:

ـ هل من المعقول أن تكون بيننا؟

شدني ذلك التساؤل، وكأنني نجم لامع كنجوم السينما. . لكن شاباً آخر أكمل وليته لم يكمل:

ـ بعد كل اتجاهك لتربية الأولاد والاستقرار. . والتخلي عن أي دور. . ؟!

---

(1) الرَسْم: حراس السجون.

وأضاف شاب آخر على الوتر نفسه:

ـ وبعد أن تحسنت أوضاعك المادية.. وأصبحت من رجال العهد الجديد كما يقال..؟!

وقال آخر:

ـ يبدو أنهم نسوا شطب اسمه من القائمة السوداء المعتادة التي تنزل أثناء الأحداث لاعتقال أفرادها.!

ساد صمت وجيز قال فيه شاب آخر أدرك عبوسي، محدثاً زملاءه كأنه موضوع يتحدث فيه عن شخص آخر:

ـ تعرفون الأستاذ «محمد الوضاح»... لقد اعتقل أيضاً مع آخرين من ضمن القوائم السوداء السابقة لكي يقدم تقارير للسلطة عن نشاط وميول وأفكار المعتقلين..!

أجاب آخر:

ـ لا تظلموه وأمثاله فتظلموا الحركة الوطنية برمتها..!

أجاب أحدهم:

ـ هذا ليس ظلماً، وإنما تحليلاً منطقياً لأولئك الوطنيين الذين استنفدت طاقاتهم الوطنية الثورية في مرحلةٍ وقفوا خلالها وعجزوا عن الاستمرار في درب النضال الدؤوب لكي يضعوا أنفسهم في متحف التاريخ كعجزة أنهكوا، واستقرت قناعتهم بالخنوع للسلطة..!

ـ المناضل هو من يناهض، ويعارض السلطة..!

ـ بل ومن يترجم ذلك بكفاح مسلح..!

استمر الحوار بينهم، وقد تحول إلى محاكمة منعقدة تحقق معي.. أنا..؟! وربما تصدر حكمها الآن إذا رغبت..!؟!؟!

استطعت تحمل ذلك العنت، والاستفزاز المعادي لي.. وسرحت في استجرار حيثيات، وخلفيات الأحداث الوطنية المتتالية التي أضعتها، وأضاعت سيرتها تراكمات الصدمات التي مرت بي منذ سنوات والتي أصابتني بالهرم الفكري الذي أثر على نضالي المستنير المتطور..!

ويبدو أنني آمنت بالاستقرار العائلي، وتربية الأولاد والاقتناع أيضاً

بضرورة الهجوع والسكينة فترة زمنية لم أحدد منتهاها لأنني أحمل من الأمل القدر الكبير لعودة نشاطي كما كنت في تلك الظروف وحيداً مناضلاً صائحاً.. أقول وأعمل، وأمارس العمل الوطني وأتحمل نتائجه المتعبة من تشرد وسجن وتعذيب ومحاربة للقمة الحياة...!

* * *

رغم ثقل القيدين الحديديين وعدم توفر الفراش والدفء، فقد كانت فجوة الباب المنبعث منها بصيص ذلك الضوء تدفع في نفسي شحنة من الأمان والاطمئنان والاستقرار النفسي..!

ومع ذلك سهرت مع أفكاري.. ليست تلك التي تطمئنني بخصوص الأسرة، ومعرفتهم عني من عدمها.. وإنما طمأنتني قضايا أخرى حزت في نفسي كتلك المحاكمة أو شبه المحاكمة من خلال حوار زملاء الغرفة الذين لا أعرف أحداً منهم قط..

وجوه جديدة عليّ... لكنني متأكد بأنها محسوبة على المجموعات الوطنية المناضلة داخل البلد..!

يبدو أنني هرمت فعلاً..!

هزتني محاكمتهم، كما تصورت بأنها محاكمة لي من حيث المبدأ..!

فاشتعلت في أعماقي حساسيات مرهفة كنت مصاباً بها دائماً، وحماقة متوترة أخمدتها.. وتصنع اعتقادات ألبستها على مسار تصرفي في أي مقيل أو اجتماع أو لقاء.. لكي أقنع بها الآخرين بأنني مجرد موظف فقط، مهمته توفير لقمة العيش له ولأولاده، ومن يلوذون به..!

كم أهاجتني تلك المحاكمة..!؟

هل أقول وأدعي بأنني زعيم من زعماء المقاومة الشعبية التي قادت نصر حصار السبعين يوماً..؟! ولا أريد العودة إلى الماضي السابق، وبأنني من أوائل من أسسوا نقابة عمالية قبل الثورة..!؟

وهل أقول إنني ممن حققوا ذلك الانتصار الرائع والهائل العظيم عندما

كان كل ثوري جمهوري قد تخلى عن المقاومة لاعتقاده بسقوط صنعاء بأيدي الملكيين لأن الجيش المصري الشقيق قد انسحب، ولم يعد هنالك أمل في حساباتهم للصمود. .؟!

هل أقول إنني كنت أقود المقاومة الشعبية كلها بالرغم من تعرضها لكل السلبيات، ومع ذلك حققت النصر مع زملائي. .؟!

سأكون مدعياً. .

سأكون قليل الذوق

سأكون ممن يمنُّون على الثورة والجمهورية. .

أنا في انتظار التاريخ وحركته وأقلامه التي ستكتب عن تلك الأيام، وما لاقيناه بعدها من سحل وعذاب وهوان، وقتل أيضاً أشد من حصار السبعين يوماً. . ! كبت جماح غضبي. .

سأعيش مع زملاء الغرفة كعيشة بعض نزلائها من القتلة، والمجرمين العاديين. .

لن أتيح فرصة لنبش الماضي. .

أريد أن أعرفهم. . أعرف حركتهم. . أعرف الجيل الذي تبعني. . الجيل الذي خلف جيلي. .

* * *

يبدو أن جميع نزلاء الغرفة قد قدروا حلمي وصبري. . واستعادوا بتقييم جيد مواقفي النضالية. . ويبدو ذلك من المستنيرين منهم ممن يتصفون بالأدب، والثقافة الشاملة. .

وجدت نفسي في لحظة وقد وضع لي فرش رث، ووسادة، وبطانية متآكلة. . كان ذلك بالنسبة لي وسام تقدير على ما يبدو. . شكرتهم في سري لذلك. .

* * *

استمرت إضرابات السجناء في هيجانها، وأصبحت تظاهرات مريعة جداً

لمدير السجن الذي تعاقبت عليه المذكرات الاستفسارية من وزارة الداخلية عن أحوال السجناء، وأوضاع السجن..

بل تطورت القضية بقيام لجان حكومية بزيارة السجن للاطلاع.. ووصول لجنة دولية مهتمة شكلياً بأوضاع وأحوال السجناء السياسيين في العالم، وكان اهتمام هذه اللجنة العالمية بالمادة الإعلامية، والتي تنشر وتكثف باهتمام ممارستها المنوطة بها من قبل المنظمة الدولية.. ومع ذلك، وبرغم تغطية أخبارها في نشراتها الحولية أقنعت من قبل السلطة بعدم زيارة السجن لتفشي مرض «الكوليرا» في نزلائه وأن حرص الدولة وخوفها لعدم إلحاق الأذى والعدوى بأعضاء اللجنة!!

طلبني مدير السجن في وقت مبكر.. دخلت عليه بقيدي الحديدي المحدث للإزعاج الذي استاء منه.. وأمر فوراً بعد دخول غرفته بفك واحد منها قام الجند بذلك.. لكنني بعد ذلك تعمدت إحداث الإزعاج نفسه.. فضحك المدير وقال:

- «علي».. حبة حبة يا «علي»..
- لم أقصد ذلك.. وإنما فكوا «المرود» وأبقوا القيد ذا السلاسل والحلقات التي تحدث الإزعاج..
- أنت تحدث الإزعاج يا علي.. وبإمكاني إعادة «المرود» بدلاً عن القيد..
- أعرف أن «المرود» يضايق السجين كثيراً.. وبأن القيد بحلقاته هو الذي يحدث الإزعاج.. وما حيلتي..

أدركت بعد فترة صمت، ما يعانيه من خلال تقاسيم وجهه.. قال:

- طلبتك يا علي باعتبارك معروفاً وصديقاً لي سابقاً.. وأريد أن تعطيني رأيك حول أحداث السجن الأخيرة.. وما صنعه هذا الوغد من إخلال بنظام السجن وأمنه واستقراره..

كنت أتوقع طلبه لي بهذا الخصوص فلم أحاول أن أعطيه رأياً سريعاً.. فما دام هو محتاج لرأي فلا بد أن أنتهز ذلك لكي أحقق على الأقل مزيداً من المكاسب لصالح السجناء..

أجبته بعد برهة صمت:

ـ أريد أن تسمح لي أولاً بزيارة زعيمهم في مطبقه..

ـ أتقول زعيم!؟.. أهذا الوغد زعيم..؟!

ـ وما المانع.. أليس هو الذي يقود هذه الأحداث؟!.

ـ لا تعد إلى مسمعي مقولتك حول رجال هذا الزمان.. ولكل عصر رجاله..!!

ـ لم أقصد ذلك، وإنما.. ألا ترى معي أنها الحقيقة بالنسبة للأحداث التي تجري الآن داخل السجن، هي انعكاسٌ للواقع خارج السجن..

أطرق ملياً بتراجع مكتئب فقال:

ـ لم أقلق.. ولم أسهر في حياتي لأي حادث كما حدث هذه الأيام.. وغد من الأوغاد يحدث لي كل هذه المشاكل.. ويشمت بي الأعداء، ويجعلهم داخل الوزارة يبحثون لي عن المتاعب..!؟

ـ هذا حادث عادي.. يحدث مثله في معظم سجون العالم.. وربما وزارتك تعرف ذلك بالتأكيد..!

ـ لا يا «علي».. أنت لا تعرف المنافسين لي داخل الوزارة.. والطامعين أيضاً لكي يحلوا محلي.. هم لئام وخبثاء ودهاة.. لن يكتفوا بمثل هذا الحادث بل سينبشون أيضاً عن فجوات أخرى..

ـ لا أعتقد ذلك..!

ـ ما أدراك يا «علي»..؟! لو كان همهم الحادث لأمروا بإطلاق النار على السجناء، بل وإعدام ما يسمى بزعيمهم هذا الوغد.. لكنهم يريدون منها قضية ضدي لكي أبعد من عملي ويحتله آخرون..

كنت أعرف مشاكله الدائمة مع منافسيه داخل وزارته، وإدارته الخاصة أيضاً، وقد حاولوا سابقاً أن يغيروه بآخر.. لكنه كان يملك من القدرة الذاتية ما يسد جميع المنافذ على خصومه عن طريق تقديم الرشوة لمسؤولين كبار في وزارته.. أو عن طريق الوساطة بشخصيات لها وزنها القبلي، والوظيفي..

هو.. يكوّن مع زمرته إدارة السجن.. ولديه دخل مالي كبير جداً من وزارته بما في ذلك الاعتماد المالي للسجن الذي يصرف بنظره.. وكذلك

ما يحصل عليه من السجناء من هبات، وهدايا، ورشاوى غير ما هو معروف أصلاً من «الرسامة» على كل سجين، وحق «فك القيد» عند الإطلاق وأشياء أخرى لا حصر لها..

كنت قد اطلعت عنده على صورة مما يرفع به من منافسيه بأنه يستولي على اعتماد السجن لصالحه الخاص، وقد ذكر في التقرير.. إذا كانت التغذية كبند من باب، أو نوع في الميزانية، فهو يقدمها على أساس أنها مبالغ كبيرة توضع في ميزانية اعتماده فيستطيع أن «يُغَفِّر» من ذلك 75٪ لصالحه، وصالح زمرته، ومن يسندونه.. وفي بند إصلاحات وترميمات وملبوسات فباستطاعته استهلاكه جميعاً..!

يعرف أنني بحكم الممارسة أعرف ذلك.. لهذا لم يحاول إخفاء مخاوفه، وعلى ذلك فقد ظللت أطرق الوتر الحساس لديه لضرورة مقابلة زعيم السجناء..

قلت له:

- ليس هناك مانع من أن تتيح لي فرصة اللقاء بزعيم السجناء..!

قام.. لكنه وافق بعصبية:

- سأسمح لك يا «علي».. لكن لا تحاول أن تكون خبيثاً معي هذه المرة.. لا تستغل الظروف كعادتك وتحاول أن تستعمل طرقك الخاصة المعهودة لابتزازي أو تهديدي..!

- معاذ الله أن أكون قد تصرفت معك من قبل مثل ما تدعيه..

- لا داعي لنبش الماضي.. نحن أمام قضية تحدث لأول مرة، وتختلف عن أي سابقة.. قضية هي بالنسبة لي قضية حياة أو موت مع المتربصين بي داخل الوزارة، أو خارجها.. يجب أن تفهم ذلك يا «علي»..!

عدت إلى غرفتي.. بعد ذلك اتجه الجميع إلى بعضهم البعض بتساؤل عن سبب استدعائي من المدير.. وبعضهم ينظر إليّ كأنني أحمل رتبة رفيعة أو خطوة محظوظة، وكلمة مسموعة عند المدير..

بسطت لهم ما دار بيني وبين المدير..

وأقنعتهم بأنني سأكون واسطة خير.. وسوف أحدثهم كثيراً بعد أن أقنعت

المدير بضرورة زيارة الزعيم وقد وافق في تحديد ذلك في تاريخ لاحق.. قال أحد المتطرفين منهم:

ـ ألم أقل لكم يا رفاق بأن حكمي لم يكن باطلاً..؟! ولا زعم افتراء..؟!

قال آخر:

ـ هو سجين سابق يعرف المدير.. ويريد أن يصل إلى حل بواسطته.. وما دام قد أصر على مقابلة الرفيق الدكتور لمعرفة القضية فهذا حسنٌ جداً..

لأول مرة أعرف أن الرفيق الزعيم بتعبير الزملاء، والوغد بتعبير المدير هو دكتور.. لذلك تساءلت قائلاً:

ـ أهو دكتور..؟

ـ نعم.. ودكتور في علم النفس.. حصل على الدكتوراه بجدارة من جامعة «السوربون» بباريس.

ـ وما موضوع تلك الرسالة..؟

ـ موضوع الرسالة هو «اختفاء ظاهرة الانتحار بين أفراد الشعب اليمني»

صمت لحظة وجيزة لاستعادة ذاكرتي.. كان لدي بعض شك فسألت مجيبي:

ـ أهو.. الدكتور.. «همرشلد»؟ عفواً أقصد صديقي الدكتور عبد الصمد؟

اعتراهم شبه انتباه، وكأنهم لا يصدقون بأن الدكتور عبد الصمد يمكن أن يكون صديقي، وبأنني يمكن أيضاً أن أعرفه ويعرفني..

وتهامسوا كثيراً.. أطرقت خلال ذلك مفكراً، ومستعجباً لهذا القدر... زادهم ذلك التفافاً حولي باهتمامات ودية كثيرة.

* * *

لم أعد أهتم لاهتماماتهم، أكانت حسنة أو سيئة نحوي..!

خرجت من الغرفة شارداً، واتجهت نحو زنزانة أو بالأصح «مطبق» صديقي الدكتور.. يا إلهي.. كم من المفارقات العجيبة تحدث تلقائياً رغماً عن الإنسان..!

فتح لي باب «المطبق» الضيق لكي أتصل بالزعيم.. الوغد.. المناضل.. الرفيق.. الدكتور القدير..!!

كان النور قد بهر نظره.. فأغمض عينيه.. حتى إذا ما أقفل باب «المطبق» خلفي فركهما.. تأملته ملياً وما زال هنالك ضوء كاف من النافذة الصغيرة جداً المطل عليها صحن السجن المرصوص بالحجارة الصماء.. عرفته رغم كثافة اللحية.. والأورام الدامية في وجهه، وفي معظم أجزاء جسمه.. ونحوله الذي لم أعهده من قبل.. لكنه ليس بالقدر الذي كنت أتوقعه..!

تألمت لمنظر رجليه الوارمتين وأظافره المنزوعة.. وبعض مخلفات لسع أعقاب السجاير الواضحة على ذارعية، وفي وجهه وعنقه.. وأشكال مريعة ومرعبة أخرى..

فتح عينه مرة أخرى.. ثم نظر إلي بتأفف، وكبرياء ما زالت باقية فيه وشَمَم وأَنَفَة هي من صفاته المعهودة.. عرفني فاستغرب لوجودي.. ونظر إلى رجلي ليجد قيداً حديدياً بحلقاته الغليظة:

- أستاذ «علي»..؟ مش معقول..؟!

- دكتور!

- أستاذ «علي».. ما وصل بك إلى هنا؟!

- لا أدري يا دكتور.. حتى الآن..!

- عفوك يا أستاذ.. فليس غريباً عليك السجن..!

- هذا ما أعتقده، وما لم يصدقه أتباعك.. ومريدوك، وجماهيرك الهائجة..!

- أتقصد الرفاق..؟!

- لم يعودوا رفاقاً..!

- كيف.؟

- إخوان يا دكتور..!

- صمت برهة ثم قال:

- لا يهم يا أستاذ «علي».. أرجو أن يكونوا في خير.

- هم في خير يا دكتور.. لكنهم قلقون عليك..

ـ يجب أن يتحلوا بالصبر. . الصبر الذي هو أكبر معاناة يمكن أن يمارسها المستضعفون في الأرض. .

بالرغم من معاناته الجسدية، وآلامه المبرحة لم أره متذمراً أو متألماً، وكان ما شد انتباهي لهجته الأخيرة الرتيبة المسبوغة بالمسحة الروحية. . !

أعرف أنه مثقف كبير، ومن القلائل في بلادي. . !

الدكتور صاحب الشهادة الكبرى التي لم يحصل عليها إلا الندرة القليلة من أبناء الوطن. . في مجال علم النفس. . !!

الدكتور اللبق الذي يجيد اللغة العربية الفصحى، ويحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. . ويجيد أيضاً عدة لغات أجنبية، وكان يقول مفتخراً «من حفظ لغة قوم أمن مكرهم». . !

نشأ في أسرة فقيرة، ويحمل أفكاراً تقدمية عصرية. .

أتذكر مرة مناقشة دارت بينه وبين بعض الأصدقاء في مقيل عام حول أفكاره وربطها بالاشتراكية العلمية الحديثة. . كان يتكلم بصوته العربي الفصيح مستدلاً من القرآن والسنة. . بما يدلل بأن الإسلام هو دين العدالة والحرية. . ويهاجم بشدة «خزعبلات» الفقهاء الذين يدمغهم دائماً بالعمالة للسلطة في كل العصور. . ويندد بتجار مكة «البرجوازيين» الرأسماليين الذين وقفوا ضد ثورة الرسول الأعظم. . ويشيد بفخر بالمستضعفين المسحوقين الذين وقفوا مع ثورة الرسول الأعظم. .

ـ دكتور. . رجاءً. . نحن في نقاشنا اليوم لا نريد المزيد من طرح مفهوم توفيقي وسطي. . نحن نعيش القرن العشرين بل ونهايته!

كان يستثار دائماً لهذا القول. . وعندما يبدأ في الرد يجد أن آخر قد أثار بطرح منطقي. . قضية إنهاء التراث: «التراث الذي لم يحقق على المستوى العام، ناهيك على مستوى اليمن، أي إثراء حضاري متقدم». .

وكان يرفض الرأي المتطرف، ويردد أن الواجب يقتضي منا منطقياً الأخذ بما في التراث من إيجابيات مبدعة وأن نترك ما فيه من سلبيات جامدة. .

ـ عفواً دكتور. . لا بد أن نعي قضية هامة. . وهي إما وأن نأخذ بالإسلام كنظرية متكاملة وإما أن نأخذ بتلك الأفكار والمذاهب الحديثة. . ولا وسط بينهما. . !

كان يصمت فترة.. يطرق خلالها متأملاً ومحاولاً إيهامنا بانشغاله بتنظيف أغصان «القات».. ثم تخرج منه عبارة كأنها عابرة يرددها مع شعوره الباطن:

ـ لو استقبلت من أمري..

ويحرك رأسه كأنه قد حضر بأفكاره مع مجموعة الزملاء «المقيلين»..

فيقول لإنهاء النقاش:

ـ عفواً أيها الأخوة.. أعتقد أن «الساعة السليمانية» قد أزفت.. وأي نقاش.. ما هو إلا من قبيل الاجترار السامج الممل.

كنا جميعاً نحترم تقديره لتلك «الساعة السليمانية» الموروثة والتي تسبق الغروب.. لأنها فعلاً فترة استرخاء.. يسرح كل واحد منا مع عقله وذهنه وفكره في عالم مجهول..!

* * *

مرت فترة صمت بيننا.. قلت له:

ـ دكتور.. يبدو أنني «همرشلد» اليوم بينك، وبين مدير السجن.. فأرجو المعذرة إن استعرت لقبك هذا..!!

ألقى برأسه قليلاً إلى الوراء بابتسامه أعادها ذكر هذا اللقب إلى ماضيه الدراسي والذي أطلق عليه وأصبح لاصقاً به لقيامه دائماً بحل خلافات زملائه الطلبة..!

أرجع رأسه على ما كان عليه والابتسامة ما زالت تكسو شفتيه:

ـ كانت تلك فترة تندر بين الزملاء والأصدقاء والرفاق.. أما الآن فلم يعد ذلك اللقب يلصق بي.. أصبحت رجلاً آخر..!

ـ حلّاج هذا العصر..؟!

نظر إليّ بانتباه حاد، ثم أطرق فترة وقال:

ـ ألا تعتقد أن مأساة الحلاج كانت تعبيراً عن مأساة الثورة في عصره..؟!

ـ عفواً دكتور.. أنا لست مطلعاً جيداً على التراث، ومن الإدعاء أن أحكم على هذا الشخص.. ومعرفتي به لا تزيد عن مشاهد مسرحية شعرية معاصرة عنه تمكنت رغماً مني من مشاهدتها في القاهرة..

قاطعني قائلاً:

ـ حاول صلاح عبد الصبور أن يجسد معاناة وآلام ذلك الرجل في عصر كان يطلق على من يفكر مجرد التفكير في إحداث شيء جديد بالزندقة والكفر.. وفي رأيي أن صلاح عبد الصبور لم يوفق تماماً في إبراز تلك الشخصية.. لأنه كتب عنها، وفي ذهنه مأساة «رابعة العدوية»..!

لم أحاول الاستمرار معه في هذا النقاش.. وكأننا في منتدى أدبي، أو «مقيل» ثقافي اجتماعي.. لذلك قلت له وقد حاولت شرح مهمتي:

ـ دكتور.. قلت لك إنني واسطة بينك وبين مدير السجن.. ولابد من حل لهذه الأزمة التي أحدثت انزعاجاً وإرباكاً لحياة السجن والسجناء بعد أن كانت مألوفة ورتيبة دائماً..

ابتسم قائلاً:

ـ أهنالك مساومة ما؟!

ـ واسطة خير.. لا أقل ولا أكثر.. لكي نتوصل لحل لهذه الأزمة!

ـ تقصد الخنوع للسلطة.. والاستسلام لإجراءاتها القمعية..؟!

ـ دكتور.. أنا أتحدث إليك بصفتك سجيناً.. وليس قائداً لجبهة قتالية تحتل مناطق عديدة في الوطن..!

ضحك قائلاً:

ـ وهل وصل مفهومك يا أستاذ بأن قادة الجبهات في المناطق محتلون..؟! ألا ترى معي بأنهم محررون.. يجب أن تكون منطقياً في أقوالك..!

ـ عفواً دكتور.. محتلون أو محررون.. هذه مسائل لا نختلف فيها.. وأنا معك.. لكن الوضع بالنسبة لك وللأخوة الرفاق داخل السجن يختلف..

ـ لا يوجد هناك اختلاف.. السجن يا أستاذ «علي» هو موقع من مواقع النضال.. لا فرق بينه وبين المواقع الأخرى في المناطق المختلفة.. وأي وطني شريف يجب أن يؤمن بذلك.. الوطني هو الذي يقود النضال بأي جماهير متواجدة في الريف، أو المدينة، أو في أي دائرة حكومية.. وأقواهم من يقود النضال مع جماهير السجناء الذين أعتبرهم الجماهير المعانية من الظلم والاضطهاد والألم.. ألم تسمع عن ثورات داخل

السجون يقودها قطاع طرق، وقتلة، وسفاحون..؟! أليس الأجدر أن يقود تلك الجماهير وطنيون شرفاء يخدمون القضية الوطنية!؟

صمتنا برهة.. حاولت أثناءها استجرار عواطفه نحو حالة رفاقه السجناء الذين حرموا من كل شيء.. جمعت كل أفكاري حول أوضاعهم وما يمكن تحقيقه منطقياً لهم، باعتباري واسطة خير بينه وبين المدير الذي أعرف مكامن الضعف فيه.. قلت بترو:

- دكتور.. أنا معك في كل ما قلت.. ولم أقصد أي شيء آخر.. سوى أن نصل إلى مفهوم منطقي آني ومرحلي لكي تستعيد نشاطك، واجتماعك مع زملائك.. ونحاول أيضاً أن نكسب من مدير السجن أوقاتاً تتيح لك فرصة بثّ توجيهاتك المفيدة للزملاء الرفاق في جو نكون نحن جميعاً والمدير أيضاً قد تجنبنا فيه أي إثارة للصدام المباشر معه ومع من يأمرونه ويلومونه لتردي الأوضاع داخل السجن..

أطرق برهة وهو ينصت لكلامي.. وقد شعر أن أي تشدد منه سيستدعي مني قدراً من الاستجداء، فأشفق عليّ بنبل واضح وقال:

- ما هو بنظرك الحل؟

- تأكد يا دكتور أنه لن يكون هنالك أي تنازل منك في هذا الحل، والذي هو في الحقيقة إتاحة الفرصة لك مع الزملاء الرفاق لتخصيص أوقات معلومة ومحددة لإلقاء إرشاداتك، ومحاضراتك علينا، والمناقشة أيضاً في صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء.. على شرط أن لا نخل جميعاً بأمن السجن..

أبدى اهتماماً ملحوظاً بما طرحته وبعد فترة صمت وجيزة قال:

- كم هو قاس ومؤلم أن يقرن الحل بشرط قمعي؟!

- ليس هنالك أي شرط قمعي في الموضوع.. وأعتقد أن هذا هو الحل الأمثل لكي نهيئ لإيجاد المناخ الأمثل والأسلم لعلاقتنا مع مدير السجن ورجاله..

- لقد حاولا «كينج» و«إكس» تحقيق هذا الوئام، والمناخ السلمي في أمريكا.. فقتلا.. ولقد حاوله ومارسه اللندي في شيلي، فكان كارثة يستفيد منها العقلاء الآن..

ـ أنا أحدثك عن ظروف معاشة في السجن . .

ـ والزنوج في أمريكا . . ؟ أليسوا هم إلا في سجن عام ومفتوح كحدائق الحيوانات الطبيعية في إفريقيا . . ؟

ـ دكتور . . أرجوك أن توافق على رأيي . .

صمت برهة أحسست أثناءها كم كان ثقيلاً عليه قرار الموافقة على رأيي . . فقال :

ـ أنا موافق يا أستاذ «علي» . . وتأكد أنه من أجلك ، وأقسم بالله لو زارني مفاوض آخر غيرك لما وافقت ، ولو كان «همرشلد» بنفسه ، رحمه الله . . !

فرحت بهذا الحل الذي لا يدري هو أنني سأحاور من أجله المدير وزمرته في سبيل إقناعهم . .

* * *

قال المدير محتداً بعد أن شرحت له ضرورة الموافقة على ما توصلت إليه في مباحثاتي مع الزعيم :

«علي» . . والله لو أصبح هذا السجن البرلمان البريطاني . . لما وافقت على هذه الشروط . .

ـ وما المانع . . ؟

ـ أتريد مني أن أسمح لهذا الوغد مع زمرته بعقد ندوات ، واجتماعات مخلة لأمن واستقرار الدولة التي تحاسب كل فرد في الشارع أو في «المقايل» أو في أي تجمع آخر بما يبدر منه ولو مجرد تعبيرات عادية . . ؟ ! أتريدني أن أسمح بذلك في السجن . . ؟ ! ؟ ! ؟ !

ـ ما هو الضرر . ؟

ـ جسيم . !

ـ والله لا جسيم ولا غيره . . ! . . المهم في حياة هذا السجن هو أن يعود الاستقرار والأمن إلى ربوعه . . وهذا ما تريده . . ! !

ـ لكنك تطلب مني المستحيل . . !

ـ لا تبالغ في حماسك. . !!

ـ كيف لا أبالغ. .؟؟. . وأنت تطلب مني أن أتيح لهذا الوغد وزملائه عقد ندوات واجتماعات ومناقشات لا تسمح بها السلطة خارج السجن. . فما بالك بداخله. . !!؟؟

ـ هوِّن عليك هذا التصور الخاطئ. . فالوضع مختلف داخل السجن عنه خارجه. . !

ـ كيف؟!

ـ حرص الدولة أو السلطة على قمع هذه الأشياء في الحياة العامة خارج السجن هو لسهولة انتشار تلك الأفكار عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وغيرها. . أما داخل السجن فعكس ذلك. . لأن أي نقاش أو إثارة ستكون محصورة داخل السجن بجدرانه الصماء ولن يخرج منه أي شيء. . !

ـ يا أستاذ «علي». . أنا لست غبياً إلى هذا الحد الذي تعتقده. . !

ـ عفواً. . لم أقل شيئاً يدعوك لمثل هذا القول. .

رجعت إلى غرفتي بعد أن شعرت بحاجة المدير لتناول بعض مشروباته البلدية منها أو المستورد. . ولم أحاول الإطالة معه في الحديث بعد أن تأكد لي بأنني قد حقنته بقضايا أفهم بأنها ستجعله يجهش بالبكاء إذا طالت سهرته. . !!

حاول بعض رفاق الغرفة التقرب مني ببعض إطراءات لم ترق لي، فقد تم وضع فرشي في مكاني المعتاد وأصلح كل شيء، حتى العشاء الخاص قد وضع في مكان لائق شبه مائدة من علب الحليب الفارغة. . وغطِّيَ بقطعة قماش مزركشة «قواره» ووضعوا بجانب ذلك قارورة ماء مع كأس من علب الصلصة الفارغة، و«متفل» معدني مصنوع من علب الأناناس الفارغة لاستخدامه كمطفاة للسجائر. .

لم أحاول الدخول معهم في أي حوار، بل تصنَّعتُ الإرهاق والتعب، حيث تدثرت بدفائي ورقدت هامداً رغم همساتهم وحوارهم الهادئ. . !

وتأكدت أنهم ركنوا أيضاً إلى النوم، حيث لم ينل تلك الليلة الزعيم الدكتور أي لون من العذاب. . ولم نسمع له في هذه الليلة أي صرخة من تلك الصرخات المعهودة الناضحة بالألم. .

وهذا ما جعلني أشعر بالفخر والاعتزاز لمواقفي وأنسى همومي الشخصية. . ! إن الزعيم يغط في نومه العميق لأول مرة. . !

لقد حققت شيئاً. . نعم. . حققت شيئاً لا بد أن أكمله في الصباح الباكر مع المدير، وأثناء غطيط الدكتور في نومه العميق لأول مرة. . !

* * *

لقد شعرت بالزهو كطاووس وأنا أسمع اسمي يتردد على شفاه الرفاق الزملاء همساً بأني رجل غير عادي ويجب احترامه. . !

* * *

يبدو أنني قد توصلت إلى الحل الذي أراح الطرفين. . بالرغم من شعور مدير السجن وزمرته بأنهم تنازلوا أكثر مما يجب. . وشعور الزعيم الدكتور. . «ورفاقه» بأنهم أيضاً قد تخلوا عن مكاسب ثورية. . اعتبروا تخليهم عنها كمرحلة آنية لخوض النضال من جديد عندما تتاح لهم الفرصة بعد استعادة أنفاسهم. .

* * *

يبدو أن المدير قد أخذ آرائي مأخذ الجد. . واعتبرها «حلاً لا بد منه» و«ما باليد حلية». . . خصوصاً في هذا الوقت العصيب. . !

كما أخذ الزعيم بالآراء نفسها احتراماً لي من جهة، ومن جهة أخرى كخطة تكتيكية لكي يحقق طموحاته بواسطة مزيد من كسب الوقت في انتظار الظروف المتاحة لكي يصل إلى هدفه في إعلان الثورة الشاملة من داخل السجن. .

* * *

تم الاتفاق «بحمد الله» بين المدير وزمرته من جهة، والزعيم ورفاقه من جهة أخرى، وأسعدني أني كنت أنا واسطة الخير في تحقيق ذلك الاتفاق. . !

وتبع ذلك عواطف مزورة تبادلها كلا الطرفين. . !

قال المدير:

ـ أنا مأمور من السلطة. . وعليَّ تطبيق أوامرها. .

وقال «الزعيم» :

ـ أنا . .إحساس ونبض القوى الوطنية في شعبي، وأريد بما يتاح لي من فرص أن أحقق طموحات شعبي من أجل تحقيق الحرية، والديمقراطية، والعدالة والوحدة اليمنية الكبرى . .

قلت للجميع . .

ـ أنا مطالب . . بأن أحقق في هذا السجن السلام والاستقرار في ظل نظام تعايشي وسلمي . . ولو آني . . !

* * *

مرت أيام . .

أدمن فيها المدير على الشراب . .

«الزعيم الدكتور» يزداد فيها انطلاقاً في أحاديثه في حلقته المنزوية بركن صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء . . !

أنا! . . لم يصلني علم عن أحوال أسرتي، ولا وصل أسرتي عني وعن مصيري وأين أكون شيء . . وهذه ظاهرة جديدة لحياة المعتقلات في هذه الفترة الحرجة التي لم تمر البلاد بمثلها من قبل . . !

ومرت الأيام أيضاً . . !

المدير يزداد إدمانه للخمرة . . !

«الزعيم» يزداد تألقاً في ندواته . . و قد ضم إليها من خارج السجناء بعض حرس السجن أيضاً . . وأنا ما زلت أنتظر اتصالي بأسرتي . . بالرغم من اندماجي في شلة المدير «للشرب» . . والتي بدأت تتقلص يوماً بعد يوم . .

ومرت الأيام بعد ذلك مرة أخرى . .

«الزعيم» . . ! قد اكتسح الفناء المرصوف بالحجارة الصماء مع مريديه من جماهيره الكادحة . . ومن كسبه أيضاً من عساكر السجن الذين يواظبون على محاضراته وندواته بانتظام . . وبروح العسكرية القائمة على «الضبط والربط» . . !

المدير أصبح مدمناً من الصباح، وحتى المساء . . حيث أصبحت نفسيته سيئة . .

أنا..! فقدت الأمل في الاتصال بالأسرة.. وأصبحت أعكف بعض الأحيان مع المدير ليلاً للشراب وأحياناً كنت أتزود بأفكار «الزعيم» في حلقاته الرائعة التي يعقدها باستمرار بعد الظهيرة..!

* * *

ومرت أيام وشهور وربما سنوات.. وأصبحت عادة.. حيث أحضر ندوات «الزعيم الدكتور» ظهراً.. وأحضر أمسيات الشراب مع المدير ليلاً.. وقد فقدت الأمل بالاتصال بالأسرة والأصدقاء الزملاء..

* * *

في ليلة هجعت إلى مكاني المعهود وقد أزيح عني القيد الحديدي الباقي بحلقاته المزعجة، والتي أمر المدير بفكها عن قدمي في فترة سابقة..

تكالبت عليّ الهواجس في تلك الليلة..

ألا لهذا الليل من آخر..؟! ألا لهذه الحالة المزعجة من نهاية..؟!؟

أليس لهذه الأوضاع خارج السجن أو داخله من حل يشفي ألمي ويزيح كآبة أحزاني..؟!

ما هو الفرق بين الحزن والألم..؟!

الألم والعذاب..؟!

هل أنا متألم..؟!

هل أنا أتعذب وأعاني من أجل ذلك..؟!

أحزين أنا وبالكآبة أصاب وبالخمول إلى الأبد؟!؟

أم أنا متألم لقضايا عامة وسأتفجر لتحقيق أشياء أعتقد أنها ستزيل ألمي للصالح العام؟!

أم أنا متعذب..؟!؟! وسأنهي حياتي بمأساة..؟!؟!

.. ربما تكون عملية الإقدام على الانتحار..!!؟؟..

هو العجز..

* * *

سبحت بأفكاري الشاردة وأنا أستمع في صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء إلى محاضرة «الزعيم» كالعادة مع الزملاء الرفاق والذين انضم إليهم معظم جنود وحراس السجن، بل وضم اليوم بعض موظفي وكتبة «القصر» أيضاً. .

يبدو أن الزعيم أحس بما أعانيه من الشرود الذهني، وفجأة شعرت بزميل بجواري، وأنا مطرق شدني بكتفي قائلاً:

ـ أيها الأخ «الرفيق». . ألا تسمع «الزعيم» وهو يشير إليك بحديثه. . ويخاطبك. . !

ـ عفواً أخي. . ماذا تريد؟!

لم يجبني حيث قال «الزعيم» مشيراً إليّ بحديثه ومخاطباً:

ـ أستاذنا الكبير. . ماذا بك اليوم؟!

ـ لا شيء. . . مجرد هموم. .

ـ ألم يرق لك الحديث اليوم يا أستاذ «علي». . ؟

ـ أرجو عدم الإحراج يا دكتور. . أنا أعاني من هموم ربما تكون في نظركم خاصة. .

ـ أهي أهم من قضايا الوطن وما يعانيه. .؟!

ـ ربما تكون في نظري أهم. . الآن. .

ـ لا أعتقد. . يا أستاذ. .

ـ أنا رب إبلي وللبيت رب يحميه. .

ـ مقولة ليست صادقة، ولا واقعية، ولا هي حقيقة مُسَلَّمٌ بها. .

ـ لماذا؟!

ـ لأننا كلنا أرباب إبل. . لكن رب البيت باعتقادي. . نحن أربابه. . مهما كان البيت مجرد رمز لحيوان أو جماد. . لكننا جميعاً أرباب ذلك المقصود به. . الذي يجمع الكل. .

ـ لديَّ تسعة أطفال. . وأمهم أيضاً. . لا أعرف عنهم شيئاً ولا يعرفون عني شيئاً. . !

ـ أستاذ علي. . باستطاعه المدير أن يصلك بهم. .

ـ ليس إلى هذا الحد. .

ـ صداقتكما قديمة. .

ـ قبل أن تصل أفكارك إلى هذا السجن. .

ـ أفكاري أنا. . وحدي؟!

ـ ربما كانت هنالك أفكار سابقة. . لكنها ليست بهذه الحدة من التطرف. .

صمت وقد استغرب الجميع صمته. . قال:

ـ أعرف أستاذ «علي» ماذا تريد أن تقوله لي. .

ـ لم أقصد شيئاً. .

أطرق فترة ثم قال:

ـ أعرف أنك تريد أن تقول «لا تحرج الخصم»؟!؟! لا تحرج خصمك، وتوصله إلى موقف انتحاري يستدعيه للتصرف بما لا يحمد عقباه. .

صمت برهة. . قلت بعدها. .

ـ فسر ذلك كما تريد. .!

* * *

بعد المغيب كنت في مكان المدير. .

لعبت الخمرة دورها في رأسي. .

كنت موقناً بأن الخمرة ليست الحل لطرد الأفكار المضنية وتخليص النفس من عذاباتها وأحزانها وآلامها. . وإنما هي عقار إذا ما استخدمته وأنت سعيد باسم عكس ذلك على مسير يومك. . أو بالعكس. .

تناولتها مع المدير ونفسيتي متعبة إثر المحاضرة. .

ويبدو أن المدير كان يمر بالحالة نفسها. . فأجهشنا بالبكاء سوياً. .

لم يعد سوانا. . فقد تقلصت زمرة المدير، وأصبحت من أنصار «الزعيم». .

شد انتباهي اليوم لأول مرة بقايا مرآة صغيرة مكسورة كانت معلقة في جدار أحد حمامات السجن العفنة، وربما كانت بقايا من مرايا صغيرة وضعها سجين سابق من فترة بعيدة. . لأنني مسحت ما علق بها من غبار وأوساخ عدة مرات. .

راعني بروز شعيرات بيضاء في ذقني، وهالني بداية طغيانها على الشعيرات السوداء كثافة.. ومررت بالمرآة المكسورة على جوانب من شعر رأسي المنكوش الذي طغت عليه الشعيرات البيضاء أيضاً..

أنا في حالة سكر بَيِّنْ.. ولذلك لا غبار على ما أقوله..

استعرضت في بقية المرآة المكسورة أجزاء وجهي الذي لم أره منذ فترة، وهالني شحوبه والتجاعيد التي رسمت على قسماته.. أنف متورم، وعينان غائرتان كأنهما تبرزان من تجويف لأحد الكهوف «الجرانيتية» في جبال «بني حُشيش»..

شعرت كالعادة بإمساك شديد، كنت مشعلاً سيجارة.. تابعت حلقاتها المتصاعدة إلى سقف الحمام العفن المملوء بشباك العنكبوت من كل نوع ولون.. كانت بعضها تتضايق من دخان السيجارة.. تلك الكائنات الحية الحاذقة اللبقة المتطورة التي تمارس حياتها بأسلوب عملي وعلمي..

مرّت عنكبوت منها أمام أنفي.. هابطةً من السقف إلى القاع بواسطة الخيط السحري الذي صنعته من ذاتها لكي تحير فكر الإنسان العربي أن يصنع مثله.. قضت غرضها الذي لم أستطع بعقلي العربي المتحجر أن أعرف عنه شيئاً..

رشفت من سيجارتي نَفَساً كبيراً..

وضعت قطعة المرآة المكسورة أمام وجهي.. وجهي الذي حمل كل معاني الهرم والألم والحزن والتعب والمعاناة والنزيف..

أنا كنت من أوائل من أسس النقابات العمالية..!!

أنا من أوائل مؤسسي المؤتمر العمالي الأول..!!

أنا... من أوائل حركة الأحرار..

أنا... من أوائل المكافحين في سبيل إنجاح الثورة وتأسيس النظام الجمهوري..

أنا.. من قادة حرب «السبعين يوماً» الخالدة..!!

أنا.. من قادة حرب الاستقلال ضد الاستعمار..!!

أنا.. مِن.. مِن.. مَن أنا؟!؟!؟!

أأكون اليوم متهماً بعدم القدرة على المواكبة الثورية؟!؟.. ومن العاجزين أيضاً عن عدم القدرة في المضي مع المسيرة النضالية الثورية؟!

ألمجرد أنني خرجت من سجني الأخير، خائر القوى، أتلمس لقمة العيش لكي أستعيد قواي..؟!؟!

أيراد مني الإدرار وقد أصبحت بقرة عجفاء؟!؟.

ماذا يريد مني الأخ.. الرفيق.. الزعيم الدكتور؟!؟!؟!

ماذا يريد مني المدير؟!؟!

ماذا يريد مني زملاء الغرفة.. وجميع زملاء السجن..؟!؟!؟!

ماذا تريد مني الزوجة وأبناؤها التسعة..؟!؟!

ماذا يريد ضميري مني بعد هذا..؟!؟!؟!

* * *

كدت أتهاوى على باب الحمام.. كنت ثملاً.. لم تهزمني الخمرة كما هزمتني اليوم.. حاولت أن أركز نظري على الممر المؤدي إلى غرفة المدير.. كانت عيناي لا تستطيعان ذلك.. تعثرت بين جدران الممر المؤدي إلى غرفة المدير.. كان الباب مفتوحاً.. دخلت.. كان المدير منبطحاً على وجهه وشخيره يعلو.. تحاملت من جديد مع سكري لكي أعود.. لم أستطع.. ويبدو أنني قد انبطحت على وجهي وعلا شخيري.. أنا أيضاً..!!

* * *

حملت أشيائي ورحلت من غرفة الزملاء.. وهجعت في زنزانة انفرادية.. تم ذلك بعد موافقة المدير واستقريت فيها..

لن أكون اليوم واسطة خير لأحد..!

أنا الآن ناسك في هذه الزنزانة الانفرادية.. مجرد ناسك..!

مرت الأيام ولم أخرج من زنزانتي إلا لقضاء حاجة ملحة فقط عشت فيها أراجع أحداث الماضي الطويل.. ورغم رسل «الدكتور» وكذلك المدير للقائهما.. فقد امتنعت.. انقطعت في تلك الأيام عن كل شيء.. لا شراب

مع المدير، ولا سماع محاضرات الدكتور.. بل استرجاع بصفاء مع النفس أوجد لديَّ فكرة أن أسجل مذكراتي عن ذلك..!

وفجأة ذات نهار وأنا في زنزانتي الخاصة، سمعت صياحاً مبحوحاً ومرعباً عرفت أنه صوت المدير..:

ـ اللّه اللّه.. يا هذه المصيبة.. اللّه اللّه والفعلة.. أين أنت يا أستاذ «علي»..؟ أين أنت..؟أريدك.. أريد أن أراك فوراً.. أريد أن أتحاكم وإياك..!!

فتحت باب زنزانتي الذي بلي بعوامل الدهر وتعاقب السنين رغم مناعته، فكم أناس عاشوا في هذه الغرفة الضيقة من قبلي.. وكم أحداث وكم مآسٍ مرت عليهم وكم وكم، وهم خلف هذا الباب العتيق..

قابلته وهو يثور ويزيد بهياج كأنه ثور قُدِّمَ في يوم عيد الأضحى وفلت من ذابحيه محدثاً إزعاجاً لأطفال القرية.. نعم تذكرت ثوراً ذبحناه في قريتنا في يوم عيد الأضحى وأحدث في نفوسنا ذلك الرعب..

ـ أستاذ «علي»..

ـ ماذا بك..؟

ـ كارثة وحلت..

ـ ما هي..؟ هدِّئ من روعك..

ـ لقد هرب الوغد مع معظم السجناء، ومعظم الحراس والكتبة..

أطرقت قليلاً للمفاجأة.. قلت بعدها متسائلاً:

ـ كيف..؟

ـ لقد حفروا نفقاً إلى خارج القلعة.. وبواسطة الحراس الخونة المغرر بهم، تم هروب المساجين والحراس أيضاً..

لا أدري كيف انتابتني موجة من الضحك مفعمة بالسرور تألم لها المدير وصاح:

ـ كيف تضحك..؟ أتضحك لهذه الكارثة التي حلت بي..؟

ـ إنه ألطف ما سمعت..

ـ إنك مجنون يا «علي»..

ـ مجنون ونص..

ـ وخائن..

ـ لا.. لست خائناً..

ـ قذر ووغد..

ـ لا.. أرجو أن تحترم ألفاظك!

ـ لقد أضعتها عليّ يا «علي»..

ـ أبداً..

ـ نمقت لي الحياة بأسلوبك الخبيث.. وجذبتني إلى سلوكك الطيب المصطنع..

ـ أهذه رذيلة..؟؟

ـ ...

ـ راجع نفسك..

ـ لكنها أوصلت إلى نتيجة.. هي كارثة هروب الوغد مع السجناء والحراس..

ـ مسؤوليتك أنت وحدك..

ـ لا.. أنت مسؤول أيضاً..

ـ هل أنا وزير الداخلية..؟ أنا مجرد سجين!!

ـ بل أنت أخطر مسؤول عن هذه الكارثة..

ـ لا تحاول التهرب من مسؤوليتك فهم يعرفونك..!

* * *

صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء خال.. لا أحد سوانا.. أنا والمدير..

الشرر يقدح في عينيه.. وأنا واقف وحيد أمامه أعزل.. لم يكن أمامي خيار سوى الصمود الذي زاد في ثباته أن المجموعة وزعيمها غادرت السجن إلى الأمل المنشود..

حاول أن يهجم عليّ بأظافره.. فركلته في بطنه، حيث خرّ على قفاه

مرمياً على الأرض.. حاول النهوض فأتبعته بركلة أخرى شديدة..

لم أحاول الإطباق عليه مع علمي بأنه يحمل مسدسه دائماً بجانب «جنبيته»..

قام متهالكاً وهو يصيح بيأس مستنجداً بي:

ـ كيف أصف الحادث للمسؤولين..؟!؟!

عندما تأكدت عدم اهتمامه بتناول سلاحه.. قلت وما زالت نغمة الحدة الغاضبة تتقمصني:

ـ هذا شأنك..

ركع قائلاً:

ـ سأنتحر..

ـ هذا شأنك أيضاً..

ـ ألن تتألم من أجلي..؟!؟

ـ ربما..

ـ أتقول ربما..؟!

ـ طبعاً..؟

ـ وأنت أسير إحساني..!؟!

ـ أنا أسير قيدك..

صمت فترة ثم قال:

ـ بماذا سوف يعاملك الآخرون.. أقصد الوغد وزملاؤه..؟!

ـ لا أدري.. ولا أحسب لهم حساباً..!

ـ ربما يرفعون من شأنك..!

ـ على علمك!؟ وربما العكس..!

* * *

وقف المدير فجأة في صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء.. وفي يده مسدسه.. وصاح بي:

ـ أستاذ «علي». . !

ـ نعم. . !

ـ هل هرب جميع المساجين؟

ـ كما قلت لي. . نعم. . !

ـ والحرس. . ؟

ـ أيضاً كما يبدو. . !

ـ والكتبة في القصر. ؟؟

ـ نعم. .

ـ ولم يبق سوانا. . ؟؟!

ـ نعم. .

تحفزت عندما أشهر مسدسه. . لم يكن أمامي أي مفر للنجاة من إصابته المباشرة إذا أقدم على ضغط الزناد. .

ودوت طلقة نارية. . هزت بصداها صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء وجوانبه الرفيعة. . كانت الطلقة قد استقرت في صدغه الأيمن. . وخرّ صريعاً كلوح خشبي محدثاً صوتاً رناناً على قارعة صحن السجن المرصوف بالحجارة الصماء. .

اتجهت إلى باب زنزانتي المنفردة التي أكل درف بابها الدهر وشرب وهجعت فيها خامداً. .

صنعاء: 11/ 11/ 1979م

مجموعة
الجسر

تقديم

لماذا وحده زيد نقرأ له فنستمتع بما نقرأ؟

لماذا هو الوحيد يمتلك القدرة على ترميم شروخ الذاكرة وإثارة شجون القلب؟

وحده زيد من بين شعراء وقصّاصي بلادنا يكتب بتلقائية وبساطة، وحده حين يكتب يذكّرنا بأنفسنا، بأحزان قرانا، وأشواق أمهاتنا إلى الحرية. .

إن زيداً في جميع قصصه القصيرة وفي روايته ـ الرهينة ـ ينقل المكان اليمني بشاعريته وتفرده. بل إننا نكاد أن نلمس هذه الأمكنة بأصابعنا. والمكان عند زيد ليس إطاراً خارجياً أو مجرد وعاء بل هو كائن يتنفس ويحرك فينا مشاعر إنسانية تتناقض تماماً مع صلابة المكان.

لا أحد منكم يمكن أن يستغني عن قراءة ـ طاهش الحوبان ـ وقصص العقرب ـ أو رواية الرهينة ـ لكن يمكن الاستغناء عن عشرات القصص والروايات العربية والمعروضة في الأكشاك والأرصفة والمكتبات، والتي تبدو ككائنات تعاني من نقص في النمو وفقر في الدم، باردة وليس فيها حرارة الحياة. يكتبها أناس بلا مواهب ولا تجارب. أناس موهبتهم التعالي على الحياة.

عبد الكريم الرازحي

الجســر

يطيب لي كل يوم أن أقضي بعضاً من وقتي الممِلّ القلق بالتنزه على الجسر الحديدي الذي يربط شاطئي النهر العظيم.. لم تكن نزهةً بالمفهوم العام أكثر من كونها عادة أدمنتها لأفرّج عن كروبي وهمومي وضجري.. إلى درجة أنني كنت أخاف أن أُقْدِمَ في يوم من الأيام على تقليد بعض شباب العصر المتدني بالانتحار..

وكنت أضحك بمرارة عندما أفزع مع من يفزع من مشاة الجسر والتجمهر معهم والتطلع لشخص ما قفز منتحراً من على الجسر إلى مياه النهر الهائج.. كنت أقول لنفسي وأنا أضحك: ليس لديهم أي مبرر للانتحار كما هو لديّ.. أو ليس لديهم اقتناع بالإقدام على ذلك كاقتناعي، ومع ذلك يساقون إلى حتفهم هذا كأنهم حيوانات معروفة، قرأت عنها، تعيش في القطب الشمالي تهوى الانتحار للانتحار نفسه!

أنا لديَّ ألف سبب وسبب، وألف مبرر ومبرر للقيام بالانتحار، وقذف جسمي إلى غياهب النهر الهادر..

ذقت مرارة الاعتقالات، وما تسبب من امتهان لكرامة الإنسان بتلك الوسائل الحديثة النابغة باستخدام أنواع جديدة من ألوان التعذيب، وجرح الكرامة وإخماد النفسية وإذلال الإنسانية، وتشعر بأن ما تلاقيه عبث وإباحة لا مبرر لهما..

وتتألم لجارٍ لك في زنزانته يئن أول المساء، ويصيح بصوت مبحوح يصك أذنيك من هول ما يقاسيه، وتتألم أكثر عندما يهمد في آخر المساء، وتسمع وإياه صوت نباح كلب متشرد تتمنى أن تكون هو... هذا الكلب الشريد.. وفعلاً أحسد مع جاري ذلك الكلب الشريد، أحسده لأنه رغم جوعه وتعرضه للمخاطر ينبح بصوته العادي.. حتى الحشرة في مواجهتها للحياة ومخاطرها، أعتقد بأنها لن تتعرض لأذى أكبر مما تعرضتُ له وتعرض له

جاري في الزنزانة المجاورة. . . وأمثالنا في عشرات بل مئات من الزنزانات. . . إلخ.

وإذا ما قدر لنا الخروج سنحرم من العمل وستقطع أسباب الرزق أمامنا وسنكون عالة على أطفالنا ونسائنا المعدمين، والذين ربما جنينا عليهم امتهان أعمال قذرة مخزية لكي يوفروا لقمة العيش ويزيدوا من تعاستنا وتوجهنا للإقدام على الانتحار. .

هكذا كنت أقضي بعضاً من وقتي اليومي الممل على الجسر أذرعه من الطرف إلى الطرف مشياً، لا أتوقف إلا عند تجمهر الناس وضجتهم لاكتشافهم انتحار شخص جديد. أطالع أخبار انتحاره وأسبابه. . بأنه فشل في الحب. . فشل في الدراسة. . فشل في حياته الزوجية. . إلخ!.

استطعت التخلص من بعض عادات سيئة كانت مستحكمة فيّ كالتدخين. . وشرب الخمرة، ولعب القمار. . ولكنني لم أفلح في إنهاء عادتي بالتمشي على هذا الجسر في نفس الساعة والوقت، أصبحت مدمناً لهذا الوقت بشكل غريب.

* * *

في مكان اعتدت أن أوقف فيه سيارتي كل يوم للالتقاء بأصدقاء وزملاء نقضي فيه بعضاً من الوقت، وفجأة وبدون أن أتوقع، داهم السيارة ثلاثة أشخاص بينما كنت أتأهب لإطفاء محركها وإقفال نوافذها وأبوابها. . .

مسدس الجالس بجواري موجه إلى صدغي الأيمن، ومسدسان آخران لكزا رأسي من الخلف.

ـ اتجه إلى الخلاء. .

ـ أي خلاء. .؟!

ـ بسرعة. . إلى الخلاء.

أصبحت لكزات فوهات المسدسات لكمات حادة.

* * *

ما زلت على الجسر أذرعه ذهاباً وإياباً. . فزعت مع من فزع من الناس

كالعادة.. كنت قد مللت مثل هذا الفزع المعتاد، فهو حادث انتحار لفاشل في الحب أو الدراسة أو الحياة الزوجية، لكنه كان فزعاً هذه المرة أكبر مما تصورته وتصوره الفزعون المتجمهرون..

لقد حدث حادث مروع.. لقد صدمت شاحنة عسكرية سيارة صغيرة تقلُّ بعض الركاب وقذفت بها وبمن فيها إلى النهر.. وارتكزت على مقدمتها وهي تهوي تشق الماء، فانقذف حواليها، كأنها سباح عالمي يقفز إلى المسبح.

* * *

توقفت بالسيارة، مستجيباً للأمر، داخل ساحة كبيرة بعد أن اجتزت بها البوابة الحديدية المكللة بالجند المدججين بالسلاح.

عُصبتْ عيناي وقادني الثلاثة بسرعة كأنهم لم يتناولوا وجبتي الإفطار والغداء.

وأُجلست على كرسي، ثم بعد دقائق لم أشعر إلا بأنني قد علقت من رجلي بحبل إلى سقف المكان أو الغرفة، وانهالت على جسدي بعشوائية ضربات مؤلمة بعصا غليظة، كان الألم قد أفقدني وعيي..

* * *

كل الفزعين وأنا منهم قد اشرأبت أعناقنا على حافة الجسر الحديدي نشاهد غوص تلك السيارة الصغيرة بركابها.

كان المفروض على الأقل أن يكف بعض المفزوعين وأنا منهم عن متابعة نهاية المأساة.. لكننا لا ندري جميعاً أنا وكل الفزعين المتجمهرين سر إصرارنا على البقاء..

* * *

أفقت لا أدري بعد كم من الوقت، ربما أيام.. تأملت نفسي ملياً.. الدماء جامدة على خدي وفي رأسي بعض جروح تحكني، وأريد أن أنهشها بأظافري.. ثوبي ممزق، وعضلاتي مخدرة، أما قدماي فقد تورمتا.. وإن بان

التورم ضامراً كفاكهة سقطت من شجرتها ومكثت عدة أيام. . ودخل عليَّ صبيٌ صامت لا ينظر إلا إلى أمام وجهه، وبيده صحن فيه بعض الطعام طرحه وانصرف.

* * *

فجأة انشق ماء النهر عن السيارة الصغيرة بمن فيها متجهة نحو أقرب شاطئ إلى بر الأمان، ودوت صيحات التهليل والفرحة من جموع الفزعين، وأنا منهم، نكاد نقذف بأجسامنا إلى النهر لمساعدة السيارة للوصول إلى شاطئ الأمان. . نصيح ونصيح ودموع الفرح تنهمر، والأيادي تلوح. .

* * *

كنت جائعاً جداً. . تأكدت من ذلك بعد أن لمستُ بيدي بطني التي كانت مجوفة إلى الداخل عكس بقية أعضاء جسمي المنفوخة إلى الخارج.

هجمت على صحن الطعام وما كدت أبتلع أول لقمة حتى انكفأت بوجهي على صحن الطعام إثر ركلة عنيفة من حذاء أحدهم صادفت موقعاً مؤلماً بالنسبة لي فوق الكلية المستأصل نصفها في عملية جراحية في الماضي. .

وعُلِّقتُ مرة أخرى، ولكن من يدي هذه المرة!! . . وانهالت على جسمي ضربات عصا غليظة. . وكان الألم شديداً إلى درجة أفقدني وعيي. .

* * *

تحول تجمهر الفزعين وأنا منهم إلى مظاهرة صارخة. . الأيدي مرفوعة بعلامة النصر، والصياح بالشعارات الحساسة يصم آذان المدينة. . والسيارة الصغيرة ما زالت تجاهد بفزع لكي تصل إلى شاطئ الأمان. .

وشاطئ الأمان صعب، فهو مرتفع ترابي يفضي إلى مقهى يسترخي فيه أفراد كأنهم من أقوام آخرين سابحون في عوالم أخرى مخدرون وواجمون، بعضهم يطرح رجل على الرجل الأخرى والآخرون تتدلى رؤوسهم فوق

أكتافهم كأنهم مستغرقون في تفكير عميق.. وبعضهم يبول خلف المقهى أو إلى النهر العظيم مباشرة..

* * *

كان النور قوياً مسلطاً على وجهي.. شعرت بالدفء نوعاً ما، لكنه تحول إلى نار حامية بعد لحظة...

ـ تذهب إليه دائماً في ذلك الوقت...؟

ـ من هو...؟

وانهالت صفعة على خدي من كف برزت كومضة لم أعرف من أي مصدر أتت، كنت أعتقد بأنني وحدي في تلك الغرفة مع الضوء الساطع الحامي وصوت فقط.. وكنت أتمنى أن يكون الصوت هلامياً أو صوتاً بلا جسم... ولا أذرع تصفع، ولا أرجل تركل، ولا أسنان تعض، ولا فم يبصق..

ـ ... عبده فارع الملقب «بالحسين» وزمرته!!.؟

ـ لا أعرف شخصاً بهذا الاسم ولا بلقبه..!

وانهالت ركلة قوية من الخلف بقدم أعتقد أنها تنتعل حذاء جندي أو شرطي أصابت موقع الألم في نصف الكلية الباقية اليمنى...

ـ عبده فارع.. موزع السلاح والمؤامرات للقيام بالانقلاب على الوضع.. ألا تعرفه..!؟.

ـ لا أعرفه.. ولم أسمع باسمه.

وعلقت من أطرافي الأربعة بواسطة أشباح برزت من الظلام إلى النور.. وفقدت وعيي.

* * *

كانت السيارة مع من بداخلها متجهة بسرعة، وقد لمست عجلاتها الأمامية بداية المرتفع الترابي المؤدي إلى المقهى.. وكم عَلَتْ الفرحة وجوه الفزعين وأنا منهم لهذه المعجزة التي لم تكن تخطر على بالنا.. وعلا صياحنا الفرح بدموع حارة..

* * *

قُذِفَ بي إلى مكان أوسع في تلك الغرفة الزنزانة ليستقبلني شباب راقدون على ظهورهم وعلى بطونهم. . بلا اكتراث. .

تكومت بأشلائي المبعثرة وأفكاري الوجلة الخائفة في زاوية من الزوايا. .

لكنني شعرت بالأمان والطمأنينة في هذا الحشد المكتظ داخل هذه الغرفة الطويلة. لا أتذكر بأنني استرددت أنفاسي حتى جاء عملاق غريب بصوت وأسلوب همجي حيث أخذني فجأة من الغرفة الطويلة ومن بين الحشد المكتظ المستلقي على ظهره وبطنه.

* * *

كانت السيارة بمن فيها تجاهد بعجلاتها الأمامية للصعود من النهر إلى حافة المقهى المسترخي عليه أناس بعضهم واضع إحدى رجليه على الأخرى، والبعض الآخر متكئون برؤوسهم على أكتافهم، وبعض منهم يبول خلف المقهى إلى ماء النهر العظيم. . كانت العجلات الأمامية للسيارة تدور بسرعة جنونية، ولكنها في مكانها. . والمسترخون كما هم في أماكنهم أصنام وهياكل جامدة. . بلا حراك. .

وعلت أصوات الفزعين وأنا منهم يهيبون بالمسترخين في المقهى بتدارك الموقف، والوثوب صفاً واحداً لإنقاذ السيارة ومن بها. .

* * *

قذف بي إلى غرفة صغيرة مربعة مضاءة بمصباح علوي في السقف قوي وشديد. . كان هنالك كرسي جلست عليه تلقائياً. . الآن أنا طليق العينين. . أشاهد بنظري كل جوانب الغرفة بحرية لم تتح لي فيما مضى من الوقت. .

ودخل ثلاثة رجال لا أعرفهم ولا يعرفونني، ملامحهم غريبة عليّ نوعاً ما، ويبدو من شكلهم أنهم بدوٌ من «المنطقة الشرقية»، هذا ما اعتقدته، وبدأ الثلاثة بالتحرش بي، كأننا في شارع عام، كلهم عمالقة أصحاء، وأنا مريض. . وبدأ العراك الذي لم يكن متكافئاً. . أنا النحيل الذي لم أتضارب مع أي حشرة في حياتي فما بالك ببشر. . واستغل الثلاثة ضعفي، فتفننوا في ممارسة أنواع

رهيبة من الضرب.. لم تكن تخطرعلى بالي ولا على بالهم.. وفقدت وعيي..

* * *

استمرت السيارة بالصعود بعجلاتها الأمامية نحو المقهى محاولة ارتقاء المرتفع الترابي، حتى تكاد تصل إلى القمة فتنهار قواها.. وتنزلق إلى الوراء نحو النهر الهائج.. لم تنفع فراملها في توقيفها عن الهبوط إلى النهر العظيم.. كنت أتوقع خروج الركاب من داخلها.. طلباً للنجاة.. لكنهم تسمروا بداخلها عن قناعة..

* * *

ـ تأخذ من لديه أسلحة توزعها على مجموعتك؟

ـ لا أفهم ما تقول..!

ـ خبيث.. ولعين.. وقذر..

وانهالت على وجهي بعض لكمات نزف لها أنفي وشفتاي بالدم.

ـ ألم تأخذ منه أسلحة؟

ـ لا...

ـ أقلام.. ورق.. كتاب؟..

ـ ربما.. ربما ورقة، وربما كتاب.. لا أذكر..!

ـ يا ابني كنت تريح نفسك وتريحني، فهذا اعتراف واضح لا داعي بأن نستخرجه منك بكل تلك الطرق التي أتعبتنا..

ـ أي اعتراف..!؟

* * *

عادت السيارة بمن فيها للصعود وهي تصدر أزيزاً صارخاً، والدخان ينبعث من خلفها، عجلاتها كانت تدور بسرعة لكنها لم تكن تحقق تقدماً ملموساً.. كادت تقترب من قمة المرتفع الترابي اللزج.. كادت تلامس المسترخين على المقهى، صحت بأعلى صوتي طالباً منهم الإمساك بها.. أن

يعملوا أي شيء.. أن يمسكوها بأظافرهم.. يعضوا عليها بأسنانهم..

* * *

في الصباح جُلْتُ بنظري على وجوه زملاء الغرفة الطويلة عسى أن أعرف أحداً منهم، ملامحهم تدل على أنني أعرفهم جميعاً، وربما لا أعرف أحداً منهم إطلاقاً، منهم شباب في عمر الزهور تنوعت ملامحهم.. أو ربما كانت غير هذه الملامح في السابق.. أكيد تغيرت.. معالم كثيرة في وجوههم وأياديهم وأرجلهم.. ومنهم رجال في منتهى الوقار، شاهدت أحدهم يتناول كوب الماء بكلتا يديه.. في الرسغ كانت أصابع يديه مشلولة ضامرة، كل إصبع متجهة عكس الأخرى.. وآخر لا يستطيع الحراك بجسمه الأسفل.. يتأذى ويتبول عن غير إرادته... وقد وضعه زملاؤه في ركن مناسب له ولهم..

وآخر كان مبطوحاً دائماً على ظهره لا يستطيع النهوض والتحدث، ويطعمه زملاؤه وهو على تلك الحالة.

وآخر منزوٍ في ركن من الغرفة عرفت بعد ذلك أنه لا يبرحها مطلقاً، يبكي دائماً بصمت ولا دليل على بكائه سوى دموعه المنهمرة الدائمة التي لم تنضب دقيقة واحدة، ليلاً ونهاراً..

منهم دكاترة طب، وأساتذة جامعة، وطلبة، وصحفيون، وأدباء ومفكرون، وساسة، وموظفون عاديون، بل ووزراء سابقون.. متكاتفون جميعاً لإزالة آلامهم في تضميد الجروح وتهدئة النفسية وإصلاح المرقد ونظافة الغرفة.. ينشدون في المساء والصباح نشيداً حزيناً كأنهم «يرتلون سوراً من القرآن الكريم».. وأنا معهم..

* * *

تدحرجت السيارة بمن فيها إلى الوراء.. إلى النهر العظيم الهائج.. كنت في حالة جنون أصيح. وبُحَّ صوتي وتشنَّجتُ وأنا على الجسر، بعيداً عنها وعمن في داخلها، كنت أخبط برجلي الأرض وبيدي حديد الجسر، وأنا أصيح وأصيح عسى أن يعملوا شيئاً لإنقاذها وإنقاذ من في داخلها.. واستكانت

السيارة بمن فيها لكي يلتهمها النهر العظيم الهائج.. كنت أصيح ويداي تشيران إلى من فيها بأن يخرجوا ويتركوها تغرق.. لكنهم كانوا مصرّين مسمّرين فيها عن قناعة، وليس لديهم بديل سوى أن يغرقوا معها.. وغرقت السيارة بمن فيها.. وصياحي ما زال يعلو ويعلو.. وكان الألم قد أفقدني وعيي.

صنعاء 15/ 4/ 1983

خلف الشمس بخمس..!!

تلألأت في جفنيه ومضات النجم اليماني... فاشتاق إلى موطنه.. ذلك الوطن الجبل الكبير بحجم الدنيا كلها..

انسكبت من مقلتيه دموع آسنة.. مسحها بأنامله الغليظة التي تختزن الأوساخ أظافرها..

كان لا بد له أن يعود..

تذكر رحيله الذي كان هروباً مصحوباً بالخوف والجبن معاً...

ـ ما بالك سارح مهبول كأن الجن قد مسّتْك...؟!.

هذا هو صوت أخيه الأكبر الذي تشاجر معه فجر اليوم لتأخره عن النهوض مبكراً في السَّحَرْ.. حيث ترك الفرصة للسقي بالماء من البركة الحجرية «المقضضة بالنورة» لمزارعين آخرين كانت أرضهم أكثر عطشاً..

ـ عليك اللعنة..

سمعها من أخيه الذي كان ثائراً يحاول إثارة الشجار مع من سبقوه إلى الري بماء البركة «المقضضة بالنورة» لريِّ مزارعهم..

كان الأخ في ذروة انفعاله يعمل بعصبية.. فهو يعاني هذه الأيام ومنذ فترة حالة قلق سببها «شريعة»[1] قائمة بينه وبين أحد أقاربه على قطعة أرض موروثة كائنة خلف الجبل، تسندها مئات من الحجارة لكي لا تسقط ويجرف ترابها المطر والسيل الغزير..

كان قد غرم مالاً كثيراً عند الحاكم و«العامل»[2].. ومثله قد أعطاه «وكيل الشريعة»[3] الذي يدافع من أجل قضيته.. وقد باع مما خلفه لهما

(1) شريعة: تقاض.

(2) العامل: المسؤول الأول في الناحية (عامل ناحية) مدير حكومي.

(3) وكيل الشريعة: المحامي.

والدهما الكثير.. حتى «المفرس»[1] و«فراد الصوف»[2] السوداء...

الأخ متزوج ولديه عدد من الأطفال يقتسمون «الفطيرة»[3] اليابسة ويقرضونها كالفئران.. وله زوجة.. شاكية.. باكية.. تاعبة دائماً.. أما هو فقد كان مقدماً على الزواج لولا تورط أخيه في هذه «الشريعة» التي أدت إلى تأجيل الزواج بل وإلى إنهائه!!..

ومع كل هذه الهموم فقد سبح بأفكاره الجديدة وهو يسير على حافة الساقية... سبح في أحلام أخرى ربما تبعده عن هذا الجبل ومدرجاته الزراعية المعلقة.. وقراه المتناثرة على قمته، وسفوحه، وشعابه، وأوديته..، وتبعده أيضاً عن مشاكل وهموم أسرته..

كان صباحاً نقياً بالرغم من كثافة الأدخنة المتصاعدة من مطابخ بيوت القرى التي تتهيأ لوجبة الإفطار «الصبوح».. كانت الرياح منسجمة مع أفكاره حيث جرفت تلك الأدخنة إلى جهة واحدة..

شدّه المنظر البكر لصباح ريف نقي.. وعكّر عليه صفو ذلك صياح أخيه الكبير باللعنات والشتائم، ليحثه على إنجاز عمل كان قد فشل فيه، وعمل آخر يرجى منه الخير..

كانت قدماه قد انساقتا إلى وسط «السائلة» العظمى المتجهة إلى بلاد أخرى..

صاح به أخوه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- «عصب»[4]...!

- ماذا تقول؟.

- ... خيرة البنادر...

أخذته الحيرة وقد ترك «مفرسه» وانتصب ثم صاح:

- إلى أين يا مجنون...؟

---

(1) المفرس: القدوم.

(2) فراد الصوف: مفارش صوفية.

(3) الفطيرة: قرص من الذرة البيضاء أو الصفراء أو الحمراء.

(4) عصب: مدينة وميناء في الحبشة.

ـ قلت لك إلى «عصب» . . .

ـ . . . وتتركني؟ .

ـ ستجد غيري . . . !

ـ والأرض . . والبيت . . والبقرة والثور؟!

ـ كلها لك . . .

ـ و«الشريعة» التي نحن فيها مع ابن عمك القذر المشاغل لنا . . ؟

ـ سيحلها وكيل الشريعة .

ـ يريد مالاً مقابل ذلك . . . !

ـ دبر له ذلك . . .

ولم يجب! وفكر قليلاً ومسح العرق عن جبينه . . ثم اندفع إثره قائلاً :

ـ سأحسب عليك كل غرامة . . . ؟

ـ قلت لك بأن الأرض وكل شيء لك . . !

ـ لم «تُبَصِّرْ»[1] بذلك بوثيقة شرعية عند الفقيه . . . ؟!

ـ لا تحتاج لكل هذا فقد تنازلت لك عن كل شيء . .

وصمت برهة ثم صاح بصوت غاضب :

ـ «اضرب»[2] . . خلف الشمس بخمس . . . !

ـ ماذا قلت . . ؟

وأجابه بإشارة قبيحة من يده . . وهو يواكب سيره السريع . . .

* * *

التقفته ظلمة معتمة وموحشة . . زادها كآبة تزاحم الجبال المخيف على جوانب ذلك الوادي الضيق .

لابد له من المبيت لكي يسترد أنفاسه الذاهبة ويتناول بعض الطعام . . أي

---

(1) تُبَصِّرْ : تُوَثِّق .

(2) اضرب : إذهب ، غِبْ ـ خلف الشمس بخمس ، بمعنى دعوى كريهة تستعمل في حالة القرف من شخص ما .

طعام.. ويرتمي ولو قليلاً في أي مكان لينام فيه ولو لبضع دقائق..

كانت قدماه العاريتان تدوسان على الأشواك بدون ألم.. وقد شمر بمئزره البالي المتسخ الذي لا يعرف الغسل إلا ليلة العيد... شمر به فوق فخذيه الأسمرين.. وهو ما زال منطلقاً ومكباً..

سمع نباح كلاب ونهيق حمير فأدرك أنه قادم على قرية أو «مقهاية»..!

وحث خطاه وسط ذلك الظلام الدامس غير آبهٍ بعشرات الأشواك التي يدوسها، وقد انغرز بعضها داخل قدميه الحافيتين بأصابعهما المجروحة، لارتطامها بالحجارة... دماء سالت من قدميه أوقفها بالبول عليها كعلاج مؤقت يستعمله دائماً.. وساعد على إيقاف الدماء أيضاً كثافة الأتربة والحصى الناعم..

ووصل إلى «سمسرة»[1] حية بالنزلاء من جمالين مسافرين بجمالهم وحميرهم المحملة ببضائع قادمة من «العدن» إلى «الشام»[2] وقد أناخوا رحالهم ليتناولوا شيئاً من عشاء جافٍ مع قهوة من «القشر»[3] وقدموا لدوابهم ما يلزمها من علف وماء.. وتفقدوا أخراجها وأسراجها..

استطاع أن ينيخ ساقيه بين الجميع مستقراً في زاوية من المقهاية الواسعة بعقودها الحجرية والعبقة برائحة روث الجمال والحمير.. والمسافرين أيضاً...!

هذه هي «سمسرة السبيل» المنسوبة إلى ذلك السبيل «المقضض» الذي تحف به شجرة «الطولق»[4] العملاقة الضاربة جذورها حول سبيل الماء الصافي النقي داخل قبته البيضاء، حيث ينحدر إليه الماء من قمة الجبل بواسطة ساقية مختومة أيضاً بالحجارة المقضضة بالنورة البيضاء.

كان قد شرب من ماء السبيل وارتوى.. ثم تلفت حواليه.. إذن فهذه

---

(1) سمسرة: بناء كبير يؤوي المسافرين مع حيواناتهم من خيل وبغال وحمير وجمال وتقدم فيه جميع الخدمات الضرورية وفيه مقهى ومطعم..

(2) العدن + الشام: ما هو جنوبي يسمى عدن أو يمن نسبة إلى مدينة عدن واليمن وما هو شمالي يسمى شام نسبة إلى بلاد الشام.

(3) القشر: قشرة البن.

(4) الطولق: شجرة عملاقة في اليمن تغرس في الطرق العامة لتحمي المسافرين من حرارة الشمس أو غزارة المطر وهي من الأشجار التي تعمر مئات السنين.

هي «سمسرة السبيل» المشهورة بمقهايتها التي تديرها امرأة جميلة في الأربعين من عمرها، كما قدره خياله، ولديها بعض فتيات شابات ومستخدمات أخريات أحسنت انتقاءهن لحسن جمالهن.. كم سمع عنها وعنهن الكثير من الحكايات المسيلة للعابه في القرية.

هذا هو أول الطريق. وما أحسنه.. بالرغم من عدم وجود أي مال يكفي لشراء لقمة حقيرة من صاحبة «السمسرة».

وبالرغم من مظهره الرث كرعوي يعيش وقته عاملاً في المدرجات الزراعية، فقد قدمت له صاحبة «سمسرة السبيل» فطيرة من الذرة يابسة و«جمنة» قهوة مُرّة..

تردد، وقد علاه الارتباك وهو يأخذ منها ذلك من دون أن يكون قد طلب منها أي شيء.

مكث برهة.. لم يمس شيئاً مما قُدّم له.. فما لديه من نقود لن تكفي بحق «الممسى» أي إيجار المبيت.

لم يكن قد رأى في حياته «الريال» الفضي «ماريا تريزا».. بضعة بقش نحاسية فقط هي كل ما يملك.

واقتربت نحوه إحدى فتيات «السمسرة».. إلا أنها دهشت لوجود كل شيء كما هو.. فسألته بدلال واضح:

ـ ألم تأكل..؟

وارتبك قليلاً ثم قال:

ـ شابع وراوٍ بحمد الله.. وكل ما أريده هو المبيت لأنام..

لوت شفتيها بدلال أيضاً بهره وقد أخذت الأشياء من أمامه كما هي.. ثم تمهلت قليلاً وقالت متسائلة:

ـ من أين أنت قادم..؟

أجابها بسرعة:

ـ من «بعدان»[1]..

ـ «بعداني»..؟

---

(1) بعدان: جبل مشهور في محافظة إب يضم عدة نواحٍ ومئات القرى.

ـ نعم . .

ـ أمي من «بعدان» . . !

ـ من أين . . ؟

ـ من «العزلة» . .

ـ أنا من هناك . .

ـ من بيت «الجومري» . .

ـ نعم . . .

ـ هم أخوالي . .

ـ هذا من حسن حظي . .

ـ أأنت من أخوالي . . بيت «الجومري» . . ؟

ـ ربما . !

وانصرفت مهرولة، وما هي إلا لحظة حتى عادت ومعها والدتها صاحبة مقهاية «سمسرة السبيل» تلك المرأة الجميلة المشهورة حيث رحبت به بحفاوة . .

كان متعباً يريد أن يرتمي على جنبه لينام في أي وضع كان . .

لكن المرأة كانت نشطة وهي تلوك «القات»، والحيوية تكاد تنفجر من كل جسدها . .

فكّر كثيراً: لا يعقل أن تكون إحدى نساء أسرته «مقهوية»[1] . . وهم «رعية»[2] طوال الدهر! . لكنه تذكر حكاية هروب إحدى قريبات والده مع شخص كانت قد أحبته . . وكانوا في «العزلة» يعتبرونه غريباً . . كان شاباً وسيماً . . وكانت هي مخطوبة لأحد أقربائها . . «رعوي» أيضاً، لكنه لم يناسبها لكبر سنه، ولأن الجدري قد شوّه معظم جسمه ووجهه.

كانت حكاية على ما يذكر من صغره تحكى . . ونسيها ونسيتها الأسرة، بل و«العزلة»، ثم «بعدان» بأكملها . .

---

(1) مقهوية: صاحبة مقهى.

(2) رعية: فلاحون ـ مزارعون.

وأصبحت أسطورة شعبية متداولة كأسطورة «الدودحية»[1]..

* * *

«ليفربول»[2].. البرد قارس والضباب يتحول إلى رذاذ ثلج يؤذي الأنف والأذنين والأصابع المفروكة.. وأصوات المراكب القادمة إلى الميناء أو المغادرة له ترسل أصواتها المتقطعة.. إشارة الوصول إلى المغادرة المتعارف عليها، إضافة إلى إشارة وجود الضباب المخيم على الميناء والمنطقة..

أعاد جولته السادسة بالضبط على الرصيف نفسه ويداه في جيب معطفه الصوفي الرخيص الثمن الذي تدثر به فوق ثيابه العادية ليقيه لفحات البرد القارس والثلوج الهاطلة.. والدخان يخرج مع أنفاسه بكثافة تذكر فيها بلاده.. لم يعد يفرق بين دخان السيجارة الحارقة لشفتيه ودخان الصقيع القارس..

* * *

في «بعدان» وهو صغير عندما كان يخيم الضباب على الجبل ويسمونه الغمام أو «العمياني».. كان يعرف كغيره من أطفال القرية أن ذلك الضباب يسرق آذان الأطفال فينزوي في أسفل منزله المتواضع وفي حجر والدته بجوار «الصعد»[3] أو الفرن وبالقرب من البقرة والدجاج.. وهو مكان مظلم نهاراً لعدم توفر النوافذ ومعتم ليلاً أيضاً لوجود «قزازة» سراج بسيطة من صفيح العلب تنشر الصدأ الأسود أكثر من انتشار ضوئها..

* * *

فرك يديه واتجه صوب المدينة عسى أن يجد ملاذاً هادئاً يستقر فيه ليراجع مع نفسه قراره الأخير الذي اتخذه بمغادرة «ليفربول» نهائياً..

كان قد مضى على الباخرة التي يعمل بها شهر كامل وهي تحت الإصلاح في حوض السفن الملحق بميناء «ليفربول».. وقد علل الإبطاء في إصلاحها

---

(1) الدودحية: حكاية مشهورة في اليمن (حكاية حب).

(2) ليفربول: مدينة وميناء في بريطانيا.

(3) الصعد: الإتان

لوجود مركز الشركة صاحبة السفينة في المدينة نفسها. . وهذا ما كان يضحك له القبطان عالياً.

وقد طلب من القبطان السماح له بالعودة إلى بلده أو أن يتخذ أي قرار آخر يبعده عن «ليفربول». . وكان القبطان يثبط من عزيمته بنصائح هي أقرب إلى الأوامر الصارمة. .

ولكن ذلك لم يثنه عن تصميمه على مغادرة «ليفربول». . كان على موعد في اليوم التالي للسفر إلى البرازيل التي يقال بأن شمسها تسطع معظم اليوم، وهو ما يسبب اعتدال الجو معظم أوقات السنة. . وكان بعض زملائه قد اتهموه بالجبن لتوقعه دائماً أن تقوم الحرب. .

جالت في ذهنه كل تلك العقبات الوهمية التي تطرح لكي تحول دون سفره.

ابتسم. . لقد قرر واقتنع، حيث ضاق بالبرد والثلج والصقيع والضباب والأمطار الدائمة التي تكتم النفس. . ضاق بالملل والفراغ الذي يعيش فيه عاطلاً بلا عمل. . منتظراً إصلاح سفينته في حوض السفن المزدحم القريب من ميناء «ليفربول». .

اشتاق للشمس ولسعاتها على ظهره وهو يكبُّ على وجه الأرض يحرثها مع بقية أفراد الأسرة. .

اشتاق لرؤية النجوم المتلألئة وهو يقعد في السَّحَرْ فوق بركة الماء «المقضضة بالنورة» لكي يفجرها لتستقي حقول أسرته.

اشتاق لاستقبال الموانئ المختلفة التي تعطيه دفعات من النشوة واللذة اختزلتها ذاكرته مع مجموعة الذكريات الحلوة الغالية التي قلّما يلتقطها على مر الزمن. .

مسح بيده زجاج واجهة المقهى لكي يتأكد من انقطاع المطر وزمهرير الصقيع ورذاذ الثلج. .

كان قد طلب له مشروباً وبعض مزة من «الشبس» والسلطة.

في قريته تؤكل البطاطا بكميات كبيرة، حيث تسلق بعد أن تقطع إلى أنصاف، وتؤكل مع قليل من الفلافل والبهارات الحارقة وفطيرة ذرة يابسة.

هنا في «ليفربول» تقطع إلى أجزاء صغيرة وتغلى مع الزيت الحار ثم تقدم ناشفة ومالحة ويابسة.. !

كانت تجلس معه على المائدة نفسها، وهو لم يرها أو يعرفها من قبل.. ولم يحس بوجودها إلا هذه اللحظة..

اعتذر لها بأسلوب «يماني» محبب.. ففهمت..

فتاة في مقتبل العمر.. جلست في زاوية من المقهى بجواره بالذات لقرب مائدته من النافذة الزجاجية لكي تتأكد مثله من انقطاع المطر..

كان قد طلب ما يريد.. وهي تريد قهوة، وقد أكّدت على النادل بأن تكون قهوة يمنية.. «كوفي مخا».

كم أحس بالزهو وهي تنطق كلمة «مخاء» للنادل..

كانت القهوة مفتاح حديث بينهما.. فقال:

ـ هل تفضلين البن اليمني..؟

ـ نعم.. كوفي مخا أحسن قهوة مفضلة عندي!!

ـ أنا من «مخا»..

وارتسمت على شفتيها علامة تعجب، كأنها تقابل نجماً لامعاً من نجوم السينما أو كرة القدم..

خرجا معاً من المقهى وسارا في الشوارع.. كان المطر قد توقف.. لكن البرد ما زال قارساً.. وطال بهما السير.. شاهدا عدداً من المعارض وحوانيت البيع وملاهي وملصقات.. كان ظنه أن يوصلها إلى منزلها، فقد تضايق من البرد..

قال لها وقد تعبت قدماه وتقلّصت أطرافه وكان مستغرباً لأنها لم تتعب من السير في البرد القارس.. وهو البحّار والعامل:

ـ حان الوقت لإيصالك إلى منزلك.. !

لم تجبه.. فلم يحاول تكرار ذلك عليها.. تركها تسير بجانبه صامته.. لا يدري ولاهي إلى أين يسيران معاً..

قال لها وهما بجوار حديقة عامة خالية في مثل هذا الوقت:

ـ هل منزلك قريب من هنا حتى أوصلك إليه؟

لم تجبه أيضاً، بل جثمت على أقرب مقعد صادفها في تلك الحديقة وقد أزاحت ما علق به من ثلج.

جلس بحوارها.. تأملها ملياً وهي مطرقة لا تشعر بلسعة الهواء البارد كما يشعر به.. ليست بالغانية.. لكنها جميلة..

تحمل مسحة من جاذبية مملوحة محببة.. حلوة التقاسيم..

قصيرة القامة مثله.. لكنها شقراء.. وما أندر الشقراوات القصار!

* * *

قالت له وقد تم زواجهما واستقر بهما المقام الدائم في غرفة متواضعة في حي يسكنه عمال معظمهم من الملونين:

ـ السمراوات طويلات القامة أيضاً؟

ـ أنا لست إفريقياً..

ـ عجيب..

ـ يفصلنا بحر.. فأنا من قارة أخرى..

ـ هه..

ـ ومع ذلك فليس حكماً عاماً بأن تكون النساء الشقراوات أو السوداوات طويلات القامة..!

قالت بدلال:

ـ أنا نموذج لذلك..

ـ وأنا أيضاً..

ـ أنت ملاك..

ـ هه.. لا تغريني بهذا الوصف.. فأنا ملون..

ـ «كوفي مخا» سمراء اللون..؟

ـ ومذاقها؟..

ـ أعذب المذاق..

ـ حتى لو كانت مُرّة..؟؟

ـ نعم.. كم أحبها مُرَّة..

ـ عجيب يا فيلسوفتي العزيزة..!

ـ كم أحبك..!

ـ حتى لو كنتُ مُرًّا..!

ـ أنت أحلى من العسل..

كان حواراً مرحاً صمتا بعده قليلاً.. فقالت بأسلوب متسائل:

ـ لم تخبرني عن عسل بلادك..!

ـ عسل طبيعي.. من رحيق أشجار كلها تلسع اللسان..

ـ حلو..

ـ لا حدائق ورود ولا أزهار..

ـ طبيعي..؟

ـ نعم..

ـ حلو..

* * *

عبر به «سنبوك»[1] صغير بشراع «مرقع».. يقوده قبطان هزيل الجسم، ظهر ذلك من جسمه العاري.. لا يملك سوى إزار بسيط كإزاره القديم الرث يستره ما بين السرة والركبة..!

كان المعلم فقيه قريته يقول:

ـ العورة من السرة إلى الركبة..

وكان يحافظ على ذلك، وخصوصاً في أوقات الصلاة، بأن يظل مئزره الصغير ساتراً للعورة ما بين السرة والركبة.. كان قد سمع في يوم جمعة والفقيه يخطب في المسجد ويشرح بإسهاب قضية عورة الرجل.. سمع أحد الفلاحين يقول متندراً:

ـ الفقيه قد فصَّل العورة على قدر ما نملك من ثياب!.

---

(1) سنبوك: قارب شراعي.

وقد دهش أن وجد قبطان «السنبوك» القارب الصغير متقيداً بذلك الحديث الشريف.. من السرة إلى الركبة.. وتخيله قد درس عند فقيه القرية، رغم اختلاف لهجته.. ولكن يبدو بأن «داعي» الفقهاء واحد..!!

تهادى بهم «السنبوك» بين أمواج البحر المتلاطمة ليلاً ونهاراً.. كان يركب مع أناس لا يعرفهم وكلهم «بسنبوكهم» يتجهون نحو الساحل الغربي.

كانت الأمواج المتلاطمة موحشة تثير في نفسه الخوف.. فهو لأول مرة يعرف البحر وما هو البحر وكم حجمه وسعته!؟

كان يتخيل البحر عبارة عن بركة كبيرة واسعة لا يستطيع أن يقطعها سابحاً.. كبرك بلاده العديدة.. لكن هذا البحر الذي قضى فيه ليلاً ونهاراً.. طويل وعريض جداً وممل.. أزرق اللون وله أمواج هادرة مخيفة تتراكم برتابة وتكاد تلتهم «السنبوك» ذا الشراع المرقع والقبطان ذا المئزر الصغير من السرة إلى الركبة.. وقد دندن بصوته المبحوح بأغنية بحرية:

يا مركب «البس»[1] يابو دقلين..

شاسري بك البر والبحرين..

يا ليت انا كنت ربانك

والله يخون الذي خانك..

فجأة انهالت على «السنبوك» أمواج عملاقة سكت لها غناء القبطان المسكين وهلعت لها أنفاس الركاب المتزاحمين، وسمع صوت أزيز محرك هائل مرَّ بجوارهم فأحدث ذلك الموج انفلاتاً أدى إلى انقلاب «السنبوك» بمن فيه..

ودار الصراع من أجل البقاء.. وجد نفسه يسبح لا يدري إلى أين، وأمامه أناس يسبحون، بعضهم يصارع سكرات الموت وخلفه أناس يسبحون، كان أحدهم يتشعبط برجليه طالباً النجاة..

والقبطان المسكين ما زال منتصباً فوق ظهر «السنبوك» المقلوب، ثم

---

(1) البس: فرنسي صاحب أسطول بحري معروف في مدينة عدن قبل الاستقلال.

شاهده بعد فترة عراك مع القدر يهوي إلى قعر البحر تدريجياً.. وما زال يغني ويغني إلى أن ابتلعه الموج..

استلقى على ظهره يسبح.. فالسباحة على الظهر تعطي نوعاً من الراحة للجسم المنهك.. وشعر بصوت محرك هائل يقترب.. وبرجل أحمر اللون يرتدي لباساً بنياً قد جذبة إلى زورق ومده على ظهره وساعده على التنفس بأداء حركات لم يعهدها من قبل.. كنفخ الأنف وتحريك اليدين وتدليك الجانب الأيسر من الصدر...

كان الناجي الوحيد من ذلك «السنبوك».. أما البعض فقد التقطت جثثهم، والبعض الآخر التهمتهم الأسماك الوحشية أو أبعدتهم الأمواج إلى أماكن أخرى..

***

ـ عصب..؟!

ـ نعم.. «عصب»..

«عصب».. تلك المدينة التي راودت خياله دائماً منذ بدأ غيره من شباب القرية والعزلة والناحية يهربون إليها من الفقر والجوع الذي صنعه عساكر ومأمورو الإمام «يحيى»..

إذاً فهذه «عصب» المدينة الحارة والتي يتوفر فيها العمل له ولغيره من الهاربين من الجوع والمرض والفقر.. ذات شوارع فسيحة نوعاً ما عما شاهده في طريقه.. بندرها مزدحم ببواخر أكبر بكثير من «السنبوك» الذي غرق.. بواخر تحدث أزيزاً وصفيراً مدوياً عند وصولها أو مغادرتها..

مئات من البشر يتزاحمون.. كلهم من أبناء وطنه... يفرغون أو يشحنون السفن.. كم ود في تلك اللحظة أن يكون واحداً منهم لكي يستقر نفسياً..

جلس.. تذكر ما حدث قبل فترة بسيطة.. كان قد أحاط بهم «النش» بحري أكبر من قارب الإنقاذ الذي انتشلهم.. يئز بصوت مرعب ومزعج وقد علاه ثلة من الجند مدججون السلاح.. ودفع بقارب الإنقاذ إلى جوار الساحل وقد تكدس فيه أناس كثيرون لا يعرفهم.. فهم من بقايا الناجين من

القوارب «والسنابيك» المهاجرة «برعية» اليمن الهاربين إلى «عصب».

وبدأ حوار ساخن بين الحرس البيض حمر الوجوه وبين قائد قارب الإنقاذ الذي صاح قائلاً:

ـ أتعتقدون أنني أقدم لكم طاعوناً..؟! هؤلاء عمال أنقذتهم من البحر وتحتاجونهم..

تمشى وهو لا يدري ماذا يعمل.. يعرف أن بعضاً من أهالي قريته استقروا في «عصب» وكونوا حياتهم الجديدة فيها..

* * *

أنجبت الأول والثاني والثالث.. أما الرابع والخامس فكانا توأماً... ولد وبنت..

مسكينة الزوجة.. يرثي لحالها كل جيرانه مما أصابها من نحول وهزال غير طبيعي.. أما هو فمازال كما هو.. لم يتغير في شكله سوى زيادة في حمرة الوجه وصحة يكاد يكون حصاناً..

قال يوماً عجوز من «ليفربول»:

ـ أنت بغل..

ـ هذا إطراء لا أستحقه..

ـ لقد اكتسبت البرود الإنجليزي قبل اكتساب الجنسية..!

فتح للزوجة بقالة صغيرة.. كانت تقضي مع الأولاد معظم وقتها مشغولة.. أما هو فكان يجلس دائماً على باب البقالة يطالع الصحف ويبحث في طياتها عن أخبار سباقات الخيل لكي يقامر.. فقد صارت تلك هي هوايته وشغله الشاغل.. كان يفوز في معظم مراهناته على الخيل.. حتى في المدن البعيدة كان يسافر لكي يحضر أي سباق..

* * *

في «عصب» تسكع ككلب ضال جائع، يبحث عن أي فتات ولو في أي قمامة.. لا يملك أي شيء سوى مئزره من السرة إلى الركبة..

قادته قدماه إلى باب مطعم ومقهى.. شم رائحة مطبخ.. لم يجرؤ على الدخول، لكنه فجأة لمح وجه شخص يجلس داخل المطعم على كرسي وأمامه طاولة طعام صغيرة يأكل عليها.. شبهه.. ثم عرفه بعد طول تمحيص.. ونظر إليه ذلك الشخص ففغر فاه وقام نحوه..

تعانقا.. كان صديقه.. من قريته، وهو الذي أوحى له بكل خيال هذه الهجرة..

إنه «محيميد» بن علي الحاج..

أكل حتى شبع.. وحمد الله أن لقي صديق عمره.. لابد أنه في أحسن حال.. كان ثرياً.. هذا أكيد وإلا لما أطعمه كل تلك المأكولات الشهية الدسمة..!

كان صديق عمره نظيف الملبس أنيق المظهر، في صحة جيدة..

كان يتأمل فيه هذا الشكل الجديد لصديق قديم.. لكنه قطع أفكاره سائلاً:

ـ كيف حالك...؟!

ـ كما ترى.. لا أملك شيئاً سوى مئزري هذا الذي يستر عورتي.. من السرة إلى الركبة..

وضحك صديق العمر قائلاً:

ـ أما زال الفقيه حياً؟..

ـ نعم.. لكنه جُنَّ.. فقد هربت زوجته مع رجل من رأس «العزلة»..

ـ كانت جميلة.. أليس كذلك..؟

ـ وكان يضربنا لهذا السبب يا «محيميد»..

وتنحنح صديق العمر باستياء ثم قال:

ـ اسمي «محمد».. لم يعد «محيميد».. أصبح «محمد» هنا.. يجب أن تفهم ذلك..

واندهش لهذا التغير حتى في الاسم والذي لم يكن يتوقعه، فلملم أشلاء من شجاعته الصادقة وقال:

ـ «محيميد» هو «محمد»!.. هل أخطأت في شيء؟

ـ نعم.. لأن الأمور هنا تختلف عن القرية.

وهز رأسه موافقاً بتلقائية، محتفظاً بشجاعته الصادقة لوقت آخر. . فقال صديقه:

ـ وكيف أحوال البلاد؟

ـ كما هي. . جوع وفقر. . وعساكر و«مخمنون» و«مثمرون» و«كشافون»، كلهم جباة للإمام. . وموت أحمر وشرائع ومغارم وفروقات لا أول لها ولا آخر.

* * *

كانت الحرب قد حمي وطيسها وأصبحت بريطانيا العظمى في حالة رعب وذعر. .

أصبحت البقالة لا تفي بالغرض. . والأولاد قد كبروا. . والزوجة يوماً تضربه ويوماً يضربها. . وسباقات الخيل المحببة لنفسه قد ألغيت، فلا مقامرة. . هكذا أمر المستر «تشرشل». . !

وبين أزيز صفارات الإنذار ودويّ القنابل وأضواء الكاشفات والمناطيد المعلقة والخراب والدمار في كل مكان، جرب حظه في تجارة جديدة. . تجارة الأسلحة. . إلى أمريكا اللاتينية وإلى الشرق الأوسط والأدنى والأقصى. . ونجح. . !

وتسلطن كتاجر أسلحة. . وانتهت الحرب وقد أصبح ثرياً. . !

* * *

تعرف ذات يوم على امرأة ملونة. . لا يدري من أين قذفتها الحرب. . فيها أنوثة صارخة. . كان قد راهن على جواد خاسر فخرج من الحلبة مكتئباً واتجه إلى أقرب ملهى معتم في المدينة لكي ينسى خسارته التي مُني بها وينسى الزوجة والبقالة والأولاد الذين قد كبروا وأصبحوا يشاركونه. . كم يتألم اليماني لأي هزيمة يُمنى بها. . ويظل يؤمل في نصر يعوضها. .

كانت السمراء تغني بصوت شجي لا يمت إلى اللغة الإنجليزية الراقية بأي صلة. . لكن الصوت كان بنعومته وحلاوته يطغى على هذا العيب في نظر الإنجليز السامعين.

أما هو فسيان لديه. .

كانت السمراء تغني بين صخب السكارى وعدم اهتمامهم بها. . لكنه كان المنصت الوحيد تقريباً. .

* * *

في موسم الحصاد. . يقبل إلى القرية «الأخدام» السود الألوان. . يأخذون من «الرعية» الغُبر ما يجودون به. . يطبلون ويزمرون ويرقصون. . نساء ورجالاً وأطفالاً. . وكانت فتاة «خادمة» سوداء اللون ترقص حسب العادة بحركات أثارته. . مكتنزة الجسم، قوية البنية. . ذات حيوية وطاقة هائلة. . تكاد الأنوثة تتفجر فيها إذا ما لُمست. .

كم اشتهى ملمسها الناعم وأنوثتها الصارخة. .

أعطاها كمية من سنابل الثمر أكثر مما أعطاها الآخرون، فنهره أخوه الأكبر لإفراطه هذا وهو الحريص على أن لا تأخذ نملة سوداء أي حبة واحدة من الجرن. . وكان أخوه هذا يحارب العصافير أيضاً إذا ما حطت على سنابل الذرة. . ويحرس الليل بطوله وببرده القارس لكي لا ينال كلب جائع أو ثعلب ماكر أي عذق أو سنبلة من الجرن. .

* * *

قرر الزواج منها وقد وافقت على شرطه بأن تترك الغناء في ذلك الملهى الرخيص. . واستطاع تنفيذ الزواج باعتباره مسلماً وليس نصرانياً. . أما هي فلا تعرف أي دين تعتنق سوى الغناء. .

وترك الزوجة الأولى كما أرادت في المنزل وفي البقالة مع الأولاد الذين كبرت انتقاداتهم له أيضاً. .

* * *

في «عصب» قال له صديقه بأن النساء السوداوات يزلن مرض الكلى ويبرئن جميع أوجاع المعدة. . !

وتلمّس في صديقه منفذاً له ليس من مرض الكلى الذي يعاني منه ولكن من الفقر.

ونهض صديقه من على طاولة الأكل ولاحظه يتجه إلى طاولة صاحب المطعم.. وظنه يقوم بدفع الحساب.. لكنه لاحظ انسياب يده اليسرى من تحت مكتب صاحب المطعم ليأخذ ما استطاعت يده من ورق نقدي ويدسها في جيب بدلته الأنيقة، ويده اليمنى تخبط على الطاولة طالباً صاحب المطعم لكي يستلم منه قيمة ما تناوله..!!

وأقبل نحوه وهو يصلح من نفسه وخرجا إلى الشارع..!

كان يظن أن صديقه سيأخذه إلى منزله العامر لكي يرتاح..!

وانساقا معاً مشياً إلى ناحية بعيدة في شارع بعيد.. ولم يحاول سؤاله عما شاهده يفعل، فقد كذب عينه التي رأت.. فقال صديقه فجأة وقد توقف:

ـ هذا مكاني المفضل.

ـ لا أفهم..!؟

ـ بيتي ومسكني وملاذي...!

ـ أتعني هذا الطريق..؟

ـ اسمه رصيف.. وهو مأوى كثير من الناس..

ـ لكنني ظننت..

ـ الظن إثم.. هكذا علمنا الفقيه. أو قد نسيت؟!

لم يجبه وهو يتلفت حوله، وكم تمنى أن يعود إلى «سمسرة السبيل» وبين أحضانها الدافئة ولو بجوار روث الدواب..

وبدأ صاحبه بالفعل يصلح موضعاً له، وأشار عليه بموضع مجاور عليه أن يفرشه بباقي حصيرة من سعف النخل كانت مركونة على جدار بجوار علب من الصفيح..

* * *

جاب مع الزوجة السمراء عدداً من أقطار العالم.. ذهبا إلى «البرازيل» حلمه السابق.. وحصل هنالك على صفقة أسلحة خفيفة كسب منها الكثير. في الهند الصينية وكوريا.. حروب لا أول لها ولا آخر.. صفقات مثمرة

للثوار.. ولبعض ضباط وجنود الجيش الثوري الكوري.. وللصينيين الذين يتعامل معهم بعقلية البريطاني الخاضعة لفكرة حرب الأفيون..

كانت الزوجة متجاوبة معه في عمله ومغامراته.. وهي لا تنسى له الفضل بأنه أوصلها إلى «البرازيل» لتمارس حلمها في المشاركة في مهرجانات مدنها الشهيرة «وبكرنفالاتها» التي تعم الشوارع.. كانت تنشر شعرها وترقص وهو معها.. وتقطع المحيط الهادي معه بين أمواجه المتلاطمة على سفن تهريب تحمل الأسلحة..

* * *

لم يعد يرتجي من صاحبه الخير في شوارع «عصب» وخصوصاً بعد أن ورطه في سرقة من القاعدة العسكرية.. يقصون الأسلاك الشائكة ويدخلون إلى مخازن القاعدة ليأخذوا ما قلَّ حمله وغلا ثمنه.. كما في قصص وحواديث عجائز قريته..

كاد يتعثر أثناء مغادرتهما القاعدة فارين بعد أن تابعتهما الأضواء الكاشفة المبهرة للنظر.. ولولا مئزره الرث من السرة إلى الركبة لقبض عليه كما قبض على صاحبه وقد سمع أنينه الباكي..

وفر هارباً نحو الميناء بعد أن ترك ما بحوزته.. وعمل غسالاً في مطبخ إحدى البواخر بقوت يومه.

جاب معظم الموانئ.. ليستقر في «ليفربول» ميناء الضباب والأدخنة وصفارات السفن القادمة والمقلعة..

عالم جديد بهره في «ليفربول».

* * *

لا يدري كيف عاودته الذكرى المكثفة لصورة ابنة صاحبة مقهاية «سمسرة السبيل».. تلك الحلوة التي تمنى أن تكون زوجته..

كان يرى في بنات «البرازيل» شبهاً مطابقاً لها وهن يمرحن على الشاطئ «بالمايوهات».. يسبحن ويعدون.. لا فرق بينها وبينهن سوى أنها كانت بلا «مايوه» وبأنها كانت محمرة الوجنتين طبيعياً وبلا مساحيق.. وأكثر أنوثة حتى

من زوجته السمراء الغانية التي تعودت في الفترة الأخيرة ملء وجهها بألوان بشعة من الأصباغ يتقزز منها.. وقد تم الطلاق بينهما لهذا السبب.. وإن كان قد تعذر بحجة ميلها للعودة إلى الغناء، وترديدها في الفترة الأخيرة بأنه قد حجب عنها مجداً فنياً وشهرة عالمية بزواجها منه، وأنها ربما كانت ستصبح أكبر نجمة سينمائية في «هوليوود» لو لم تتزوجه...!

وعندما عادت إلى الغناء في الملاهي الرخيصة.. كان يتردد عليها بين حين وآخر لكي يسمع صوتها.. ولكي ينظر كيف اختارت أن ينتهي بها الأمر والمصير..

وكانت له منها ابنة سمراء جميلة.. وكان بطنها مكوراً أيضاً لا يدري ما يحمله من مفاجأة.. وقد أعطاها كل ما تحتاجه للطفلة وللقادم المجهول الذي ما زال مكوراً في بطنها..

* * *

تجول في أزقة «المخاء» بعد أن اطمأن على أشيائه في مقهاية حقيرة.

هذه إذا هي «المخاء» المدينة التي أحبته من أجلها الزوجة.. فتاة «ليفربول» أم الأولاد القابعة الآن معهم داخل تلك البقالة..

لم يعد هنالك أي أثر لتجارة البن « كوفي مخا».. حاول أن يبحث بدون جدوى.. لم يفهموا حتى اسم البن الشهير.. ولم يجد سوى بيوت مهدمة.. قد أكلها وغمرها التراب الناعم المتخلف من الزوابع.. ومدافع ملقاة كأنها تماسيح محنطة فاغرة أفواهها في كل مكان قد أكلها الصدأ.. لعلها من مخلفات «البرتغاليين» الغزاة أو غيرهم من الأوروبيين البيض.. حمر الوجوه.. ومآذن منخورة.. وفنار متآكل يكاد أن يهوي بأعمدته التي مضى عليها دهر منذ بناه الفرنسيون الغزاة أيضاً..

مسكينة زوجته التي قابلها منذ سنين في أحد مقاهي «ليفربول» والتي شغفت به لأنه من مدينة «كوفي مخا»..!!

غادر «المخاء» مع أشيائه بعد طول انتظار لسيارة الشحن الوحيدة التي تصل كل شهر لتنقل للإمام الجديد في «تعز» بعض أموال جبايتها من الرعية أو

بعض ذخائر وأسلحة مهربة يشتريها الإمام الجديد من تاجره المعروف المشهور الذي ينقلها من بعض موانئ إفريقيا.

* * *

من البرازيل نقل مع غانيته أسلحة عبر المحيط.. كانت تغني على ظهر ذلك القارب البخاري المزود بالأشرعة احتياطاً.. كان صوتها يتهادى ويعلو وينخفض مع علو وانخفاض الأمواج.. كانت قد اكتسبت ألحاناً جديدة.

* * *

وصل «تعز» عاصمة الإمام الجديد التي فضلها على «صنعاء» عاصمة والده الإمام الذي اغتيل قبل فترة وجيزة..

نام مع الجميع حتى الصباح خارج باب المدينة المقفل منذ غروب الشمس حتى شروقها.. واستأنف رحلته بكل همومها وأتعابها ومشاقها.. وتنقل من سيارة إلى حمار، ومن حمار إلى بغل..!!

كان شغله الشاغل المحافظة على سلامة صندوق الطرب والراديو..

في «إب».. لم يجد أي مكان يضع راحلته سوى مقهاية صغيرة داخل المدينة ذات الأزقة الضيقة المرصوفة بالحجارة الملساء والمكتظة بالمسافرين مع دوابهم وأشيائهم تذكره «بسمسرة السبيل» وصاحبتها وابنتها التي تمنى أن تكون زوجة له قبل سنوات..!!

تذكر أول مرة عرف هذا «النقيل» الكبير عندما أعطاه أخوه الأكبر بعض نقود لكي يشتري احتياجاتهم من الضروريات تكفيهم لشهر كامل..

الطريق صاعد إلى القمة.. مرصوف بالحجارة السوداء الملساء.. كان «المرحل» واسعاً ليستوعب المسافرين الصاعدين والنازلين بدوابهم المثقلة بالثوم والبصل.. وبأشيائهم الضرورية..

لعن السجائر والكحول وجميع النشويات وهو يلهث صاعداً «المرحل».. وقد طال.. استراح قليلاً تحت ظلال «طولقة» عملاقة أرخت فروعها على سبيل ماء «مقضض» بالنورة، وخصصت القبة لشرب الناس، وبجوارها بركة صغيرة

لتشرب الدواب.. وعبَّ من السبيل ماء بارداً نقياً.. وجلس..

* * *

عندما وصل إلى «سمسرة السبيل» كان الليل حالكاً ورجلاه وارمتين وقد عبَّ من ذلك السبيل المق حتى ارتوى.. لم يدفعه لدخول السمسرة إلا الخوف من «الطاهش».. وحبه لأن يرى صاحبه السمسرة ذائعة الصيت..

* * *

رحبت به كلاب القرية بنباحها الشديد وجاوبتها بأصوات منكرة الحمير وهي تسرع الخطى نحو القرية.. استثير لتلك الأصوات المتبادلة حيث شم عبق رائحة قريته.. وذكره بصفارات البواخر القادمة والمغادرة لميناء «ليفربول».

بعد أيام الحفاوة المفتعلة من أخيه وبقية أفراد أسرته عرف أوضاعهم وحالهم وما يعانيه أخوه بالذات.

«الشريعة» ما زالت كما هي مع غريمهم... «المخمنون» و«الكشافون»، وعساكر الأمير والعامل والحاكم تنهال على قريته كما كانت في أيامه..

لا شيء تغير سوى أن «قبة» الفقيه قد تهدمت، وأن بيت الله الصغير قد كسرت بعض أخشابه، مما أدى إلى تسرب مياه الأمطار إلى داخله..

وانتعش بيت الأسرة منذ وصوله، بل والقرية أيضاً التي لا يتجاوز عدد منازلها العشرة، هي كما هي.. منذ مئات السنين لم يضف إليها أي حجر جديد إلا مانقص منها..

والعساكر ما زالت تتوافد لضبط أخيه لإنصاف غريمه.. ودفع ما هو لبيت المال من بواقي وعشور وزكاة وقرضه..

ومر بحالة قلق لم يعهدها في حياته من قبل.. وتوتر أعصاب.. وتحولت بلاده الجميلة بجبالها ومدرجاتها الزراعية وقراها الناصعة إلى غابة مملوءة بالوحوش الكاسرة..

كم حاول في البداية أن ينصح أخاه بترك كل شيء والرحيل إلى مكان

آخر.. ولكن محاولته ذهبت سدى، فأخوه مصمم على الصمود لكل ألاعيب خصمه المتعنت..

أصبحت أعصابه متعبة لهذه الحالة التي وصل إليها، وكم تمنى لو أنه لم يعد إلى بلاده.. كل هذه السنين الطويلة منذ غادرها وحتى عودته وحالتها كما هي، بل وأسوأ مما كانت عليه..!

* * *

هذه المرة كانت الأوامر الواصلة مع العساكر واضحة بتسليم صندوق الطرب الذي يفسد الأذهان والراديو الذي يسرق العقول.

هذان الجهازان الدالان على الكفر الصراح..

- يا سيدي.. لم تعد مشكلة الأرض تهمني.. ولكن الأخ المهاجر في بلاد النصارى عاد ومعه صندوق طرب وراديو يفسد بهما المحل كله.

وقد اهتم العامل والحاكم بهذا الخبر الجديد..

سلّم الصندوق والراديو ودفع غرامة مالية ورشوة كبيرة للجند حتى لا يأخذوه إلى السجن.

وانتهى ما لديه من نقود وباع ما تبقى لديه من أشياء، حتى ملابسه، لكي يسدد عن أخيه أعباءه التي تراكمت بوصوله.

* * *

أحس بلذة عندما وجد نفسه تلقائياً بمئزر، ومن السرة إلى الركبة، كما علمه الفقيه في الزمن الغابر..

وانسابت قدماه نحو «السائلة» العظمى كما حدث له في الماضي.. تذكر يوم رحيله البكر..

وصاح به أخوه:

- إلى أين يا مجنون..؟

وتمهل قليلاً وفي مخيلته «سمسرة السبيل» وصاحبتها وابنتها الجميلة التي كان يود أن تكون زوجاً له.. قال مجيباً:

ـ «عصب» . .

ـ «عصب»؟؟

ـ نعم . .

ـ لقد انتهت «عصب» منذ سنين . . !!

ـ لم تنته يا مجنون .

والتقفته رهبة الجبال المشرفة على الوادي . . وسمع صوت أخيه يقول بصوت مبحوح :

ـ خلف الشمس بخمس . . . ؟!

صنعاء 15/ 11/ 1981م

المجنـون

همدت القرية مع إطباق الليل كغيرها من قرى الجبل وسفحه وسهله ووديانه.. لا صوت لمخلوق حي سوى نباح بعض الكلاب الجائعة تريد إثبات وجودها عند أصحابها لتنال بعض نفايات حقيرة من بقايا أقراص الذرة اليابسة.. وبعض أغانٍ جميلة حزينة تتصاعد من الأدوار الأرضية للمنازل من نسوة يقمن بطحن الحبوب على المطاحن الحجرية.. مع بصيص من ضوء صادر من مصابيح صدئة قديمة تُشْعَلُ «بالصليط».

القرية.. توحي بالكآبة كأنها جاثمة عليها.. مسجدها الأثري المنزوي في بقعة خارج القرية يزيد من عمق الكآبة بمياهه الآسنة داخل بركة «مقضضة»[1] بالنورة تنبعث منها رائحة عفونة صادرة عن ذلك الماء الراكد..

أنظف وأجمل ما في القرية هواؤها النقي، وصفاء سمائها وسطوع شمسها.. وذلك القمر البازغ الآفل الذي يلقي بضوئه البارد الشاعري الجميل في فترات خفوته المحبب إلى النفس.

***

خرج «حُمادي» من زاويته التابعة للمسجد كعادته في مثل هذا الوقت من الليل.. وعند حلول هذا السكوت المؤقت.. توضأ على حافة البركة وطرطش بالماء الأخضر العفن بإعجاب.. ثم استلقى على الصرح المرصوص بالحجارة التي يتخللها ذلك القضاض من النورة الصلبة التي مضى عليها أكثر من مائة عام.. كان الصرح بارداً كبرود عقله..

قام بأداء طقوس العبادة بحركات مضحكة، وكانت تلك هي صلاته المعتادة.. ثم خرج وقد وارب باب صرح المسجد ولم يتجه نحو القرية بل اتخذ طريقه نحو «مجران»[2] القرية.. كانت النشوة قد غمرته وسكنت كل

(1) مقضضة: مبلطة بالقضاض. (2) مجران: جرن ـ بيدر.

أحاسيسه بالبهجة. . تلك الليلة المقمرة الساكنة الباردة المثلجة للصدر والقلب والجسد النحيف.

* * *

انتهى موسم الحصاد. . وأصبحت «المجارين» في كل قرية من قرى الجبل بسفحه وسهله ووديانه ملأى بكل أنواع الذرة من مختلف الألوان. . وقد صارت أكواماً. . كل كوم منها يختلف في حجمه بنسب متفاوتة تدل على أن هناك من يملك أرضاً كثيرة، وعلى أن آخرين وهم الأغلبية يملكون أرضاً أقل. .

الجو صافٍ. . والفزع يشغل عقول المزارعين من أن تهطل بعض الأمطار الخفيفة فجأة فتؤثر على المحاصيل المكوَّمة وتفسدها، وقد تؤدي في بعض الأحيان إلى إنبات الحبوب في سنابلها المعرضة لحرارة الشمس ولفحات الهواء لكي تكون صالحة للدرس.

كان «مجران» القرية الواقع في جزء من مقبرة «موقوفة»[1]، واسع الأرجاء كميدان فسيح بحشائشه الخضراء المنسقة الصلبة، بعد أن أجهد أهالي القرية أنفسهم، شأنهم في كل عام، في تنظيفه من بعض الحصى العالق بالعشب الأخضر لكي يكون نظيفاً وخالياً من الأوراق الجافة وذرات التراب الصغيرة. .

تُجمع في ذلك المجران كل محاصيل أهالي القرية في وقت واحد، وكان كل فلاح قد وضع محصول أرضه في مكان معلوم ومعروف من المجران، بحسب العادة المتوارثة، كان المحصول محاطاً برزم معصوبة من قصب الذرة لكي لا تشذ سنبلة من كومة إلى أخرى. . الأكوام ذات الحجم الصغير هي الأكثر وهي السائدة. . أما الكبيرة جداً فهي قليلة، ومع ذلك فهي تطغى بمساحتها على تلك الأكوام الكثيرة العدد.

توجد في المجران أيضاً أنواع مختارة من السنابل بعيدانها مرصوصة إلى جوار كل كومة صغيرة أو كبيرة بأعوادها المعقوفة قد خصصها المزارعون لتكون بذوراً لسنة قادمة. . إنها منتقاة من السنابل الجميلة والكبيرة والأكثر صحة.

في القرية. . يوجد الشيخ. . . وكومته معروفة في المجران بكبر حجمها

---

(1) موقوفة: تابعة لأملاك الوقف الإسلامي.

واحتلالها لمساحة واسعة.. كذلك يوجد «عدل القرية» وكومته تقارب في حجمها كومة الشيخ..

يوجد أيضاً في القرية «العاقل» وبعض «الأعيان» من كبار المالكين وتأتي محاصيلهم بعد الشيخ والعدل. وفي القرية فقيه القرية الذي يقوم بتدريس الأطفال.. وله مردود لا بأس به من المحصول قد كوَّره في كومة منحازة على جانب من المجران.

هؤلاء يحتلون بمحاصيلهم المساحة الثانية من المجران.. أما بقية المساحة فهي مخصصة لصغار المزارعين ملاكاً أو أُجراء أو شركاء.. حيث تشكل كومات محاصيلهم أحجاماً صغيرة متفاوتة نسبياً..

ثم تأتي في زوايا المجران بعض الأكوام الأصغر حجماً ربما لا تلفت النظر.. وهي لفئة «المزاينة»[1] «والدواشين»[2] و«الأخدام»[3] وهذه الفئة تحصل على تلك الغلال من عملها الذي تؤديه لسكان القرية طول العام.

إن مجران القرية في مثل هذا الوقت من العام يبدو وكأنه قباب متنوعة الأحجام لجامع عثماني في «إسطنبول»، قباب كبيرة وقباب صغيرة.. وأخرى أصغر فأصغر لا تكاد ترى.

«حُمادي» «المجنون» هو ابن فقيه وقور من القرية.. كان والده قبل أن يرحل عن الدنيا معلماً وكاتباً موثوقاً به عند أهالي القرية والقرى المجاورة.. بل لقد امتدت شهرته إلى أطراف بعيدة من الناحية.. وجعلته شهرته بالأمانة والصدق يتفوق على كل فقيه آخر.. فالوثائق التي يحررها معتمدة عند كل مسؤول في الحكومة والقضاء..

لكن أهالي القرية كانوا يرددون بعد وفاته «ذروة الفحل نحل».. وهم يشيرون بذلك إلى «حمادي» المجنون.

الليل عميق بسكونه وهو يتهادى إلى نهايته.. كل فلاح قد قبع في عريشته المصنوعة من سيقان الذرة يحرس محصوله المكوَّم في الجرن الكبير من جيرانه ومن الكلاب والثعالب والقنافذ المسلحة بدروعها الشوكية المخيفة.

---

(1) المزاينة: الحلاقون والجزارون وقارعو الطبول.

(2) الدواشين: النَّوَز.. وهم يقومون بدور الإعلام في أوساط القبائل.

(3) الأخدام: فئة من المجتمع ذات أصول زنجية.

ما قبل نهاية الليل وبداية النهار يكون التعب قد أصاب الجميع، فيخلدون إلى النوم ساعة واحدة بعد أذان الفجر ليقوموا قبل أن تطل الشمس بأشعتها على الجرن . .

وإذا كانوا قد أخلدوا إلى النوم المتقطع بعضاً من الوقت أثناء الليل، فإن كل واحد يخفي ذلك عن صاحبه في الصباح حتى لا يسخر منه ويتهمه بالتقصير . . وعند طلوع الشمس بأشعتها يقومون بنثر تلك الأكوام المكدسة من السنابل لكي تستقبل أشعة الشمس الدافئة التي تتبخر من خلالها قطرات الندى وما علق بتلك السنابل من لدونة رطبة في ليلة مقمرة.

وفي الأصيل يقوم الجميع بتكويم السنابل من جديد بشكل هرمي لكي لا تتأثر ببرودة الليل وندى الصباح الباكر واحتمال هطول رذاذ من المطر.

* * *

بدأ الليل ينحسر . . «حُمادي» ما زال ساهراً داخل قبة ضريح الولي الصالح المشهود له بالتقى والسيرة الحسنة والمعجزات الخارقة . . قبة الضريح تطل على جرن القرية . . مقضضة بالنورة منذ مئات السنين . . وقد علقت بها أشجار بذرتها الطيور، فنمت وترعرعت وبدأت جذورها تشقق القبة وجدرانها، مما أدى إلى تسرب مياه الأمطار . . بعض الطيور تعشعش في أخاديدها أو تصنع لها أو كاراً . . يتوسطها من الداخل قبر الولي، وبجانبه كما يقولون قبر زوجته الطاهرة النقية الشابة ذات الحسن والجمال . .

وعلى سطح القبة نمت أيضاً بعض الشجيرات التي أصبحت فيما بعد أشجاراً كبيرة . . وفي باحة القبة توجد بركة مقضضة قديمة كقدم القبة مملوءة بمياه الأمطار . . تحف بها زهور ورياحين ونباتات ذات روائح ذكية . .

يحيط بالقبة وساحتها وما فيها سور من الحجارة قد تسلقته الأعشاب الشوكية وبعض الزهور البرية المتوحشة . .

* * *

كان حمادي يقبع داخل القبة بجوار ضريح الولي . . يمضغ القات وأمامه مسرجة من رخام منحوت يعلوها «قمع» سراج متسخ ينفث دخانه الأسود . .

يبتسم لأي سبب. وبدون سبب أيضاً.. البسمة لم تكن تفارق شفتيه.. ذلك ما كان يحببه للناس.. كانت القبة هي حياته.. صنع منها مرقداً ومأوى، وجعل في صدرها زاوية للتفكير والتأمل.. وكان في بعض الأحيان يرسم على جدرانها آيات ونقوشاً بديعة..

وكان دؤوباً على تنظيف مدخلها وكل ما يتصل بها من مرافق..

* * *

في يوم مطير، استمر من الصباح حتى المساء، شعر «حُمادي» بأن القبة رغم قدمها وإتقان بنائها لن تصمد..

فالمطر المستمر قد تسبب في توسيع الشروخ، فتساقطت مياه المطر بكثرة.. وحدثت أضرار أخرى أهمها ذلك الشرخ الكبير في مقدمة القبة القائمة على الباب..

وأصبح الدخول والخروج من باب القبة نوعاً من المغامرة بالحياة انتبه له حمادي بالفطرة، فعمل على إصلاح هذه الأضرار بجد ومثابرة متحلياً بابتسامته المحببة..

كان يتذكر عمله هذا الذي مضى عليه زمن طويل بإعجاب ويشعر بالزهو كلما تذكره..

* * *

كان القمر ساطعاً، وحمادي يتجه نحو جرن القرية والابتسامة المحببة تعلو شفتيه.. كان يقف لحظة إثر أخرى قبل أن يواصل مسيرته نحو الجرن..

يداه تصفقان بحركات راقصة.. وجسمه النحيل يهتز وهو يسير بأداء راقص متناسب مع موسيقى يديه.. إنه يدور حول نفسه عدة مرات حتى يقع على الأرض ويركع على ركبتيه القويتين.. ثم ينهض والابتسامة قد تطورت إلى ضحكة عالية مدوية تعلو وتنخفض..

أصبح يشرف على مدخل الجرن.. كل شيء هامد.. والابتسامة ما زالت تعلو شفتيه مصبوغة باندهاش، كأنه اكتشف على الفور منجماً من ذهب أو حقل بترول..

واندفع نحو الجرن بكل طاقته..

* * *

كان الشيخ قد كلف الفقيه المؤتمن والد «حمادي» بإخراج الحبوب من «مدفنه» العميق الواسع المملوء بالحبوب، وكَيْلِهِ للجائعين والمحتاجين بالثمن الذي فرضه وحدد سعره الشيخ..

كان المدفن قد مضت عليه سنتان منذ اختزانه غلال الشيخ من الذرة..

وكان حمادي طفلاً في ذلك الوقت يذهب مع والده إلى كل مكان يذهب إليه.. لا يفارقه..

ونزع الفقيه حَجَرة ثقيلة مربعة الأضلاع.. هي فتحة المدفن.. وتأكد من ختم الشيخ المعروف على زاوية من الحجر..

وهبط الفقيه.. والد«حُمادي».. بحبل لكي يكيل حبوب الشيخ الكثيرة للناس بالسعر الذي حدده الشيخ..

* * *

بجوار مبنى القبة كان يطيب لحمادي أن يتأمل حركة النمل وهي تنقل مؤونتها من الطعام وقد اشتقت لها طريقاً طويلاً بين كل المعوقات..

تذكر والده.. كان كواحدة من هذه النمل.. هبط إلى جوف المدفن ولم يعد مطلقاً.. مات لعدم توفر الهواء.. أطبق الشيخ وحاشيته عليه بحجر فوهة المدفن..

* * *

الدنيا هامدة.. عندما توسط «حُمادي» جرن القرية لم تنبح الكلاب التي تتسلل لسرقة سنابل الذرة لأنها خائفة من العقاب..

كل كلب يأخذ سنبلة رغدة بفمه ويفر هارباً بين مخابئ السائلة وجدران الحقول المدرجة والمرتفعات الصخرية.. القمر يشع بضوئه الفضي.. لا سحابة قائمة تحجب ضوءه.. فالسماء صافية، والنجوم تكاد تكون مسارح براقة بجوار القمر.. الابتسامة المحببة ما زالت على شفتيه، ونظره يتجول بين أكوام الذرة المتنافرة الأحجام..

هذه كومة كبيرة.. وتلك صغيرة.. وأخرى أصغر فأصغر..

وانهال بكل طاقته وقوته على الأكوام المتفرقة يساويها بيديه لكي يدمجها مع بعضها البعض وتصبح كومة واحدة.

العرق يتصبب منه وهو منهمك في عمله.. عروق يديه انتفخت.. أنفاسه تلهث.. عيناه تبحلقان.. والابتسامة المحببة ما زالت على شفتيه..

وتوقف بعد وقت من الجهد المبذول لينظر إلى الجرن الذي أصبح كومة واحدة..

* * *

كان حمادي قد اتخذ مكاناً قريباً عندما بزغ الفجر.. ليشرف منه على الجرن.. وشاركته في ذلك بعض الكلاب والثعالب والقنافذ ذات الأشواك المخيفة..

ذلك الجرن الذي أصبح كومة واحدة مملوءة بسنابل الذرة.. الابتسامة المحببة ما زالت على شفتيه.. وفجأة أزعجه الصياح والهرج والمرج والبكاء والنواح والشجار أيضاً..

نظر حمادي إلى الجرن وقد اكتظ بجميع سكان القرية.. كلهم الصغار والكبار.. الطفل والمرأة والعجوز.. كلهم مشدوه لمنظر الجرن وما حل به.. وتطورت ابتسامة حمادي المحببة لتصبح ضحكة عالية مدوية.. تلقفتها الجبال والسهول والوديان بصدى عجيب كأنه ترانيم صلاة في مسجد أو كنيسة أو معبد.. أو قاعة موسيقى...!

صنعاء 25/ 10/ 1984م

الفتى «مبخوت»

- مبخوت.. يا مبخوت.. على أبوك لعنة اللّه..!

- وأبوك..!

- «لَقِنْ»[1]..!

- ماذا تريد..؟

- يا اللّه رضاك.. أطلب اللّه من الصباح الباكر..؟!

- كل شيء لديك..!

- خنزير..!

- وعق والديه!..

- صحيح.!

- وإياكم!!

وحرك بائع «البرعي»[2] ملعقته الخشبية داخل قدر «البرعي» النحاسية الكبيرة المتسعة من أسفل والضيقة من أعلى، والتي تتصاعد منها الأبخرة بفعل الحرارة الموضوعة تحتها تلهب الأنوف وتستدعي الزبائن للتزاحم..

كان بائع «البرعي» فعلاً مشغولاً بقدره النحاسية وبتنظيف الأواني الفخارية، وبعضها قد تحولت إلى أوانٍ بلاستيكية حديثة يغسلها ويضع للزبائن كلٌ حسب قدره من الطلب بحسب ما دفعه.

وكانت مهمة الفتى «مبخوت» تجميع الأواني الفارغة من الزقاق والحارة، ومن أمام حانوت بائع «الزلابياء» وبائع «القنم»[3].. ومن أمام حانوت بائع الكباب المغلي بالزيت..

---

(1) لقن: وقح

(2) البرعي: بسلة مطبوخة بلون رمادي.

(3) القنم: الكفتة.

ـ مالك اليوم يا مبخوت..؟

ـ.. العجوزة الكاهنة..!

ـ من هي؟

ـ بائعة «الكدم»[1]

ـ إتركها في حالها يا مبخوت.. وانتبه لعملك..

ـ.. ملعونة..

ـ إتركها يا ابن القذر!.

ـ ما قذر إلا أنت..

ـ عفا اللّه عنك.. انتبه إلى عملك!

ـ ملعون أنت وهي، لن أهتم بالعمل قبل أن أصفي حسابي معها..؟

ـ يا فتاح يا عليم..! مالك اليوم «نزق».

ـ.. قلت لك العجوز الكاهنة بائعة «الكدم»..!

ـ نحن وإياها دائماً، يا مبخوت!.. ماذا حدث اليوم؟

ـ اتهمتني القذرة بالسرقة..!

ـ حسّنْ ألفاظك «يا مبخوت».. وانتبه إلى عملك..

ـ لن أعمل شيئاً حتى أصفي حسابي معها، هذه العجوز القذرة..

ـ عيب عليك يا مبخوت.. أطلب اللّه وقل يا عليم من صباح الصبح..

كان الحوار ساخناً.. لم أعهده من قبل.. فأنا زبون دائم.. أتجه كل صباح إلى بائع «البرعي» القابع في حانوته القديم الضيق.. كأنه زنزانة تذكرني بالحبس الإنفرادي.. ومع ذلك فقد طاب لي هذا الحوار الساخن النزق بين الفتى «مبخوت» ورب عمله «العم» بائع البرعي..

الفتى «مبخوت» لم يبلغ الحلم.. تأملته اليوم ملياً لأول مرة..

لم يكن يخطر على بالي من قبل.. كنت أنشه وأنا أزاحم لأخذ إنائي من

(1) الكدم: نوع من الخبز المتنوع الحبوب، خاص بالجيش.

«البرعي» وكأنه كالآخرين.. مجرد حشرة هامشية أو كتف بشر من الهامشيين المتهافتين على باب الحانوت الضيق..

حتى بائعة «الكدم» العجوز الرابضة بشوال «الكدم» أمام باب حانوت بائع «البرعي» لم أهتم بها أيضاً منذ طاب لي شرب «البرعي» الحار بالزعتر والكمون والبسباس الحارق.. حتى هذه اللحظة..!

ما ألذ رشف «البرعي» الحار بالبهارات في صباح يوم شتوي بارد وقارس..! الأكف تحتك والأفواه تُخرج شبه ضباب، والأنوف حمراء، والأرجل مشققة..

يموت الذباب في باب «السباح» هذه الأيام وتعيش بعض الصراصير بين مزالق الأبواب الخشبية للحوانيت..

فباب السباح معدة صنعاء.. فواكه وحلويات ومخابز ومجازر لبيع اللحوم وذبح الدجاج الحي.. ومعسكر لعمال البلدية من «الأخدام» ومحطة لبيع التنباك «التهامي» و«السارعي» بكل أنواعه.. وباعة من صغار السن متجولين وباسطين بضائعهم الرخيصة على جميع أرصفة باب السباح..

الفتى «مبخوت».. صبي يافع.. مليح الطلعة.. وسيم المحيا.. قوي البنية.. لا هو بالثخين ولا بالنحيف.. جميل الوجه.. ذو أنف بديع التكوين يعلوه حاجبان شجاعان غامقي السواد.. وذقن حادة التكوين ووجنتان حمراوان بشقوق واضحة من أثر الصقيع..

سليط اللسان، تلمع عيناه وكلماته بالذكاء.. معتمد على نفسه.. لا يعرف له أصل ولا حسب ولا نسب.. ولا من أي منطقة هو..!

فلهجته تختلف عن كل اللَّهجات المستعملة والمتداولة الصادرة من عشرات من خلق اللّه أمام حانوت بائع «البرعي».. إلا أن شكله وطبيعته ونزقه وكل السمات تدل على أنه يمني.. وربما من باب السباح أيضاً..

يستهويه ويروق له أن يلبس بنطالاً من «الجنز» الأزرق و«بلوفر» من الصوف «المحلي».. وحذاء رياضياً.. يبدو أنه يلعب به كرة القدم مع أقرانه بعد الظهر.. وشعر رأسه طبيعي كما خُلق.. يرقد عليه عشرات الأيام من دون

أن يمسه ماء أو مشط.. ومع ذلك فهو مجعد مغرٍ حتى لعدسات السائحات الأجنبيات الداخلات إلى صنعاء القديمة من باب «السباح»..

الفتى «مبخوت».. سريع الحركة.. نشيط في إعادة الأواني الفارغة التي يتركها الزبائن أمام باب بائع «الزلابياء» أو بائع «القنم» أو بائع الكباب.. ويلاحظ إعادتها من ممرات الأزقة المتفرعة والخبز والزلابياء من الأرض خوفاً من تدنيسها بالأقدام، ويعتقد بأنه سوف ينال أجراً عند اللّه في الآخرة..!

ـ يا «مبخوت».. اتق اللّه. مالك اليوم «قتر»..؟

واغتاظ الفتى «مبخوت».. وأجاب صائحاً بألفاظ نابية..

رشفت ما بقي من مدرة البرعي المخلوط بذرات من مسحوق الزعتر والكمون والبسباس اللاهب.. وهززت الإناء بيدي لأبرد ما تبقى من نطف وحبوب، وأنا أتمنى أن أشرب المزيد.. وأثناء ذلك قدم الفتى «مبخوت» مسرعاً فاصطدم بي واندلق بعض بقايا «البرعي» على ثيابي.. في الحقيقة تألمت لأنني ذاهب إلى العمل والوقت قصير جداً لكي أعود إلى منزلي وأغير ثيابي..

لم يأسف الفتى «مبخوت» لخطئه.. وإن كان بائع «البرعي» قد صاح به قائلاً:

ـ عليك اللعنة يا مبخوت..

ـ وإياكم..!

ـ وسخت ملابس «المدير»..

ـ هو السبب..

ـ عيب عليك!.. شاهدت ذلك بنفسي..

ـ مديرك.. كان سابحاً..!

ـ على أبوك اللعنة..

ـ وأبوك..!

وابتسمت رغم ذلك!

وحرك بائع «البرعي» الملعقة الخشبية داخل القدر النحاسية بعنف ثم نظر إليّ يطلب مني المسامحة والغفران.. فأعطيته إشارة بذلك، فما كان منه إلا أن ملأ لي «مدرة» أخرى من «البرعي» تناولتها ورشفتها..

ـ . . مبخوت.

ـ . . نعم . . ؟

ـ صلي على النبي . .

ـ أقسم لك بالله بأنني أصلي عليه كل يوم . . إلا هذا اليوم لن أصلي عليه لأنك طلبت مني ذلك . .

ـ يا ساتر . . أعوذ بالله . . مالك اليوم . . ؟!

ـ . . قلت لك . . هذه العجوز القذرة . . بائعة «الكدم» . . اتهمتني بأنني تحايلت عليها . . وسرقت الكدم . .

وصاحت العجوز بصوت خفيف ساذج قائلة:

ـ نعم . . «الكدم» ناقصات فقد عددتها . .

ـ وما دخلك بها يا «مبخوت» . .

ـ عملت خيراً . .

ـ . . انتبه إلى عملك . . مالك ومالها . . ؟ : !

ـ . . . عهدت إليَّ بأن أبيع لها «الكدم» أثناء غيابها . . وكنت أظن أن مغصاً أصابها أو حاصرها «البول» . . هذه الملعونة . . !

ـ نقضي حاجتنا في بيتنا يا وسخ . . وأنا ركنت عليك بالذمة والأمانة . . .

وبكت العجوز متشنجة كأنها طفلة:

ـ يا قليل الذمة والأمانة . . لقد خسرت يومي . .

ـ من قال لأبوك أن تخسري يومك . . ؟

ـ ذهبت أقطع «البطاقة» . .

ـ من تكونين يا مجنونة . . ؟

ـ «شلعة» بنت «محاسن» . . !

ـ على أبيك وأمك اللعنة . . !

ـ وأبوك يا خائن . .

ـ لم أخنك . . !

ـ بل خنتني . .

وصاح بائع «البرعي».. يريد أن ينهي الموضوع:

ـ وهل قطعت البطاقة..؟

ـ لا.. لم أقطعها. بل قطع رزق يومي..

وعلق الفتى «مبخوت»:

ـ حرام أن يعطوا بطاقة لمثل هذه الحشرة..!..

وتشنجت العجوز صائحة:

ـ حرام أن يعطوها لك.. يا.. زنوة..!

وهاج الفتى مبخوت وتحول لون وجهه إلى لون أسود كالح محروق، وصاح زاعقاً بأعلى صوته:

ـ أنا «مبخوت» يا مجنونة..!

ـ زنوة..!

ـ كذاب أبوك يا عاهرة..

ـ وأبوك..

وهوى الفتى مبخوت، بكفه، بصفعة قوية على خد العجوز رددت صداها بيوت الأزقة المتفرعة في باب السباح، وقذف بقدر «البرعي» النحاسية إلى الأرض وبإناء «الكدم»، وهاج كأنه ثور محاصر.. وتحول مدخل باب السباح إلى ساحة معركة.. وعلا الهرج والمرج والفوضى.. واستطعت أن أنفذ بجلدي وببدلتي المتسخة، والفتى «مبخوت» ما زال يجندل ما حوله من «الغيلان» كأنه سيف بن ذي يزن أو عنترة بن شداد...

صنعاء: 16/ 1/ 1983م.

بائعة الذرة

صعقني من بعيد بريق عينيها وهي تقف في مدخل سوق «القات» تبيع كيزان الذرة «الرومي» المشوية . .

صرت مشدوداً إليها بكل حواسي وبكل عواطفي المرهفة المشيدة من عالم الخيال الجميل المحبب . . الخيال الذي أشعر بأنه حياتي فإذا انقطع نبعه لا حياة لي بدونه .

تتقرفص على ناصية الشارع الرئيسي المؤدي إلى حارة سوق القات . . في يدها اليمنى مروحة من سعف النخيل تمروح بها على الفحم ليشتعل ويدها اليسرى تقلب بأناملها كيزان الذرة . .

العرق يتصبب من جبينها الفسيح وتنسكب بعض قطرات ندية منه على خديها المحمرين الممتلئين بنضارة طرية مخضوبة بالفتنة الشهية . .

ـ بكم؟

ـ بريال .

وتجتهد يدها اليمنى بالحركة تهب بالمروحة على النار وكيزان الذرة . . .

ـ بكم؟

ـ بريال ونصف .

ـ نعم؟

ـ ألا تراه؟ أخضر رغد . . شباب . . ممتلئ!

ويزداد نشاط يدها اليمنى بالمروحة على النار التي بدأت تصدر لهيباً تحت كيزان الذرة التي تقلبها على كل جانب .

ـ بكم . . ؟

ـ بريالين . .

ـ بريالين . . ؟ صغير جداً!

ـ أرضعته أمه وهي واحم..!

ـ لو عددتِ حباته لوجدتي أن كل حبة بفلسين!

ـ وهل تعد الفلوس؟

ـ ولم لا أعدها؟

ـ بخيل..!!

* * *

عشرات من نماذج البشر يسألونها فتجيب، ويدفعون فتعطي، كل حسب رغبته وذوقه..

* * *

كل يوم أسرق من الوقت سويعات لأجلس أمامها مباشرة، إذا كان مزاجها رائقاً، أو بجوارها أستمتع بحوارها اللاذع مع زبائنها الكثيرين..

فيها شموخ وكبرياء تكسر حدتهما مرونة محببة..

لقد اختارت مكاناً على الرصيف الرئيسي البارز للشارع الكبير على مدخل سوق القات المتفرع من الشارع الكبير..

يجلس بجوارها عن بُعد بائع الفول الأخضر.. وبائع العتر «البسلة الخضراء».. والثالث بائع البلسن «العدس الأخضر».. وخلفهم جميعاً تعج سوق القات بعشرات ومئات من «عشاق التخزين»[1]..

رغم أن «اللثمة»[2] تغطي معظم وجهها فلا يكاد يظهر منه سوى العينين الواسعتين المكحولتين «بالإثمد»[3].. فقد استطعت تحديد ملامح الجمال الذي تمتلكه من خلال إمعاني الدائم إليها منذ عشرات الأيام والأشهر ولعدة سنوات.. مليحة!؟ فعلاً.. أتذكر بأنني في يوم من أيام عطلي الكثيرة كموظف.. بكرت بالحضور إلى مكانها قبل أن تصل.. تربعت في مكاني المعتاد المواجه لها مباشرة.. وقد توافد بائعو القات والخضروات الأخرى

---

(1) عشاق التخزين: المخزنون بالقات بعد الظهر الذين يتزاحمون على شراء (القات).

(2) اللثمة: النقاب.

(3) بالإثمد: مسحوق معروف تكحل به العيون للزينة وربما للعلاج.

الرخيصة الثمن.. وكلٌ قد تزاحم في موقعه.. وتشاجر بعضهم البعض كالطيور الغادية إلى أوكارها.. أو كالذئاب المفترسة حول ضحية في الخلاء.. كلٌ يريد أن يستقر في الموقع المناسب أو ينهش من الجانب الرغد.

كان الشجار عنيفاً كما يحدث عادة.. لكنه في النهاية يتوقف.. الكبير يفرض إرادته والصغير يرضخ.. بما قدر له.. ولديه أمل في عدالة السماء مستقبلاً..

كان موقع مكانها في الرصيف المكتظ هو الوحيد الخالي والذي لم يدر حوله الشجار.. لم يقترب أحد منهم نحوه.. كأنه محراب مقدس.. تحرسه وتحميه هالة ضخمة من عبق الماضي وأمل المستقبل..!! وأقبلت.. تهز الشارع.. على رأسها شوال كيزان الذرة، وبيدها موقد من الفخار ومروحة مزركشة من سعف النخل.. وشوال صغير يضم عدداً من قطع الفحم..

بانت لي تماماً وهي تقترب من موقعها على الرصيف الرئيسي للشارع الكبير المنحني إلى سوق القات عند مدخل باب الحارة القديمة.. كأنها نخلة فارعة أو جذع «طولقة»[1] ممتلئ أو غصن قات رغد.. أو فرع كرمة يمانية يانعة متلهفة أين تضع أطرافها اللاصقة.. «الستارة»[2] تلف جسمها ليبرز خصرها الريان.. وتهادت كسيلٍ معربد، وجلست وقد وضعت عنها الشوال والموقد وخيل إليّ أنها لمحتني.. تأكد لي ذلك.. لأنني الوحيد الموجود على باب الحارة القابع على رصيف الشارع الكبير.. المقابل لموقعها من الجانب الآخر.. تفقدت أشياءها وما يحيط بها.. وكشرت بكلام حاد لتأخر بائع «العتر الأخضر» وبائع «البلسن»[3] الأخضر وثالثهما بائع الفول الأخضر..

ونظرت إليّ بحدة مشوبة بالقلق المتذمر.. فأدركني شيء من الخوف.. وصلوا مسرعين بالتوالي.. محملين بشوالاتهم المليئة.. ارتاحت نفسيتها لحضورهم، وإن لم تكن قد ارتاحت لوجودي كما خُيِّل إليّ! سيدتي.. هذه

---

(1) طولقة: شجرة عملاقة في اليمن يكثر تواجدها في الطرق العامة للقوافل وتعمر مئات السنين.

(2) الستارة: قطعة من قماش مزركشة بالألوان تستر بها نساء اليمن وخاصة في صنعاء.

(3) البلسن: العدس.

البائعة الجميلة لكيزان الذرة تعرف أنني من زبائنها الكرام.. فلماذا لا ترتاح لوجودي؟

* * *

قلت بعدم مبالاة:

ـ بكم هذا؟!

ـ غير مشوي!!؟

ـ أحبه هكذا.. غير مشوي..!

ـ بريالين..

دفعت لها القيمة إلى حجرها.. وأخذت كوز الذرة النيء..

* * *

قالت لي في أحد الأيام.. وقد اعتبرته يوماً تعيساً:

ـ أكلُّ قُوتكَ كيزان الذرة؟

شعرت أنها تزيد من جراحي فوق ما كنت أتصوره..

فقلت:

ـ أقتات بجانبها شيئاً آخر.. أهم!!

ـ كلام..!

أقسمت بأغلظ الأيمان في سريرة نفسي بأن لا أعود إليها مرة أخرى ولن أشتري منها أي كوز ذرة.. بل لن أمرَّ من مكانها ومن باب هذه الحارة وسوق القات.. وهذا الشارع.. ففي المدينة أكثر من مكان.

* * *

كان يوماً شبه مطير.. احتميت منه بمظلتي الصغيرة السوداء وأنا أتجه صوب مكاني المعتاد.. محتاراً كيف انفكت المظلة بطريقة سريعة سحرية بمجرد أن ضغطت على زر خاص في ذراعها..

وقلت لنفسي: «سبحان مسير الغمام»!!

كانت قد ركبت مظلة كبيرة زاهية الألوان.. تذكرني بمظلات شواطئ الإفرنج.. في بلادهم التي منحها الله بسخاء كل مباهج الحياة والآخرة.. وحرمنا منها لأننا متخلفون.. هكذا كما خُيِّل لي..!

كانت المظلة تحميها وتحمي النار وكيزان الذرة.. وتحمي بعض من يتبعها..

كانت عابسة.. وفي حركاتها عصبية واضحة بسبب هطول مثل هذا الرذاذ من المطر.. ولعلمها بأن الناس لابد أن يشتروا القات تحت كل الظروف الجوية السيئة.. وسيهرعون لتحقيق ذلك وبسرعة، ولن يعرجوا نحوها مطلقاً.

مدت إليّ بأحد كيزان الذرة المشوي.. ومددت لها بورقة نقدية كبيرة، فاعتذرت بعدم وجود صرف لها.. فحاولت إعادة الكوز لها.. لكنها زمجرت، كنت الوحيد على ما يبدو الذي يقبع بجوارها أقضم كوز الذرة..

تأملت يديها المشغولتين.. كانتا مخضبتين بالحناء وبأشكال فاتنة مغرية ذات خطوط متعرجة بالخضاب الأسود وبشكل هندسي غاية في الإبداع.. وعلى المعصم أساور من ذهب.. دقيقة ورقيقة.. تلمع منسجمة مع الخواتم التي يخنق بعضها أناملها البضة..

* * *

التصقت بجوارها في أحد أيام الشتاء.. ولذعة حرارة موقدها يدفئ وجهي وأطرافي..

قالت كأنها تريد أن تستشيرني:

ـ كم أتوق لبيع القات بدلاً عن هذا!!

صدمني كلامها.. فنظرت إليّ وقد توقفت يدها عن المروحة..

ـ إني أعشق المغامرة..

لم أجد حجة مواتية أقولها سوى أن ممارسة بيع القات تحتاج إلى رأسمال كبير.. فقالت:

ـ قد دبرت ذلك..

ـ ستخسرين؟!

ـ ليس في بيع القات أي خسارة..

ـ ستخسرين أشياء أخرى أهم...!!

ـ من هذه الناحية.. لا تخف عليّ..!

ـ أخاف عليك من كل شيء.

ـ غزل جميل..!

ـ أجمل ما فيه أنني بين يديك.. على قارعة الطريق..!

ـ أي طريق؟؟!

ـ طريق.. طريق الحب.

ـ مبالغ أنت..!

ـ ومتكبرة أنت..

ـ أعوذ باللّه من الكبر..

* * *

كانت قد دفعت إلى بيع القات.. عرفت ذلك فيما بعد.. وأن الذي أقنعها رجل بدين.. كبير الكرش.. له لحية سوداء مشذبة.. وعينان ناعستان تختفيان وراء نظارة شمسية سميكة الحجم.. يفرش على وجهه ابتسامة واضحة تشي دائماً بالمكر والخبث.. ولباسه غريب وعجيب.. غير محبب منظره للعامة من زبائنها أو حتى من زبائن سوق القات..!

عرفت أنه صاحب ثروة متنازع عليها.. لكنه المسيطر الوحيد على جميع ورثتها.. وكنت أحس بأن ما يقلقه بشكل واضح هو وجودي بجوارها ووجود بائع الفول والبلسن والثالث بائع العتر الأخضر أيضاً.. كان لا يطيق وجودهم.

* * *

يغمرني الحنين كلما تقرفصت على تلك الناحية المنفية من الشارع الكبير.. و«جولبة» شاردة بين أسلاك الكهرباء والهاتف تذكرني بأن سيدتي كانت الملجأ والملاذ البارد الحنون.. لم يعد يطرق أذني ذلك الرنين الساحر الصادر منها.. كم كان هوى رائعاً..

وكم حكيت لها العجاب عن رصيفها ورصيفي.. وشارعها وشارعي، والنواصي، أيضاً حتى مدخل حارة القات وسوقه..

قلت لها: لقد استضعفوني. واعتدوا عليّ.. ومسخوني مستجدياً.. وينتابني مسٌّ من الخبال.. لكأن صوتها الرنان ينزلق برفق.. يحولُ الصدى إلى موسيقى ذات نغم حالم..

* * *

حاولت أن أنساها.. وأنسى الشارع الرئيسي والناصية ومدخل سوق القات.. وفي يوم من أيام الخريف، انزلقت بي قدماي إلى مدخل سوق القات.. شعرت بالحنين يغمرني مرة أخرى لمشاهدة ذلك الوجه القديم الذي كان يغريني.. وجدته..!

كانت تتربع في مؤخرة سيارة صغيرة تسد بها مدخل سوق القات..

ـ بكم؟

ـ بخمسين ريالاً.

ـ بالأمانة!؟

ـ قلّد.. وتوكل على الله..

ـ بأربعين ريالاً..

ـ رأسمالها.

ـ إتقي الله!.

ـ خراجك.!

كانت تقبض الثمن.. تربط القات بمشمعات من النيلون.. تجادل ولكن بلا ذوق ولا حياء.. كما كانت تجادل سابقاً.. لمحتني.. تصنعت عدم الاهتمام بوجودي البعيد عنها..

فرحلت.. لكنها جذبتني من الخلف وقد تجاوزت ناصية الشارع قائلة:

ـ إنني الآن أكثر استقراراً.

ـ هذا شيء عجيب!

ـ وما الداعي لتعجبك.. هذا؟

لم أجب فقالت:

ـ الجميع يثنون ويشيدون بقراري هذا!

ـ إلا أنا..!

* * *

بائع العتر الأخضر ما زال كما هو.. والآخر بائع البلسن الأخضر رابض في مكانه وبجواره الثالث بائع الفول الأخضر..

اتجهت إليهم. وتسليت بأكل بعض ما لديهم..

كان موسم العم صالح بائع الفول الأخضر قد اقترب من النهاية..

أما علي نقيب الولد الساذج فما يزال يبيع البلسن الأخضر.. وبجواره الحاج «مشلي» بائع العتر الأخضر.. كادت أيامه تلفظ أنفاسها..

* * *

ارتاحت نفسي لفتاة أصغر احتلت مكان بائعة الذرة الأولى..

سيدتي هذه الفتاة الصغيرة الجديدة تبيع كيزان الذرة المشوية أيضاً.

ورغم جمالها الواضح وصغر سنها فإن الإقبال على الشراء منها ما يزال نادراً.. ليس فيها حتى الآن أنوثة تلك المرأة التي صارت الآن تبيع القات.. ومع ذلك فقد صممت على أن أعشقها.. هذه الفتاة الصغيرة الجديدة.. وأرغمت نفسي على قبول تلك المخاطرة الجديدة..

صنعاء: 3/ 6/ 1982م.

امــرأة

كنت قد تعودت بلهفة يومية الاطمئنان على وجودها في حانوت «الزلابياء».. فأزاحم خلق الله السذج بنكاتهم وأخبارهم العجيبة السمجة.. آخذ «مدرة البرعي» الساخن مع مسحوق من الزعتر والكمون و«البسباس الحار» وأرشفها أمام حانوت «الزلابياء» المجاور وصاحبه الفتى «رزق» الجميل الذي يزيد من جماله ومن ملاحة محياه حرارة الزيت المغلي داخل القدر النحاسية الواسعة وهو يتفنن في صنع «الزلابياء» بأسلوبه الرقيق الرتيب الحركات.. تعلم ذلك عن والده أو عن أخيه الأكبر «شوعي»..

ذلك الذي أصبح خاملاً.. يبيع الشاي في مدخل الحانوت مع قدر من الفول الذي ينفد بسرعة في الساعة الأولى من الصباح..

* * *

كم سمعت الأب والأخ الأصغر «رزق» يلومانه أحياناً ويلعنانه أحياناً أخرى، لأنه لا يطبخ قدراً كافياً من الفول، وكان يجيبهما بأن طباخة الفول ليست مهنته، ولكنه يطبخ تلك الكمية المحدودة لإفطاره الشخصي وما زاد عن حاجته يبيعه.. أما حرفته الأساسية كما يقول فهي صناعة «الزلابياء» التي أسندها الأب إلى أخيه الأصغر الفتى «رزق».. وسبب ذلك التوزيع غير العادل في نظره معركة تقوم كل يوم بينه وبين أبيه، وبين أخيه بدون الأب، لولا تدخل تلك المرأة التي تحسم الأمر لصالح الفتى «رزق»..

لم أذق «الزلابياء» في حياتي.. ومع ذلك أجد المتعة واللذة وأنا أرتشف «مدرة البرعي» الملتهب وفي التفرج على صانع «الزلابياء» الفتى «رزق» وهو يقوم بحركاته البديعة بين الناس والزبائن المتلهفين داخل الحانوت الضيق وخارجه أو عند مدخل الزقاق الفرعي..

وبين حين وآخر كنت أمعن النظر في تلك المرأة التي تسابق الرجال

وتزاحمهم والتي اعتدت كل صباح أن أراها ملهوفاً بين هؤلاء..

هي امرأة متوسطة العمر ذات أنوثة طاغية.. أقدر عمرها بخمسة وثلاثين عاماً.. لكنني متأكد بأن عمرها الحقيقي أكبر من ذلك.. فالمعلومات الخاصة التي حصلت عليها عن طريق «شوعي» الفتى الكسول تقول بأنها تجاوزت الأربعين عاماً من عمرها..

تأخذ مكانها منذ الصباح الباكر بين الزبائن المتزاحمين على كرسي طويل من الخشب.. يستند إلى جدران الحانوت البارد المتسخ، يشبه المنضدة..

أمام الجميع منضدة طويلة من الخشب أيضاً متسخة وملوثة ببقايا نفايات «الزلابياء» والزيت والشاي ومخلفات الزبائن الأخرى..

تنتظر هي قرص «الزلابياء» الساخن مع فنجان الشاي من إعداد الفتى «شوعي»، تتناوله مع «مدرة البرعي» ثم تتناول قطعة من حلوى «الرواني» اللذيذة. وبعد ذلك يظن كل من يراها أن نظرها ثابت على إناء الزيت المغلي بأقراص «الزلابياء» التي يتفنن الفتى «رزق» في صنعها بمهارة وبحركات رتيبة دقيقة يومياً..

«رزق» الفتى الوسيم الجذاب.. صاحب الشعر الأجعد والوجنتين المحمرتين والأنف الدقيق والشفتين الباسمتين والعنق المنتصب كأنه تمثال من رخام «للإسكندر المقدوني».. ذي القرنين.. الذي يعتقد طوال الوقت أن نظراتها معلقة به..

وإذا ما لاحظت أن أحداً يوجه النظر نحوها فإنها تدير عينيها بسرعة.. فهي توزع نظرتها هنا وهناك مستكشفة تضاريس الوجوه البعيدة عنها، بعد أن تكون قد ملأت نظرها من الفتى «رزق» ومن كل الوجوه المحيطة بها.

* * *

البسمة الرزينة الهادئة الساحرة لا تفارق شفتيها.. كأنها «المونليزا»..

أكثر ما يثيرني صدرها المنتصب الذي تعجز كل وسائل الاحتياط والتستر عن إخفاء كنوزه.. وبرغم الستارة المزركشة التي تغلفها.. يبرز قوياً صدرها، ويبرز فوقه نهدان يكادان يخترقان الرداء الحريري الأحمر..

سمعت أحد الجالسين يهمس لجاره:

ـ إن الفجوة التي يحدثها النهدان في الصدر تستطيع أن تثير حتى. . .

وقد غاصت في جوانبها المكتنزة شبه سلسلة ذهبية يتدلى منها شيء على شكل مصحف أو على شكل نسر الثورة والجمهورية. .

لم تكن تكترث لبروز مفاتنها الطبيعية. . ولم تكن تأبه لنظرات الناس إلى مواضع تلك المفاتن الموهوبة. .

كانت «تدعمم»[1] وتهتم فقط بما سوف تأكله من «زلابياء» وما تشربه من شاي. . وكانت عيناها تمضغان الفتى «رزق» بشهية كأنه قطعة من «الرواني». .

ولأنها كانت مثار اهتمام كل الرجال المتواجدين دائماً فقد خُيِّل إليّ بأنني مثار اهتمامها!.

كنت دائم الصمت أتعمد إخفاء عواطفي نحوها. . وكانت تفعل الشيء نفسه أيضاً. .

يخيل إليّ بأن هموماً مشتركة تجمعنا، لأنها عندما تنتهي من تناول وجبتها اليومية من «الزلابياء» وتنهي استراحتها التي تسترق من خلالها النظر. . تخرج من الحانوت لتتحرش بي. .

تمر من جانبي وهي تفتعل الزحام. . تحتك بنهديها بجسدي. .

كم كنت أشعر بنشوة لا مثيل لها. . وكم كنت أعاني من إثر ذلك الاحتكاك طوال الليالي المؤرقة. . كنت أتخيلها دائماً. .

* * *

كان فمها يبدو من بعيد وكأنه يتحلى بسنين من ذهب غطت بهما مكان نابيها. . وتبدو أيضاً وكأنها تتزين بأساور من ذهب تملأ معصميها العاريين. . وكنت أرى على أناملها البضة الناعمة زخارف ونقوشاً من الحناء وأصباغاً سوداء مزركشة بديعة. .

في خدها الأيسر أيضاً شامة خضراء تزيدها أنوثة فوق ما هي عليه من جمال وجاذبية. . وكنت أعتقد بأن تلك الشامة الخضراء من الزينة الصناعية. .

---

(1) تدعمم: تتجاهل.

لكني اكتشفت أنها شامة طبيعية فعلاً تضفي عليها مزيداً من البهاء والجمال كأنها النجم اليماني . .

لا يوجد في الوجه الجميل أي أثر لمظهر التزين، فهي تؤمن بجمال الطبيعة غير المغشوش . .

* * *

اعتدت على المزاحمة عند باب حانوت «الزلابياء»، أصبحت عاشقاً ولهاناً لذلك المكان من أجل أن أراها . .

وقد يغيب الفتى «رزق» في بعض الأيام فيحل والده العجوز المتصابي محله فيملأ جو المكان بنكاته اللاذعة وببريق أسنانه الذهبية وبهزات شاربه المختال الذي يعلو شفتيه . . وبلمعان رأس «جنبيته»[1] القديمة الثمينة المشدودة إلى خصره الدقيق أو بما تعكسه عمامته المزركشة المحبوبة الهيئة بدقة من تمايل واهتزاز . .

قد يغيب الأب مع الفتى «رزق» لسبب ما . . ونادراً ما يحدث . . فيحل بدلاً عنهما «شوعي» بائع الشاي والقليل من الفول الذي يستهلكه في مستهل الصباح، رغم سماجته وكسله ومنادمته غير المحببة . .

كان الفتى «رزق» ومثله والده وربما أخوه «شوعي» يعجبون لوجودي الدائم أمام حانوتهم وأمام قدرهم الزيتية التي تغلي «بالزلابياء» . .

وأكثر ما يضايقهم أنني أتفرج فقط . . !رغم أني لم أكن الوحيد الذي يفعل ذلك . . كان الكثيرون يفضلون رشف «البرعي» الساخن أمام حانوتهم . .

قلت لنفسي: ربما يكون مصدر ضيقهم نابعاً من إمعاني النظر نحو تلك المرأة . . ! مع أن الجميع ينظرون إليها بالقدر نفسه . . هل كانت نظراتي إليها أكثر من الآخرين . . ؟!

ربما . . ! وإلا ما هو الداعي للتعجب والاستغراب والشعور بالضيق لوجودي أمام حانوتهم كغيري من خلق الله . . ؟

---

(1) جنبيته: (جنبية) الخنجر اليماني المعروف.

وخصوصاً أنني أقف على رصيف الشارع.. شارع الحكومة وهو ملك عام..؟

* * *

تجلس دائماً في مكانها المعتاد داخل حانوت «الزلابياء».. بيدها كوب من الشاي من إعداد «شوعي» ونظراتها متوجهة نحو قدر الزيت المغلي بأقراص «الزلابياء» تنتظر قرصاً ساخناً منه..

قد تكون في بعض الأحيان شاردة الذهن.. لكن الشرود يتلاشى بسرعة فتعود الابتسامة إلى شفتيها.. وتبدأ في التطلع إلى وجوه زملاء وزبائن الوجبة الصباحية..

* * *

ليست المرأة الوحيدة التي تفضل تناول الزلابياء كإفطار أو «البرعي» أو «القنم» في هذا المكان.. لكنها الوحيدة التي تزاحم ذلك الخلق المحتشد العجيب المتنوع في الأعمار وفي الأشكال وفي الملابس.. هذا ببدلة أنيقة، وذلك بلباس الريف، وآخر بلباس المدرسة، وغيره بلباس عسكري.. إلخ.

هي تجلس معهم، بينما تقبع النسوة الأخريات بإزاء فتحة الزقاق الضيق المجاور مختفيات خلف ستائرهن الملونة..

* * *

كم يسحرني لمعان سنيها المذهبين كبريق نشوة وشهوة ورغبة جامحة!

أمعنت النظر إليها كعادتي منذ شاهدتها للمرة العاشرة بعد المائة أو بعد الألف أو بعد القرون والعصور والأزمنة والدهور والحقب..

هي.. هي.. متوسطة الجسم، لكنها تحمل من الأنوثة والجاذبية ما يهافت على القرب منها كل جموع زبائن «الزلابياء» و«البرعي» و«القنم» و«الرواني» و«الكباب»..!!

الكل يعشقونها ويريدونها.. يتأملون مفاتنها كما أفعل..

شعرت بالغيرة تدك كياني، وبالذات عندما لاحظت بأنها تحتك بهم

بنهديها كما تحتك بي.. وكم راودني حلم الهروب منها إلى أي مكان آخر..

* * *

تأكد لي، رغم نظراتها الملتهبة، كل صباح باكر بأنها ساهرة حتى هذه الساعة.. لم تنم..! كأنها كانت تقضي وقتاً ممتعاً طوال الليل.. هذا ما خيل إليّ..!؟

ملامح الإنهاك واضحة على وجهها وكل جسمها.. وحتى ملابسها، بالرغم من رونقها البديع..!

ويزيدني شغفاً بها ذلك التصور المريع الذي لازمني كصداع حاد.. كيف قضت ليلتها الساهرة..؟

كنت أتمنى أن أقضي معها ساعة متأخرة من الليل.. نمكث معاً حتى يحين وقت رشف «البرعي» وتناول «الزلابياء» و«الرواني» و«القنم»و«الكباب». بل وإلى الأبد..

* * *

عانيت ردود أفعال عنيفة مختلفة.. خفت على نفسي الفتنة وخشيت أن أرتكب خطأ فاضحاً.. كأن أعانقها مثلاً على مرأى ومسمع من الناس.. أو أن تمتد يدي إلى مفاتنها البارزة بدون شعور.. فقد أحسست بأنني أعرفها منذ الطفولة.. وبأنها أطعمتني أشياء لذيذة ما زال طعمها في فمي..

قررت أن أهجر هذا المكان.. أن أبتعد عنها.. حقاً أنا شغوف «بالبرعي».. لكن أماكن «البرعي» كثيرة في المدينة..

وفي اليوم التالي ذهبت إلى «باب اليمن»[1].. وما كدت آخذ مكاني في محل بيع الزلابياء والبرعي حتى فوجئت بها..

نعم فوجئت بها وهي تنظر نحوي وتنظر إلى كل من في المكان.. كأن المكان لم يتغير..

هربت مرة ثانية إلى «سوق الملح»[2] أتناول إفطاري المعتاد هنالك..

---

(1) (باب اليمن): باب الحرية وهو الباب الجنوبي لمدينة صنعاء القديمة.

(2) سوق الملح: من أسواق مدينة صنعاء القديمة..

لكنني وجدتها عند بائع «الزلابياء» المجاور لبائع «البرعي» الذي أرشف «مدرته».. إنها هي بعينها.. بمفاتنها الطاغية وبابتسامتها الرزينة الهادئة المثيرة.. الكل يعشقونها ويريدونها ويتأملون مفاتنها.. هنا أيضاً..

شعرت أيضاً بأنها تحتك بهم كما تحتك بي بنهديها البارزين...

* * *

شعرت أيضاً وهربت مرة أخرى إلى مكان آخر.. كان «باب شعوب»[1] لكنني وجدتها أيضاً وكأنني وإياها في «باب السباح».. أمام بائع الزلابياء الفتى «رزق»..!

شعرت بأن الكل يعشقونها ويريدونها ويتأملون مفاتنها..

وهربت منها أكثر إلى «باب القاع»[2].. كان بائع«البرعي» وزوجته صانعة الزلابياء في الزاوية نفسها. لا حانوت يفرقهما..

فهما في ممر الزقاق الضيق يبيعان «البرعي» و«الزلابياء» وما إن رشفت من «مدرة البرعي» الرشفة الأولى حتى وجدتها أمامي تتناول قرص «الزلابياء» كعادتها دائماً..

عدت إلى «باب السباح» وقد قررت مصارحتها إن وجدتها هنالك بمشاعري نحوها.. ومع ذلك لم أجرؤ..

كانت تخرج من الحانوت وأنا ما أزال واقفاً أرشف من «مدرة البرعي» الساخن.. وأرشف جسمها كله بخيالي لما كانت عليه في ليلتها الماضية التي كنت أتخيلها حسب ظني..!

وكم كانت تزاحم خلق الله وهي خارجة من الحانوت كعادتها حتى تصل إلى مكاني فتزيحني بحركة كنت أشعر بأنها لم تقصد إثارتي بها..

ولكن ذلك تكرر للمرة المائة.. للمرة الألف.. للمرة الدهر والحقب وهو يتكرر حتى الآن!.؟

صنعاء: 21/ 10/ 1983م

---

(1) باب شعوب: أحد أبواب مدينة صنعاء الشمالية.

(2) باب القاع: باب مدينة صنعاء المؤدي إلى قاع اليهود (قاع الشهيد العلفي حالياً).

البـدَة(*)

احتشد الناس في «سوق الملح» حول ثور جميل يقوده الجزار وهو محتار إلى أين يذهب به.. فقد اكتشف به خصائص لا توجد في بقية الثيران التي عرفها في حياته.. كانت الأصوات تتعالى:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله..

ـ نستغفر الله العظيم ونعوذ به من كل شر ومكروه..!

وأحاديث كثيرة دارت كلها تعوُّذ واستغاثة واستغفار يلوكها القوم المحتشدون حول الثور والجزار..!

وبدأ الهمس بينهم يعلو.. وانتشر ليعم الجميع، حتى أصحاب الحوانيت الصغيرة الضيقة عرفوا الثور.. وتأججت العواطف.. وقد احتار الجزار نفسه في أمر هذا الثور.. هذا الثور الذي نُكب به..

لقد اشتراه بمبلغ باهظ بعد أن ثمنَّه خير تثمين، ووزنه بنظره أرطالاً تعد بالمئات وحسب أرباحه من بعد ذلك.. الثور سمين.. مربوع القامة.. منعم الأجزاء.. حتى ذيله الطويل سيكون لحماً ويوزن بالرطل.. أما سنامته العالية المنحنية على جانب من جسمه كظل الجبل فتدل على أنه مكتنز لحماً كثيراً ورقبته كانت عريضة السطح..

وعندما اشتراه الجزار من قبيلي همدان كان يعرف مسبقاً بأن «الهمداني» يريد التخلص من الثور برغم مزاياه العديدة.. لأن لونه أسود لا غير.. وهي عقدة عند قبيلة همدان من الأبقار السوداء، ظلت تتحكم فيهم أباً عن جد منذ طحن المطهر بن شرف الدين رؤوس مئات الأشخاص من أفراد القبيلة بثيران سوداء اللون.. وقد جنحت همدان للخضوع ولم يبق من آثار لتمردها سوى كرهها لهذا اللون على جلود الأبقار السوداء.. فهم لا يشترونها.. وإذا

(*) البدة: امرأة يعتقد بأن لديها القدرة على مسخ الإنسان إلى أي نوع من أنواع الحيوانات كالكلب والثور والحمار..!

ظهرت بين أبقارهم فهم يتخلصون منها مهما كانت قوية ومفيدة لهم في حرثهم وحصادهم ودرسهم. . بل استعاضوا بالحمير والجمال في الحرث والحصد والدرس عن الثيران، وما أكثرها في أرضهم السوداء أيضاً. . !

كان الجزار قد قدم القصب والشُّرْف لثوره وهو فرح مسرور منبسط غاية الانبساط والفرح والسرور لما سيحققه من ربح. . ولما سوف يحصل عليه من ربح مضمون. . ولكن الثور امتنع عن تناول القصب والشُّرْف. .

حاول معه عدة مرات. وكان يعود وإذا بالقصب والشُّرْف في مكانه لم يمسه الثور ولم يأكل منه حتى قشة واحدة. . واحتار الجزار واحتارت معه أسرته. . أمه وزوجته وأولاده. . جرب مرة أخرى، حيث اشترى من «مقشامة» مجاورة زرعاً أخضر من الشعير والقمح وقدمها للثور فلم يلتفت لها. . وانتابت الجزار حالة عصبية لكنه كتمها. . وحاول «تغريزه»[1] كغيره من الأبقار فلم يقبل. . قدمت زوجة الجزار للثور بقية ماء كانت قد غسلت به الأواني الفخارية مخلوطاً بالفتات المتبقي. . حسب عادتها في تقديم ذلك لبقرتها الدرورة. . ومع ذلك لم يشرب الثور وإن كان قد أبدى استعداده لمجرد الشم بتأفف. . !

ليلة ويوم مرت، وتلتها ليلة أخرى والثور على عناده. . ! وجلس الجزار بجواره في «الحوي»[2] الطلق محتاراً في أمره. . يزن بنظره ويقدر كم قد نقص وزنه!!

لاحظ خيط دموع تنهمر من عينيه لم يلحظها من قبل في أي ثور أو كبش أو عجل. . واستبطأته زوجته فأخرجت له العشاء المكون من «كدمتين» مع «مدرة» «برعي» وقليل من «السحاوق». . !

فتحت «القوارة»[3] المزركشة فبدأ يتناول عشاءه بدون رغبة أو شهية، فقد أفقده هذا الثور الذي كان يظن منه الخير الوفير كل رغبة في الأكل والنوم. . وفجأة حرك الثور رأسه نحو مائدة عشاء الجزار. . ويبدأ يتشمم «الكدم». . وما هي إلا ثانية حتى كان قد التهم إحداها. .

فرح الجزار لهذا التطور الذي حدث، ولو على حساب عشائه. . وأقبلت زوجته «بجمنة» قهوة من «القشر» مع فنجان «حيسي»، فأمرها بلهفة بأن تسرع

---

(1) تغريزه: من غرزة، جزء من قصب الذرة مطوية بالبرسيم والعلف.

(2) الحوي: حوش المنزل.

(3) قوارة: قطعة من عدة أقمشة تستخدم لتغطية الأكل.

في إعطائه مزيداً من أرغفة «الكدم».. استغربت الزوجة لهذا الطلب الملح، ولكنها نفذت الأمر سريعاً وأعطته حتى بقية غذاء البارحة من «الكدم».. وبدأ الثور يلتهم «الكدمة» إثر الأخرى..

وغمرت الجزار سعادة بالغة إلى درجة أنه راح يغمس «الكدمة» في وعاء «البرعي» فيلتهمها الثور بشهية ولهفة.. وإذا ما زاد عليها غمسة في «السحاوق» زاد إقبال الثور أكثر فأكثر..!

توقف الجزار وهو يحاول جمع شتات ذهنه فقد طرأت عليه فكرة مخيفة بأن ما يحدث هو مطابق لما كان يتخيله!.. ارتاع لذلك الخيال.. وبرغم الاندهاش الذي وقع منه فقد كرر العملية مرة أخرى في اليوم الثالث، حيث أعطى الثور القَصَبْ والعلف فلم يتناول منها أي شيء، بل لم يتكرم حتى بشمّها أو النظر إليها..

فأعطاه «كدمة» أكلها الثور بلهفة..!

زاد ذلك من روعه.. إذاً فهي الحقيقة..!!

اجتمع جيرانه به وقد حكى لهم القصة، فأبدوا دهشتهم لما حكاه.. ونصحه البعض بالتروي وعدم الاستعجال في ذبح هذا الثور.

ولما هجع إلى جوار زوجته وأطفاله انتابه إحساس بالرهبة والخوف والقلق.. زاد منه إصرار زوجته وإيمانها بما قاله بعض الجيران..!

كانت الخرافة مستحكمة في أذهان الناس.. حول «البِدَةْ» وهي كما يقولون امرأة تحوّل الرجل إلى أي شكل حيواني ممسوخ.. ويظل على تلك الحالة مدى الحياة.. ولا يعرف أي إنسان مدى صحة هذه الحكاية أو الإشاعة التي أصبحت في مخيلة الناس حقيقة يغذيها الإمام بما يردده من أحاديث عن قيامه بحملات لتطهير البلاد من تلك «البِدَاتْ»، ولكن رددت ألسن الناس انتصارات الإمام يحيى على «البدات» في أكثر مناطق مملكته المهتزة التي لا يعرف أرضها ولا البشر العائشين عليها..!! وانشغل الناس بذلك.. كلهم.. في المدينة أو الريف.. لينسوا قلاقل الانتفاضات والتمردات التي تعم البلاد في أكثر من منطقة..

بدأ جيران الجزار يهمسون بقضية الثور الذي لا يأكل إلا «الكدم».. وبأنه إنسان..! مسخ بواسطة «بِدَةْ» من «بِدَاتْ» اليمن التي يحاربها الإمام يحيى..!

وانتشر الهمس.. ثم تحول إلى دعايات صارخة.. تجمع لها الناس والتفوا حولها في كل مكان.. من سوق الملح وجميع الأسواق المحيطة به.. كسوق البز.. وسوق المحدادة.. وسوق الطعام وسوق الصاغة والحرفيين.. حتى «قاع اليهود» بسوقهم المشهورة.

وكان للإمام يحيى عيونه التي تطوف أرجاء المدينة وترتدي لباس الفقهاء بعمائمهم البيضاء وثيابهم المرسلة.. كانوا يجوبون كل مكان في المدينة.. في الأسواق وفي المقايل.. حتى مقايل النخبة التي يشك الإمام بطموحها المعارض لحكمه..

وقد نجح هؤلاء في توجيه مسيرة الثور وصاحبه الجزار والمتفرجين عليه ممن عرفوا القصة.. وتم إقناع الجميع بأخذ الثور إلى مكان مقابلة الإمام في مقامه الشريف لينظر في ذلك الأمر الخطير..

كان الثور مع صاحبه الجزار يمر من أمام حوانيت سوق الملح والأسواق الأخرى منكس الرأس ينظر شزراً إلى صاحب حانوت عجوز وبعينه دمعة.. فيقوم صاحب الحانوت العجوز بإطعامه قطعة من سكر أو حفنة من زبيب..

وإذا ما نظر الثور إلى حانوت معين وتوقف أمامه يقوم صاحب الحانوت بتقديم مزيد من الحلوى والزبيب والخبز..

وفي «باب السباح» وهو سوق جديد أمام قصر الإمام يحيى تكثر فيه حوانيت بيع «الرواني» والبقلاوة وجميع أصناف الحلويات الأخرى والفواكه والخبز بجميع أنواعه.. كان يلذ للثور أن يتناول ما يُقَدَّمُ له من أصحاب الحوانيت، وكلهم استغاثة وتعوذ بالله من شر ما خلق..!

كان الإمام «يحيى» متربعاً على كرسيه المتآكل الذي تبقى من آثار «الترك» في البلاد، كغيره من المنشآت، وهو في «مواجهته» المعتادة للناس يوهمهم بأنه يقضي مشاكلهم، مع أنه يحيل بعض الأوراق على كتبته المنحنيي الظهور، ويتقبل النذور بجميع أنواعها من القبائل البسطاء كسمن وبيض ودجاج وبعض خرفان أو عجول أيضاً..!

ويوزع بركاته الإلهية على بعض المواليد من أبناء نساء ورجال القبائل المحيطة بصنعاء مقابل ما يقدم له من قروش فضية كأنها «قرص القمر».

كان الإمام «يحيى» مستعداً ومهيأ لاستقبال ذلك الثور السمين.. حيث

أدخل إلى مقامه مع جمهرة من الناس وبعض من خاصيته العسس.

نهض قائماً ثم صاح بصوته المسجوح الصادر عن وجهه القبيح البشع المحروق:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونهض كتبته المحدودبو الظهور، وانكمش الجزار في وقفته وقد طغت عليه هموم جمة لم يتوقعها أو يتصور أنها سوف تحدث له.

واقترب أحد الفقهاء وهمس في أذن الإمام يحيى بالحكاية..

فانتفض الغول كديك رومي.. وتلعلع صوته كخطيب مصقع قائلاً:

ـ لقد قضينا على معظم «البدات» في البلاد ولم يبق سوى واحدة في منطقة «المحويت».. سيتم القضاء عليها فوراً إن شاء الله وبإرادته بالرغم من أنها تتحصن بمنطقة وعرة..

وتكلم كثيراً ثم جلس ونظره يتفحص الثور السمين.. ثم نهض من جديد وأخذ على نفسه وعداً في مهلة بسيطة أمام الناس ولمدة يومين فقط للقضاء على «بدة المحويت».. وجلس وقد أمر بإدخال الثور إلى حوش مجاور حتى يعيد له آدميته.. وأقفل على الثور الأبواب!!..

* * *

تجمع الناس في اليوم الثالث حسب وعد الإمام الذي خطب فيهم قائلاً:

ـ لقد تم بحمد الله القضاء على «بدة المحويت» وقد خلصنا ضحيتها مما كان فيه..

وتمهل قليلاً ثم استمر قائلاً:

ـ إنه ابن لأسرة طيبة وشريفة وعريقة في جذورها.. مشهود لها بالعلم والتقى.. وقد يكون بينكم الآن موجوداً..

وهلل الناس، حتى عسسه العارفون..!!

وبعد أيام استدعى الإمام الجزار «البورعي» الذي يقوم دائماً بالذباحة للإمام في المناسبات وما أقلها..! وقد استدعاه سراً.. حيث قام بذبح الثور ثم أخذ جلده ورأسه وبعض ما تكون للجزار بحسب العادة مقابل مهمته..!

وعند عودة «البورعي الجزار» إلى منزله تمعن في جلد الثور وهو يصب عليه الملح ويفركه بكفيه كالعادة.. فعرفه..!.. إنه جلد ثور زميله في المهنة..! وبما أنه جاره أيضاً فقد أخبره بذلك..!

وصدم الجزار صاحب الثور لهذا النبأ الذي اعتبره مغرضاً من زميله الآخر..

ولم يصدق حدوث ذلك.. ولكنه بعد تأمل طويل أسعفته زوجته بنصحه بالذهاب إلى الإمام حتى لمجرد الاستفسار فقط!

وفي اليوم التالي وبعد ليلة طويلة قضاها أرقاً أخذ نفسه بآلامها ووصل مقام الإمام يحيى.. وأخبره وبأسلوب الجزارين المعروف عنهم بالإفحام واللباقة الجلفة عن قضية ذبح الثور بأن ذلك سيكون سراً مردوماً في بير.

وصارح نفسه بأسلوب بارع بأن ذكر بأن الثور ابن الأكابر.. ابن الأسرة العالمة المتفقهة قد ذبح في «كاوش» العساكر..!

كان الإمام يحيى يعرف حذلقة ولقانة الجزارين فنهض.. ثم هوى بصفعة مدوية على خد الجزار انتفض لصداها كل من كان في مجلس الإمام..

صنعاء: 3/ 9/ 1981م

حكاية غير مرتبة..!

انتقلت المحادثات بين الجانبين إلى قاعة فخمة أخرى. .

ظلت عيناي تتجولان في أنحاء تلك القاعة الفخمة جداً مشدوهتين بالتحف النادرة والنجف المتلألئة والمتدلي بعضها من سقف القاعة. .

* * *

امتدت أكف الوفدين المتقابلين على المائدة حيث انزويت بين زملائي المرافقين أتطلع. .

الورق ما زال أمامهم. . بين أيديهم. . والأقلام ما زالت هامدة فوق الورق والوجوه باشة والأفواه باسمة. . والسعادة لابد أن تحل. . يا إلهي أكيد ذلك!

لملمت أناملي التي عصرها العرق. . شعرت بالسعادة والزهو لأن رئيس وفد بلادي استطاع بأسلوبه اللبق إقناع الأشقاء. .

في هذه اللحظة سيتم التوقيع النهائي. . سيكون اتفاقاً مثمراً يعود بالرخاء والازدهار. . كم من طرق ستشق وتعبد. . وكم من مدن ستضاء. . وكم من مدارس ومستشفيات ستقام. .

وكم وكم. .

الوفدان يتكونان من أبرز الشخصيات. . كلهم وزراء!!. . حتى المرافقون يحملون درجة الوزير. . !

القاعة الفخمة التي نحن فيها ما زالت تشد انتباهي. . ربما لأنني أخرج لأول مرة من البلد إلى الخارج. . حيث تعودت على قاعاتنا المعتمة البسيطة المهملة التي تقول لزائريها: رجاءً اتركوني. . !

تأهبت الأيدي بأناملها البيضاء الرقيقة لتناول الأقلام. . لم يعد هنالك أي كلام، وإنما ابتسامات عريضة بعضها مملٍ ومصطنع مرسومة على الوجوه. .

تأهب رئيس وفدهم لينظر إلى رئيس وفدنا القابع بجواره والذي علته السعادة. . فرحاً مسروراً لهذا التكرم السامي. . !

وفجأة أمر رئيس وفدهم بالسماح بإدخال مصوري التليفزيون والصحافة ووكالة أنباء بلده فقط إلى القاعة. .

غمرت القاعة الأنوار المكثفة المزعجة والمربكة. . وظل مصورو التليفزيون والصحف يختارون الزوايا المناسبة لتصوير رئيس وفدهم ويتابعون حركاته الصامتة، بينما ظل رئيس وفدنا يلملم ريقه ليمسح به شفتيه. .

وانصرف المصورون. . وعم الهدوء القاعة. . هدوء تام. .

وفجأة دوّى صوت فرقعة. . اهتزت له الآذان. . وكبّره صدى القاعة الفخمة. .

إنها «ضرطة» فاحت رائحتها على المجاورين!. . . ولاحظت أن رئيس وفدهم قد علته مسحة من الارتباك الممزوج بالخجل والغضب. .

وانفجرت كقنبلة ضحكة قوية ـ استهولتها ـ من أحد زملائي مرافقي الوفد والذي لم يستطع كتمها لعدم توقعه حدوث ذلك. .

وكان قد حاول بدون جدوى. . ثم هرع بسرعة خارج القاعة. .

وصوت ضحكاته المكتومة يرددها صدى القاعة. . وقد تجاوب معه بعض الموجودين في القاعة رغماً عنهم. . وسادت لحظة صمت مهيبة. . حاولت خلالها كما حاول الآخرون أن نشغل أنفسنا بأي شيء. . أي شيء!

وانفضت الجلسة فجأة بعد أن غادرها رئيس وفدهم بخطوات سريعة يحف به الحشم والخدم والحراس. . وأعضاء وفده. .

لم يبق في القاعة سوى رئيس وفدنا وأعضاء وفده والمرافقين، وقد أطفئت الأنوار. . والأوراق ما زالت أمامهم بيضاء. .

* * *

في اليوم التالي. . تأزم الموقف. . وانقطعت عن الصحف والإذاعة والتليفزيون أخبار ذلك الاجتماع الهام. .

وفي نهاية اليوم شوهد أعضاء وفدنا في المطار مستظلين من حرارة الشمس تحت جناحي طائرة قديمة استعداداً للمغادرة. .

* * *

نقل عن إذاعة «الندن» ما أوردته من أخبار متفرقة لمراسليها بصدور اتهامات متبادلة بين البلدين الشقيقين. .

* * *

تطورت الأخبار الصادرة من إذاعة «الندن». . بأن تأزماً شديداً قد طرأ بين البلدين الشقيقين. . حيث تم قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما. . ولم تفسر إذاعة «الندن» أسباب ذلك. .

* * *

وفي خبر مهم من إذاعة «الندن» أنه تم إقفال الحدود بين البلدين الشقيقين. . وعرضت الصحف الأجنبية «فقط» كما تقول إذاعة «الندن» صوراً لأعضاء البعثة الدبلوماسية في كلا البلدين وهما يغادران البلدين قبل انتهاء المدة المحددة. .

وقالت إذاعة «الندن»: إنه يبدو من الصور بأن بعض أعضاء السفارتين قد تعرضوا لنوع من الاعتداء، حيث ظهرت آثار جراح ودماء غزيرة تنزف. . !! ولاحظ مراسل هيئة الإذاعة البريطانية أن أحد أعضاء بعثتنا قد مُزقت ثيابه وأن الدماء تنزف منه بغزارة من حاجبه الأيسر. . وبأن زوجته وأطفاله شوهدوا في حالة نفسية سيئة. .

* * *

وتطورت الأحداث. . حيث أوردت إذاعة «الندن» أخباراً متضاربة عن حدوث اشتباكات على الحدود بين البلدين الشقيقين. .

وكل طرف اتهم الآخر بالبدء بها. .

* * *

ووصلت الحالة إلى درجة أن يقوم سكرتير الأمم المتحدة بإرسال مبعوثيه لتسليم رسائل عاجلة تنصح البلدين الشقيقين بضبط النفس وبإجراء مفاوضات سلمية بإشراف الأمم المتحدة..

* * *

وأذاع راديو «لندن» مؤخراً عن مراسليه في المنطقة بأنه قد تم فعلاً إغلاق جميع المطارات في البلدين الشقيقين.. وعتمت الأنوار في جميع المدن والقرى.. وأضاف في خبر لاحق بأن أمريكا قد بدأت بترحيل رعاياها من المنطقة على طائراتها «العملاقة»..

* * *

قمت بإطفاء الراديو..

وحاولت الخروج إلى الشارع. لكي أبحث عن أحد..

أبحث عن زميلي المرافق.. الذي لم يستطع كبت نفسه لكي لا يضحك...!

الكويت: 15/ 2/ 1981

مجموعة
أحزان البنت مياسة

الإهـــداء

إلى الدكتور سوهامي Sowhamy . .
المستشفى الجامعي في لندن . . الذي انتشلني
من فك المرض المفترس . .

تقديم

يذكرني زيد مطيع دماج بالأنهار الجارية المألوفة. تلك التي لا تكف عن الجريان وتمد ما حولها وما في طريقها بالخضرة والنماء. ولأنها أنهار مألوفة دائمة العطاء لا يلتفت الناس إليها كثيراً ولا يفكرون في مصدر هذا العطاء الدائم ولا يتساءلون: كيف تجمعت قطراته، كما يحدث مع الينابيع الصغيرة، تلك التي تجري في المواسم فيكون عطاؤها المؤقت مثار أحاديث وجدل طوال العام. زيد ـ وأقولها بعيداً عن المبالغة وغير متأثر بالصداقة العميقة ـ نهر من العطاء الأدبي لا يعرف التوقف ولا يكف عن الاكتشاف والتطور.

العمر القصصي لزيد مطيع دماج يقترب الآن من ربع قرن ـ إذا ما أدرجنا زمن المحاولات الأولى غير المنشورة. ومنذ منتصف الستينات إلى الآن لم يتوقف عن الكتابة. وفي الوقت نفسه لم يجد سوى القليل من الاعتراف، ومعظم هذا القليل قد جاء من خارج اليمن، ومن أولئك الذين أدركوا أهمية التجربة التي يعبر عنها. ووجدوا في قصصه الوجه البسيط والمعادل الفني المتميز لليمن الجديد بهمومه وإبداعاته، بانتصاراته وانكساراته. وإذا كانت القصة القصيرة في اليمن قد ازدهرت نسبياً في السبعينات وأوائل الثمانينات، بعد غياب الرائد المتمكّن محمد عبد الولي، فإن الواقع اليمني في القصة القصيرة قد ظل غائباً وبعيداً في كثير من النماذج التي قدمتها في ظل ذلك الازدهار النسبي إلاّ في نتاج عدد قليل من القاصين في مقدمتهم زيد مطيع دماج، هذا الذي لا يكاد يكتب بالحبر وإنما بالطين المحلي، ولا يختار أبطاله إلاّ من وسط الزحام اليمني.

الدكتور عبد العزيز المقالح

حكاية اللقية(*)

تسكّع كثيراً في أزقة المدينة وأمام دار «الأمير» ينتظر الإفادة على «مراجعته» التي يطلب فيها «قدحين» من الذرة قرضة..

نفد ما بحوزته من الزاد.. وبلاده بعيدة، وهو لا يعرف أحداً سوى صداقات عابرة كوّنها مع جموع مثله «مراجعة» فقيرة تطلب القرضة من الأمير..

نصحه أحدهم بأن يعود إلى «بلاده» فلا فائدة ترجى.. وإذا قدر أو حدث وحوّل له الأمير بالقدحين الذرة قرضة فستكون إلى مدينة بعيدة أخرى.. فهم ذلك جيداً.. فكم من أناس استهلكوا «القرضة» في الطريق.. يأكلونها قبل أن يأكلها ذووهم.. لكنها الحاجة الملحة المميتة..!

* * *

سافر مع القوافل الهزيلة.. يستأنس برنين أجراس جمالها من الوحشة والخوف في الطرقات الموحشة المليئة «بالطهوش» والحيوانات الكاسرة.. عائداً إلى «بلاده»..

* * *

كانت «السياني» شبه مدينة صغيرة بنظر القرويين الذين يهبطون إليها من الجبال المحيطة بها بسمنهم «اليسير» المبخرة أوعيته بدخان الأعواد ذات الرائحة الجميلة يحملونه على أكتافهم وقد كانوا يقترون على أنفسهم في استخدامه ليبيعوه إلى تجار محتكرين ينقلونه إلى «بندر عدن» ويشترون بثمنه ما يحتاجونه من «حوانيت» هذه القرية التي تشبه المدينة ليعودوا إلى ذويهم بشيء مفرح لا يعتادونه إلا في الأعياد.

(*) اللقية: الكنز الذي يعثر عليه فجأة في «الخرائب» القديمة، وتحاك حوله عدة أساطير وحكايات.

وكانت «السياني» تعج بالقوافل.. فقد أصبحت محطة للتجارة لكونها تقبع بموقعها في أسفل «النقيل»[1] «المرحل» المعبدة درجاته بالحجارة السوداء.. والملتوية طريقه الهابطة والصاعدة من وإلى قمة الجبل الكبير..

وتمتاز «السياني» برحابة «سماسرها» الواسعة التي تأوي «الجمل بما حمل» وتقدم الزاد والقهوة وخدمات أخرى، تزيل أتعاب السفر الطويل من «عدن» إلى «صنعاء» وبالعكس..

* * *

خرج من «السمسرة» لقضاء «الحاجة» وراء سورها وهو يفكر.. كيف يشرح لزوجته وأولاده مبررات وظروف فشله في مهمته..

ارتطمت رجله بشيء صلب أحدث ألماً شديداً لإصبع قدمه الوسطى الطويلة المدماة دائماً من ارتطامها المستمر بالحجارة.. يبول عليها دائماً فتلهبه ملوحة البول.. لكنه العلاج الوحيد المتداول والمعتاد في مثل تلك الحالة «للكدف»[2]..

انتابه فجأة إحساس بأن هذا الشيء الصلب لم يكن حجراً.. تحسسه بيده.. شعر بالبرودة تسري في أنامله.. أتاح له ضوء القمر المتقطع بفعل السحب السابحة في الفضاء أن يرى هذا الشيء الصلب.. عرته دهشة وانبهار وبدأت يداه تتفقدان معالمه.. مربع الحجم.. أملس الجوانب والأركان..

شد انتباهه في ذلك الشيء رسم لقط ينط من داخل دائرة.. بعينه اللامعة البراقة.. وشاربه الواقف بشعيراته المدببة ينظر إليه..!! مسح بيديه الأتربة وبعض المخلفات القذرة العالقة بذلك الشيء الصلد..

وجلس يفكر وقد صرعته فجأة موجة أحلام أصبحت قريبة المنال والتحقق..

إنه بلا شك كنز في صندوق متوسط الحجم محكم الإقفال.. ليس له أقفال ظاهرة ولا منافذ واضحة كأنه هرم من أهرام الفراعنة في الجيزة..

---

(1) النقيل: هو الطريق الصاعد الوعر إلى الجبل، والمرحل هو المعبد منه بالحجارة.

(2) الكدف: الجرح في أصابع القدم الناتج عن اصطدامها بالأشياء.

ربما سقط من على ظهر أحد جمال القوافل الداخلة أو الخارجة من «السمسرة الكبيرة». . القادمة من «عدن» إلى «صنعاء» أو العكس. .

استقر داخل «السمسرة» مع جموع المسافرين وجمالها المناخة التي تتناول غذاءها من أيدي أصحابها. . أما الدواب الأخرى فهي تتناول «حسيكها» من داخل «المخال» الكاتمة على أنفاسها. .

كان قد حشر ذلك الشيء ـ الكنز ـ في كيس نومه المغبر المتسخ ووضعه تحت كوعه الأيسر. . لم تمنعه أجراس الجمال المعلقة على أعناقها والتي ترن بأصواتها المزعجة عن التفكير والنوم. . كان وجلاً خائفاً أن يكشف أمره وسره أحد من نزلاء «السمسرة». .

واحتار لأول مرة في حياته. . فقد فكر وأزمع على الرحيل ليلاً. . رغم المخاطر في «النقيل» «المرحل» المعبدة درجاته بالحجارة السوداء. . واحتمال مواجهة «الطاهش»[1] المفترس. . لكنه قرر البقاء مع القوافل وأصحابها، فهي ستسافر فجر اليوم التالي أو يسافر قبلها. .

لم ينم. . وقد حاول. . لم يكن شخير الجمال والدواب وأصحابها مانعاً له من النوم. . فهو معتاد على ذلك. . كان يحلم في هذا الشيء ـ الكنز ـ الذي سيحل له المشاكل. . عليه زكاة «بيت المال ـ الإمام» وأجر العساكر «النافذة» عليه. وأهم من ذلك قوت أسرته الكبيرة. .

قبل بزوغ الفجر تفقد ذلك الشيء ـ الكنز ـ في حين تفقد المسافرون أحمال جمالهم ودوابهم. . وعلا رنين أجراس الجمال النحاسية المتدلية من أعناقها على أصوات الديكة والكلاب المبشرة بالفجر. . .

* * *

صعد درجات «المرحل» المعبد بالحجارة السوداء بخطوات سريعة سبق بها القوافل. . كان قد أقنع نفسه بأن يسرع في خطاه ما دام السفر نهاراً. . فلا خوف عليه من سباع الليل، لكنه مع ذلك كان يخاف سباع النهار من عساكر الإمام والفضوليين والعسس. لم يخف في يوم من الأيام من العساكر والعسس

(1) الطاهش: حيوان مفترس شائع في اليمن.

كما خاف تلك الليلة وهذا النهار.. لأنه يحمل فوق ظهره هذا الشيء الثقيل: الكنز!

توقف في منتصف «المرحل» تحت ظلال «طولقة»[1] عملاقة أحنت بحنان أحد جذوعها على «سبيل» الماء المقضض ذي السقاية المقفلة بإحكام، المنجرة إليه من قمة الجبل.. وقبة السبيل المزركشة.. شرب حتى ارتوى ثم تلفت حواليه فلم يجد ما يزعجه.. فغسل وجهه وبلل رأسه وعنقه.

شعر بالانتعاش.. وحاول أن يستريح قليلاً وهو يدندن بأغنية شعبية «يا طولقة ياللي ظلالك برود..».

* * *

لكنه لم يكمل غناءه، فقد فزع لأصوات نواقيس الجمال الهابطة والصاعدة.. وأصوات الحداة بغنائهم الشجي:

يا يلتني جمال بعد سودي[2] وسايرك يا نادش الجعودي

طرب للغناء الذي رددت صداه جوانب و«ضياح» الجبال الشامخة.. لكنه كب وجلاً يمرق درجات «المرحل» المعبد بالحجارة السوداء..

* * *

كان الوقت ظهراً.. وشهر «سهيل اليماني» المبارك يغدق بكرمه من الأمطار الغزيرة المعتادة.

في هذا الوقت احتمى داخل «صبل»[3] له عقود من الحجارة الصغيرة مسقوف بالحجارة المستطيلة الكبيرة. كان المطر قد بلل رداءه المتسخ.. استقر به المقام في زاوية من ذلك «الصبل» اختارها لكونها بعيدة عن المسافرين المزملين بالأردية، بعضهم يدخن «المشارع»[4] الفخارية المزركشة.. وانزوى بجانب الدواب لقربها من باب «الصبل».

---

(1) طولقة: شجرة ضخمة طويلة العمر يستظل الناس بها.

(2) سودي: نوع من الجمال.

(3) صبل: كوخ حجري.

(4) المشارع: «جمع مشرعة» الغليونات الطويلة.

تفقد ذلك الشيء بحرص شديد. . وتحمل رائحة روث وأنفاس البهائم وركضها ورفسها له في بعض الأحيان. .

وآذته نطف من الماء تتساقط على زاويته من السقف الحجري ما لبثت أن أصبحت أكثر من مجرد نطف. . ومع ذلك تحملها برحابة صدر وترحم على الملكة «أروى» ولعن من خلفها من الحكام. . !

ـ ماذا تفعل عندك يا «خبير»؟

فاجأه الصوت الصائح فتلعثم لكنه تمالك نفسه:

ـ أستكن من المطر. .

ـ عند البهائم وأخراجها. . !؟

تأمل الرجل. . مظهره وشكله لا يدلان على أنه من عساكر الإمام وعسسه. . بلع ريقه وأجابه برباطة جأش:

ـ وصلت متأخراً. . وكما ترى لقد صرت مبتلاً. . وأنتم تدخنون «الخويسي»[1]. . !!

* * *

كان أول الخارجين من باب «الصبل» إثر توقف هطول المطر. . السيول تهد من كل مرتفع. والسحب بدأت تلملم بقاياها لتسافر. . والطيور تنفض ريشها من البلل. . والهواء نقي مشبع بروائح رطبة تدغدغ الأنف. ودرجات المرحل المعبد بالحجارة السوداء قد غسلتها الأمطار من روث البهائم وصقلتها فأصبحت حجارتها لامعة. .

منعه المطر من وصول المدينة قبل حلول الظلام. . فأبوابها قد أصبحت موصدة بحراسها القساة. .

تكور بعيداً عن «الباب الكبير» لكنه حرص أن يكون ملاصقاً لحجارة سور المدينة العملاق عسى أن يشعر بالأمان بمحاذاته. . !

* * *

(1) الخويسي: الغليون الطويل. . وهو ذو رائحة كريهة.

رغم تجلده وحرصه على ألا ينام، وتحريكه لجفونه حركات قلقة، فقد غلبه الإرهاق والجوع فنعس هامداً كطير ذبيح لا حراك فيه..

شعر بلكزة عنيفة على رأسه فانتفض كأرنب وجل صائحاً:

ـ ليس معي شيء..

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ ..وصلت والباب مغلق فنمت..

ـ من أين أنت؟

ـ من بلاد «يريم»..

ـ «خباني»؟... هل معك «حبة سوداء» وكمون..؟!

ـ لا..

ـ «...»

ـ سامحك الله.. عفا الله عنك..

ـ وماذا معك إذاً..؟

ـ قدح من الذرة.. قرضة من مولانا الأمير حفظه الله.

ـ أهذا قدح من الذرة؟

ـ أكلت معظمه في الطريق..

* * *

لم يدخل المدينة فقد عاد أدراجه إلى الطريق المؤدية إلى بلاده رغم ما يعانيه من الجوع والإجهاد. تحمل الجوع والتعب وهو مكبٌّ على الطريق يكاد يلتهمها التهاماً.

تحاشى بقدر الإمكان وبقدر معرفته للطرق القصيرة السير في الطريق المأهولة.. طريق القوافل المعبدة بالحجارة السوداء.. وتحمل أنواعاً من المشاق والعوائق التي أدمت قدميه الحافيتين من أثر الأشواك والصخور الصغيرة المدببة.

لكن ذلك كان أهون عليه من أن يلتقي بأحد عساكر «الإمام» أو عسسه..

وكم راودته فكرة التخلي عن هذا الشيء، الكنز، يرمي به في قارعة الطريق ليتخلص من متاعبه وخوفه. .

تذكر أنه سيعود إلى زوجته وأولاده بدون طعام «القرضة» و «بخفي حنين» وقد تحمل الكثير من المشاق والمتاعب. . فقرر الوصول بهذا الشيء، الكنز، ولو كلفه ذلك حياته. .

* * *

استقبلته كلاب القرية بنباحها الشرس وهو يدلج في طريق «مخلاف» القرية بين الحقول ويزاحم المواشي برنين أجراسها النحاسية على الجسر الحجري، جسر «السائلة». . مدرب السيل والغيل. . .

تحاشى بقدر الإمكان التحيات المرحبة والسلامات الودودة. . فعذره البعض لمعرفتهم بظروفه ولعدم حمله ما كان متوقعاً أن يحضره معه من ذرة «القرضة». .

كانت الزوجة قد عادت بحملها من الحطب من الشعاب وكذلك ابنته الكبرى «بحزمة» من الحشائش غذاء للبقرة. . وبعض الأولاد يطعم البقرة والثور «بغرّزِها» المعتادة التقليدية أمام باب «الصبل». . وبعض الدجاجات تعبث بروث البهائم تبحث عن صيد ما لها ولفراخها. . حشرات أو حبات ربما تكون قد سقطت سهواً من الزوجة وهي تنقي الحبوب من الرمل والحصى. .

* * *

رغم كل شيء فالحياة تسير كما هي برتابة مملة رغم غيابه. . استقبله سكان «الصبل» الزوجة والأولاد وثوره الحبيب والبقرة والدجاج بودٍّ ارتاح له نفسياً وغسل كل أحزانه. .

* * *

خابت آمال وأحلام الزوجة لفشله في الحصول على «القرضة» من الأمير، لكنها انبهرت بما هو أهم من ذلك، بما حمله معه وطرحه أمامها مزهواً، ذلك الشيء، الكنز، الذي يبهر الأبصار وينعش الأفئدة وجميع الحواس. . !

وتجمع الأبناء حوله يتطلعون مع أمهم بشغف إلى ذلك الشيء، الكنز، الذي خلب القلوب بعد أن قامت الأم الحكيمة بإغلاق المنفذ الوحيد وهو باب «الصبل» خوفاً من الفضوليين والحسدة، وما أكثرهم في القرية..!

ـ عود في عين الحسود...

هكذا قالت زوجته فارتاح لإيمانها بالتراث الذي كان كافراً به طوال حياته.. وردد أبياتاً من الشعر يحفظها عن ظهر قلب لفقيه القرية:

أقارب كالعقارب في أذاها فلا تركن إلى عم وخال
فكم عم أتاك الهم منه وكم خالٍ من الخيرات خالِ

***

تحلقوا جميعاً حول فطيرة يابسة وقهوة مرة يبلعون بها.. وذلك الشيء، الكنز، أمامهم يلمع فتلمع عيونهم.. وتداعبهم أحلام المستقبل، تكاد تتحقق مع بزوغ الفجر.. يقضون ديونهم ويسددون قرضات بيت المال، الإمام والزكاة و «صبرة الحسن»[1] وأجور العساكر المتراكمة، المطالب لها «عدل» و «أمين» القرية..

وفي أحلامهم بعد ذلك إصلاح «الصبل» الهادم واستصلاح ما صلب من الأرض وترميم جدرانها المدرجة وقلع جذور النباتات الضارة. أحلام كثيرة سيحققونها.. ثياب جديدة وسراج جديد وفراش صوف أيضاً.. لعنوا الإمام وأمراءه وعساكره و «صبرته» وعماله «ومثمريه» وكشافه ومخمنيه وحكامه القضاة..

لعنوا وكلاء «الشريعة» والعدول «والمشايخ» والأمناء.. في ليلة انتشوا فيها حتى الثمالة..

الموقف أصبح صعباً وهو يحاول فتح ذلك الشيء، الكنز،. فلم يعرف طريقاً لفتحه.. بعد أن أدركه العجز.. وحاولت الزوجة والأولاد أيضاً ففشلوا.. وفكروا جميعاً بالاستعانة بالأقارب.. لكنهم أقارب كالعقارب..

(1) صبرة الحسن: الصبرة هي جمع ثمار القرية في مكان واحد.. والحسن هو سيف الإسلام ابن الإمام يحيى.

مؤذية لا يركن إليها.. واتته فكرة إثر ذلك الإحباط.. فاندفع نحو فأس غليظة وانهال على ذلك الشيء، الكنز، بضربات متوحشة يدكه دكاً.

تبعثر ذلك الشيء، الكنز،.. رماداً.. فتات فحم أسود.. على وجوههم ووجوه الأطفال وأجسامهم نصف العارية.. نظر الأطفال بعضهم إلى بعض ضاحكين لهذه اللعبة الجديدة التي لم يمارسوها من قبل مع أقرانهم في ساحة القرية..

وضحك الأب والأم أيضاً من أعماق قلبيهما..! لكنه كان ضحكاً كالبكاء..

قـف..
على جنب!

أحكمت إغلاق ما تبقى من زجاج نافذة السيارة على يساري.. كان الجو بارداً في ذلك الوقت من الليل.. والسحب كثيفة وقطرات مطر متفرقة تهطل.. هذا الوقت من الليل ليس متأخراً بالقياس إلى ما هو معتاد في بلدان العالم.. فالساعة الآن لم تتجاوز العاشرة. ومع ذلك تكاد الحركة أن تتوقف إلا من سيارات الجيش والأمن المتنوعة وبعض سيارات العسس بأرقامها المزورة..

كنت قد أوصلت زميلاً إلى مسكنه إثر جلسة جماعية في منزل زميل آخر بعد أن تناولنا «القات» في فترة القيلولة وتسلينا بحكايات شيقة ثم بلعب الورق. كنت دائماً حريصاً على أن لا أتاخر عن منزلي إلى مثل هذه الساعة.. لكنها حصلت..

استوقفني جندي مدجج بالسلاح عند منعطف الشارع الدائري.. أغلقت المسجل الذي كان يشدو بأغنية محببة «لفيروز»..

فتحت النافذة ونظرت إلى الجندي المدجج بالسلاح.. لم ينظر إليّ بل فتح الباب ومد يده إلى جوانب سترتي كمن يبحث عن شيء..

حاولت أن أكتم غضبي ولا أترك له فرصة أن يندفع.. استسلمت.. ربما يبحث عن سلاح.!؟ قلت لنفسي: دعه يبحث فقد كثرت حوادث الثأر في هذه المدينة..

لكنه أمرني أن أفتح صندوق السيارة الخلفي.. دست على زره فانفتح.. بدون أن أخرج من السيارة.. غاب الجندي برهة ثم أقبل نحوي فأدرت محرك السيارة.. وقد اعتبرت أن الوضع قد انتهى.. مجرد تفتيش عادي..

قال آمراً ومشيراً بيده:

ـ قف على جنب . .

ـ لماذا . . ؟!

ـ على جنب . .

نظرت إليه مرة أخرى فوجدته جاداً مستنفراً . . ركنت سيارتي على الجانب الأيمن للطريق . .

الوقت يمر . . نظرت إلى ساعتي . . وجدتها قد تجاوزت العاشرة . . لابد أن يقلق أولادي وأمهم لتأخري . .

خرجت من السيارة . . كان الطقس بارداً مع رذاذ المطر المتساقط . . وقفت بجانب السيارة أنتظر وأنظر في الوقت نفسه نحو الجندي . . لم أكن قد هيأت ثيابي لتقيني البرودة القارسة وقطرات المطر المؤلمة . .

صاحبي الجندي لديه أردية غليظة تقيه كل شيء . . من زخات رذاذ المطر إلى زخات الرصاص . .

* * *

اتجهت إليه . . وأنا على يقين تام بأنه لا توجد أية أسباب أو مبررات لإيقافي على «جنب» . . لاشيء محظور . . لا منشور . . لا سلاح . . لا مشروبات روحية . . لا رقم سيارة مزور . . لا ضريبة لم تدفع . . لا أثر للشك بأن سيارتي قد ارتكبت حادثة مرورية . . .

حتى شكل سيارتي . . بسيط وصغير . . ولونها غير مزعج . .

ـ يا أفندم . . !

ـ نعم . .

ـ هل أذهب؟

ـ لا . .

ـ لماذا؟

لم يجبني بل أوقف سيارات أخرى وفتشها وانشغل بالحوار مع سائقيها . وقفت منتظراً . . قلت له وأنا أتبعه :

ـ أهنالك مخالفة مني تستوجب توقيفي على جنب . . ؟!

نظر إليّ شزاراً وقال:

ـ أنا قادم إليك تواً..

حمدت الله بأنني تشرفت بهذه الإجابة التي توحي بأن مظهري محترم لديه كما كنت قد تخيلت..

توجه نحو صندوق سيارتي الذي كان ما يزال مفتوحاً وجذبني من كتفي قائلاً:

ـ ما هذا..؟

ـ كأس..!

ـ ما هو..؟

ـ كأس فارغة..!

وأزاح بطانية كانت مرتبة في ركن من أركان صندوق السيارة وقال:

ـ وهذه...؟

ـ بطانية وكأسان فارغتان أيضاً..

ـ فارغتان مماذا أيها المحترم..؟!

تعجبت من هذا الاستفزاز وابتسمت..:

ـ فارغتان إلا من الهواء..؟!

لم تعجبه شبه النكتة التي قلتها..

ـ ماذا كان بداخلهما؟

ـ لا شيء كما ترى!

شمهما بأنفه ثم أرجعها إلى مكانهما بعنف.. نظر إليّ وقال:

ـ ماذا كان بداخلهما؟

ـ لا شيء.. كما ترى..!

توقف برهة.. كان زملاؤه يفتشون السيارات الأخرى التي يصطادونها في مثل هذه الساعة من الليل..

نظر إليّ قائلاً:

ـ أين كنت..؟

ـ عند زميل..

ـ ماذا تفعلان؟

ـ نتحدث.. حديث «مقيل قات».

ـ عماذا تتحدثان؟

هممت أن أقسو في إجابتي.. لكني تمهلت وأجبته:

ـ أضروري أن تعرف؟

ـ نعم..

ـ بأي حق.؟

ـ هكذا..

ـ هكذا..؟!

ـ نعم هكذا..

ـ عن القات: هل هو مشكلة أم قضية وطنية.. عن الزملاء والأصدقاء..

ـ ومن هم؟

ـ أنت لا تعرفهم يا أخي!

ـ نحن نعرف كل شخص في المدينة!

ـ سبوح قدوس..!

ـ أتسخر مني؟

ـ معاذ الله!!

ـ هذه الكؤوس الفارغة!.. ماذا شربتم فيها هذه الليلة؟

ـ لم نشرب شيئاً فيها..!!

ـ أريد تفسيراً معقولاً..!

ـ هي خاصة بالأطفال أيام العطلات.. يشربون فيها العصير والماء..

ـ ها.. عصير وماء..؟

قالها وهو يدحرج الكؤوس بأرضية صندوق السيارة.. أثارني فقلت:

ـ لقد تجاوزت حدودك.. بأي حق تستوقفني.. وأي قانون يخولك أن تتصرف معي هكذا..؟!

توتر الموقف موحياً بأنه سيؤول إلى وضع سيئ. . لكني كنت قد وصلت إلى ذروة الغضب والشعور بالمهانة وكان ذلك يدفعني عادة إلى الاندفاع ببسالة وإلى المقاومة العنيفة مهما كلفني ذلك من ثمن. .

نزل الجند من فوق سيارتهم المكشوفة «الطقم» مدججين بكل أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة وبملابسهم العسكرية المموهة وخوذهم أيضاً الخاصة بالاقتحام «الكمندوزي». . !

كان وقع رذاذ المطر على رأسي شبه الأصلع وعلى جسمي يؤذيني. . دخلت برغم تجمعهم حولي السيارة وأغلقت بابها وفتحت المسجل. كانت «فيروز» ما تزال تشدو بأغنيتها المحببة إلي. .

وأدرت محرك السيارة. . تشنج الجند واحتاروا فيما يفعلونه إذا انطلقت بالسيارة. .

توقعي كان أنني إذا أقدمت على ذلك فإنهم على الأقل سيقومون بإطلاق زخات من أسلحتهم على السيارة وعلى إطاراتها بالتحديد. . وكنت على يقين بأنهم سيبررون ذلك حتى لو نتج عن تصرفهم مقتلي بأنني مخرب خارج على القانون. . وقد عثر بداخل سيارتي على أسلحة ومنشورات وخمور أيضاً. . وبأن أربعة رفاق كانوا معي في السيارة استطاعوا الفرار وما يزال رجال الأمن يبحثون عنهم وربما قد عثروا على بعضهم وسيقدمون إلى محكمة أمن الدولة العليا. .

دار في ذهني كل ذلك فأوقفت محرك السيارة. . وأوقفت حتى المسجل الذي كان يشدو بأغنية «فيروز» المحببة إليْ. .

انتبهت لصمت الجند المشاغب ووقوفهم بحركة آلية كأنهم تماثيل جامدة. .

كانت سيارة لا تحمل رقماً. . رمادية اللون قد وقفت بجانبي. . وكان بداخلها شخص تحدث إلى قائد الجند. . شعرت بأن الحديث يخصني. .

جاء الجندي إليّ قائلاً:

ـ الأفندم يريدك. .

ـ أفندم من. . ؟

ـ الأفندم.. ضابط عظيم..

ـ ما عظيم إلا الله..يأتي هو..

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد سمعت ما قلته..

استشاط غضباً.. وعاد إلى الأفندم.. ودار حوار طويل بينهما..

ترجَّل الأفندم فنزل جند حراسته الخاصة من أمامه وخلفه وعن يمينه ويساره.. أقبل نحوي كطاووس متباهٍ..

مد يده قابضاً على طرف النافذة بعد أن تأملني جيداً ثم قال:

ـ ما قضيتك؟

ـ ليس لي قضية..

ـ أيعقل هذا.. ونحن الآن في منتصف الليل؟

ـ أنا هنا منذ الساعة العاشرة.. أوقفت بدون مبرر..

ـ .. بدون مبرر؟

ـ نعم..

ـ لا يعقل ذلك!

ـ ...

ـ وكل هؤلاء الجند المحيطون بك.. بدون قضية..؟

ابتسم قائلاً:

ـ ... ليس تعنتاً كما تعتقد.. لابد من أنهم عثروا على ما يبرر إيقافك على جنب..

ـ إسألهم المبرر والسبب الذي دعاهم لإيقافي حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل وفي هذا الطقس الرديء..

قدم الجندي الشرس الأول فنظر إليه «الضابط العظيم» مستفسراً.. فقال الجندي:

ـ عثرنا على كؤوس فارغة وبطانية..

ـ وماذا في ذلك..؟

أجابه «الضابط العظيم».

ـ الكؤوس من النوع الخاص بالخمور.. والبطانية من النوع الخاص بممارسة الزنا والجنس..

ـ ما هو الدليل؟

ـ يا أفندم.. الدليل واضح جداً.. كؤوس خاصة بالخمرة وبطانية ناعمة خاصة بممارسة الفاحشة.

* * *

كان الإثنان يتحاوران تحت قطرات المطر وأنا قابع على كرسي القيادة.. وفجأة أدخل الضابط العظيم رأسه من نافذة السيارة وقال:

ـ أعرف أنك قد سمعت حواري مع الجندي المناوب..!

ـ ربما..؟!

ـ ما ردك..؟

ـ الكؤوس الفارغة هي لأطفالي يشربون بها الماء.. وأما البطانية فأمهم تفرشها في الحديقة العامة لسيتريح عليها الأطفال في يوم الإجازة..!

ـ حديث مستوحى من التراث..!!

ـ نعم..

* * *

ـ اتبعني إلى القسم..

ـ أي قسم؟

فتح باب السيارة وجذبني نحوه.. تحملت ذلك بالرغم من رذاذ المطر المؤذي.. جذبته أنا أيضاً نحو الصندوق الخلفي للسيارة الذي ما زال مفتوحاً.. وقلت متسائلاً:

ـ هل هذه الأشياء دليل على الجرم المزعوم؟

ـ نعم..

تناولت الكؤوس.. ورميتها واحداً إثر الآخر لتنكسر فوق الرصيف وأخذت «البطانية» ورميتها أيضاً على الرصيف..

كنت على استعداد أن أرميه أيضاً وأنهي هذه الحالة السيئة من الامتهان.. كان التحفز من جانبه وجانبي قد بلغ ذروته.. كنت مستعداً أن أمسك بتلابيبه وأجهد نفسي على الانتصار عليه وكان هو الآخر متحفزاً أيضاً بسلاحه وبزته العسكرية وجنده المحيطين به..

فجأة أوقف الجند سيارة «صالون» فارهة وأقبل أحد الجنود صائحاً..

- يا فندم..

وهمس في أذنه.. فهرعا معاً نحو السيارة الصالون الفارهة.. نظرت نحوهما وقد تجمع الجند حول تلك السيارة وحوار صاخب يدور.. أقفلت صندوق السيارة الخلفي واتجهت إلى مقعدي وأدرت محرك السيارة وانطلقت بها..

كنت أنظر في المرايا العاكسة لأرى إن كان أحد يتبعني. لم أضئ أي أنوار خلفي.. قلت لنفسي.. لقد عثروا على صيد ثمين حقيقي فعلاً..

تجنبت الشوارع الرئيسة وسلكت الأزقة الفرعية الموحلة خوفاً من لقاء جنود آخرين أو «ضابط عظيم» آخر!

كان الوقت فجراً عندما وصلت أمام باب منزلي..

أوقفت السيارة ونزلت لأقرع الجرس.. لكن الباب كان قد فتح قبل أن أضع إصبعي على الزر..

كانت الزوجة في انتظاري بلهفة.. احتضنتني بشدة والأطفال وراءها فرحون وكان السهر قد أعياهم..

دخلت صامتاً.. وارتميت على الأريكة.. وقد تجمع الكل حولي.. كانت أمامي الخزانة الزجاجية المليئة بالتحف والكؤوس والصحون والأشياء الخاصة بالسفرة..

نهضت فجأة، أخذت جميع الكؤوس المشابهة لتلك وفتحت الباب وقذفت بها الواحدة إثر الأخرى والزوجة والأولاد يتفرجون في دهشة..

استدرت إليهم باسماً وارتميت على الأريكة وقبل أن يعلو شخيري كانوا يعودون إلى غرفة نومهم وعلامات الدهشة ما تزال عالقة بأجفانهم المثقلة بالنوم!

صنعاء: 8/ 8/ 1988م

أحزان البنت مياسة

كم يغمرني الحنين صباح كل يوم جمعة، يوم عطلتي الأسبوعية، يوم التنزه في الحديقة العامة الوحيدة في مدينتنا، أقضيه مع أفراد أسرتي في التمتع بالخضرة والهروب من غبار وهموم وكآبة وأوساخ المدينة..

نستظل بإحدى أشجار الحديقة الوارفة، وينعم الأطفال على البساط الأخضر المشذب والمعتنى به.. يمارسون ألعابهم الكثيرة من الكرة إلى الشجار..

* * *

أصبحت الحياة عندي رتيبة ومملة في هذه الأيام ربما أكثر من أية فترة سابقة.. الذهن لم يعد كما كان متوقداً بالنشاط.. فقد خمدت ومضاته وأصبحت رماداً.. قد أعلل النفس بانتعاش ذهني مستقبلاً.. لكنني أيقنت بعد عدة محاولات بأن الذهن جامد وخامل ومستسلم أيضاً!.

* * *

وقت «المقيل» في موعده كما هي العادة بالساعة والدقيقة.. بعد ظهر كل يوم.. نقضيه مع أصدقاء وزملاء.. نناقش فيه أخبار العالم البعيد والشعر الحديث والقديم،، وإذا تمكنا قرأنا بعض نصوص أدبية.. قصيدة شعرية أو قصة قصيرة أو نقداً أدبياً ولا شيء غير ذلك..

وبرغم صداقتنا الطويلة ولقائنا الدائم.. إلا أننا نخفي هوياتنا الفكرية والسياسية عن بعضنا خوفاً ووجلاً من الآخرين.. فلا يخلو أي «مقيل» لنا من دخلاء يعكرون صفو الانسجام ويصيبوننا بالتبلد إلى درجة لا يستطيع أي فردٍ منا معرفة أحوال صاحبه الآخر.. وحتى الأحداث العادية التي تجري في محيط الحياة التي نعيشها..

* * *

القراءة والنقاش في مجال الأدب والتراث والتاريخ هما محور «مقيلنا» نلوكه مع «القات». وفي هذا الزمن الرديء المر من النادر العثور على كتاب هادف.. سواء في مجال الأدب الجاد أو السياسة أو الاجتماع أو الفلسفة..

جاء دوري لكي يكون في متناول يدي كتاب اعتقدته هاماً.. إنه رواية لكاتب عربي جيد قدمه لي أعز صديق لي في الحياة وفي «المقيل» اليومي..

* * *

كان صباح يوم جمعة مشرق.. الرياح ساكنة لا تثير أية زوابع أو دوامات من القمامة والأتربة والقراطيس الملونة..

كان الأطفال قد نالوا قسطاً من النوم العميق يعوضهم عن نومهم القلق طوال أيام الأسبوع الدراسية.. وأمهم قد أعدت أمورها المنزلية في اليوم السابق.. ولا أدري كيف توفر لها هذا القدر من الابتسام في هذا الصباح..

لا توجد مشاكل.. حتى السيارة لم تخذلني. فقد تجاوب محركها منذ «القرعة» الأولى للمفتاح.. ولا أدري كيف ساعدني الحظ هذا الصباح في العثور على جواربي بسهولة بين مجموعة الجوارب المتنوعة التي أصبحت متنافرة.. كل جورب ناقص فردته الأخرى..!

ألقيت نظرة فاحصة على كل شيء في المنزل، وكذلك فعلت زوجتي..

«البوتجاز» مقفل، حنفيات المياه مقفلة أيضاً وبإحكام.. القطط تستطيع أن تجد لها نافذة صغيرة للخروج والدخول.. وهي تشكل ضماناً للمنزل في حالة تسرب بعض الغاز وكثيراً ما يحدث ذلك.

الكلب العجوز رابض ـ كعادته صباح كل يوم ـ بجوار جذع الشجرة داخل الحديقة. أغلقنا باب المنزل وكذلك باب الحديقة.. الأطفال لأول مرة يرتبون أماكنهم داخل السيارة الضيقة بدون صياح أو شجار، فهم كُثُرٌ والسيارة تشكو من تزاحمهم..

كنت قد قرأت بعض فصول تلك الرواية.. كم شدتني إليها!! وكان صديقي حريصاً عليها عندما أعطانيها للقراءة. على صفحاتها الأولى بعض تعليقات كتبها بخطه المعروف رغم حرصه الشديد.. ولكن ثقته بي جعلته يقدم لي الرواية بدون أن يشطب ما كتبه على صفحاتها من تعليقات وهوامش حرصاً على أن لا يعرفها أي شخص آخر..!

لم يوقفني ذلك المساء عن التهام الرواية سوى حرصي الشديد على أن أصحو مبكراً للذهاب بالأولاد وأمهم إلى الحديقة.

* * *

استطعنا بعد جهد وضع السيارة في مكان مناسب أمام الحديقة.. أول حديقة في مدينتنا البائسة.. احترمها الناس وأخذوا أنفسهم بالتعود مع أطفالهم بالتدريج على عدم قطف أزهارها..

كنا قد أخذنا إفطارنا معنا.. وهو إفطار متنوع.. مع مشروبات غازية.. وصحف ومجلات و «تسالي». كانت الرواية المغلفة بأوراق الصحف من ضمن ذلك الخليط..

حين اقتربنا من الحديقة كان كل واحد من الأولاد قد التزم بأن يحمل شيئاً بيده. أما أنا وأمهم فكان همنا هو الأطفال الصغار.. نمسك بأيديهم خوفاً من الضياع في بوابة الحديقة المزدحمة..

عهدت للبنت مياسة بأخذ الصحف والمجلات والرواية.. فجمعت الكل بين يديها محتضنة إياها وسارت أمامنا تشق الزحام.

كان مكاننا المفضل معروفاً في الحديقة.. هو ركن إلى اليسار قرب مدخلها نستظل بأشجاره، وأمامنا بساط الحديقة العشبي الأخضر يمارس عليه الأطفال ألعابهم المحببة وغير المحببة مع زملاء لهم في الدراسة يجدونهم صدفة في ذلك الركن من الحديقة.

* * *

تناولنا إفطارنا.. ثم بدأ الأولاد ألعابهم وبدأت أنا أبحث عن الرواية لكي أقرأها. كنت شغوفاً بأن أصل معها إلى النهاية في هذا المكان الجميل، وخصوصاً أن الزوجة قد بدأت تجول بنظرها على النساء تحت الأشجار عسى أن تجد صديقة لها تثرثر معها ـ كما هي العادة ـ في أمور تهمها ولا تهمني..

فتشت عن الرواية.. لم أجدها بين الصحف والمجلات ولا بين مخلفات إفطارنا.. لاحظت الزوجة قلقي.. سألتني.. بحثت معي.. لا فائدة..

استدعينا البنت مياسة التي كانت قد حملت الرواية مع الصحف والمجلات وقطعنا عليها اندماجها في اللعب:

ـ مياسة.. أين الرواية؟

ـ الرواية..!؟

ـ الكتاب.. الكتاب الذي كان مع الصحف والمجلات..؟

ـ لا أدري..!

ـ كيف لا تدرين وقد أخذته مع المجلات والصحف؟

ـ هذا كل ما أخذته..

ـ إذهبي..

كنت على يقين بأنها نسيته في السيارة..

قالت الزوجة:

ـ سيذهب أحد الأولاد لإحضارها من السيارة..

أعطيته المفتاح.. كان القلق يبدو عليَّ وعندما لاحظت الزوجة ذلك مضت تتمتم بالدعاء. عاد الولد.. ونظراتي مسمرة عليه من بعيد.. لا يوجد في يديه شيء.. عللت نفسي.. ربما يكون قد وضع الكتاب في بنطاله أو تحت الفانلة الصوف.. ربما عرف خطورة ما يحمله..!

واقترب. لا شيء يدل على إخفائه تحت بنطاله أو تحت الفانلة الصوف.. ربما كان عجولاً فلم يبحث جيداً..

قمت وأخذت منه المفتاح واتجهت صوب السيارة، ورمقتني البنت مياسة بوجل.

فتشت السيارة.. لم أجد للكتاب أي أثر.. ربما يكون قد وقع منها من بين الصحف والمجلات المصقولة والأوراق في بوابة الحديقة..

زاحمت خلق الله المكتظين عند البوابة الخارجين منها والداخلين إليها..

لا وجود له.. تابعت أثرنا على طريقنا المعتاد نحو ركن الحديقة المفضل. لم أجده.. وعدت إلى مكاننا. كانت البنت مياسة ترمقني بنظراتها الوجلة الفزعة.. وثار غضبي عليها فانهارت باكية..

* * *

في «المقيل». . كنت حزيناً وخجلاً من أن يسألني صاحبي عن كتابه الذي ضاع. . ومر «المقيل» كعادته في قراءة ونقاش. .

قال صاحبي:

ـ مالك. . ؟!

فارتعش رأسي ونظرت إليه. . قلت:

ـ متعب.

ـ هل أثرت فيك الرواية؟

ـ بعض الشيء. .

وقطع حوارنا قدوم دخيلٍ على مقيلنا. . صمت صاحبي عند دخوله وأخذ صحيفة ملقاة بجواره ومضى يقرؤها في صمت. .

* * *

مياسة لم تذهب إلى المدرسة كعادتها كل يوم. .

قلت لأمها:

ـ لماذا تأخرت مياسة عن المدرسة. . ؟

ـ مريضة. .

ـ مريضة؟

ـ نعم. .

ـ منذ متى. . ؟

ـ منذ البارحة. .

واتجهت صوب مرقدها. . كانت متشنجة وقد لفت جسمها بالغطاء وكأنما شعرت بقدومي نحوها فكتمت أنفاسها. .

كانت الأم عابسة بملل. . حركاتها لا توحي بالصداقة المعتادة وحسن الجوار في المرقد والعشرة الطويلة. .

* * *

«المقيل» كما هو. . والقلق ما زال يساورني ويعذبني كثيراً. . حضوري إلى المقيل هذا اليوم كان غصباً عني. . السؤال نفسه وقبل وصول الدخلاء:

ـ أعجبتك الرواية . . ؟

ـ نعم . .

ـ ألم تلاحظ . .

ولم يكمل حديثه، حيث قدم أحد الدخلاء فأخذ الصحيفة ليقرأها بصمت، وحمدت الله للمرة الثانية على وجود الدخلاء في مقيلنا . . !

* * *

البنت مياسة غابت مرة أخرى عن المدرسة . . والأم زاد حزنها المختلط بالعبوس . . واقتربت من طفلتي المدللة الملقاة على الفراش . . كانت متشبثة بغطائها لا تريد أن يراها أحد أو أن ترى أحداً . .

فزعت في منتصف الليل لصياح مياسة . . قمت وأضأت النور . . تفقدتها أنا ووالدتها التي ما زالت عابسة جداً . . وهمدت تشنجاتها . .

البنت مياسة أصابها الخمول . . نحل جسمها . . أصبحت الكآبة ملازمة لها . . صورتها تغيرت . .

كانت مياسة البنت الدلوعة المؤدبة المرحة التي تدخل البهجة والفرحة إلى القلب في أحلك أوقاتي الصعبة وما أكثرها . . !

يا إلهي . . لن أجد غيرها من يسعدني ويدخل البهجة والفرحة إلى نفسي . . ويمسح غبار الكآبة والألم و«الأرق» من على وجهي . . !

البنت مياسة صغيرة . . لن تفهم مشاعري عندما أقدم اعتذاري وأسامحها على ضياع ذلك الكتاب، لن تفهم مطلقاً . . !!

لم يعد ضياع الكتاب يهمني . . أصبحت الآن خائفاً على ضياع مياسة . . تلك البهجة الدلوعة المحببة إلى نفسي . . هي وهج الحياة وهي الحياة بذاتها التي أحبها ولولاها لضاقت الدنيا بي . .

* * *

ـ اتق الله . . مياسة في حالة يرثى لها . . !

ـ ماذا أفعل . . ؟ أريدها أن تنسى . .

ـ كيف تنسى . . ؟

ـ لا أدري. .

ـ لو كان كنزاً قد أضاعته لما كنا في هذه الحالة. .

ـ ماذا أفعل. .؟

ـ مجنون أنت. . ولن أتحمل بعد الآن هذا العذاب. .

وتريثت برهة. . ماذا أقول لها. . أصبحت الأمور متأزمة جداً انعكست على نفسياتنا جميعاً. .

ـ لم أكن مخطئاً.

ـ يا رجل. . البنت مياسة أصبحت في حالة سيئة جداً. .

وتريثت قليلاً ثم استرسلت قائلة:

ـ لقد قررت النزوح معها إلى قريتنا بعيداً عنكم عسى أن يفيدها ذلك. .

* * *

غبت اليوم كله. . منذ الصباح حتى آخر الليل عن المنزل والزوجة والأولاد عسى أن تنسى مياسة. . عدت متأخراً قرابة منتصف الليل. . فتحت لي الزوجة باب المنزل بضجر واضح. . كان همي الوحيد أن أجد مياسة راقدة في مكانها المعتاد كما هي سابقاً في حالة طبيعية. .

اقتربت منها. . كانت قد همدت منذ فترة، لكن التشنج ما زال يصدر عنها وهي نائمة. . تألمت لذلك. . ومررت بيدي على جبينها. . كان ساخناً وكان التشنج ما يزال مستمراً. . لم أحتمل البقاء في الغرفة فنمت في الصالة على الأرض لأول مرة. .

* * *

صاحت مياسة صباح يوم الجمعة ونحن مزمعون على الذهاب إلى الحديقة:

ـ لا أريد الذهاب إلى الحديقة. . أريد الذهاب إلى أي مكان آخر. .

أوقفت السيارة وحاولت مع والدتها وإخوتها إقناعها بأن الحديقة هي المكان المناسب الوحيد الذي نرتاح له جميعاً. .

تشنجت وفتحت باب السيارة ثم قفزت منها مهرولة. كان الشارع مزدحماً بالسيارات العابرة فأسرعت نحوها وضممتها إلى صدري مهدئاً روعها وخاضعاً لرغبتها..

سألتها وقد ركبت السيارة:

ـ أين تريدين الذهاب يا مياسة..؟

وضج الأولاد الآخرون بأنهم يريدون الذهاب إلى الحديقة فنهرتهم، فقالت:

ـ أي مكان آخر.

ـ مثلاً..؟

ـ أريد الذهاب إلى المطار.

ـ حسناً.. وسنشاهد الطائرات حين تقلع وحين تهبط.. منظر جميل..

وابتسمت مياسة وعبست وجوه الأولاد الآخرين، فنهرتهم بحزم واتجهنا نحو المطار الذي اختارته مياسة كمكان لنزهتنا.. ربما في خيالها أنها تريد أن تقلع من البلد وتطير بعيداً بعيداً إلى أرض فيها الابتسامة أرحب..

* * *

عدت من المقيل كعادتي متأخراً، وكان الأولاد كعادتهم في الصالة يواصلون إزعاجهم لوالدتهم ولبعضهم البعض.. وحين دخلت عليهم كنت قد فرشت على شفتي ابتسامة عريضة لعلّي أتلقى مقابل ما أحمله من الفواكه الممنوعة.

لم تكن مياسة بينهم.. طرحت ما حملته من فاكهة على الأرض وكانت الزوجة عابسة في ركن من الصالة تقرأ القرآن الكريم، واتجهت نحو مرقد مياسة.. كانت راقدة.. وحين أضأت النور اهتز جسمها وتشنجت..

وتكالبت عليّ هموم الكون وأحزانه.. لم أعد أطيق هذا الوضع وهذه الحالة التي وصلت إليها مياسة.. كرهت الكتب وتمنيت أن أكون أمّياً مع أطفالي ومياسة في كوخ.. بعيداً عن هذا الكون..

أصبحت أنا المريض.. أصبحت أنا المتشنج، أصبحت أنا الوجل، أنا الخائف.

* * *

دلفت إلى مكان المقيل كالعادة والقات معي.. اتكأت في مكاني المعتاد.. كان بعض الزملاء قد سبقوني إلى المقيل ولحق بعضهم الآخر بعد ذلك..

كنت مكتئباً بالرغم من أن النقاش هذه المرة كان محوره الحرية والديمقراطية وحرية الفكر والإبداع وحرية الرأي.. إلخ.

كانت وما زالت وستبقى إلى الأبد هذه القضايا تهزني وتحتل كل هاجسي واهتمامي بها.. لكنها اليوم وأنا بهذه الحالة وحالة البنت مياسة، ذلك الضمير الحساس، الحر، تشغل كل همومي.. لم يعد للخيال المبدع أي مكان في وجداني ولا حتى مجرد التفكير به..

إضافة إلى كل تلك الكآبة النفسية في مقيل اليوم كنت أتوقع أيضاً سؤال صديقي العزيز حول الكتاب كما كنت أتوقع في اللحظة نفسها قدوم أحد الدخلاء لكي يعفيني من سؤال صاحبي.. وقد حصل.. فقد سأل صاحبي عن الكتاب، وقبل أن أنتحل إجابة كاذبة دخل أحد الدخلاء فصمت صاحبي وتناول صحيفة.. وارتحت لذلك..

* * *

كان يوم جمعة آخر حاولت تهيئته منذ المساء عسى أن نقضي جميعاً يوماً دافئاً جميلاً في حديقة المدينة الوحيدة..

لم تكن البنت مياسة تعتقد بأننا متجهون نحو الحديقة.. لقد كانت مؤامرة محكمة دبرت في الليل بيني وبين الزوجة والأولاد الآخرين..

لم تلاحظ مياسة إلا ونحن أمام بوابة الحديقة المكتظة بالناس وبالباعة المتجولين.. كانت تريد الهروب.. ولكنها أذعنت في النهاية عندما رأت تصميمي وتصميم والدتها ورغبة إخوتها في الدخول إلى الحديقة، فدخلت معنا كأنها شاة تساق إلى المجزرة..

لم يكن معنا صحف أو مجلات أو كتاب..

* * *

جلسنا بعد بحث طويل تحت شجرة تتوسط الجزء من ساحة الحديقة المفضل لدينا.. كانت مؤونتنا كالعادة من طعام الصباح جاهزة للتناول.. وكانت مياسة واجمة كأنما حملت هموم الدنيا والآخرة.. لم تنضم إلينا في دائرة مائدة الطعام، ولم تشارك إخوتها ألعابهم المفضلة من الكرة إلى الشجار.. وبرغم وفرة وجبة الإفطار فقد كنا نحتاج إلى ما نتسلى به، خصوصاً أنا والزوجة، فضلاً عن حاجتنا إلى المشروبات الغازية المعلبة التي يتهافت عليها الأولاد..

قررت مع الزوجة أن ننتدب مياسة مع مرافق لها من إخوتها الكبار لكي تشتري لنا بعضاً من تلك التسالي والمشروبات الغازية المعلبة..

مانعت في البداية لكنها وافقت بعد إصرار.. فذهبت مع مرافقها وقد حرصنا على أن تكون النقود بيدها لكي تشتري كما تريد وتعيد ما تبقى منها..

وعادت مياسة وقلوبنا تخفق وأنظارنا ترصدها منذ دخلت بوابة الحديقة حتى وصولها إلينا مع مرافقها وبأيديهما ما تم شراؤه..

كانت التسالي ملفوفة في قراطيس بعض الجرائد والصحف والكتب المهملة. وكانت مفاجأة أذهلتني وجعلتني أنهض واقفاً صائحاً..

- لقد وجدتها..!

وتساءلت الزوجة والأولاد.. ومياسة ما زالت واجمة..

- لقد وجدتها.. وجدت الكتاب الضائع..!

كانت إحدى أوراق الكتاب الضائع بيدي.. ارتسمت على شفتي مياسة ابتسامة فرحة وعاد وجهها إلى نضارته السابقة المعتادة.

كانت قد وقفت ثم هرولت متجهة نحو بوابة الحديقة، وتبعها إخوتها وقد أخذوا بعض النقود لكي يشتروا بعض التسالي عسى أن يجدوا أوراقاً أخرى من ذلك الكتاب الذي ضاع..

صنعاء: 14/ 3/ 1985م

الذي أضاع أمه..

ـ سيدي.. لقد أضعت أمي..

لم ينظر الرجل إليه، بل واكب سيره المسرع القلق.. والصبي يهرول لكي يحاذيه.

ـ سيدتي.. لقد أضعت أمي..

نظرت المرأة إليه شزراً وتلمست محفظتها اليدوية بحركة تلقائية.. وسار الصبي بجوارها إلى أن وصل إلى نقطة البداية..

كان قد وضع لنفسه حدوداً لا يتعداها على الرصيف أمام المتجر الكبير الذي يحتل الدور الأرضي لعمارة عملاقة تعانق السحاب..

ـ أيها السيد المحترم.. هلا ساعدتني؟

نظر إليه الرجل ويداه في جيبي معطفه الدافئ، وواكب سيره..

ـ لقد أضعت أمي..

ـ أوه..! ستجدها يا عزيزي..

* * *

سقطت من عينيه دموع ساخنة.. كان قد أجهد نفسه أن لا يستسلم للحزن والبكاء خوفاً من أن يفقد توازنه الذهني الذي يجب أن يكون مركزاً في هذه اللحظات الحرجة لكي لا يتوه في غابة المدينة المتوحشة.. وتبتعد أمه كثيراً عن الدائرة التي رسم حدودها على الرصيف المحاذي للمتجر الكبير الذي يحتل الدور الأسفل من البناية العملاقة التي تناطح السحاب..

كان عليه أن يستريح.. يبلع ريقه.. يعيد الذاكرة، أين افترق عن أمه..

الدخان يخرج من أنفه وفمه.. تذكر الثور الأسباني في حلبة المصارعة..

كانت أمه قد حرصت قبل خروجها من المنزل أن تلبسه ثياباً صوفية اتقاءً لموجة البرد والصقيع.. كم كانت حنونة عليه.. تفقدته وهو يخطو معها عبر عتبة الباب.. اطمأنت بأنه على ما يرام.. أصلحت عنق «الفنلة» الصوفية على رقبته وشدت طاقيته الصوفية المزركشة على رأسه.. وتأكدت أن قفازيه الصوفيين على يديه.

كان يلحُّ عليها أن تأخذ معهما كلبهم الفتوة «مردونا»..

قالت له:

ـ سنذهب إلى المدينة.. إنها مدينة ولا كل المدن يا ولدي..

ـ نحن نأخذه معنا دائماً يا أمي..

ـ في الضواحي يا ولدي.. أما هذه المدينة فالوضع مختلف..

ـ سيكون داخل السيارة..

ـ لن نأخذه.

ـ لماذا؟

ـ خوفاً من سرقته..

ـ تشعرينني بالخوف يا أمي..

ـ سنستقل القطار..

ـ أفضل البقاء مع «مردونا»..

ـ أريدك أن ترتاد عالماً آخر..

ـ لماذا؟

ـ للمعرفة.. لقد كبرت.. نوعاً ما..!

وابتسمت أمه.. وابتسم هو أيضاً لأنه سيرتاد هذا العالم الآخر..

* * *

ـ سيدي.. إذا تكرمت..

ـ إبعد عني..

فأجأه الرجل بقسوة.. لكنه صمم وتحدث إليه مرة أخرى:

ـ أنا لا أشحذ منك إحساناً..

نظر إليه الرجل شزراً . .

ـ أضعت أمي . . أرجوك أن تساعدني في العثور عليها . .

تأمله الرجل ملياً وهو ما زال يمشي بجواره . . وجد أن هندامه ومظهره لا يوحيان بأنه شريد . .

تفاءل الصبي خيراً . . لكن الرجل قال:

ـ ستبحث عنك . . وستجدك . . لا تقلق . . !

* * *

توقف قليلاً يلمح الرجل وهو يمرق إلى الرصيف المقابل خوفاً أن تنتهي الإشارة الخاصة بعبور المارة . .

في المقابل كانت أيضاً تعبر الطريق امرأة عجوز مسرعة آتية إلى رصيفه الذي حدده . .

ـ سيدتي . .

ـ . . . .

ـ هلا ساعدتني!

ـ بماذا؟

ـ فقدت أمي . . أضعتها . . بل أضاعتني . .

توقفت العجوز متأملة كما بان على ملمحها . .

ـ هل ستساعدينني . . ؟

ـ . . . أوه . . بقدر الإمكان يا عزيزي . .

فرح كثيراً وعلته البهجة لهذه الروح الإنسانية التي افتقدها على هذا الرصيف . .

ـ أين فقدتها؟

ـ . . . دخلت معها هذا المتجر الكبير . . تجولنا معاً فيه . . كانت أمي مهتمة بشراء محتاجاتها . . . وكنت أنا مشدوهاً بالنظر إلى ألعاب الأطفال المتنوعة التي لم تكن واردة في قائمة مشتريات أمي . . و . . و . .

كان قد بلغ به الإعياء فوق تحمله . . فاستند على عمود النور مسترخياً على قارعة الرصيف بتدرج . .

أخذته المرأة العجوز من يده واتجهت به إلى باب المتجر الذي أقفلت أبوابه الزجاجية تلك اللحظة..

* * *

انكمش بجسمه في ركن بوابة المتجر الكبير.. وبدأ النوم يداعب جفنيه..

.. لم يكن معتاداً على السهر إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. ما زالت الأضواء تبهره.. وحركة السيارات تخف نوعاً ما.. وأشتات من الناس معظمهم خارجون من الحانات يترنحون ويطلقون ضحكاتهم المدوية..

بدأ جسمه ينساب تدريجياً مسترخياً.. وبدأت أصابع يديه تنسلخ عن بعضها ببطء عن ركبته..

«نكز» فزعاً فجأة.. لكن أصابع يديه ارتبطت من جديد خلف رأسه وقد مدَّ قدميه إلى الأمام..

حدث نفسه:

ـ أمي.. امرأة شجاعة.. هي بطلة.. لا تيأس أبداً.. لديها رجولة مستعصية..

بدأت أصابع يديه تنسلخ عن بعضها بهدوء وتنحدر عن قفا رأسه. ثم استقرت يداه على صدره..

حدث نفسه وهو شبه نائم:

ـ ستجدني أمي.. بالتأكيد ستبحث عني في كل شبر وتحت كل زبالة وفي كل منعطف.. وفي كل المحطات..

تنهد بارتياح..

ـ أمي بطلة.. إنها في طريقها إليّ..!

وعلا شخيره.. والابتسامة تعلو شفتيه..!!

القاهرة: 20/ 1/ 1988م

النــاسك

كان سكان الحارة يهابونه ويحترمونه.. ذلك الاحترام الخالي من الود.

لم يكن بالرجل الجائر القاسي أو من أصحاب النفوذ أو من أصحاب الحظوة عند ذوي السيف والصولجان..

كان أدق وصف له هو ما أطلقه عليه حكماء الحارة من الصالحين.. أنه ناسك في ديره أو زوايته أو تكيته.. وبعض المتحذلقين من سكان الحارة الذين انفتحوا على الجوار يقولون إنه مفكر وفيلسوف ينزوي في برجه العاجي.. بين أكوام من الكتب.. ربما كان بعضها مفيداً وبعضها الآخر كفراً بواحاً..!

هذا البرج أو الدير أو الزاوية أو التكية الذي يقطنه الرجل.. غرفة على سطح إحدى بنايات الحارة..

يدبر أمر معيشته كمخلوقات اللّه مع قطته الأليفة التي أصبحت جزءاً من حياته..

ـ لا زوج له ولا ولد، وربما لا أقارب له.. ماذا ينفعه في الحياة؟!

ـ أمثاله.. يكونون بخلاء مقترين على أنفسهم..

كان يسمع مثل هذا الحوار وأكثر منه وهو يسير في أزقة الحارة.. ومع ذلك لم يتعرض لأي أذى.. الكل يحترمونه ويهابونه.. وبعضهم يتمنى أن يعيش حياته..!

ـ رغم ورعه الظاهر.. فإنه يكاد يقطر سُماً..!

ـ تصور..إن تصرفاته في بعض الأحيان تبدو سادية.!

ـ لا حول ولا قوة إلا باللّه..! احكموا بالظاهر.. وما خفي فحكمه للّه..

يسمع هذا الحوار أيضاً أثناء عودته من عمله الروتيني البسيط..

ومع ذلك فهنالك من يحنو عليه ويرنو بحب صادق نحوه..!

* * *

هو.. ولوع بالقراءة والإطلاع، له إبداعات أدبية وفلسفية يقرؤها الناس والمطلعون منهم ويودون معرفته.. وبالذات أصحاب الاهتمامات الإبداعية في مجال الأدب والفن والثقافة والفلسفة.. عموماً المستنيرون القلة التي تمثل واجهة الحضارة التقدمية الإنسانية السمحة..

مقلٌ هو في ارتياده الأماكن العامة المشهورة التي يرتادها الأدباء وقليلو الأدب أيضاً..!

عزوف عن الظهور الملمّع حتى في عتمة الحارة، وأغلبية سكانها، أكثر سكان المدينة بساطة في الحياة والمعرفة.. ومن الذين منَّ الله عليهم ببسطة في الجهل..!

* * *

هاجت الحارة وماجت، واتجه بعض سكانها الأشاوس بمظاهرة غاضبة نحو البناية التي يسكن على سطحها..

كان قد سمع خطيب «الجمعة» في مسجد الحارة بواسطة مكبرات الصوت العديدة يسلط السيف على عنقه ويكفره ويحكم عليه بالموت.. لم يفزع كأرنب وجِلٍ.. بل ابتسم وهو يرنو إلى الجموع الهادرة من على سطح البناية..

* * *

كان قد كتب في إحدى الصحف مقالاً عن الجنة.. وقال فيه ما معناه أن الحياة في الجنة قد تكون مملة وراكدة ولا طعم لها.. لأنها تفقد الإنسان الحركة واللذة في المشقة والجهد للوصول إلى طموحاته.. وقال فيه أيضاً:

«إذا وفرت للإنسان كل رغباته بلا جهد فأي معنى لبقائه..!؟.. إنه يفضل الحياة الأخرى التي لابد أن تدفعه فيها الحاجة للابتكار والاختراع.. كاختراع مكيف الهواء مثلاً ليخفف من وهج حرارة النار..!»..

* * *

المال الذي يكسبه من عمله ينفقه في شراء الكتب والورق وأقلام الحبر وبعض الصحف والمجلات المتخصصة.. والنزر المتبقي ينفقه في أضيق الحدود على مطالب الحياة اليومية..

عاف السياسة وما يتصل بها. .بعد أن ذاق من أجلها مرارات الغربة وذلّ السجون والمعتقلات على أيدي زبانيتها. . كاد ذات مرة أن يفقد عقله المتزن الذي ما زال في اعتقاده أنه فقده فعلاً وهو يمارس حياته اليومية الراهنة. .

* * *

في فترة انتعاش الوطن حماسياً في كل المجالات والنواحي. . كان هو صوت الأمة. . وكان أحد معالم الوطن الشامخة. . أثرى المشاعر وألهب الوجدان بما يكتب وما يخطب وما يتحدث به للناس. . حتى وقع الوباء الذي عشعش في كل مكان. .

ابتسم لوصول ذاكرته إلى تلك الفترة التي مضت وهو يهتز على كرسيه باسترخاء. . ورجلاه ممتدتان على صندوق خشبي قديم على سطح البناية. . ويداه مشبوكتا الأصابع وراء رأسه. . يستمع إلى صوت هادئ خافت ـ كخفوت ليل المدينة ـ لمقطوعة من سمفونية لبتهوفن ينبعث من مسجله القديم العنيد. . بجواره قطته الأليفة الوديعة الوفية المستسلمة ليده الدافئة في حنان. .

ـ أُسعدت مساء. . بل أقول صباحاً، فقد تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. .

انتفض قائماً. . حاول إقفال المسجل. . لكن الزائر تودد إليه بأن يتركه ما دام صوتاً خافتاً. .

ـ عساك غير متألم من حشد هذا اليوم. .؟!

ابتسم ولم يجب. .

ـ تأكد أن أغلبهم لم يعوا ولم يريدوا أن يحدث ما حدث. .

ابتسم مرة أخرى ولم يجب. .

ـ تأكد أن معظمهم الآن في حالة تأنيب للضمير. . يحاولون التكفير عن عملهم. .

دخل إلى غرفته وأحضر كوباً إضافياً لزائره ليشاركه ليلته أو صباحه. .

صنعاء: 29/ 9/ 1987

رجل على الرصيف

القلق واضح على وجه صاحبي وعلى حركات يديه واهتزاز ركبتيه وطقطقة قدميه على قاع السيارة. قلق هو وأنا مثله..

كان صاحبي ينظر من نافذة السيارة الواقفة على الناصية، وأنا بجواره، نحو السيارات العابرة عن يساره بأزيزها المزعج.. أما أنا فأنظر إلى الرصيف بحكم موقعي على الجهة الأخرى من السيارة.

كان السائق المرافق لنا رسمياً قد تركنا ومضى ليصرف لنا دولارات بسعر السوق السوداء من إحدى البنايات عند أشهر تاجر من تجار العملة المخفيين.

كان القلق الواضح على زميلي وعليّ أيضاً له ما يبرره، إذ كنا نخشى أن يفشل المرافق الرسمي، لأن فشله كان يعني ضياع ما بقي في حوزتنا من مال لتسديد فواتير الفندق وقيمة تذاكر العودة إلى بلدنا.. كما كان يقلقنا أنه موظف رسمي أيضاً!

* * *

يمشي على الرصيف المبلط الهوينا رجل يبدو أنه يهمل مظهره الخارجي عن غير عمد، لكن الوقار المهيب كان متجلياً في ملمحه المتكامل للمارة جميعاً ولي.. يتوقف لحظات رغم تباطئه ليسند كتفه على عمود النور أو كشك الهاتف الزجاجي..

كان منهمكاً في القراءة.. في يده اليسرى كتاب يلمع غلافه الصقيل، يبدو أنه كتاب مهم..

* * *

ـ تأخر السائق..

انتبهت فزعاً لوقع يد صاحبي القوية على كتفي.. ولم أجبه..

ـ سارح أنت كأن الأمر لا يعنيك..!

ـ لابد أن يعود..

قلتها بعدم اكتراث فغمغم..

* * *

تركت صاحبي في دوامة وعدت أتابع الرصيف أبحث عن قارئ الكتاب صاحب الخطوات البطيئة المتكئ بكتفيه على عمود النور تارة وعلى كشك الهاتف الزجاجي تارة أخرى.. لم أجده في البداية.. فكدت أصاب بالقلق رغم أن الرصيف شبه خالٍ من المارة لكونه محاذياً لأبنية سكنية.. في معظم امتداد الشارع..

زال قلقي، فقد وجدته واقفاً شبه منتصب بترنُّح شبه واضح.. أكيد أنه منتشٍ ربما شبه ثمل أيضاً.. أقنعت نفسي بأنه مندمج وجاد.

اقتربت من نافذة السيارة لأدقق النظر رغم البرودة اللاذعة..

لكنه فجأة رمى بالكتاب إلى أرض الرصيف وتركه.. ومشى..

* * *

ـ تأخر الوغد..!

ـ لا تقلق...

* * *

الكتاب ما زال على بلاط الرصيف ملقى على وجهه كأنه قتيل من أبطال السينما أو المسرح.. وعاد بالخطوات البطيئة نفسها المترنحة نوعاً ما.. توقفت قدماه تجاه الكتاب.. وأحنى رأسه قليلاً ينظر إليه.. بينما أنزلت ما بقي من زجاج نافذة السيارة إلى آخره.

* * *

ـ أقفل زجاج النافذة..

ـ الهواء منعش.. نحن في فصل الصيف..

ـ صيف هذه البلاد كشتاء بلادنا..

* * *

أخذ الكتاب من جديد وخبط على غلافه يزيل ما تخيل أنه قد علق به من غبار الرصيف النظيف جداً والخالي من الأتربة والأوساخ . .

تذكرت . . كانت أمي تقول: «درجات منزل جارنا أحمد الشيخ يُلحس العسل من عليها لفرط نظافتها» . . ! تقول أمي ذلك بطريقة غير مباشرة لأخوتي وزوجة أخي الكبير المهملة لنظافة المنزل . .

* * *

ـ تأخر الوغد . . هذا وقت طويل لا يطاق . . لابد أن ندبر حلاً . .

ـ هوِّن عليك . . سيعود يا صاحبي . .

ـ ألا تعي بأنها كل ما تبقى لنا من الدولارات؟

ـ ولذلك سيعود . . دع القلق .

ـ وابدأ الحياة . . .

قالها صاحبي بتهكم .

* * *

قلَّب الرجل بعض صفحات الكتاب ثم توقف فجأة . . ورمى به إلى الأرض بحنق شديد . . وكاد أن يفقد توازنه بترنحه الواضح الذي بان لي الآن . .

* * *

ـ تأخر الكلب . . !

ـ أوف . . تأخر أو لم يتأخر . . أقلقتني!

ـ لستَ مهتماً . . ؟!

ـ . . لا .

ـ تقولها بملء فمك؟ يا إلهي!

ـ إهدأ ياصاحبي . .

* * *

أخرج الرجل من جيب سترته قارورة صغيرة وهو ما زال متكئاً على عمود

النور ورشف منها جرعة لا بأس بها.. وتريث قليلاً وقد أحكم إغلاق فم القارورة وأرجعها بترو وبحرص شديد إلى جيب سترته..

ثم اتجه بخطوات أخرى أسرع نحو الكتاب.. تناوله من جديد وفتح على الصفحة التي يريد أن يكمل قراءتها كما خُيِّل إليّ..

ترنَّح مرة أخرى بوقار، وعندما استقر توازنه توقف لحظة وبلَّل أصابع يده اليمني ليتصفح الكتاب وانهمك بترو.. والابتسامة تكاد أن تعلو شفتيه، وبلَّل أصابعه مرة أخرى من لعاب لسانه وقلَّب الصفحات الأخرى..

وتحولت الابتسامة إلى ضحكة خافتة.. لكنها اتضحت لي بصورة واضحة..

ـ هيه.. هل أنت معي؟!

هزني صاحبي من كتفي بعنف..

ـ معك يا أخي.. اتق الله..!

غمغم.. ولم أجبه..

* * *

رفع الرجل الكتاب بيده عالياً وهوى به إلى أرض الرصيف بعنف واضح.. ثم ركله بقدمه اليمنى.. ومضى ماشياً مترنحاً بوضوح الآن.. ولم يرسل بصره نحو الكتاب ولا أين استقرت به تلك الركلة العنيفة.. كان الرجل كمن سجل هدفاً في شباك الخصم..

* * *

فزعت بخوف وألم للطمة صديقي العنيفة التي لم أعهدها منه من قبل على كتفي وهو يصيح بي بفرح:

ـ لقد خرج من باب المنزل..

ـ من هو..؟

ـ أغبيٌ أنت..؟!

لم يفرح الرجل بنتيجة قراره السابق.. بل عاد من جديد وأخذ الكتاب ومسح على غلافه بحنان ثم جلس على الرصيف مسنداً ظهره إلى عمود النور يتصفحه من جديد..

* * *

كان السائق ـ المرافق الرسمي ـ قد عاد مهرولاً تبدو على ملامحه آثار الانزعاج وفتح باب السيارة بسرعة.. وارتبك وهو يدير محرك السيارة.. لينطلق فزعاً هارباً.. ارتطمت ظهورنا ورؤوسنا بمؤخرة كرسي السيارة الخلفي.. وحاولت فتح باب السيارة أريد الخروج منها. لكنها كانت مسرعة بصورة مخيفة..

صنعاء: 4/ 10/ 1987م

ليلــة..!

انتظره في مطعم الفندق.. تأخر كثيراً.. كم يكره السهر خارج غرفته. ومع ذلك تحلى بالصبر، عسى أن يأتي ذلك الصديق..

قدمت له الوجبة تدريجياً.. كان منتشياً بدرجة معقولة.. وبدأ زبائن المطعم يتركون موائدهم ليشاركوا في حلبة الرقص.

تأمل الوجوه العابرة من أمام مائدته الصغيرة.. فتيات وفتيان معظمهم على قدر كبير من الجمال والأنوثة الصارخة، مما دفعه للاسترخاء برجليه تحت المائدة بعض الوقت، والاتكاء بمرفقيه على طرف المائدة، بعض الوقت أيضاً، والتركيز على حلبة الرقص التي تعج بأولئك الشباب الراقصين، على نغمات الموسيقى الصاخبة.

تأخر صديقه.. بدا قلقاً.. لكن الرقص والموسيقى الصاخبة خففا من قلقه.. حيث بدأت النشوة تسري في الجميع.. والغمز والتودد يسود المحيط الراقص، وظهرت حركات الإغراء تدفعه للمشاركة في الرقص..

اندفعت نحوه فتاة منتشية وانتزعته من مقعده.. كان قد أمعن التركيز عليها بنظراته منذ البداية.. أعجبته فعلاً.. من بين ذلك الحشد الراقص.. لديها من الملاحة المحببة التي تفتن الألباب.. كانت تعرف أنه يركز بنظراته عليها، رغم أنه يتحاشى تحويل تلك النظرات إلى جهة أخرى عندما يشعر بأنها تنظر إليه بابتسامتها الساحرة..

بدأ يرقص معها.. جسمه يكاد يلتصق بجسمها.. ونهداها يكادان يحرقان صدره.. يفضل في هذا الموقف أن يكون في غرفته المهيأة بكل وسائل المرح والهدوء.. لم يكن يميل إلى هذا الصخب ويحبذ دائماً الصديقات الهادئات مثله.. يقرأ معهن عن أشياء مدهشة وتدور بينهم أحاديث متنوعة، عن المعرفة عموماً، وبالذات عن بلد كلٍّ منهم.

عرفت بأنه نزيل في الفندق.. وبأنه بوقار وحياء يريدها معه.. تركت

هي، كما توهم، صاحبها الذي تصوره هو أنه عفن.. حمار وبغل.. وتأبطت ذراعه..

كانت غرفته شبه جناح، معدة بشكل جيد، وتتوفر لها كل المستلزمات المريحة..، «صالون» وثلاجة ومائدة صغيرة لشخصين.. وحمام وغرفة نوم شبه مستقلة، سرير واحد. كان حريصاً على مظهر غرفته أكثر من حرص العاملات في الفندق.. ويعدُّ ذلك من محاسنه.. لم تنبهر هي بهذا الترتيب الجيد، كما كان يتوقع.. ورمت شنطتها اليدوية على كرسي مجاور.. وفتحت التليفزيون فلم يعجبها البرنامج المذاع.. فتحت المسجل الذي صدح بموسيقى كلاسيكية يحبها هو، فلم تعجب بها هي..!

نظرت إليه بابتسامة، لم يستطع فهمها بالضبط.. وبحثت في الأشرطة فلم تجد ما تصغي إليه من الموسيقى الحديثة الصاخبة الراقصة.

غير ملابسه، واعتنى أن يكون ملبس نومه ناعماً حريرياً ومغرياً.. واطمأن إلى مظهره وشكله في مرآة الحمام.. وأعاد تسريح شعر رأسه..

ومصمص شفتيه لتبدوا ناعمتين حمراوي اللون.. وقلَّبَ «بوزه» ورسم ابتساماته كبروفة أمام المرآة..

دخل عليها.. وقدم كلَّ لوازم السهرة.. ابتسمت.. وبدأ هو في الحديث.. أدخلها في حكايات أسطورية خيالية وبطولات خَجِلَ بعد ذلك أنه حكاها لها.. وأدخلته هي بتساؤلات عن البلدان وطبائع البشر واختلاف الأمم والأجناس والملل.. وقال في نفسه: «والليل والقمر»..!

اختصر الحديث.. كان يريدها أن توجز.. فلا وقت لديهما. كان ينظر إلى جسمها المكتنز.. الرخو نوعاً ما عند صدرها.. يلتهم كل حركة لشفتيها.. اندمجت معه في حديث عن اختلاف البلدان والناس.. ودخلت في حديثها إلى عالم العادات والتقاليد والأزياء والغذاء.. ومع ذلك لا زالت تصغي إلى موسيقى راقصة من النوع الصاخب.

فتحت المسجل من جديد تبحث عن أقرب موسيقى لذوقها.. خُيِّل إليه بأنها معجبة بشكله الغريب وبأسلوب حديثه وإجادته للغتها وللحكايات الطريفة التي حكاها لها والتي تخيَّل أنها انبهرت لها.

خُيِّلَ له ذلك.. كما خُيِّلَ له أيضاً بأنها معجبة بشعر رأسه المجعَّد

وبرموش عينيه السوداوين البارزتين.. وربما بشاربه الكثّ المهيب..!

* * *

نظرت إلى ساعتها.. فأدرك أن الوقت قد صار متأخراً. فالمواصلات تكاد تكون في هذا الوقت المتأخر شبه مقطوعة.. وهذا ما كان يتحسب له برغبة شديدة.. وصديقها ذلك البغل يتخيله قد رحل الآن أو أن تكون الفودكا قد أنهكته فانبطح تحت إحدى الموائد أو في إحدى محطات المترو حيث يعلو شخيره المزعج..!

نهضت فجأة.. فارتعد وقد شعر بأنها ستغادره وهو بهذه الحال التي لا تطاق من الصبر لالتهامها.

نهض وهو يحاول أن يلملم أفكاره.. كيف يطلب منها البقاء..؟ وحتى لو بلغ به التوسل إليها وتقبيل يديها وركبتيها وقدميها، بل وصل استعداده النفسي لتقبيل حذائها ذي الكعب العالي..!!

اتجهت نحو غرفة النوم.. ما زال هو واقفاً.. سمع فتح دولاب الملابس.. لم يخف لأنه لا يملك أشياء ثمينة في جيوب ملابسه.. وجواز سفره وما بقي من نقوده محفوظة في شنطته اليدوية.. تذكر بأن خاتم الزواج وصورة صغيرة لأولاده على الطاولة الصغيرة التي بجوار السرير وبعض أشياء لا وزن لها..

جلس وارتشف كأساً.. وأشعل سيجارة.. لم يحاول كبح نظره نحو باب الغرفة.. أطفأ السيجارة وارتشف كأساً أخرى، ثم أشعل سيجارة أخرى..!

شنطتها ما زالت على الكرسي كما هي.. اطمأن لذلك وثبت لديه الأمل بليلة ولا كل الليالي..!

لم تكن مبتذلة في ملبسها أو في رقصها أو في ابتسامتها ونظراتها نحوه في المطعم الراقص.. أو في تصرفاتها معه بعد ذلك.

حتى في غرفته رغم الموسيقى الكلاسيكية والجو الرومانسي القديم الذي يحبه هو.. حاولت هي جاهدة أن لا يبدو عليها عدم الارتياح.. تأكد أنها تريده.. وخصوصاً أنها تركت صاحبها البغل وتأبطت ذارعه متجهة معه نحو المصعد والابتسامة تضيء محياها الجميل.. ونوع محبب

من الدلال والغنج داعبته به في الطرقة وداخل المصعد وأمام باب الغرفة.

تذكر ذلك بلمح البصر.. ورشف كأساً ثالثة وأشعل سيجارة رابعة..

شنطتها ما زالت على الكرسي المجاور له.. اختلس النظر إليها فاطمأن ثم غادره الاطمئنان.

نظره على باب غرفة النوم.. يتوقع متى ستبدو لترحل.. وكيف سيقدم كل أنواع التنازلات المقيتة لكي تبقى..

ظل نظره على باب الغرفة.. اختلس منه لحظة نحو شنطتها على المقعد المجاور له.. كأس أخرى وسيجارة أخرى..::!

خرجت من باب الغرفة.. ونهض هو وجلاً ولم يكمل رشف كأسه.. كانت قد ارتدت شيئاً من ملابس نومه فاسترجع أنفاسه بارتياح طفولي وارتمى على الكرسي.. بينما جلست هي بجواره على المعقد الآخر..

ورشفت كأساً وأشعلت سيجارة.. وفتحت جهاز التليفزيون.. وجعلت صوته خافتاً..

ذهب إلى الحمام ليطمئن في المرآة على مظهره وكيف أصبح..! وجده لائقاً بعد أن أصلح ما يجب إصلاحه.. وجنتاه محمرتان.. وعيناه مدعوجتان.. وشفتاه مغريتان.. كل شيء على ما يرام.. مشَّط شعر رأسه المجعد الأسود فزاد إعجابه بنفسه.. وألقى نظرة أخيرة ثم خرج من الحمام متجهاً إليها وقد فتح أزرار لباس نومه الحريري الناعم ليظهر مفاتن صدره الذي دعكه بيديه لتشوب جلده حمرة مغرية محببة..

لا يطيق الروائح العطرية، لكنه - وبتقزز للضرورة - ضخ بعضاً منها على رقبته وإبطيه..

أخذ على طريقه من الثلاجة بعض مسليات «مزة» ووضعها أمامها..

وجلس واضعاً رجلاً على رجل، يختلس بعض نظرات متأنية نحوها.

كانت جالسة بشكل عفوي، لكنه اعتقد بأنه مقصود منها، فملامح الأنوثة بارزة من جسمها تكاد تخترق قميص النوم الناعم الذي لبسته.. كان صدرها شبه عارٍ إلى أخدود النهدين.

نظرت إليه متسائلة وبيدها صورة صغيرة تنظر إليها بإمعان:

ـ متزوج أنت؟

ـ نعم..

ـ ألديك أطفال..؟

عرف بأنها أخذت الصورة من على طاولة السرير..

ـ نعم.

ـ كم هم؟ قليلون..

أعادت النظر إلى الصورة وقالت:

ـ هؤلاء أطفالك؟

ـ بعض منهم!

ـ نصفهم؟

ـ أقل من ذلك..

ـ لكنهم الثمانية يشبهونك تماماً..

قال منفعلاً بغضب:

ـ أتحقيق بوليسي تجرينه معي؟

ـ معاذ الله..!

نهضت وقد عرتها دهشة غير مصدقة:

ـ ثمانية؟

ـ فليكن..

ـ هل أنت جاد فعلاً أم أنك تمزح..؟

ـ أنت أردت هذه النتيجة..

ـ لكنك صغير جداً..!؟

ـ يخيل إليك ذلك..!

ابتسمت.. فجلس وارتشف كأساً وأشعل سيجارة وقرع معها نخباً في صحتها فقالت:

ـ في صحة الكتيبة!..

وضحكت حتى تدفق شعر رأسها خلف المقعد كموج عارم..

حاول جاهداً أن يغير الموضوع الذي قد يعكر صفو ليلته ـ التي كان يتوقعها ـ إلى حديث آخر.. لكنها لم تتح له الفرصة..

قالت متسائلة والابتسامة تعلو محياها بحنان:

ـ كم صبيان وكم بنات؟

لم يعد السؤال والحديث عن هذا الموضوع يريحه.. لكنها توددت إليه باستعطاف مغرٍ..

ـ ثلاثة صبيان.. وخمس بنات.. هل استرحت؟

رشفت كأساً أخرى وأشعلت سيجارة أخرى أيضاً.. وقدمت له كأساً مماثلة وأشعلت له سيجارة مماثلة أخرى..

ـ وأمهم..

ـ ..

ـ كم عمرها..؟

ـ أصغر مني..

ـ .. يعني في مثل عمري؟

ـ تقريباً..

ـ يا إلهي..!

تعكر مزاجه أكثر.. نهض وفتح المسجل.. كانت قد استوت على المقعد بصورة مدهشة.. أطفأ الأضواء الساطعة وترك سراجاً خافتاً.. ولم تعترض هي.. بل كانت مسترخية بصورة مدهشة..

شعر بأنها تحاول استعراض بعض مفاتنها الأنثوية فاشتد هياجه.. دخل إلى غرفة النوم وأصلح السرير والوسائد.. وأسرج النور الأحمر الخافت.. لأنه لم يجرؤ على الهجوم عليها في الصالون..

سألته بعد أن عاد وهي ما زالت مستلقية:

ـ عجيب أنكم تجيدون لغات الآخرين بإتقان!

لم يكن يتوقع هذا السؤال.. فلم يجبها..

ـ غيركم لا يتقنونها مثلكم..!

قال لنفسه بضجر.. «يتقنون لغاتهم أو لا يتقنونها، ملعونة هذه اللغات لماذا وجدت؟»..

كان بوده أن تكون اللغة مجرد إشارات حب فقط.. لكنه شعر بأن عليه أن يجيبها فقال:

ـ ربما لغتنا لديها من الحروف والإيقاعات الصوتية ما يستوعب حروف اللغات الأخرى مجتمعة.. هي غنية بالمفردات الصوتية..

ـ مثلاً..؟

ـ تحقيق آخر..؟!

ـ رجاء..

ملّ أن يشرح لها حرف الخاء والطاء الظاء والحاء والعين والقاف..!

شعرت بمللّه من الحديث.. قبلته ونهضت إلى الغرفة.. شعر هو بالسعادة والنشوة إثر ذلك الحدث.. وتبعها..

كانت قد استلقت على السرير فاحتلته كاملاً.. أرجع باب الغرفة وحاول الاستلقاء بجوارها.. فنهضت وهي تبتسم..

جلس على حافة السرير وهو يحاول خلع ملابس النوم.. فتساءلت:

ـ ماذا تصنع..!

ـ ..أنام..

ـ هنا..؟!

ـ طبعاً هنا.. وليس في الشارع..!

زادت مساحة ابتسامتها:

ـ وماذا تريد أيضاً..؟

ـ كمخلوقات اللّه..

ـ هكذا ببساطة..؟!

ـ أنا على استعداد..

وقاطعته ولم تدعه يكمل والابتسامة قد بدأت تتحول إلى ضحكة محببة:

ـ بيع وشراء.. أهذه لغتكم الجميلة..؟!

لم يجبها فقد كان ثملاً واستلقى على حافة السرير محاولاً أن ينكمش معها تحت الفراش..

ـ أنت مغرٍ وجميل وجذاب..

نهض فرحاً.. فقاطعته والابتسامة ما زالت تعلوها:

ـ لكنها لا تؤخذ بهذه البساطة..!

لم يجبها.. نهضت قائلة:

ـ بإمكاني أن أرحل إلى الشارع.

ـ هذا مستحيل..!

ـ لا مستحيل في هذا العصر..!

ـ.. ما الذي ضايقك مني..؟

ـ تصرفك هذا..

ـ هل هو تصرف أرعن..؟

ابتسمت للتعبير وقالت ضاحكة:

ـ نعم يا عزيزي..

ـ لكن هذا شيء طبيعي..!

ـ تقدميون أنتم.. إلى هذه الدرجة يا عزيزي..!؟

ـ نتعلم منكم يا عزيزتي..!

وسادت فترة صمت.. قالت هي والابتسامة ما زالت على محياها:

ـ بإمكانك أن تنام بجواري..

فرح في سريرة نفسه فأضافت:

ـ بأدب واحتشام..!

لم يجبها..

تغطّت بالرداء وهجعت في سبات عميق..

حاول أن ينام وهي بجواره بجسمها المغري.. سهر وزاد سهاده، وأدرك أنه تصرف معها بأسلوب شرقي عفنٍ أساء إليها بقدر ما أساء إلى نفسه وإلى بلده وإلى لغته الجميلة..

كانت النشوة الثملة قد طارت وفارقته..

نهض.. ورنا إليها ثم اقترب من وجهها.. وبهدوء أجهد نفسه أن يكون متزناً. قبلها على جبينها بحنان.. فانقلبت إلى مرقدها على الجانب الآخر..

وغادر هو غرفة النوم بعد أن أقفل باب الغرفة بهدوء شديد واستلقى على الأريكة يحاول إغراء النوم بدون جدوى.. ظلَّ يتقلب من جانب إلى جانب على الأريكة حتى مطلع الفجر..

* * *

شعر بقبلةٍ حانية على خده.. قام وجلاً على إثرها.. كانت هي قد جلست على طرف الأريكة بعد أن أكملت زينتها واضعة أيضاً شنطتها اليدوية على كتفها وقالت:

- إلى لقاء آخر..

انتفض مذعوراً متسائلا:

- إلى أين؟

- ..في هذه الدنيا..

شعر بالاكتئاب وخيبة الأمل..

قبلته مرة أخرى بحرارة أشد ونهضت وأقفلت الباب خلفها والابتسامة ما زالت تضيء محياها.

صنعاء: 5/ 1/ 1988م

الغجــرية

لا يدري كيف اعترته نوبة من خيلاء برجوازية بكل مظاهرها الارستقراطية المتعجرفة وهو يتنزه على رصيف شاطئ النهر. . إثر ليلةٍ ساهرةٍ ولا كل الليالي في «النادي» «الغجري». . !

كان الجو إثر غيم الصباح قد اعتدل نوعاً ما. . لكنه يبشر بالمزيد من التحسن، وخصوصاً أن بعضاً من أشعة الشمس بدأ يخترق ويذيب سحائب الغيم من على سماء المدينة.

* * *

يفر من المدرسة ويتسكع بجوار دار الأمير المزدحمة بخلق اللّه ليشاهد فتاتين سمراوين تقرعان الدفوف وتقومان بحركات مغرية راقصة. . وعليهما ألبسة لاصقة بجسميهما تبرز معالم الأنوثة المغرية التي تُسيِّل اللعاب. .

كانت إحداهما تضرب بالدف وهي تهز جسمها. . والأخرى تقوم بألعاب بهلوانية وتتقوّس إلى الخلف لتصل برأسها إلى قدميها وبين ذراعيها. . وتلتقط العملة النحاسية بجفون عينيها. . !!

يختبئ خلف برميل قديم مليء بالمياه الآسنة ينبي بهياج جنسي. . ويتبلل مئزره وفخذاه إثر حركات جامحة طائشة. . . !!

* * *

الكاميرا معلقة على كتفه اليسرى. . والساعة تهتز على معصمه الأيمن. . آثار الدبلة ناصعة الوضوح على إصبعه الخنصر في اليد اليسرى. . وحلت بدلاً عنها خواتم مذهبة على أصابع اليد اليمنى. . وسلسلة شبه ذهبية على معصمة الأيسر يتدلى منها رسم لقلب وسهم يخترقه. .

ينفخ بسيجار تقليد لسيجار «هافانا» المشهور. . وحذاؤه عالي الكعب يؤلمه ويدفعه للترنح في بعض الأحيان. .

* * *

سألته زوجته مرة بخبث:

ـ لا أجد على إصبعك الدبلة!

ـ سرقت في أثناء الرحلة. .

ـ عجيب، كيف سرقت؟

ـ ما العجيب في ذلك. .؟!

ـ . .من المعقول أن تقول مثلاً بأنهم سرقوا منك شنطة ثيابك، أو حافظة نقودك، أو آلة التصوير مثلاً. . لكن تقول سرقوا الدبلة من إصبعك، هذا غير منطقي. .!! ألست معي. .؟!

ـ أقسم. .

قاطعته بسرعة:

ـ هه. .لا تقل بالله ولا بحياة الأولاد وحياتي. .!

قاطعها بسرعة أيضاً:

ـ بشرفي. . بمعزتك عندي. .

ـ أصدقك الآن. .!!

* * *

نظر إلى إصبعه. . وخجل وأخرج من جيبه الدبلة وأعادها إلى إصبعه وأشعل من جديد سيجارة. . وأخذ يلتقط صوراً للمناظر الخلابة على الشاطئ الآخر للنهر. . بحركات فنانٍ مبدعٍ ورسامٍ قدير. . ومع ذلك لم تنجح له أي صورة التقطها طوال حياته. .

ـ يا أخي. . لو كان الحجر يستخدم هذه الآلة المتقدمة لتعلّم مع الوقت. .!

ـ لا تدقق يا أخي. . المهم المظهر. .!

* * *

«النادي الغجري» هو شبه ملهىً صاخب يطل على شبه بحيرة متفرعة من النهر.. خافت الأنوار في داخله، لكنه من الخارج ساطع النور وخصوصاً على شعاره الذي هو عبارة عن لوحة عملاقة لصورة فتاة غجرية ترقص..

كانت اللوحة على واجهة النادي أكبر بكثير من حجم مبنى النادي شبه الملهى بكل ملحقاته.

* * *

- الغجر.. هم قوم رُحَّل يا صديقي..
- بدو..؟
- لا.. لا ليس بهذا المفهوم..
- دواشن[1]...؟
- لا..لا..
- أخدام سود[2]..؟
- ... ربما!.. لكن لا أعتقد ذلك..!
- «نَوَر»[3]..؟
- يشبهونهم نوعاً ما.. لكن ليس بالتأكيد..
- «غوازي»[4]...؟
- يكاد ربما..! نعم.. بالتأكيد.. هم كما ذكرت..

* * *

ظلت الغجرية الحسناء ترقص، تهز جسمها الفاتن الذي أبدع الخالق في تكوينه.. شعرها المرسل المجعد الفاحم يهطل على ثدييها وظهرها وكتفيها العاريين كأنه مزنٌ متموج من المطر الغادق..

---

(1) دواشن: جمع دوشان وهو في أعراف القبائل اليمنية رجل الإعلام الناطق باسمها حرباً أوسلماً وفي الأسواق.

(2) أخدام: قوم في اليمن يشتهرون بالغناء والرقص والترحل.

(3) نَوَر: معروفون في بلاد الشام.

(4) غوازي: معروفة في بلاد مصر وشمال إفريقيا.

كان خداها اللذان يكادان ينفجران أنوثة يلمعان من بين خصلات شعرها وابتسامتها الجذابة على شفتين مبلّلتين بريقها تهز السامرين، ورموش عينيها المكحلتين «تشق القلوب قبل الجلود..» !

* * *

كان شراب «الفودكا» قد عصف به وبصاحبه والموسيقى الصاخبة المصاحبة للغناء والرقص.. في البداية لم يتذوقها، وكان وقعها عليه كالهم أو الغم على القلب، لكنه قد تحول الآن إلى عزف وغناء نابع من ظلال الجنة العابقة بحور العين والولدان المخلدين والأنهار العسلية والخمرية واللبنية..!

حاول كبح نشوته المتقدة للاندفاع نحو حلبة الرقص ومعانقة الغيد الحسان اللواتي يقطر منهن السائل المقدس كأنه حبات عرق..!

لم يستطع احتمال ذلك الموقف رغم تحرج صديقه ومحاولته تثبيط عزيمته بكل وسائله المنطقية والعملية وحتى العنيفة أيضاً..!

كانت هي قد اتجهت إليه من على المنصة باندفاع خافٍ منه..!

وتلوت بجسمها المشحون بكل متفجرات الأنوثة والإغراء.. واقتربت منه بشدة.. وجل هو وارتبك.. لكنها لم تمهله ثانية واحدة لاسترجاع شجاعة نشوته التي يبدو أنها صنعتها نكهة «الفودكا»..

أطبقت على عنقه بكلتا يديها وجلست على ركبتيه بعجزها الدافئ المكتنز.. ولذعته بقبلة عميقة أدخلته إلى عالمٍ لم يكن يحلم به.. ذكرته بجنات «الحشاشين» في عهد «صلاح الدين»..

وشعر بأن الجموع في داخل النادي الغجري قد وقفوا على أقدامهم وأنظارهم تتجه إليه.. حاول أن يزيحها من على جسمه، لكنها كانت كحيةٍ ملساء لصقت به وطوت جسمها الناعم على بدنه.. وغابت معه في قبلة والتصاق يفجر البراكين الخامدة في كل بقاع الأرض..

* * *

بدأ الجو يتحسن.. وبقايا السيجار شبه الكوبي «هافانا» تكاد تنتهي.. وهو ما يزال يذرع رصيف شاطئ النهر..

تنبه لتوقف سيارة «أجرة» بجواره.. وقد سألته فجأة فتاة سمراء بتودد واضح وبرقة عذبة..

ـ من فضلك..

ـ مرحباً..!

اعترته رعشة.. واستجاب لندائها باندفاع خيل إليه بأنها تلك الفتاة الغجرية.. راقصة النادي الغجري..

قالت:

ـ ممكن.. أن تقدم لي خدمة..

ـ بكل سرور.. يا..

ـ أريد صرف عملة ورقية كبيرة بأعداد متفرقة من النقود المعدنية لكي يتسنى لي دفع أجرة السيارة..

اندفع بسرعة البرق إلى حافظته وأخرجها وقد لمعت في ذهنه خاطرة أنها قد وجدته بعد أن بحثت عنه طويلاً لكي تقضي معه ليلة أو أياماً بلياليها في ربوع هذا الوطن المعطاء يرتشفان كؤوساً من اللذة والمتعة..

ناولها حافظة النقود لتأخذ منها ما تشاء..

وانطلقت السيارة محدثة أزيزاً مذهلاً في أذنيه.. ما زال يعاني منه حتى الآن..

المرأة.. والكلب.. وأنا..!

الحرارة لا تطاق.. والعرق ينساح من الجبين على الوجه.. خلعت ملابسي الصيفية كمن يزيح أتون بركان.. تركت ملبسي الداخلي القطني ولبست سروال «البجامة» فقط.. رميت بساعة اليد على السرير، فقد صدأت معصمي.. أطفأت سراج الغرفة وأضأت سراج الشرفة..

كانت الغرفة أشبه بفرن يكاد يلتهمني بحرارته.. أخذت الكتب والملازم الخاصة بالمادة الثانية من الامتحان الذي هو أكثر حرارة وقسوة من الطقس.

وخرجت إلى الشرفة التي كانت مهيأة بطاولة صغيرة وكرسي خيزران قد تناثرت أعواده من القِدَمْ واستعنت بمخدة سريري.. كنت أربطها بخيط على الكرسي لتكون ثابتة عليه..

نظرت بتلقائية إلى شبه «الفيلا» القابعة تحت الشرفة على الجانب الآخر من الشارع الضيق..

يزعجني النظر إليها دائماً، وخصوصاً في أيام الامتحانات.. هذه الأيام الحزينة الحارة من شهر يونيو..

أحاول أن أركز على المادة التي سأمتحن فيها غداً.. وهي مادة لا أطيقها ولن تفيدني في المستقبل.. ومع ذلك تركت لبصري العنان للنظر إلى هذه الفيلا الصغيرة بشرفتها الدائرية الزجاجية والتي تقبع فيها امرأة أرملة مع كلبها الوسيم النادر وبعض كلاب وقطط متنوعة الأحجام والألوان داخل الحديقة وخارج الشرفة الزجاجية المدورة، لكنها ليست كمثل ذلك الكلب الوسيم الضخم المتميز بحجمه الكبير ودقة ذكائه وإتقانه في المراقبة والنباح.. وقد لاحظت أنه يتناول الأطعمة في أوقاتها بدون إلحاح أو نباح أو صياح أو مشاجرة.. وكم أدهشني أنه منضبط في أوقاته.. هو الوحيد الذي يظل منتصباً أمام الأرملة الشابة في شرفتها الزجاجية كأنه رئيس الحرس الخاص الذي تناط به الأعمال الهامة والفدائية بصرامة وذكاء..

المرأة ليس لديها ما يشغلها كغيرها من الأرامل الشابات.. من أشغال

الخياطة أو «التريكو» أو المنادمات السمجة مع من في سنها من أقرانها أو الانشغال بالطباخة والتنظيف، أو الخروج إلى الشارع للتسوق..

طوال مدة بقائي في الشقة والتي تجاوزت ثلاث سنوات.. لم أجدها في الشارع أو أرها تخرج أو تدخل من باب «فيلّتها».. لم أجدها في المحطة أو عند البقال «رضوان» أو عند الصيدلي «حلمي مرقص» أو في سوق الخضار والفواكه واللحم..

تلك هي التي أراها فقط في شرفتها الزجاجية المدورة.. نفس الملبس ونفس النظام في الجلوس.. والكلب رئيس الحرس الخاص أمامها تربت بيديها على رقبته وتحكها بلطف وهدوء وبطء.. بينما الكلاب الصغيرة الأحجام والألوان تتقافز في الحديقة الصغيرة أمام الشرفة الزجاجية الدائرية..

باب السور الصغير الحديدي.. لا أذكر أنه فُتح خلال هذه السنوات.. مقفلٌ دائماً من الخارج بقفل كبير وبسلسلة غليظة قد علاها الصدأ..

* * *

ـ عم محمد..

ـ أيوه..!

ـ أريد أن أستفسر منك..

ـ تفضل يا ابني.. عماذا تستفسر..؟

ـ عن جارتنا هذه الأرملة الشابة التي تعيش داخل «الفيلا» المجاورة..

ـ .. والله علمي علمك..!

* * *

سهرت أذاكر تلك المادة الصعبة.. كنت أقلّب الصفحات بملل وضيق وتقزز.. وأدليت «السَّبَتْ» القفة إلى باب العمارة أطلب قارورة مثلجة من المشروبات الغازية من «عم محمد» مع قطع من الثلج..

المرأة ما زالت كالعادة وراء زجاج شرفتها المدورة.. وكلبها ما زال أمامها منتصباً على يديه.. وأناملها البضة تربت على رقبته وظهره بحنان..

قامت وقام كلبها معها كالعادة.. وأطفأت سراج الشرفة الزجاجية المدورة وأقفلت وراءها باب الشرفة المؤدي إلى داخل «الفيلا».. نفس الموعد بالدقيقة

والثانية منذ سنوات تفعل ذلك.. وكان موعد نومي أيضاً، فقد عوّدت نفسي على الذهاب إلى النوم في الوقت نفسه..!

لا أدري ماذا تفعل هي بعد ذلك داخل منزلها.. هل تتقلب مثلي على سريرها قبل النوم.. تراودها أحلام أو أمنيات.. هل تعاني مثلي من ثقل الحياة وقسوتها..؟!

* * *

دوّت صفارة الإنذار ملعلعة عبر أجواء المدينة.. أطفأنا الأنوار حسب تعليمات متطوعي الدفاع المدني.. وهرعنا إلى أسفل العمارة نحتمي ببابها الحديدي، فقد كان الملجأ بعيداً عن شارعنا..

كان الشارع غارقاً في الظلام.. ودوي هائل مستمر في سماء المدينة من أزيز طائرات العدو ومدافع وصواريخ المدينة المضادة..

كانت المرأة وكلبها في الشرفة الدائرية الزجاجية.. والنور مضاء فيها لم تطفئه.. ولم يجرؤ أحد منا ومن سكان الشارع أن ينبهها لذلك.. ولا حتى متطوعو الدفاع المدني.. اكتفوا فقط بإطلاق صفاراتهم من أفواههم في الشارع وانصرفوا.. بينما كنا مكدسين خلف الباب الحديدي للعمارة..

* * *

ـ يا دهوتي عليك يا ابني..

ـ مالك يا أم أحمد؟

ـ أحمد.. أحمد «ضنايا».. في الجبهة..

ـ سيكون بخير وسيعود إليك بالسلامة منتصراً يا أم أحمد..

ـ منتصر إيه يا ابني.. بعد هذه الهيصة في قلب المدينة...!؟

ـ يا أم أحمد.. إطمئني..

ـ أطمئن.. كيف أطمئن يا ابني..؟

تمهلت قليلاً أبلع ريقي:

ـ ألم أطمئنك عليه.. في حرب اليمن..؟

ـ أيوه صحيح.. لكن هؤلاء ليسوا عرباً.. هؤلاء صهاينة.. أولاد كلب يا ابني لا يشفقون ولا يرحمون..

* * *

«أم أحمد» هي زوجة «عم محمد» بواب العمارة. . الصعيدي الطيب. . والفتى «أحمد» هو ابنهما الوحيد. . له أخت أكبر منه، سمراء ذات أنوثة، متزوجة وتسكن في حي بعيد عن حينا ولا نراها إلا نادراً مع زوجها وأولادهما عندما يقدمان لزيارة أم أحمد وعم محمد في الأعياد والمناسبات. .

وله أخت أصغر منه اسمها «عسكرية» قد بلغت الحلم، ذات أنوثة صارخة تعيش معهم في «بير السلم» للإقامة والنوم. . ويستعملون «بير السلم» أو «المنور». . البهو الذي يضم أنابيب المجاري الهابطة من «حمامات ومطابخ» العمارة لنشر ثياب الغسيل وطباخة وتناول وجباتهم المتواضعة. . . كان المكان الذي يقع تحت درجات السلم عبارة عن حيزٍ ضيقٍ لا يتجاوز طوله مترين. . وعرضه متراً واحداً. . لكنهم يعيشون فيه جميعاً. . الأب والأم والابن والابنة. . ويستضيفون فيه القادمين من بلدتهم البعيدة من الباحثين عن الرزق والعمل في المدينة الهائلة. . !

أسكن أنا مع زملائي في الشقة رقم «3» من الدور الثاني التي تضم ثلاث غرف وصالة طعام ومطبخاً وحماماً، لكنني بحسب الأقدمية ولأن عقد الإيجار باسمي ـ أحتل الغرفة الواسعة «التي كانت أساساً معدة للاستقبال» ذات الشرفة الوحيدة المطلة على الشارع الضيق والتي تمتاز بأن لها باباً مستقلاً إلى سلم العمارة. . لم أستغله إلا في حالات نادرة جداً لممارسة غوايات ومخالفات مكتومة جداً. . فقد أقفلته ووضعت دولاب ملابسي عليه. . وفضلت باب الشقة الرئيسي الذي ندلف منه جميعاً إلى صالة الطعام. . أما الغرفتان الباقيتان فيحتلهما أقربائي وزملائي. . كل غرفة يسكنها اثنان وربما أكثر بحسب ظروف القادمين من الوطن للدراسة حتى تدبر أمورهم المعيشية أو طلبة المدارس الحربية الذين يخرجون للإجازة الأسبوعية. .

الحياة رتيبة في الشقة ومنتظمة أيضاً. . الإيجار بسيط، كلٌ يشارك في دفع جزء منه. . والتغذية لها زميل معروف ببخله وحرصه وأمانته، ندفع له ثلاثة جنيهات كل شهر من كل واحد منا. . والشغالة «أم سهير» امرأة عجوز مكتنزة الجسم ندفع لها ثلاثة جنيهات كل شهر وهي مبسوطة وماشي حالها. . تطبخ وتغسل وتنظف وتضحك كثيراً بطيبة كأنها أم حنون لنا. .

كنا جميعاً طلبة مؤدبين طوال الأيام وإن شذ بعضنا إثر نشوة. . نكتمها فعلاً فلا تفوح رائحتها مطلقاً. .

العمارة تتكون من عدة أدوار. . لا أدري كم هي. . فأنا لا أعرف إلا الدور الذي أسكن فيه. . وكل دور مكون من شقتين. . لا أعرف إلا جيراننا في الشقة المجاورة التي يسكنها طالبان أو أكثر من الشام يواصلان الدراسات العليا في الجامعة، وكانت شرفتهما بجوار شرفتي. . وكنت أحاول التعرف عليهما، فأقول بصوت عادي من شرفتي: «اللّهم بارك في شامنا ويمننا. . !». . وأسمع إجابتهما ببقية الحديث. . فأبتسم وأصمت. .

لم أعرف بقية سكان العمارة إلا عندما بدأت صفارات الإنذار تجلجل بصوتها المفزع وتملأ أجواء المدينة بالرهبة. . وتكدسنا جميعاً خلف بوابة العمارة الحديدية. . وكان صوت أم أحمد ينوح وهي تهزني من كتفي تسأل الله بدعائها أن يصلح بينهم ليعود ابنها الوحيد أحمد سالماً. . أطرقت وتذكرت في خيالي أحداثاً وأحداثاً مضت. .

سمعت طرقاً على الباب. . وعندما فتحته كان أمامي عم محمد يبادرني قائلاً:

ـ أم أحمد تريد أن تتحدث إليك. .

ـ تفضل يا عم محمد معها. .

ـ هي تريد التحدث إليك على انفراد. .

ـ أهلاً. . تفضلي يا أم أحمد. .

استقرت في غرفتي. . امرأة سمراء مكتنزة الجسم. . فيها من الأنوثة التي احتفظت بها من ريعان الشباب ما يجعل عم محمد شغوفاً بها إلى أيامه الأخيرة. .

قالت:

ـ أحمد ابني. . تطوع وسافر «اليمن». . بلدكم. . بدون أن أعرف. .

ذهلت لهذا العمل الذي أقدم عليه الفتى أحمد. . بل وذعرت أن يتطوع في اليمن كجندي يحارب أعداء الثورة والجمهورية في بلادي بدون أن أشعر. .

كان دائماً يزورنا إذا طلبنا منفعة منه أثناء غياب والده. . وكنا نتحدث عن أحوال بلدنا اليمن ومظاهر التخلف والاستبداد، وعن الثورة التي اجتثت عروق التخلف. . وكنا لا نعيره اهتماماً باعتباره ابن البواب الأمّي الصعيدي الطيب. .

استكملت أم أحمد حديثها قائلة:

ـ شوف يا ابني.. يقول الناس بأن بلدكم صعبة.. والناس اللي فيها مثل بلدنا الصعيد «الجواني».. يعني ناس قتلة وأشرار وثأر..

ـ يا أم أحمد من قال لك ذلك..؟

ـ بعضهم..

ـ يا أم أحمد بلدنا طيب مثل بلدكم الصعيد.. عرب ونخوة وشهامة.. ابنك بطل وسيعود منتصراً.

ـ لست مطمئنة.. يا ابني..

ـ سأكتب إلى أهلي وأسأل عنه وأوصي به خيراً.

ـ أرجوك يا ابني أن تفعل ذلك في أقرب وقت..

فتحت لها باب الغرفة لتخرج، وسمعت هرولة الزملاء الذين كانوا يتصنتون عليّ من وراء الباب.. وكأني عاشق..!

* * *

فتحت زجاج وشيش الشرفة ـ رغم قسوة الطقس البارد ـ لكي أراها في شرفتها الدائرية الزجاجية وأمامها كلبها الوفي.. بينما اختفت جميع الكلاب والقطط الأخرى الطفيلية من قسوة البرد من فناء وحديقة فيلّتها الصغيرة..

كان عذري الوحيد أنني أنادي لعم محمد وأنا أدلي إليه «السَّبَتْ» وأطلب منه زجاجة «سباتس» باردة..

ـ هو أنت يا ابني في الصيف لتطلب مني ذلك..؟

ارتبكت فعلاً.. فقلت متلعثماً:

ـ أي حاجة سخنة..

ـ.. يا ابني هل يوجد الآن حاجة سخنة في «الثلاجة»..!؟

سحبت «السَّبَتْ» سريعاً وخفت أن تشعر المرأة بموقفي هذا السخيف.. وأمسك عم محمد «بالسَّبَتْ».. فقلت له:

ـ أرجو المعذرة يا عم محمد..

ـ هل وصلتك رسالة من اليمن بخصوص أحمد..

ـ . . نعم يا عم محمد وهو واصل خلال هذا الأسبوع إلى ميناء السويس.

ـ أكيد يا ابني. . ؟

ـ أكيد يا عم محمد. .

ـ بشرك اللّه بالخير يا ابني. . سأطمئن أم أحمد. .

ـ تحياتي لها وللأخت عسكرية. . !

وسحبت «الشّبّتْ» والمرأة ما زالت في شرفتها والكلب أمامها. .

وأقفلت الشيش والزجاج وارتميت على السرير ونمت بدون أن أخلع ثيابي. .

* * *

لقد كذبت على عم محمد. . وعشنا أنا وزملائي في وجل وخوف من أن تصلنا أخبار عن استشهاده. . كيف سنقابل عم محمد وأم أحمد والبنت عسكرية، بل والبقال رضوان والصيدلي حلمي مرقص. . بل وسكان العمارة والشارع ورواد المحطة والمقهى. . !؟

* * *

كان صباحاً مفرحاً عندما فتحت «الراديو» كالعادة على أناشيد وطنية جميلة:

«راجعين بقوة السلاح. .

راجعين. . مع فجر الصباح. .

من بعد ليلة مظلمة. .».

كان يوماً رائعاً وبهيجاً لي ولزملائي في الشقة عندما عاد «أحمد» بثيابه العسكرية وشنطتيه الكبيرتين اللتين تفتحان وتقفلان بالأرقام السرية. .

استقبلته أنا بالأحضان والأشواق بعد والده وأمه وأخته «عسكرية». قلت له:

ـ أخبارك إيه يا أحمد. . ؟

ـ أخبار فُل. . وبلدكم فُل. . وريفكم أنظف وأجمل من الصعيد. . !

وتقرفص جالساً بين أسرته داخل الغرفة «بير السلم» ونحن والزملاء نقف على الباب. . تحدث كثيراً عن اليمن والجبال والخضرة والناس الطيبين فيها. . وعن استعداده للعودة للقتال من أجل إرساء قواعد الثورة والجمهورية اليمنية. . وقال لأمه بأننا غلابة متخلفون. . ولكننا ثوار وبأنه على استعداد أن يدفع حياته في سبيل اليمن. . وبدأ يوزع الهدايا لأسرته من الأشياء المستوردة. . مسجلات راديوهات وملابس «نيلون». . إلخ. .

نمت ونام الزملاء بارتياح تلك الليلة ونحن نتندر على حكايات أحمد عن بلدنا وعن محاولاته تقليد اللهجة اليمنية، وعن الوجبة الشعبية اليمنية «السلتة» التي تشبه «الملوخية»، وعن حذق ودقة اليمانيين في الرماية وحرصهم على عدم التفريط بالذخيرة أو التعرض للإصابة. .

* * *

الحرارة لا تطاق، والعرق ينساح من الجبين على الوجه. . والغرفة عبارة عن فرن. . الملاذ الوحيد هو الشرفة كالعادة في بداية شهر يونيو الحار. .

غداً هو اختبار المادة الثالثة الصعبة التي لا أستسيغها. . وغداً السرادق الطويل العريض الذي يعد دائماً للأفراح والمآتم والامتحانات. . !

تأملتها ملياً هذه الليلة والكلب الرزين أمامها تحك بأناملها البيضاء البضة المغرية رقبته برتابة. . كم هي جميلة. . تأملتها هذه الليلة بإمعان أكثر من كل ليلة سابقة. . كم هو جميل شعرها المغدق في السمرة كأنه مزن مطر يتموج. . وعنقها الجميل كعنق غزالٍ. . وصدرها البض المكتنز الذي يبرز النصف الأعلى من نهديها اللذين تتدلى فوقهما سلسلة ذهبية تحمل في نهايتها هلالاً ذهبياً يتوسطه صليب صغير. . وعلى رأسها طوق عجيب مذهب تطل في مقدمته رأس أفعى متحفزة. .

كم تمنيت بخيالي أن أعيش معها مدى الحياة. . وأن أخرجها من برجها العاجي إلى العالم المتغير. . أو تدخلني هي عالمها. . كنت قابلاً بالخيارين. . لكني لا أعرف خيارها الثالث الذي كنت أخشاه. .

* * *

من الصعب أن تصف حالة اكتئاب تطرأ عليك أو حالة إحباط تصاب

به.. وعندما يفقد الإنسان خياله وأمانيه وتمنياته لأشياء رائعة وبراقة كأنها نور كاشف ساطع في عالم أحلامه اللامتناهية في تحقيق ذاته وطموحه الشخصي أو العام.. عندما تنثني الأحلام من خيال وأماني وتمنيات الشخص.. يتحول تلقائياً إلى مجنون مختل العقل.. أهدأ وصف لحالته بأنها حالة نفسية صعبة.. قد يهيم على وجهه متسكعاً في الشوارع والأزقة وبجوار النفايات.. قد يتشنج ويقذف الحجارة على الناس.. قد يهمل مظهره وتغذيته.. وفي أحسن الحالات يعيش منعزلاً في مساحة محصورة يتأمل وربما يبتسم ببلاهة..!

* * *

أصبت بحالة من الاكتئاب والإحباط أدت بي إلى فقدان الخيال والأماني والأحلام.. كان ذلك في أحلك يوم في التاريخ، يوم لم يشهد له أحد مثيلاً.. عندما عاد «أحمد» ساحباً وراءه ذيل الهزيمة والعار.. بلا سلاح ولا خوذة ولا مظهر إنساني.. دارى وصوله بسرية تامة ودخل الشارع إلى غرفة والدته ووالده وأخته متسللاً، حافي القدمين، لا يريد أن يسمع بمقدمه أحد.. لكننا عرفنا ذلك عندما زغردت والدته، رغم صياحه ونهره الغاضب لها.. كانت فرحتها إلى درجة الجنون..

سمعت ذلك وأنا في الشرفة المظلمة والشارع المطفأ أمامي ما عدا «فيلا» المرأة.. ولأول مرة تطفئ المرأة الشرفة وتظل مع كلبها المهيب فيها إلى الصباح.. وفعلت أنا ذلك أيضاً..

انتابني شعور جارف.. لم تعد لي أحلام أتمتع بها ساعات طويلة في حياتي، ولم تعد هنالك آمال وطموحات وأمنيات أنتظر تحقيقها.. لم يعد للخيال المبدع وجود.. لا داعي للحياة في مثل هذه الحالة..

لا طعم لها.. لا أحد يأسف عليها، بقاء الإنسان وعدمه سواء.. أعيش اليوم أو أموت أمر لا معنى له.. تأخرت في العمر شهراً أو سنة أو عدة سنوات ما الفائدة منها..؟ أو أن أنهي حياتي في يومي هذا.. أليس أفضل..!؟ ماذا سأفيد نفسي أو أفيد الحياة ببقائي يوماً أو شهراً أو سنة أو أكثر على قيد الحياة..!؟

كانت الشرفة قريبة من الشارع لا تشجع على الانتحار..!

* * *

تحمل الرجل بفحولة ما حدث على مسئوليته وحده.. قال إن الكارثة التي عمت الوطن الكبير قد حدثت لمعظم الشعوب والأمم. اعترف بالهزيمة المرة لكنه نفى الاستسلام.. شعوب أخرى انهزمت لكنها لم تستسلم بل واصلت الكفاح حتى النصر.. ليس الآن ساعات للبكاء والعويل.. الآن ساعات للعمل لإزالة مخلفات الكارثة.. وما أخذ بالقوة لن يعود إلا بالقوة..

* * *

كان الحزن عميقاً.. لكن الحزن تحول بالتدريج إلى ابتسامه صغيرة ثم إلى فرحة.. فقد تحولت الهزيمة إلى نكسة ثم إلى أمل في الانتصار.. وشَدَتْ الأغاني العاطفية، والحياة الرتيبة اليومية تعم حياة الناس، وعاد بعض الأمل والخيال والأحلام والأماني تداعب خلق اللّه المقهورين..

كيف أستطيع كسر حاجز الصوت بيني وبينها؟ كيف أستطيع كسر شرفتها الزجاجية المستديرة لأصل إليها وأجلس بجوارها؟ كيف أستطيع كسر الباب الحديدي وأقفاله الصدئة؟ كيف أستطيع أخذها بأدب جمٍّ لتخرج معي.. نمشي معاً على الأرصفة وندخل السينما ونرتاد المطاعم والمقاهي والمنتزهات والملاهي.. ونشمُّ الهواء على الشواطئ الجميلة..

نتحدث ونضحك.. نقفز في الهواء..نتسابق على الرمل.. نتقاذف بالماء ونبلِّلَ ثيابنا.. ونبني قصوراً من الرمل.. ونلعن الحيزات الضيقة وصفارات الإنذار وتعليقات الإذاعة والصحف.. ومضايقات رجال العسس والمنافقين ومواعظ رجال التخلف المتميز بأردية القبور حاملي «المكرفونات» والبخور، الخارجين كوباء من كهوف التخلف؟

* * *

كم كنت أتمنى بخيالي بأن أعيش معها.. إما أن أخرجها من برجها العاجي إلى العالم.. أو تدخلني إلى عالمها.. كنت قابلاً على الحالتين..

* * *

صاحت أم أحمد وأنا أغادر باب العمارة وقد أمسكت بتلابيبي:

ـ أحمد. . أحمد ابني وضناي.

انزعجت لهذا الموقف المفاجئ وتساءلت ببراءة:

ـ ماذا حدث له. .؟

ـ تطوع في الجبهة. .

ـ أي جبهة. .

ـ يقولون. . جبهة الاستنزاف على «القناة».

ـ لم يخبرني يا أم أحمد. .

ـ كيف يُخبرك يا ابني وهو لم يخبرني أنا أو يخبر والده؟

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله. . سيعود يا أم أحمد، أنت تثقين بكلامي دائماً. .

أطرقت قليلاً بينما كانت عسكرية ابنتها وراءها وقد تجلى فيها نضج الأنوثة المحببة إلى القلب. . لا يهمها الأمر أكثر مما يهمها النظر إليّ بشبق. . حاولت أن أداري نظري عنها. . قلت لأم أحمد:

ـ سيعود أحمد منتصراً. .

قالت أم أحمد بأسى:

ـ أنا أصدقك دائماً. . لكن؟

ـ لكن. .؟

ـ لكن هذه المرة كما يذاع حرب استنزاف. .

ـ وماذا في ذلك؟

ـ يعني يا ابني حرب صواريخ لا تذر ولا تبقي. .

ـ يبدو أنك يا أم أحمد خبيرة في المسائل العسكرية؟

ـ نعم يا ابني. . فقد علّمنا أحمد الكثير. . !

ابتسمت. . وابتسمت هي أيضاً وضحكت عسكرية. .

* * *

الجو لطيف في الشرفة.. استرخيت على الكرسي بعد أن تفقدت الزهور في أُصُصِها.. ذابلة دائماً.. مصرة على عدم النمو.. تتقدم إلى الخلف باستمرار رغم عنايتي بسقيها وتهذيبها..

جلت ببصري نحو شرفة «الفيلا».. كانت هي مع كلبها كالعادة.. كانت أكثر نضارة وإشراقاً وأنوثة وبهجة.. نظرت إليّ لأول مرة طوال هذه السنين وركزت النظر بابتسامةٍ عذبة هادئة.. خجلت، بل وأصابني الارتباك والوجل.. يا إلهي.. إنها تنظر إليّ لأول مرة وأنا الذي كنت أنظر إليها طوال هذه السنين.. ماذا حدث؟!

كانت تركز على المذياع المجاور على طرابيزة على يمنيها وتنظر إليه وإليّ. أخرجت مذياعي لأول مرة إلى الشرفة.. وفتحته منتشياً.. كان يشدو بأغنيات محببة إلى نفسي «شوف الزهور واتعلم.. بين الحبايب تقدر تتكلم..»

«شوف شوف.. شوف الزهور واتعلم..» إلخ..

«حرام عليك تبعث عينيك.. تشغل عينيا طول الليالي

حاولت اخبي حبك في قلبي.. لا يبان عليّ كثير انشغالي».

لأول مرة أرى القمر بضوئه الفضي في سماء المدينة.. كان ساطعاً بعد منتصف الليل والجو صاف والهواء رقيق وعليل كعادته في شهر سبتمبر «أيلول». لم أحاول أن أشغل نفسي بالقراءة أو الكتابة.. كنت أتفحص كل ملامح المرأة وكلبها وشرفتها بدقة حسب العادة.. في هذه الليلة شعرت بأنني أقترب منها أكثر وأكثر.. كأنني جالس معها في شرفتها الزجاجية ومع كلبها العظيم نستمع للأغاني الجميلة في الليلة السابقة.. أو أنها قد انتقلت مع كلبها لتجلس معي في شرفتي الصغيرة المتواضعة.. والكلب يفصل بيننا هامداً.. لكن عينيه يقظتان بتحفز..

تنبهت لخفوت الضوء.. فعرفت أنها أطفأت نور الشرفة ودخلت مع كلبها إلى «الفيلا».. تأخرت قليلاً أحاول أن أجد حلاً لزهوري التي يتقدم نموها إلى الخلف.. ذابلة.. شاحبة.. تلفظ أنفاسها الأخيرة..!

* * *

شهر أيلول.. حيرني كثيراً.. ففيه تحدث الثورات العظيمة، وفيه تحدث

الكوارث أيضاً. . شهر حار. . لكن حرارته معتدلة تتيح الفرصة للتنزه أو البقاء في الشرفات ليلاً أو نهاراً. .

كان صباحاً كئيباً. . من أيام أيلول الأخيرة. . حيث اعتدت أن أسمع صوت الموسيقى وأنا جالس في الشرفة. .

في ذلك اليوم لم يصدح المذياع بصوت الموسيقى. . بل بتراتيل المقرئين للقرآن ورنين أجراس الكنائس. .

نظرت إلى الشرفة. . لم أجد للمرأة ولا لكلبها أثراً. .

انزعجت. . وأصبحت بحالة قلق وذعر شديدين. . تذكرت بأن أي تلاوة للقرآن أو رنين لأجراس الكنائس في غير أيام الجمعة أو الأحد. . تدل على حدوث كارثة عظيمة. . كتعودي سماع الأناشيد الوطنية الحماسية بأنها تدل على حدوث ثورات عظيمة في الوطن. .

* * *

كانت جحافل هائلة من ملايين البشر تملأ كل شوارع وميادين المدينة متجهة صوب مقر تشييع الجنازة. . ارتديت ملابسي على عجل وخرجت من باب العمارة واتجهت إلى شرفة الفيلا الزجاجية. . طرقت بدقات عنيفة جداً على باب السور الحديدي. . قفزت من فوقه. . وخبطت على زجاج الشرفة الكبيرة الدائرية. . لا أحد يجيب أو يرد. . لا هي ولا كلبها العظيم. .

أقنعت نفسي بأنها ربما خرجت مع كلبها العظيم لأول مرة إلى الشارع. .

زاحمت الناس من مدخل الشارع الصغير إلى الشارع الكبير إلى الجسر العظيم. . بين أنفاس وزفرات وبكاء حزين. . لم يأبه أحد لشباب يلقون بأنفسهم من على الجسر إلى النهر منتحرين. . المواكب الزاحفة كادت وربما كانت تدوس عشرات تحت أقدامها. .

اصطدمت بشيء صلب آلمني. . تشبثت به. . إنه أحمد بلباسه الميداني وسلاحه فوقه. .مغبر الوجه. . احتضنني واحتضنته بشدة. .

وعلا بكاؤنا بتشنج مفجع ونحن نصارع أمواج البشر. .

قال لي إنه سمع وهو في الجبهة بالخبر فهرع مهرولاً كغيره ماشياً على الأقدام وقضى ليله ونهاره يسافر بلا زاد أو شراب أو نوم لكي يلحق بالموكب

الجنائزي الحزين.. ويخلع ملابسه الميدانية بدلاً عن الزهور ليلقيها على القبر.. وإلى الأبد..

* * *

عدت إلى شرفتي المظلمة قابعاً على ذلك الكرسي المهترئ.. كانت شرفة الفيلا مظلمة أيضاً.. كان القلق يساورني ويزعجني.. أطلت السهر في الشرفة إلى ما بعد منتصف الليل عسى أن أرى نوراً هنالك وأجدها مع كلبها العظيم تربت على رقبته بيدها الناعمة البضة المطرزة بالخضاب والحناء والأساور الذهبية..

* * *

مرّ اليوم الأول وقد همدت على سريري أسمع أشرطة موسيقية بدلاً عن الإذاعة والتلفزيون.. كان من عادتي أن أحصي أعقاب سجائري المستهلكة بحيث لا أتجاوز السيجارة الخامسة.. لكنني تركت تلك العادة لأن الأعقاب قد تجاوزت العشرات..!

قمت متثاقلاً في صباح اليوم التالي.. لا وجود للمرأة وكلبها في الشرفة.. نزلت إلى الشارع.. تفحصت باب السور الحديدي للفيلا.. كما هو بقفله الذي لم يفتح أبداً والذي علاه الصدأ والذحل.. حاولت أن أدق جرس البوابة.. فعلت ذلك.. لكنني هربت إلى باب عمارتي..

انتظرت أن يجيب أحد.. أو تضاء الشرفة.. لم يحدث ذلك..

سمعت فقط عواءً خافتاً حزيناً للكلب العظيم كما خيل إليّ..!

عدت إلى شرفتي وقد يئست من رؤيتها مع كلبها.. تسليت أو حاولت أن أشغل نفسي الحزينة بإنعاش أشجاري التي تحتاج إلى غرفة إنعاش لتعود إلى الحياة.. زاد ذبولها وشحوبها، واصفرار الموت يصبغ أوراقها.. سقيتها بالماء ووضعت لها الأسمدة الخاصة.. عسى أن تعود إلى الحياة الطبيعية.. كان ذلك أملاً لديّ..

* * *

زاد قلقي..أصبحت عصبياً.. أصابني السقم والزهد والنسك أيضاً..

هذا هو اليوم الرابع.. لا حس أو خبر عنها سوى عواء كلبها الحزين المتقطع ينبعث بهدوء من داخل الفيلا..

لم أنم ولم أتناول الطعام طوال هذه الأيام.. قابعاً في الشرفة.. يدخل عليَّ الزملاء كل ساعة، وأم سهير وربما أحمد ووالده ووالدته وأخته عسكرية ليجدوني كما أنا عليه منذ أيام واجماً لا أنظر إليهم ولا أرد على أسئلتهم ولا أعير دموعهم أي اهتمام..

زاد عواء الكلب العظيم بحزن.. لكنه في هذا اليوم الرابع أكثر استجداء أو أعلى صوتاً..

* * *

احتشد أمام الفيلا كل سكان الشارع.. وأنا أنظر إليهم من شرفتي.. ووصلت سيارة الإسعاف والشرطة متأخرة حسب العادة.. وأنا في شرفتي كما أنا عليه في هذا الأيام.. نظراتي حزينة ليس لها هدف..

حطم الناس والجند ورجال الإسعاف القفل الحديدي الذي علاه الصدأ أو الذحل.. وفتحوا الباب اللزج.. ودخلوا من شرفة الفيلا واقتحموا بابها..

علا صوت الكلب العظيم ليس عواءً هذه المرة وإنما نباحاً. وبصورة مفجعة رهيبة وعدوانية واستماتة.. سمعت ذلك وشاهدت الناس والجند ورجال الإسعاف يقذفون بأجسادهم على درجات الفيلا ناجين بأنفسهم إلى الشارع..

ـ نعم يا أحمد..؟؟

ـ أنعم الله عليك بالخير..

ـ أي خدمة..؟

ـ يا أخي.. المرأة.. لم يستطع أحد الاقتراب من جثتها.. لا أقاربها.. ولا نحن سكان الشارع ولا رجال الشرطة ولا رجال الإسعاف..

ـ لماذا يا أحمد؟؟

ـ الكلب.. الكلب.. منع الكل بشراسة من الاقتراب من جسدها المسجى..

ـ طيب يا أحمد ماذا تريد مني . . ؟

ـ أنت الوحيد يا أخي الذي لم يحضر . . !

ـ وما دخلي في ذلك . . ؟

ـ أنا أخوك . . وأترجاك أن تنزل معي وندخل معاً إلى مكانها . .

ـ هل سأغير من الموضوع شيئاً وقد عجزتم جميعاً . . !

ـ أبوس إيدك . . أبوس رأسك . . أبوس رجليك . .

نزلت معه درجات سلم العمارة ومن ورائنا والده وأمه واجمان والبنت عسكرية باسمة كأنها تتفرج على «مولد» هايص . . !

وعبرت مع أحمد شارعنا الصغير إلى باب الفيلا، اخترقنا جموع سكان الشارع ورجال الأمن والإسعاف . . والأقارب الورثة . . !

لأول مرة أعرف الشرفة الزجاجية المدورة التي تمنيت أن أجلس معها ومع كلبها العظيم فيها . . وكانت أمنيتي لعدة سنوات مضت لم تتحقق تحققت الآن، ولكن في ظرف كارثة وشرخ مفجع أصابني وربما لن يلتئم إلى الأبد . .

كان أحمد يسير أمامي إلى داخل الفيلا . . تأخرت عنه أتأمل زاويتها في ركن الشرفة، على يسارها دائماً تجلس، وأتأمل مكان كلبها العظيم . . الذي كانت تربت عليه بيدها دائماً وتحك بأناملها المزخرفة والمزركشة والمطرزة بالحناء والأصباغ وأساور الذهب المغرية . . !

مزق تأملاتي صوت الكلب العظيم الذي دوى في داخل النيلا أكثر مما كنت أسمعه من خارجها . .

توجهت إلى مدخل الفيلا المؤدي من الشرفة حيث اصطدمت بأحمد الهارب فزعاً من الكلب العظيم . . !

احتمى أحمد خلفي وقد تشبث بكتفي من الخلف . . !

اتجهت نحو مكانها وخلفي أحمد ملتصقاً بظهري . . ترتعش أطرافه وجلاً وخوفاً . .

كان الكلب العظيم مواجهاً لي . . عيناه محمرتان . . وأنيابه قد كشر عنها . . ونباحه قد تحول إلى فحيح شرس . . تقدمت ومن وراء ظهري أحمد متشبثاً بي بكلتا يديه وأنفاسه تلسع رقبتي . . مشيت متقدماً بخطوات عادية

وطبيعية نحو جسدها المسجى.. كان الكلب العظيم قد تحول فحيحه الشرس إلى زفرات حزينة وتراجع معي إلى الخلف نحو الجسد المسجى..

ربتُّ على رقبته بلطف.. وداعبت بأناملي قفاه.. فهمد بجوارها بهدوء..

تأملتها.. كانت كما هي.. بنفس الحلاوة والنضارة والجاذبية.. والأنفة والكبرياء.. وانقذفت من عيني دموع لم أستطع منعها، وزفرات بكاء ونواح لم أستطع السيطرة عليه.. كان الحزن عظيماً.. وضعت يديَّ على خديها.. وقبلتها في الجبين وعلى الخدين، وبكائي المكبوت يكاد يفجر صدري ودماغي وكل جسمي..

أبقيت أحمد في جوارها.. وأشرت للكلب العظيم بأن يتبعني ويدي تربت على رقبته.. وخرجت معه من باب الفيلا وجموع سكان الشارع ورجال الأمن والإسعاف، والورثة أيضاً قد تركوا لنا طريقاً، ليس احتراماً منهم لنا وإنما خوفاً..!!

صعدت درجات العمارة.. وهو ورائي.. دخلت باب الشقة.. وهو ورائي.. واتجهت إلى غرفتي..وهو ورائي.. وقبعت في الشرفة.. وقبع أمامي.. ويدي تربت على قفاه..

صنعاء: 24/ 1/ 1989م

مجموعة
المدفع الأصفر

تقديم

أ.د/ عبد العزيز المقالح

من المحزن، بل من المثير لأقصى درجات الحسرة، أن تظهر هذه المجموعة القصصية في غياب صاحبها، وأن تكون آخر ما كتبه المبدع الراحل زيد مطيع دماج في مجال القصة القصيرة، بعد مجموعاته الأربع السابقة وهي: «طاهش الحوبان» و «العقرب» و «الجسر» ثم «أحزان البنت مياسة» وبعد أن أثرى المكتبة الأدبية بإبداعاته الأدبية والفكرية قبل أن يحاصره المرض ويقطع عليه الموت جسر التواصل مع الحياة والإبداع.

وظهور هذا الكتاب اليتيم «بالمعنى الحرفي للكلمة» بعد رحيل صاحبه يستدعي إلى ذاكرتي تلك الحفاوة الحميمة التي كان زيد يستقبل بها أعماله الإبداعية مطبوعة ومنشورة، ومدى سعادته وهو يتصفح النسخة الأولى، لذلك فإنني أشعر بقدر كبير من الألم لأن هذه المجموعة ستظهر في غيابه، ولن يمسح على غلافها بيديه الحانيتين، ولن يتذكر لحظات كتابتها، علماً بأنه كتبها في ظروف مرضية قاسية كان خلالها يتنازع مع الموت والقلم، فما يكاد يمسك بالقلم ويخط به على الورق بعض السطور حتى تمتد يد الموت محاولة انتزاعه من بين أصابعه لساعات أو لأيام أو لشهور لتحرمه من اللذة الوحيدة التي كانت قد بقيت له قبل أن تنتزعه منها نهائياً وللمرة الأخيرة.

ولأنني أعرف أن كل تقديم يجافي التوصيف والتحليل، لهذا لن أتوقف للحديث عن قصص المجموعة بل سأرجئه إلى دراسة موسعة فيما بعد، وأكتفي هنا ببعض الإشارات التي قد تضيء جوانب من إبداع هذا الفنان الذي رحل قبل الأوان، حاملاً معه خرائط وخططاً لعشرات المشاريع

في عالم الرواية والقصة القصيرة. وأولى هذه الإشارات أن زيداً كان يردد علينا ـ نحن أصدقاؤه الأقربون ـ أنه اختزن في ذاكرته جملة قصيرة للروائي والقاص العالمي الكبير ليون تولستوي تقول: «إن الفن العظيم هو الذي يعلم الناس أن يبصروا وأن يفهموا وأن يشعروا» وقد كانت هذه الجملة أو العبارة البديعة دليله إلى كتابة كل أعماله، كما كانت مرجعه حين تضطرب في ذهنه أحاديث النقاد ومفاهيم المذاهب المختلفة في رصد الإبداع السردي والشعري.

وثاني هذه الإشارت تؤكد على أن زيداً قد عاش خمسة وعشرين عاماً من حياته ـ قبل أن يداهمه المرض ـ في ألفة حميمة مع الكتابة، وكان تفكيره على مدى هذه الأعوام منصرفاً إلى الكتابة، وعلى الرغم من أنه شغل عدداً من المناصب العامة إلا أنه كان يدرك أنه خلق ليكون مبدعاً لا موظفاً ولو أن الحياة في بلادنا كانت تسير وفقاً لشروط العصر وتنطلق من الحرص على تدبير الحياة للمبدع لما اضطره إلى المكابرة وإلى تبديد طاقاته الخلاقة في أعمال يجيدها عشرات بل مئات الموظفين المحترفين.

أما ثالث هذه الإشارات فإن هذه المجموعة القصصية التي كتبها زيد في مناخ المرض والأوجاع المبرحة ـ كتب عدداً منها في المستشفى ـ قد خلت من أية إشارة إلى مرضه ومعاناته، وذلك ناتج عن حرصه على نزعة التسامي فوق الألم وانشغاله إلى آخر لحظة بما يعانيه الإنسان من عذاب سياسي واجتماعي.

كما أن بعض قصص هذه المجموعة لم تخلُ من روح الفكاهة كما هو الحال مع قصة «قطط الإمام». كأن زيداً ـ في أعماله الإبداعية ـ لا يستطيع أن يشكو، بل يحرض ويوجه ويقاوم الأخطاء.

أما رابع هذه الإشارات فإن زيداً الذي تعرض لحملة شعواء ما تزال أصداؤها تتردد حتى هذه اللحظة بسبب إدانته العنيفة ـ إبداعياً ـ للممارسات الظالمة لعهد ما قبل الثورة، لقد أدان بالقدر نفسه الممارسات الظالمة والخارجة على القانون بعد الثورة بلغة لا تقل عنفاً وقسوة، مؤكداً بذلك أن

المبدع الحقيقي يرفض إذلال المواطنين وقهرهم واستلاب حريتهم تحت كل الظروف والأوضاع.

لقد رحل زيد بعد أن وزع روحه في كلماته وفي أعماله وتركها وديعة بين الناس وإلى الأبد، فإلى روحه السلام، وإلى قارئه التحية والعزاء.

كلية الآداب
جامعة صنعاء في 9/ 7/ 2000م

أزمة البنت بشرى

ـ ألو.. من معي..؟

ـ عمي..!

ـ أهلاً بالحبيبة «بشرى»..

ـ يتساءل والدي أين سيكون مقيلكم اليوم..؟

وأحدد لها المكان حسب العادة، فهي تتصل دائماً من بيت الجيران، لأن والدها لا يملك تليفوناً..

هكذا استمرت علاقتي بالطفلة «بشرى» عبر التليفون.. لم أعرفها شخصياً، ولكن معرفتي بها من خلال صوتها عبر التليفون تكاد تكون يومية عندما يرسلها والدها لتسألني عن مكان مقيلنا مع الزملاء شبه الدائمين..

كنا مجموعة من الأصدقاء والزملاء ربطت بيننا علاقة انسجام ثقافية وأدبية وسياسية ومنطق واحترام.. وصداقة «لا تُفلُّ» وحنان لا ينقطع ومحبة دائمة لا زوال لها.. ونادراً ما كنا نختلف في بعض القضايا الهامة.. لكن ذلك لم يكن يؤثر على عمق صداقتنا.. وكنا في البداية رغم ذلك نتحفظ عن إبراز هويتنا السياسية قدر الإمكان.. نخفيها عن بعضنا البعض.. خوفاً من العسس والجدران.. كان هو الوحيد الذي نعرف هويته السياسية المتقلبة.. لأنه صريح ولا يخاف.. وربما يفتعل ذلك.

كنا نتألم منه في بعض الأحيان لجرأته في عناده.. ونغضب منه بشدة لعدم تفهمه نصحنا.. حتى كتاباته في الصحف والمجلات لا تخلو لدينا من نقد بسيط، إلا أن ذلك كان خارج محيطنا.. كانت قد شُنَّتْ عليه عدة حملات عشوائية من شبه علماء سلفيين ومفكرين وباحثين وأكاديميين ليسوا على المستوى.. كان يطلق عليهم لقب «الخواجات المحليين».. وفي

بعض الأحيان إذا غضب يطلق عليهم تلاميذ المستشرقين «الاستعماريين». .

* * *

- ألو. . !
- نعم. . . !
- يا عمي أسعد الله يومك. . . !
- حياكِ الله يا أعقل وأذكى طفلة في العالم. . !
- أشكرك يا عمي على هذا الإطراء. . لا أريد إزعاجك. . والدي يسأل عن مقر مقيلكم اليوم. . ؟

كان في مكان «المقيل» أمامي. . تأملته ملياً وهو يصيح ويده اليمنى ترتفع إلى أعلى ويده اليسرى إلى أسفل. . ويكاد يقوم بجذعه إلى الأمام وضحكاته الدائمة إثر كل جملة يقولها كعادته يغطي بها منطقه الأعوج في بعض الأحيان. . وزملاء المقيل مشارون يحاولون جهدهم إيقافه حتى يتسنى لهم الحديث لإفهامه، لكن بدون جدوى. . فصوته الأعلى دويًا بحججه الواهية غير المنطقية في بعض الأحيان. . !!

كان ينظر إليّ بين الحين والآخر. . كنت الوحيد الصامت. . شعر بتألمي لإصراره على الجدال الذي بان على وجهي بأنني أرفضه. . فصمت لثوانٍ قليلة أتاح خلالها فرصة للزملاء لإبداء آرائهم ضده. . !

* * *

- ألو. . يا عمي. . !
- نعم أيتها الحبيبة اللبيبة. . ما لصوتكِ واهٍ. . . !؟

توقفتْ قليلاً وتنهدت:

- والدي يسأل عن مكان مقيلكم اليوم. . ؟

لا أدري كيف انتابني شعور بأنها متألمة فتساءلت:

- كيف أحواله. . هل هو متعب. . ؟

تأخرت في الرد قليلاً ثم قالت:

- يبدو ذلك. . .

انزعجت:

- هل هو مريض..؟

- لا..

- هل حدث شيء مكروه..؟

- لا..

- ماذا جرى أيتها الحبيبة..؟ طمئنيني..

- عاد البارحة وهو متألم ولم يكتب كالعادة... ودخل مع والدتي في نقاش حول متطلبات ضرورية كما قالت.. ونام لأول مرة مبكراً..!

- أهذا كل شيء يا عزيزتي..؟

- لا غير.. ولم أكن أريد البوح به لك..

- أنا أعرف ذلك.. وأعرف أنه سيتغلب على ذلك كعادته دائماً..

تنهدت:

- أعرف ذلك يا عمي..

- والدك بطل..

- أعرف ذلك يا عمي.. فهو بطل دائماً..

* * *

ألقى التحية على الجميع وجلس في مواجهتي.. وبدأ الحديث مباشرة وهو ينظر إليّ:

- كلكم مجاملون.. إلى درجة المبالغة.. في قضايا منطقية لا تحتاج إلى تأويل.. كلكم ضد الديمقراطية.. ومع الديكتاتورية والإرهاب الفكري.. تحلمون بمستبد عادل.. وسفاح يوحد الوطن بالدماء وليس بالديمقراطية..!

نظر إليّ ملياً ليجدني عابساً متألماً لكلامه العدواني هذا الذي باشر مجلسنا به بداية مقيلنا.. والكل منهمك وبيده راديو صغير نستمع لأخبار الأزمة.

البعض ردّوا عليه بهدوء، والبعض الآخر بتوتر أكثر منه، وبعضهم بقليل

من القسوة. . . أما أنا فتذكرت حديث البنت «بشرى» لي بالتليفون فلزمت الصمت ولم أتكلم طوال المقيل مطلقاً.

* * *

رنّ جرس الهاتف كالعادة وأنا منتظر بقلق. . . رفعت السماعة إلى أذني بلهفة ولم أنتظر الرّنة الثانية. .

ـ عمي. . ؟

ـ نعم يا «بشرى». .

ولم تدعني أكمل لأسأل عن والدها وكيف حاله. . بل واصلت قائلة:

ـ عمي. . أي الطيور تحبها. . ؟!

عجبت من سؤالها المفاجئ الذي لم أكن أتوقعه أبداً. تريثت قليلاً قبل أن أرد على سؤالها هذا الذي جعلني في حيرة. . لا أتذكر فعلاً أي الطيور تعجبني أو التي أحبها منذ الطفولة في القرية حتى الآن. . وغلبت عليّ الابتسامة وأجبتها بتردد متقطع:

ـ أحبُّ العصافير. . والطيور الملونة. . والبلابل. . والقمارى

ـ فقط يا عمي. . !؟

احترت وكدتُ أضحك إذا قلت لها الغربان و «الحداء» و «الرخم». لكنني تذكرت أسماء طيور ربما تريحها وتعجب بها كما خمنت. .

ـ طيور البطريق. . والبجع. . والبط. . والببغاء. .

ـ عمي. . ألا تعجبك إلا هذه الطيور. . !؟

ولم تدعني أجيب بل واصلت كلامها:

ـ إنني معجبة بالنسور. . والصقور. . وأحب «الصقر الحائر». .

كدتُ أضحك لكنني فعلاً احترت:

ـ لم أسمع بالصقر الحائر من قبل. . !

ـ عجيب يا عمي. .

ـ ربما تقصدين الطائر «مالك الحزين». . !

انتظرتُ ردّها لبعض الوقت.. كأنها اندهشت كما خُيِّل إليّ.. وأجابت بدهشة وتساؤل:

ـ هل هناك طائر اسمه «مالك الحزين».. !؟

ـ نعم..

ـ لماذا هو حزين يا عمي..؟

ـ مثل حيرة صقرك المحبب الذي تعجبين به..

ضَحكت.. لكنها ترجتني سائلة:

ـ باللّه عليك يا عمي لماذا طائرك حزين..؟

وشرحت لها عن طائر «مالك الحزين» كما عرفته وتذكرته من معلوماتي القديمة التي نبشتها البنت «بشرى».. وفاجأتها بسؤال:

ـ لماذا أنتِ منشرحة اليوم..؟

أجابت ضاحكة:

ـ لقد عاد والدي بالأمس مزهواً.. وشاهدته يتلاطف مع والدتي برقة وسرور.. وذراعاه يعلوان ويهبطان.. لقد حضن أمي بين ذراعيه لأول مرة، ودار بها دورتين.. حتى كادا يدوخان، ودخل غرفته للقراءة والكتابة حسب عادته الطبيعية.

فرحتُ فعلاً لذلك.. وقلتُ لها ضاحكاً:

ـ أية أقوال أخرى..؟

ضحكت وقالت:

ـ آه.. والدي يردد علينا هذا القول قبل خروجه كل صباح.. لم تخبرني يا عمي أين مقيلكم اليوم..؟

* * *

دخل إلى المقيل باسماً.. وألقى التحية وهو يكاد يضحك.. لم نعره اهتماماً ربما عن قصد من البعض، وبأيدي البعض منا أجهزة الراديو «الترانزيستور» نتابع إذاعات العالم.. فأخبار الأزمة قد تطورت إلى الأسوأ..

أُقفلت الراديوهات وبدأنا بتناول «القات». . كان الصمت قد خيم على الجميع. . لكنه صاح كعادته قائلاً:

ـ ألم أقل لكم. . ما هو المبرر لهذه المغامرة السخيفة. .؟

ولم نجبه. . لكنه قال:

ـ إنها مؤامرة على الوطن

ولم يتلقَ رداً واحداً من الجميع. . وكانت فرصته لكي يقول ما يريد نثراً وشعراً.

ـ تكفي هذه المهزلة. . أقسمُ بالله بأن ما كتبته أنت عن التاريخ كلام فارغ وكذب. . وما سجلته في مقالاتك هراء وعشوائية حمقاء. . مادام تفكيرك في هذه الأزمة التي نمر بها بهذه السذاجة. .

وانفعل زميلٌ آخر صائحاً:

ـ لن أحضر بعد اليوم أي مقيل تتواجد فيه. . مادمت بهذا الأسلوب السادي المزعج. .

وتتالت الكلمات القاسية الموجهة إليه من بقية الزملاء والأصدقاء بشبه إجماع. .

* * *

وظلّ التليفون صلة حوار بيني وبين البنت «بشرى» عن مكان المقيل. . لكن الأزمة تطورت من سيئ إلى أسوأ. . وأصبحت الأعصاب متوترة والأفكار غير متسقة. . والتغطية الإعلامية عالمياً ومحلياً مخادعة وكاذبة وغير مستقرة، مما جعلنا جميعاً في حالة من الارتباك والإحباط واليأس. .

* * *

ـ ألو. .

ـ نعم. .

ـ . . . يقول والدي أين مقيلكم اليوم. .؟

شعرت من صوتها بأنها غير طبيعية وبأنها متألمة كما خيل إليّ. .

ـ ما لصوتكِ حزيناً.. وحائراً يا ابنتي العزيزة غير ما تعودته...؟

ـ ... أوف.. أين سيكون مقيلكم التعس هذا اليوم..؟

* * *

في أوج الأزمة وفي أيامها الأخيرة كان الزملاء قد ضاقوا من تواجده في المقيل لموقفه النشاز وتحمسه المعاكس لآرائنا.. وأصبح الوضع لا يُطاق لوجوده.. رغم نصائح الكل له بأن الأزمة أصبحت قضية قومية وقضية حياة أو موت لأمتنا.. وأنه لا داعي لأن يردد مقولاته كأسطوانة مشروخة عن الديكتاتورية.. وعن الديمقراطية.. والمستبد العادل.

* * *

فوجئتُ في أحد أيام «مقيلنا» بتوجيه اللوم لي من معظمهم بأنه يعرف مكان مقيلنا عن طريقي.. بينما الجميع يكذب عليه في الآونة الأخيرة عن مكان المقيل.

سهرت ليلتي حتى الفجر وأنا في حيرة.. أصارع نفسي وضميري.. هل أكذب عليها كما فعل الزملاء الآخرون..؟ وأنا الذي أؤمن بصدق بأن الكذب جريمة لا تغتفر حتى لو كانت كذبة بيضاء لدرء مصيبة..!

* * *

ـ ألو..

ـ نعم..

ـ أين مقيلكم اليوم يا عمي..؟

لم أشعر في حياتي بموقف محرج كهذه الساعة.. بحثت عن سيجارة أشعلها عسى أن تهدئ من توتر أعصابي ولم أجدها قريبة مني.. وهي مازالت تنتظر إجابتي.. وأحس بأنفاسها المتأوهة على سماعة التليفون..

ـ معذرة أيتها الحبيبة.. أنا في حالة مرض وفتور منذ الصباح الباكر..

ـ أرجو لك الشفاء العاجل.. أين سيكون مقيلكم..؟

ـ.. لا أدري.. ربما في شرق المدينة.. أو في غربها.. وربما في جنوبها

أو في. . .

وأطبقت سماعة التليفون فجأة قبل أن أكمل كلامي. . .

* * *

وصلت إلى المقيل متأخراً على غير عادتي. . واجماً محبطاً، ليس من تطورات الأزمة المؤسفة. . لم ألقِ التحية كالمعتاد وجلست في أسفل المكان. . لم أتكلم ولم أنظر إلى أيٍّ من وجوه الزملاء ولم أتبادل معهم الحديث أو الابتسامة المعتادة رغم محاولاتهم لإخراجي من صمتي المطبق.

* * *

ـ ألو. .

ـ نعم. . يا. .

كان صوتها حزيناً. . تحاول جاهدة أن تخفي تشنجها الباكي وترغم صوتها بأن يكون قوياً ومتغلباً على ضعفها وانكسارها النفسي المتألم. .

قالت بتروٍ لأول مرة:

ـ لم أكن أتوقع في حياتي بأنك ستكذب عليّ كما كذب الآخرون. . لأنني أعرفك من خلال صوتك، وقد حمدت اللّه أنني لم أعرفك من خلال صورتك. .

ـ إسمعيني يا ابنتي. .

وقاطعتني:

ـ والدي عظيم. . والدي محترم. . والدي شريف. . والدي نزيه. . والدي وطني. . والدي بطل ومناضل. . أديب ومؤرخ كبير. .

حاولت أن أقاطعها. . لكنها لم تتح لي فرصة واستمرت:

ـ والدي ليس بحاجة لمجالستكم. . ولا للمقيل معكم. . هو أعظم منكم. .

وأطبقت السماعة وأنفاسها المنفعلة تلدغ أذني. . .

* * *

انتظرتُ عدة أيام بجوار جهاز التليفون أتوقع أن تتصل بي كعادتها في ذلك الوقت. . بتوتر وانفعال لاحظه الزوجة والأبناء. . كان الوجوم والتوتر مصاحباً لي في مقيلي مع الزملاء يومياً وفي المنزل أيضاً. .

* * *

مرت الأيام. . أصبحنا في مقيلنا نفتقد الرأي الآخر. . وأصبح كلامنا معاداً ومكرراً. . فقدناه فعلاً. . فقدنا عناده. . صياحه. . فقدنا إثارته لنا. . كان يخلق في مقيلنا الجدل ويثير انفعالاتنا. . قد يكون مخطئاً، وهذا لاشك فيه. . لكنه صادق السريرة، وهذا لا شك فيه أيضاً. . قد نضيق به إذا حضر. . لكننا نفتقده إذا لم يحضر أيضاً. . .

* * *

كم غمرتني الفرحة عندما أيقنت وتأكدت فعلاً بأن الزملاء في «مقايلنا» الأخيرة يسألون عنه. . يتساءلون أين يكون متواجداً. . يسألون عن عنوان منزله. . وعن رقم تليفون جاره الذي تتصل منه البنت «بشرى». .

كان رأي الزملاء بالإجماع على ضرورة البحث عنه. . أصبحوا مقتنعين بأن يجدوه وأن يحضر «مقيلنا» الدائم. . أن يكون بيننا بخيره أو بشره. . !

* * *

يبدو أنني كُلفتُ من قبل الزملاء بالبحث عنه وإحضاره إلى «مقيلنا» المحدد. . سعدت بذلك التكليف. . لم أكن أعرف عنوان مسكنه. . قيل لي ربما يكون منزله في مدينة «النهدين» السكنية الجديدة حيث وفّق فيها لمنزلٍ بعد طول انتظار وعناء شديد. .

* * *

أعياني التعب والبحث عن منزله في مدينة «النهدين» الجديدة. . كنتُ حريصاً أن أجده مبكراً كي نحضر مقيل الزملاء في الوقت المناسب. . وأخيراً اهتديت إلى عنوان منزله. . قرعتُ الجرس. . وانتظرتُ ليس شوقاً لملاقاته. .

وإنما لرؤية البنت «بشرى». أنا على يقين بأنها هي التي ستفتح باب فناء المنزل وليس أحد غيرها..

كررت قرع الجرس.. وسمعت وقع أقدام خفيفة تقترب من وراء البوابة..

- من..؟

- أنا..

فُتح الباب بدرجة بسيطة للرؤية وبحذر شديد.. لا أدري كيف تسرعت بلهفة قائلاً:

- البنت «بشرى»..؟

تراجعت قليلاً وهي تحاول تقليص فتحة الباب.. ونظرت إليّ.. تيقن لي بأنها عرفتني من صوتي.. أكيد ذلك..

- ماذا تريد..؟

- أريد أن أقابل والدك..

- ماذا تريد منه..؟ هو مشغول.. يكتب ويقرأ ولا يقابل أحداً ولا يريد أن يقابل أحداً..

- أخبريه بأن عمك يريد أن يراه..

- أعمامي في القرية.. وأنا أعرفهم..

- يا ابنتي الحبيبة.. أنا على يقين بأنكِ تعرفينني.. ربما أكون الآن «الصقر الحائر» أو «مالك الحزين»..!

فتحت الباب وأشاحت بوجهها عني بعد أن أشارت إلى مكان والدها.. حاولت أن أحتضنها لكي أقبلها لكنها شردت كظبية متمردة..

دخلتُ عليه.. كان متكئاً وأمامه «قاته» المقطَّف وسيجارته في فمه.. وبين يديه أوراق يكتب فيها، وأمامه عدة كتب ومراجع وصور تاريخية قديمة وحديثة.. نظر إليّ وقام باشًا للقائي والترحيب بي.. كأنه فوجئ بوصولي فعلاً وكأنه لم يتوقع حضوري، فقد كانت أول مرة أعرف منزله..

* * *

لم أُطل عليه الحديث ولم يطل هو عليّ الإبطاء في الخروج معي.. كنتُ في لهفة لأجد البنت «بشرى» في الفناء.. كانت تحت شجرة عنب تلعب بعدة «حصى» بيديها.. نظرت إلينا شزراً.. وكأنها «حائرة» و«حزينة».. ربما لا تريد خروج والدها معي..

واتجهتُ معه إلى باب الفناء.. وأقبلت البنت «بشرى» مضطرة لتقفل الباب خلفنا..

ركب بجواري.. وأنا أنظر إليها.. لم تقفل الباب نهائياً بل تركت فيه متسعاً للرؤية.. نظرت إليّ ملياً.. قابلتُها بنظرات مني مُحبة ومُودة.. بدأت تبتسم قليلاً قليلاً.. ثم انفرجت ابتسامتها إلى ضحكة فرحة.. حييتها بيدي وكذلك فعل والدها.. قابلتنا بتحية بكلتا يديها والفرح يكاد يغمر محياها..!

النذر

تضرعت «اللريمي» خادم الإمام المؤتمن

ـ أقبّل يديك وأبوس رجلك أن تُدخل طفلي هذا ليقرأ الإمام عليه الفاتحة. .عسى أن يعيش لي فقد مات عليّ أطفال كُثر. .

نظر إليها. . امرأة كغيرها من النساء اللواتي يترددن على بوابة قصر الإمام يطلبن دعاءه وقراءة القرآن على أبنائهن الرضع. .

قدمت له خمسة ريالات فضية. . . أخذها وأخذ الطفل الرضيع بين يديه. . . تمتم وهو متجه نحو الإمام قائلاً لنفسه: «المبلغ كبير. . . وسيقرأ مولانا عليه الفاتحة قراءة حارة بدون شك ويزيد عليه من البصق أيضاً. .»

* * *

دخل على الإمام وانحنى على ركبتيه وقبّلهما. . كان الإمام كعادته يداوم في فناء القصر مع كتبته الجالسين حوله القرفصاء. . . يجيبون على تظلمات الرعية ويحررون الرسائل والأوراق المختلفة. . والإمام يمضي بقلمه عليها ويضع ختمه «الشريف» ذا الحبر الأحمر زيادة للأهمية. . نظر الإمام نحو خادمه وسأله:

ـ هل هناك رعايا في الخارج. .؟!

انحنى الخادم نحو أذن الإمام هامساً:

ـ إنهم هم. . كالعادة منذ العام الماضي يا مولاي. . !

تململ الإمام فوق كرسيه الخشبي ثم قال متسائلاً:

ـ وما هذا بين يديك. . !

ـ عفواً يا مولاي. . هذا طفل «مخلوق» تريد أمه أن تقرأوا عليه ما تيسر من القرآن العظيم وأن تدعوا له بالصلاح. .

تململ الإمام على كرسيه ثم قال:

ـ وماذا يا حمار. .!؟

ـ خمسة ريالات فضية يا مولاي. .

تهلل وجه الإمام بالفرحة وبدأ يقرأ بعضاً من آيات القرآن ثم بصق على الطفل كنوع من البركة. . وكالعادة أخذ المال وذهب الخادم في حال سبيله ومعه الطفل ليرجعه إلى أمه. .

* * *

بحث عنها كثيراً أمام باب القصر المصفّد بالحديد والخشب والنحاس. . . وسأل الحراس الغلاظ. . . وزاحم «الرعايا» الذين يصيحون في الخارج والنساء المولولات، يبحث ويسأل الجميع عنها لكن بدون جدوى. .

نظر بأسى نحو الطفل الذي بين يديه. . فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحدث له مثل ذلك. . لكن كرم المرأة وسخاءها لم يكن متوقعاً. .

* * *

عاد إلى الإمام. . يذرع ساحة القصر منكسر الجناح والطفل بين يديه. . . لمحه الإمام فتهلل وجهه وقال كعادته:

ـ وما هذا بين يديك الآن. .؟

تمهل قليلاً قبل أن يجيب. .

ـ إنه يا مولاي. . الطفل نفسه. .

ـ ولماذا لم تعده إلى أمه أيها «البغل». .؟!

صاح الإمام في وجهه فارتعدت مفاصله. . .

ـ لم أجدها يا مولاي. .! بحثتُ عنها في كل مكان بدون جدوى. . . فأعدته إليك. .

غمغم الإمام وحدق خادمه بنظرة آمرة:

ـ خذه إلى بيتك

اقترب الخادم وهمس قائلاً:

ـ كيف ذلك يا مولاي. .؟! خمسة ريالات الفضة لكم وأنا لي الطفل. .؟!

انتفض الإمام من على كرسيه الخشبي كديك رومي وانتفخت أوداجه غضباً واتجه إلى داخل القصر صائحاً:

ـ يالك منْ وغد. . أحمق. .

حاول الخادم كالعادة إصلاح الشأن بالهروع إلى قدمي مولاه وسيده لتقبيلهما. . لكن الإمام رفسه بقدمه صائحاً. .

ـ عليك اللعنة. . يا خبيث. .

آكتون ـ لندن ـ ربيع 1996م

المدفع الأصفـر

مازال يرتدي حُلتّه العسكرية الرثّة... وعلى رأسه طربوشه الأحمر بزره الأسود المتدلي خلف رأسه أو على يمينه بحسب وضع الطربوش. ورغم أن الشمس كانت قد أكلت من الطربوش لونه فأصبح باهتاً، إلا أنه مازال مهيباً. كان متوسط القامة... قوي البنية... ارتسمت تجاعيد قليلة على وجهه الأحمر الذي جعلته حرارة الشمس وقسوة البرد يميلُ إلى السمرة.. ذو شارب عسلي اللون كثّ في وسطه، ومبروم من أطرافه إلى أعلى ليعطيه مهابة زائدة...! وبحاجبين كثّين وعينين تبرقان كعيني صقر... لونهما أزرق مشوبٌ بخضرة داكنة...!

كان متكئاً بيديه على ماسورة مدفعه الأصفر العملاق... مستغرقاً ومهموماً بأسئلة تدور في ذهنه لا يستطيع الإجابة عليها...!

ماذا حدث...؟ كيف اختفى زملاؤه من جنود و«طبشية» وضباط الحصن المنيع المطل على المدينة وضواحيها..؟!

* * *

عاد مرة أخرى واتكأ بيديه على ماسورة مدفعه الأصفر العملاق.. يتساءل بحيرة لوقت طويل عن كيفية اختفائهم...؟!

حدّث نفسه بأنهم ربما قد غادروا الحصن ذات يوم...! ربما حدث ذلك.. لكن كيف.. ولماذا..؟ وحدث نفسه مرة أخرى، لكنه تعجب واستغرب ولم يصدق أن زملاءه وأصدقاءه من جنود و«طبشية» وضباط سيغادرون الحصن ويتركونه وحيداً..!!

هل كان في كهفه الصغير الذي يهرب فيه منهم..؟ وأعاد تساؤله بحيرة، لماذا غادروا الحصن فجأة..؟! ما الذي حدث وما هو السببب؟ هل انتهت الحرب...؟!

قال لنفسه: لا يمكن لأي قوة أن تقتحم الحصن أو أن تستطيع كسر أبوابه المنيعة المصنوعة من الخشب والنحاس والحديد... خاصة مع وجود عدد من أبراج الحراسة عند كل بوابة... لا يمكن أن يحدث ذلك مطلقاً... حدّث نفسه وقال بصوت مرتفع: ليس هنالك أي أثر لمعركة حدثت.. وإن حدثت لا بد وأنه قد سمع دويها..!!

ترك مدفعه الأصفر العملاق وأخذ بيده بندقيته «الموزر» نازلاً تتلمس أقدامه الدرجات المصلولة[1] بالحجارة الملتوية نحو الأبواب العديدة للحصن... واندهش مبهوراً حين وجد كل الأبواب غير مغلقة من الداخل...!!

سحب بيديه البوابة الكبيرة العملاقة التي كانت مواربة ومطلة على المدينة... واختلس النظر بحذر شديد إليها... جال بنظره... وتوقف قليلاً عسى أن يسمع صوتاً ربما يقوده إلى اللغز الذي حيره، لكنه لم يسمع سوى أصوات الديكة وعواء الكلاب ونهيق الحمير العائدة إلى المدينة... أسرع بقفل جميع الأبواب وصعد متجهاً صوب مدفعه الأصفر العملاق... يحوم ويحوم حوله...

انتفض فجأة كأرنب مفزوع... وعلت وجهه ملامح جادة... وهرع يجوب كل مكان ويتوقف عند كل مبنى ومنشأة للحصن ومخابئه السرية.

* * *

الحصن لم يكن صغيراً بمنشآته الكثيرة التي تحتل قمة ذلك السفح العالي جداً، والمنيع أيضاً والمكون من كتلة عملاقة من الصخر الأصم مرتفعة مهولة على المدينة وعلى قمم كل الجبال المحيطة بها وفوق السحب والضباب والنسور العملاقة المعمرة...

يحيط بكل مباني ومنشآت الحصن سورٌ متوسط الارتفاع تم بناؤه منذ القدم وجُدّد عدة مرات، ليس خوفاً من تسلق الأعداء إليه، فذلك أمر يُعد في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً، ولكن خوفاً على حاويته من جند وطبشية وضباط وبغال من السقوط في الهاوية...!

(1) المصلولة: المعبدة بالحجارة

كانت حجارة بعض المباني والبرك والكهوف المنحوتة بدقة والمخصصة للخيول والبغال تدلُّ على أنها من عصور الحضارات القديمة، حيث يوجد حجر عظيم مُلقى على حافة البركة الكبيرة عليه بعض كتابات باهتة بخط المُسند الحميري القديم. . كما توجد مجموعة من «المدافن» المنحوتة في الصخر لتخزين جميع المواد الغذائية من الذرة والحنطة والشعير بكميات كبيرة. . من المؤكد أن الحصن قد جُدّد ورُمّم في عهد الملكة «أروى» الصُليحية إبّان حكمها حيث أنشأت فيه مسجداً مقضَضاً وبركة له ليتوضأ فيها المصلون. . وربما جُدّد مؤخراً في عهد الاحتلال العثماني الذي استمر عدة قرون. . . !؟

* * *

بحث في مخازن المؤن الغذائية عن أي شيء يقتات منه، فقد غلبه الجوع، لكنه لم يجد أي مؤونة غذائية، فقد أخذها زملاؤه ولم يُبقوا إلا التالف منها. . . !!

فتّش «القاووش» عسى أن يعثر على فراشه وملابسه المعلقة. . كان الأوغاد، على حد تعبيره، قد أخذوا كل شيء ولم يُبقوا سوى الرث منها. . . جمع ما هو صالح منها وأخذها إلى داخل المسجد الصغير الذي قرر أنه سيكون أدفأ مكان لنومه وإقامته ولم يفكر في مخبئه السري. . . بحث في مخزن الذخيرة والأسلحة الذي كان أيضاً غير مغلق من الخارج فلم يجد شيئاً سوى عدد من القذائف الثقيلة الخاصة بمدفعه الأصفر العملاق. . قال لنفسه: لقد أخذ الأوغاد، الأنذال، الحقراء كل ما خف حمله وغلا ثمنه. . . !!

نقل قذائف مدفعه الأصفر العملاق. . . واحدة إثر الأخرى إلى مرآبه المطل على المدينة وضواحيها. . . أسند ظهره على مدفعه من الإعياء واضعاً طربوشه على ماسورته العملاقة. . وهرش بيده شعر رأسه وذهب في تفكير عميق وجاد. . . فكر أنه من المستحيل أن ينزل إلى المدينة للتسوق وأخذ ما يحتاجه من مؤن غذائية. . . كان خائفاً. . . ومفلساً أيضاً. . . هرش رأسه مرة أخرى، وفجأة هرع إلى هاوية أخرى من سور الحصن مطلة على المدينة، وكم كان سروره حين وجد السلة وحبالها موجودة في مكانها. . . ضحك

منتشياً وقال لنفسه: لم يأخذها الأوغاد الجبناء معهم لعدم حاجتهم إليها. . . !

كان سعيداً بذلك. . . وعاد مسرعاً إلى مدفعه الأصفر العملاق ولبس طربوشه الأحمر. . . وبدأ بتلقيم إحدى القذائف داخل جوف مدفعه وصوّب نحو سماء المدينة. . .

* * *

لعلعت قذيفة المدفع فوق سماء المدينة محدثة دوياً هائلاً هزّ معظم بيوتها. . . وخرج سكانها جميعاً فزعين. . . واتجهت أنظارهم إلى قمة الحصن. . كل واحد منهم يتساءل عمّا حدث. . . ! وسأل بعضهم البعض الآخر:

ـ ألم تنته الحرب. . . ؟ ألم تنته منذ زمن. . ؟!

ـ وتم انسحاب الحامية. . . أليس كذلك. . !؟

ـ واستقرت الأوضاع. . . حصل ذلك أم أنه لم يحصل. . . ؟

وفجأة شاهدوا سلة كبيرة تهبط بواسطة حبال مضفورة من الجلد المتين رويداً رويداً حتى استقرت على الأرض. . . لم يفهموا الغرض من ذلك. . . واستمروا في حوار وجدل طويل عما حدث في هذا اليوم العجيب. . . ودوى صوت قذيفة أخرى كانت أشد وأقوى من سابقتها لانخفاضها الشديد فوق منازل المدينة. ارتبك الجميع بوجل، والسلة الكبيرة بحبالها العملاقة مازالت رابضة في موقعها. . . مكثوا في أماكنهم حائرين لكن عجوزاً معمرة من سكان المدينة صاحت بهم أن يملأوا السلة بمؤن غذائية متنوعة وبأسرع وقت ممكن. أسرعوا فعلاً، وتم شحن السلة بتلك المواد الغذائية وارتفعت السلة بسرعة إلى قمة الحصن وهم يشاهدونها. تنفس سكان المدينة الصعداء، لكنهم فوجئوا بتدلي السلة هابطة مرة أخرى. . . وبسرعة اتجهوا إلى كوخ العجوز وأخرجوها منه لتفتيهم فقالت: املأوها حطباً. . . !!

أصبحت العجوز المعمرة تعويذتهم الوحيدة، لذلك كانوا يتواجدون عندها معظم الأوقات يستأنسون بها ويستمعون لذكرياتها عن الماضي وما مرت به هذه المدينة من مآسٍ ويسألونها أيضاً عن المدفع والسلة.

ـ الجوع لا يمكن أن يُقاس بأي حاجة أخرى. . . !

قالت لهم ذلك وأردفت:

ـ لذلك عليكم ملء السلة بمؤن غذائية وبعض حُزَم الحطب عندما تهبط من الحصن

* * *

شعر بأن خطته قد نجحت وأدت ثمارها... وذهب عنه الهلع والخوف من الموت جوعاً... ارتمى على ظهره داخل المسجد الصغير متدثراً بما تبقى من فراش وأغطية ووضع يديه خلف رأسه مستنداً إلى جدار المسجد وضوء القمر ينفذ من خلال نوافذه الصغيرة.. وتذكر عندما كان يحين دوره وزميله للنزول من الحصن للتسوق في المدينة لشراء حاجيات الحامية المقيمة في الحصن... كانا يحملان جميع ما يشتريانه... كان الحمل ثقيلاً عليهما... لكن قبل وصولهما إلى بوابة الحصن الرئيسة تكون هناك سلة كبيرة الحجم مصنوعة من الخيزران وقصب «الحلاّل» وسعف النخيل قد تدلت من قمة الحصن بواسطة حبل طويل مضفور من الجلد المدبوغ بإتقان.. وتُسحب السلة بواسطة عجلة إلى أعلى لتسهل للجند رفعها بسهولة... ويعود مع زميله إلى سوق المدينة مرة أخرى لشراء بعض المؤن والأغراض الأخرى التي لم يستطيعا حملها مع المؤن السابقة، وأهمها حزم الحطب الثقيلة... بعد أن نفق البغل الخاص بحملها ونفق معه الجندي المكلف به أيضاً.

* * *

لعلعت قذيفة المدفع فوق سماء المدينة محدثة دوياً هائلاً كعادتها فخرج سكانها فزعين كعادتهم في اتجاه السلة التي كانت قد تدلت من أعلى الحصن لملئها بالمؤن الغذائية... وانتظروا أن تتدلى السلة مرة أخرى بعد قذيفة أخرى.. لكن ذلك لم يحدث ولم تُطلق أية قذيفة. ذهب بعضهم إلى المرأة العجوز التي كانت جالسة أمام كوخها يستفتونها، فأخبرتهم بأن ذلك يعني عدم الحاجة للحطب... فانصرفوا إلى منازلهم مرتاحي البال...

* * *

أصبح مرتاح البال أيضاً... منعماً بالغذاء الوافر الذي لا يشاركه فيه

أحد. أصبحت لخيالاته وأفكاره مساحة شاسعة جداً لا يقطعها زملاؤه بمزاحهم الثقيل ومنادماتهم الساذجة المبتذلة التي كانت تدفعه للهروب منهم أياماً بلياليها إلى مخبئه السري المجهول في كهف صغير خلف الحصن من الجانب الآخر الذي لم يكتشفه أحد سواه لوعورة الطريق المؤدية إليه والتي كانت لا تسمح إلا بصعوبة بوضع القدم، وعلى الشخص الذي يجتازها أن لا ينظر إلى الهاوية السحيقة والسير ببطء متجهاً بوجهه ويديه نحو الصخر... هرع مسرعاً باتجاه الجانب الخلفي للحصن واجتاز طريقه الخطر بحكم تعوده على ذلك...

لم يشعر بالارتياح كعادته كما في السابق... بل شعر بالضيق والملل، وأسرع عائداً عبر الطريق الوعرة. كاد أن يسقط لعجلته عندما مرَّ في هذا الجانب الخلفي المهجور من الحصن... وتوقف أمام سبعة أضرحة منحوتة من الحجارة كانت بجوار بعضها البعض متراصة وقد نُحتت شواهدها من الأحجار على هيئة طرابيش بأزرارها السوداء... استند بظهره على مدفعه الأصفر... ووضع يديه خلف رأسه يتذكر زملاءه الذين ماتوا ودُفنوا.. كان هو الوحيد الذي نجا حينما قاموا جميعاً بمساعدة البغلين للصعود بالمدفع الأصفر من مدخل الحصن إلى قمته.. كان المدفع يتراجع إلى الوراء لعدم استطاعة البغال جره وعدم استطاعة «الطبشية» الثمانية أيضاً إيقاف تراجعه... كانت عجلات المدفع الثقيلة في كل مرة تتراجع فيها تسحق شخصاً أو شخصين من الطبشية الثمانية. تذكر أنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة حين أوصل المدفع الأصفر العملاق إلى مكانه وأن أحد البغال كان قد نفق فرمى به من قمة الحصن إلى الهاوية السحيقة...

وترقرقت في مقلتيه دموعٌ آسنة ساحت على وجنتيه واستقرت على شاربه الكثّ.. وأجهش بالبكاء.. وانطلق مسرعاً نحو مدفعه الأصفر العملاق يخبط ماسورته بعنف... شعر بأنه في سجن واسع... لكنه ضيق جداً «مُطبق» على أنفاسه كسجنٍ انفرادي.. كم تمنى أن يكون زملاؤه من جند وطبشية وضباط موجودون معه الآن رغم مساوئهم الحقيرة وهروبه منهم إلى مخبئه السري. وبحركة سريعة لقَّمَ المدفع قذيفة وأتبعها بأخرى وبثالثة ورابعة...

* * *

خرج سكان المدينة في حالة فزع مهولٍ بعد أن اهتزت بيوتهم الآيلة للسقوط. . . وتفرقوا مسرعين لجمع المؤن الغذائية وحزم الحطب. . لكن السلة لم تهبط مطلقاً. . ومكثوا أياماً وليالي منتظرين هبوط السلة ليملؤوها بالمؤن الغذائية التي كانوا قد استعدوا بها، لكنها لم تهبط. . .

اتجهوا نحو المرأة العجوز فوجدوها أمام كوخها كعادتها. . . طلبوا منها أن تفتيهم. . . فابتسمت وقالت:

ـ اتجهوا نحو بوابة الحصن الكبيرة. . .

جالت العجوز بنظراتها الفاحصة وجوه القوم المحيطين بها. . . لاحظت بدقة أنهم كانوا يحاورون بعضهم البعض وبأن معظمهم قد بدأوا بالتراجع للخلف والعودة إلى منازلهم. . . وتوقف الجميع حين صاحت فيهم العجوز بصوتها الشاحب الغاضب:

ـ يا لكم من جبناء. . . اتجهوا الآن واقتحموا بوابة الحصن. . . إفعلوا ذلك الآن. . .

كانت قد قامت من فوق مقعدها الحجري وتحركت نحوهم وبيدها اليمنى عصاها، لكنها تعثرت فوقعت على الأرض وهي تصيح «جبناء. . . جبناء. . .» وحين حاولوا مساعدتها على النهوض نهرتهم بشدة، فما كان منهم إلا أن اتجهوا نحو بوابة الحصن وصوتها الشاحب «جبناء. . . جبناء. . .» ما يزال يلدغ آذانهم.

* * *

توقفوا أمام البوابة الرئيسية المنيعة. . . كان معظمهم خائفين. . وجلين. . وظلوا حائرين واقفين على بعد عنها. . يتساءلون: كيف يستطيعون اقتحامها؟ قال أحدهم بصوت مسموع مخاطباً الآخرين:

ـ ما الفائدة من اقتحامها. . . ما دام المدفع قد توقف منذ زمن ولم تهبط السلة مرة أخرى. . ؟

ـ فلنعد إلى منازلنا. . . قال آخر

وصرخ فيه شابان بصوت جهوري:

واتجها نحو بوابة الحصن فوجداها غير مغلقة من الداخل أو الخارج... وفُتحت بسهولة... واستمرا بالصعود من بوابة لأخرى والقوم وراءهما حتى استقر الجميع في ساحة الحصن الفسيحة... استعادوا أنفاسهم اللاهثة لفترة من الزمن...

كانت معنوياتهم قد تحسنت رغم أن الخوف والهلع من المجهول ما زال ظاهراً على ملامحهم... لكن ثقتهم بالشابين وبالمرأة العجوز كانت قد منحتهم قدراً كبيراً من الطمأنينة. وقف الشابان على حجرٍ مستطيل مرتفع... صاحا بالجميع أن يتفرقوا في مجموعات لتفتيش الحصن بكل منشآته.. الجامع والكهوف وحول السور وحتى المدافن الخاصة بالذرة.

فتشوا كل المنشآت في الحصن فلم يجدوا أحداً... لم يجدوا سوى طربوش أحمر بزره الأسود قد أكلت الشمس لونه كان موضوعاً على ماسورة المدفع الأصفر العملاق.

صنعاء ـ 1994م

الهيلوكس

قدت سيارتي عائداً إلى المنزل كالعادة.. كنت مجهداً إثر انتهائي من عملي المعتاد.. حاولت سماع موسيقى لعزف منفرد على العود لأغانٍ من التراث المحبب إلى نفسي من مسجل السيارة.. لا أدري لماذا داهمني القلق والخوف في هذه الأيام..؟! لم أعد في حالة طبيعية.. لم يحدث لي ذلك من قبل..! حتى الزوجة والأولاد داخل المنزل مصابون بنفس الحالة..!!

لا أدري لماذا أوقفت مسجل السيارة على غير عادتي.. ونظرتُ إلى أرصفة الشارع من الجانبين..! كان شعوري بأن المارة والجالسين وسائقي وراكبي السيارات المحاذين لي من اليمين واليسار مأزومون، قلقون ومحبطون كغير عادتهم... يمشون ذهاباً وإياباً على الأرصفة أو واقفون أمام محلاتهم كأنهم في فيلم صامت توقف فجأة..! كانت مدينتنا تعيش حالة من الفزع والرعب لتكرر عمليات الاغتيالات.. وموجة عارمة من التفجيرات المدوية..

* * *

واصلت المسير بسيارتي إلى الشارع المعروف بازدحامه في مثل هذا الوقت من النهار.. شعرت بالوجل.. كنت خائفاً من أن أصطدم بأية سيارة عن يميني أو يساري، فكم قد حدث لي ذلك في معظم الأيام في هذا الشارع وفي هذا الوقت نفسه..! مَنْ على يميني يصيح بألفاظ نابية على مَنْ في يساري.. وكلٌ يتهم الآخر بأنه السبب..!

سمعت أزيزاً حاداً لمحرك سيارة من خلفي تتبعني.. احترت كيف أستطيع إفساح الطريق لها في هذا الزحام الشديد وسيارتي محصورة بين «كماشة» من السيارات على اليمين وعلى اليسار..! بررت إزعاج راكب هذه السيارة لي.. ربما يكون مستعجلاً لضرورة ملحة... لإسعاف مريض أو موت قريب له..!

* * *

نظرت في المرآة العاكسة التي أمام وجهي.. أصبت بفزع وهلع ورعب مخيف.. إنها سيارة «الهيلوكس» المرعبة..! أسرعت نحو أول شارع أتجه فيه إلى منزلي.. لاحظت بأنها مازالت تتبعني..! أقف أمام إشارة مرورية حمراء.. كانت ورائي..! أنزلق من شارع رئيسي إلى شارع فرعي بسرعة.. كانت ورائي أيضاً..!

طمأنت نفسي بقدر المستطاع بأن الأمر ربما يكون عادياً جداً.. وأنه لا داعي لهذا الفزع والرعب.. فأنا لست شخصية هامة.. شعرت بالأمان بأنني لا يمكن أن أكون مستهدفاً.. هكذا طمأنت نفسي.. وكم ارتحت لذلك..!

لكن سيارة «الهيلوكس» مازالت ورائي تتبعني حتى كادت أن تلاصق سيارتي من الخلف..! اتجهت بسرعة جنونية نحو الشارع الرئيسي الأخير المتجه إلى منزلي.. وسيارة «الهيلوكس» مازالت ورائي..!!

كانت الإشارة المرورية حمراء... صممت على اجتيازها مخاطراً حتى لو اصطدمتُ بسيارة أخرى أو سَجّل عسكري المرور مخالفة جسيمة..!! فعلتها، وزعَقت صفارته وسجل بدفتره رقم سيارتي.. مخالفة جسيمة.. قلت في نفسي لا يهم ذلك مادمت قد تخلصت من متابعة سيارة «الهيلوكس» المرعبة..

* * *

نظرت في المرآة العاكسة التي أمام وجهي.. كانت سيارة «الهيلوكس» بعدي تكاد أن تصطدم بسيارات قادمة من الشارع المعاكس.. وصفارة رجل المرور مستمرة بصفيرها المزعج وهو يسجل رقمها..

فزعت أكثر.. وأصابني الخوف والرعب والهلع.. ولم أستطع التحكم برجلي المرتعشة على الكابح أو «الكليش».. دخلت مسرعاً إلى شارع فرعي.. كانت ورائي.. اتجهت إلى شارع ضيق كان منزلي فيه.. كانت لا تزال ورائي..!!

* * *

شممتُ رائحة دم الموت في أنفي.. أوقفت سيارتي أمام باب المنزل وخرجت منها مسرعاً رغم ارتعاش ساقيّ المنهكتين إلى الباب أدقُّه بعنف وأصيح بصوت مبحوح بدون جدوى..!!

رجعت بظهري إلى الباب.. رفعت كلتا يديّ مستسلماً لاهثاً متهالكاً وساقاي المرتعشتان بالكاد تتحملان وقوفي..!! انهرت نهائياً على ركبتي معلناً الشهادتين عندما نزلوا من سيارتهم «الهيلوكس» واتجهوا نحوي.. أنزلت يديّ وأغمضت عينيّ منتظراً صوت زخات من الرصاص يمطرونه على جسدي من أسلحتهم الآلية..

* * *

كانت الزوجة من وراء الباب تصيح:

ـ من الطارق..؟!

ولم أجبها..

ـ دكتور..!

ولم أجبها..

صاح أحدهم:

ـ دكتور..!

ولم أجبه..

ـ يا دكتور رجاءً.. إسمعنا..

ولم أجبه..

ـ يا دكتور.. رجاءً إسمعنا.. مالك هكذا مرعوب..؟!

ووضع يده على كتفي وهزني بلطف:

ـ دكتور نحن في حاجة إليك..!!

ساد صمت ليس بالكثير.. أفقت بعده قائلاً بصوت شاحب:

ـ ماذا تريدون مني..؟!

أشار أحدهم وبيده «مضارب» من الزجاج مخبرية من دم وبول وبراز قائلاً:

ـ أين نذهب بهذه التحاليل يا دكتور..؟

* * *

فتحت زوجتي الباب فجأة..لم تكن تتوقع مظهري المنهار رغم ابتسامتي الباهتة.. ارتميت بجسمي على قاعة غرفة الاستقبال وأنا أضحك وأخبط بكلتا يديَّ ورجليَّ على قاع الغرفة.. والزوجة والأبناء مندهشون وفزعون.. خامرهم إحساس بأنني قد أصبت بمسٍّ من الجنون أو «بزار من الجان»..

صنعاء 18/ 3/ 1993م

قطط الإمــام

«إلى الصديق : محمد عبد السلام منصور»

في الفترة الأخيرة من الزمن شعر الضياء ابن العزّي الفخري بعد إقالته من «عمالة» قضاء «ريمة» المنطقة الخصبة زراعة ومالاً والتي كانت مرتعاً لتحقيق ثرائه الفاحش.. شعر بأنه أصيب بكارثة عظيمة... وظل إثر ذلك العزل أمام «مقام» الإمام ليلاً ونهاراً... يحاول أن تتاح له مقابلة الإمام بدون جدوى... يستمع بين الحين والآخر إلى أنباء وأخبار تعيينات عمال «القضوات» والنواحي وحكامها الشرعيين الجدد، ولا يرد اسمه من ضمنهم... سنة تلو الأخرى... لا خبر ولا علم عن صدور الأمر الشريف للإمام بتعيينه عاملاً أو حاكماً لقضاء أو ناحية.. أو حتى مأموراً للجباية أو مديراً للمالية أو كاشفاً ومخمناً للعشر و«الصُبرة»

* * *

كان معروفاً بالذكاء بين أصدقائه... وكان صاحب فكاهة إذا أطلقها في «مقيل» كانت ضحكته أعلى صوتاً واستمراراً من ضحكات زملائه... وكان يستقبل فكاهات زملائه الرديئة بضحكات عالية أيضاً لكنها زور وبهتان...! وهذا ما كان يحببه إلى قلوب أصدقائه المسؤولين... وربما الإمام أيضاً...!

* * *

ضاقت به الدنيا وهو يداوم أمام المقام الشريف للإمام يستجدي مقابلته وينتظر نبأ تعيينه عاملاً أو حاكماً أو مدير مال أو جابياً للضرائب والزكاة على الأقل... أو حتى مأموراً «للتبن»... كان يرى زملاءه الداخلين والخارجين

إلى المقام الشريف... منهم من ينظر إليه باستغراب.. ومنهم من لا يعيره أي انتباه... ومنهم من يتفضل بالسؤال عنه وعن حاله ويبدي خدماته مجاملةً... وبخبث وسخرية سأله أحدهم:

- سيدي ماذا تفعل هنا...؟

- منتظرٌ لمقابلة مولاي الإمام حفظه اللّه

- وهل تعتقد سيدي بأنك ستقابله بعد هذا الانتظار...؟

- هذا قدري... سأكونُ صابراً صبر أيوب..

- أراك بخير إذاً...!

- شكراً سيدي «العماد»...!

* * *

مرت السنة الأولى والثانية والثالثة وهو يداوم أمام المقام الشريف للإمام منذ الصباح حتى المساء... ويعود إلى مقره في «سمسرة» شبه مقهى، وإلى زاويته المعتادة التي تقبع في ركنٍ منزوٍ من «دكّة» المقهاية يتناول «جمنة» من القهوة «القشر» و«قفوعة» يابسة مصنوعة من «البلسن» و«العتر» والفول... يضع عمامته فوق «دجلته» على المعلق الخشبي.. أما «الجنبية» و«الجلبة» المذهّبة فيضعهما تحت رأسه... وباقي ملابسه يضعها في صندوق خشبي صغير، ثم يدخل كيس نومه القطني ويربط عنق الكيس على رأسه تفادياً للقمل والبراغيث و«الكتن» وهو يستمع لحوارات النزلاء البسطاء المجاورين عن حكاياتهم ومشاكلهم...

قال له أحدهم:

- سيدي... لماذا أنت هنا بيننا في هذه السمسرة... وأنت مهندم بلباسك الذي يدل على أنك من علية القوم...؟

- للظروف أحكام...!

لم يفهم السائل الرد.. لكن زميله قال له بصوت خافت سمعه:

- ربما يكون من جماعة «الأحرار»...!

رقد النزلاء الإثنان وعلا شخيرهما المكتوم من داخل كيسي نومهما الموثوقي الرباط... لكنه لم ينم تلك الليلة... أعاد همسهما حول جماعة «الأحرار» ذكرياته عندما بدأت النغمة تتداول بسرية تامة عندما كان «عاملاً» على قضاء «ريمة»... وتذكر أنه لم يكن مُطلقاً يعيرها أي اهتمام، فلم يُبلغ الإمام بها لأنه اعتبرها كلاماً فارغاً غير ذي أهمية... كان ذلك بسبب إيمانه المطلق الذي لا جدال فيه بأنه لا يمكن أن يجرؤ أي شخص، شيخاً كان أو عاقلاً أو مزارعاً أن يُطلق أو يصدق هذه الأخبار عن وجود جماعة معارضة يُطلق عليها جماعة «الأحرار»... فالإمام هو ظل الله في الأرض وهو الخليفة المُختار... فمن أين تأتي المعارضة للإمام في هذا البلد الذي تكاد صخوره تناصر الإمام، فما بالك بالناس البسطاء...!

* * *

عندما استعد للتوجه إلى المقام الشريف للإمام كانت «المقهوية» صاحبة السمسرة قد قالت له:

- سيدي الحساب قد طال وعرض... ولم تسددوا شيئاً منذ عدة أشهر...!

نظر إليها شزراً وصاح في وجهها بعد أن شعر بالإهانة قائلاً:

- إخرسي أيتها «المقهوية» الحقيرة... هل تعتبرينني واحداً من روادكِ القذرين... جمّالاً أو حمّاراً يا وقحة...!؟

ارتجفت بذعر وهربت مسرعة من أمامه إلى داخل السمسرة... وخرج هو كالطاووس... لكنه أثناء سيره إلى المقام الشريف للإمام هوّن من خطاه وقد شعر فعلاً بالمهانة والذلة... وحديث المسافرين النزلاء بجواره عن «جماعة الأحرار» أثقل خطاه أكثر...

* * *

لم يصدق أن حاجب الإمام قد نطق باسمه ليتشرف بعد هذه السنين

بمقابلة الإمام. . . انتفض من مجلسه كدجاجة تطرد الحشرات الصغيرة من جسمها وريشها. . . ووقف مذهولاً منتظراً إشارة حاجب الإمام بدعوته. . .

خرَّ ساجداً ولثم حذاء الإمام وركبتيه ويده الممدودة التي سحبها الإمام بسرعة. . . وعاد إلى الوراء وهو مازال منحنياً إلى مكان مجاور للإمام جذبه إليه أحد عبيد الإمام العمالقة بعنف وأجلسه فيه. . . أطرق خاشعاً كأنه أمام الكعبة المشرفة أو أمام ملك الموت. . . لكنه طمأن نفسه بقرب مجلسه من مقام الإمام. . . وشعر أن درجته أكثر من غيره. . . !!

بدأ الإمام يدعو الحاضرين ـ كلاً على حده ـ ويسمع منهم ويهز رأسه بالارتياح تارة أو بالغضب في أكثر الحالات ويصرفهم. . . لم يبق سواه جالساً على الأرض وخلفه وأمامه عبيد الإمام العمالقة و«عكفته» غلاظ القلوب بأسلحتهم. . .

أشار له الإمام بإصبعه أن يقترب من عرشه. . . فزحف خاضعاً. . .

صاح الإمام به قائلاً:

ـ ولّيناك عمالة قضاء «ريمة» فعثت فيها. . .

ـ . . . معاذ الله يا مولاي

ـ بنيت فيها داراً فخماً. . . !

ـ . . . بعته يا مولاي

ـ واشتريت الأراضي. . . ؟

ـ بعتها يا مولاي أيضاً. . .

ـ واقتنيت المفارش الفارسية والطنافس النحاسية والمذهبة. . . ؟

ـ لم يبق منها شيء يا مولاي. . .

ـ أكلت بيت مال المسلمين يا خبيث. . .

- حاشا اللّه يا مولاي... فقد أرسلتها إلى مقامكم الشريف... وقد كانت واردات قضاء «ريمة» أعلى من واردات أي قضاء آخر في المملكة...

- كذّاب... كذّاب...

وأشار الإمام بإصبعه لكي ينصرف... فانسحب كأنه «ذبالة» سراج أو قطعة قطن مبتلة... منكسر الجناح شاحب الوجه يكاد رأسه أن يلاصق سرّته... ومن باب إلى باب حتى خرج من البوابة الكبيرة للقصر حيث فوجئ بأقرانه المحتشدين تعلو حواراتهم وضحكاتهم الفرحة بما نالوه من مراتب عالية... نظر إليهم ونظروا إليه... قال له «العماد» بخبث الفقهاء والقضاة:

- تهانينا الحارة لهذه المقابلة الطويلة مع مولانا...!

لملم حماسه وقال مبتسماً:

- لقد كان حديثاً طويلاً مباركاً... وقد خصني به مولانا من دون غيري... أشكركم لتهانيكم الحارة... وسوف أراكم مستقبلاً في مقام مولانا الشريف...!

قالها بوثوق ونصب قامته وخطا بثبات من أمامهم مبتسماً وهم ينظرون إليه وقد سادهم الذهول...!

* * *

دخل باب «السمسرة» الكبير واتجه إلى مكانه المعتاد بدون أن يحيّي زملاءه النزلاء كالمعتاد... وخلع ثيابه الرسمية وعلّق عمامته البيضاء وفرش فراشه على دكته الصغيرة المرتفعة، والتي تتميز بارتفاعها وانزوائها، وأصلح مخدته ودسّ «جلبته» الذهبية تحتها، ثم فتح حقيبته وبدأ يبعثر ما فيها من أوراق... فوجئ بشخص متقرفص في الزاوية الأخرى من «الدكة»... إنه قادم جديد... كان الشخص قد أصلح مكانه ووضع حقيبته الحديدية الصغيرة في إحدى الزوايا... تأمله بدقة... ارتاح لمظهره النظيف فحياه.. نهض الآخر مصافحاً وأقبلت «المقهوية»

وعلى رأسها «تورة» من الخزف الملون مغطاة «ببقشة» مزركشة وبيدها «جمنة» من القهوة «القشر». . .

وضَعت ذلك أمامه ثم التفتت إلى القادم الجديد تستفسره عن ما يريده من عشاء. . .

- هو ضيفي هذه الليلة. . .

- التفت إليه الشخص بأدب:

- أشكر لك ضيافتك ولكن. .

- أبداً. . أنت ضيفي الليلة. .

تعارفا أكثر بعد العشاء قبل أن يتهيآ للنوم. . . كانت «مسرجة» الزيت ما تزال مشتعلة يتصاعد دخانها في كوة صغيرة في وسط «الدّكة» عندما تأهب لدخول كيس النوم القطني الغليظ الذي يقيه لسعات البراغيث «القمل» والبقّ «الكتن» والحشرات الأخرى. . . استرعى انتباهه حركة ضيفه الجديد الذي أخرج من «حقيبته» الحديدية التي بجواره كتاباً وبدأ يقرأ منه. . . سأله:

- أليس لديك كيس للنوم. . ؟

- لم أتعود على ذلك من قبل. . .

- إذاً فلن تنام هذه الليلة على خير بسبب البراغيث «القمّل» والبق «الكتن» إلى جانب ما تزخر به هذه السمسرة من حشرات أخرى. . . !

- لقد شعرت بلسعها فعلاً. . . ولذلك سأشغل نفسي بالقراءة حتى طلوع الفجر. .

- ما هو عنوان هذا الكتاب الغريب. . ؟

- . . . فجر الإسلام. . . لأحمد أمين. .

- على بركة اللّه. . . ولابد لك من كيس نوم تفصّله غداً. . .

* * *

استدعاه حاجب الإمام ذلك الصباح وهو غير مصدق لذلك. . . كان

همه وهو متقرفص على الأرض أمام «مقام» الإمام السفر إلى بلاده وزوجته وأولاده... كان الإمام قد فرغ من توزيع بعض الرسائل لبعض الجالسين الذين تلقفوها باهتمام ونهضوا بسرعة... ركع أمام الإمام وقبّل قدميه ثم ركبتيه ثم يده التي كانت تعود إلى صدره بسرعة مذهلة... وعاد منحنياً إلى الخلف إلى مكان فارغ تحت أقدام عبيد الإمام العمالقة المدججين بالسلاح...

جال ببصره على من تبقى من الحضور الجالسين القرفصاء بشكل دائري... يعرفهم كلهم وإن بان عليهم أنهم لا يعرفونه... كلهم ينظرون إلى الإمام ككلابٍ أو قطط تهز ذيولها تنتظر قطعة خبز... ابتسم بألم... ثم ما لبث أن خرجت من فمه ضحكة عالية فجأة.. نظر الإمام إليه شزراً ونظر الجمع نحوه بذهول... تذكر القطط وهي بعمائم وكيف يكون منظرها..! انحنى برأسه وأطرق إلى الأرض... وساد صمت رهيب... كان الإمام يجول ببصره على الحضور ويركز بالذات عليه.. وقرر الإمام أن يصرفهم من مقامه... فخرجوا جميعاً وهم ينظرون إلى صاحبهم الذي استبقاه الإمام في مجلسه.. لا يعرفون فيما إذا كان الإمام قد غضب عليه أو أنه استحسن ضحكته...!!

استدعاه الإمام بإشارة أن يقترب من مكانه... فزحف منحنياً...

ـ احترتُ فيك أيها الخبيث؟

ـ مولاي أنا المطيع دائماً... أنا خادمكم ومملوككم...

صمت الإمام قليلاً ثم قال:

ـ لا تستحق أي عمل... ولا حتى مشرفاً على قططي...!

ـ قالها الإمام بسخرية... فأجابه بفرحة وابتهال:

ـ لي الشرف يا مولاي أن أكون مشرفاً على قططكم الكريمة...

بانت الدهشة على وجه الإمام... لكنه ابتسم متعجباً قائلاً:

ـ وماذا تريد مقابل ذلك..؟!

ـ لا أريد مقابل ذلك إلا رضاكم

ضحك الإمام بتوحش حتى سقطت عمته الحريرية إلى الخلف. . . وأشار إليه بالخروج بعد أن رمى له بورقة صغيرة تلقفها بلهفة. . . فهي قرار تعيينه مشرفاً على قطط القصر.

عندما غادر مقام الإمام كان زملاؤه واجمين أمام باب المقام ينظرون إليه وهو يحيهم منتشياً تاركهم في ذهول. . !

* * *

عندما دخل باب السمسرة الكبير صادف «المقهوية» أمامه فاحتضنها بشدة دافعاً بها نحو دكته وهي تستجديه أن يتركها خجلاً من نزلاء السمسرة والذين كان أكثرهم من مشايخ القبائل الأشداء. . . لكنه استمر بدفعها أمامه حتى بطحها على ظهرها أمام زميله الجديد. . . وتركها غاضبة وقد أثارها سلوكه الهمجي. . لكنه سرعان ما أصلح الموقف فرمى أمامها بعشرة ريالات فضة «ماري تريزا» وقال:

ـ خذيها لك مقابل ما عندي من مصاريف قديمة. . .

قالت فرحة:

ـ لكنها كثيرة. . . !؟

ـ إصرفي منها عليَّ وعلى ضيفي هذا. . . فمقدمه سعد. . . ووجهه مبشرٌ بالسعادة. . . !؟

* * *

بعد الغداء وهما يمضغان «القات» كلٌّ في زاويته من «الدكة» سأل رفيقه النزيل الجديد قائلاً:

ـ لم نتعارف جيداً رغم مرور عدة أيام منذ استقرارك بجواري؟ : : !

وتحدثنا طويلاً وعرف أنه جاء من بلاده «بلاد منزل» كغيره «اليطلب اللّه» يبحث عن عمل بعد أن عاد من المهجر منذ شهور. . قال له رفيقه وقد بدأ يتذوق «القات»:

ـ لقد شاهدت العجاب.. وزاولت مهناً عديدة.. عندما أبحرنا إلى «عصب» أول مرة كادت الساعية أن تغرق بنا، لكننا كنا قريبين من الشاطئ و.. و.. و..

في المساء بعد العشاء اندس داخل كيس النوم بينما كان صاحبه لا يزال يقرأ على ضوء المسرجة الخافت.. نظر إليه مستفسراً:

ـ أراك تقرأ كثيراً.. ما كل هذه الكتب..؟

ـ خير رفيق في الزمان كتابُ..

ـ خيراً إن شاء اللّه... ألم تقتنِ كيساً للنوم بعد..

ـ أشعر بالاختناق إذا غطيت على رأسي أثناء النوم..

ردّ عليه ضاحكاً:

ما شاء اللّه كان.. لابد لك من كيس نوم على أية حال... فسوف تأكلك الحشرات و«القمّل» ولن تُبقي على شيء منك..

* * *

في إحدى زوايا السور الكبير للقصر من الداخل تجتمع أعداد كبيرة من القطط حول قدميه وهو يقوم برمي مخلفات الموائد بعد الغداء.. كان يعرف القطط المفضلة لدى الإمام فيزيد من رعايته واهتمامه بها وهو ما يلقى استحسان الإمام الذي يجزل له العطاء. كان يقضي معظم النهار داخل أسوار القصر ويعود في المساء إلى زاويته المعتادة من دكته في السمسرة.. فكر بأنه لابد أن يبحث عن مكان مناسب للإقامة، فلم تعد السمسرة مكاناً لائقاً الآن رغم أنه سيفتقدها.. وسيفتقد مجالسة صديقه وحكاياته الكثيرة والمثيرة ومنطقه المثقف الواسع الاطلاع.

* * *

ومرت الأيام وسارت الأمور كما يشتهيها.. وبدأ الإمام يستدعيه في مجالسه أكثر من ذي قبل ويجلسه قريباً منه لظرفه ولتلك الضحكة المميزة

التي يكسب بها قلوب المحيطين به. . . وعلى مرأى الجميع كان بين الحين والآخر يوشوش في إذن الإمام بشيء ما، فتارة يقهقه الإمام عالياً، وتارة يقطب حاجبيه باهتمام. .

أثار تواجده شبه الدائم في المقام الشريف وقربه من الإمام اهتمام أقرانه من أعيان وعمال وحكام «قضوات» الذين بدأوا بالتودد إليه وإمداده بالمال والهدايا مقابل توصيل رسالة أو التوسط لدى المقام «الشريف». . وأهم شيء لدرء أية فتنة أو وشاية محتملة. .

* * *

في مقر إقامته الجديد ضحك كثيراً وهو يحكم ربط كيس النوم من الداخل عندما تذكر في مخيلته صورة القطط وهي بعمائم. . كانت أموره المالية قد تحسنت كثيراً. . وتنفس بعمق. . لكنه سرعان ما أصابه الغم. . كان الحديث المتزايد في الآونة الأخيرة عن جماعة «الأحرار» يقلقه. . تذكر عندما بدأت النغمة تتداول بسرية تامة عندما كان عاملاً على قضاء «ريمة». . . وكيف اعتبرها كلاماً فارغاً غير ذي أهميه. . . لكنها الآن لم تعد سرية. . وتذكر حديث النزيلين في السمسرة منذ أسابيع. . وتذكر فجأة صديقه في الزاوية الأخرى من «الدكّة» في «السمسرة» وحديثه واطلاعه على أمور عديدة. . وقراءته للكتب الكثيرة وسلوكه وملبسه غير المعتاد. . وزادت الهواجس في ذهنه. . لم ينم تلك الليلة، وظل يتقلب في فراشه حتى لاح من النافذة الصغيرة أول تباشير الصباح. .

* * *

غذّى الخطى مسرعاً إلى السمسرة. . منذ مدة لم يلتق به. . كان مضطرباً من لقائه. . قلقاً. . ماذا لو أنه منهم. . !؟ كان قد اشترى كيس نوم لصديقه من سوق قريب تذكر بأنه وعد بشرائه ذات ليلة. . ودلف مسرعاً إلى داخل «السمسرة» واتجه مباشرة نحو «دكته» المعتادة فوجدها مسكونة بأناس آخرين. . نظر بتمعن إلى زاوية صديقه فلم يجد «شنطته» الحديدية في ركن الزاوية. . رأته «المقهوية» فرحبت به باحترام وقالت بتودد:

ـ منذ زمن لم نرك يا سيدي. . !

لم يجبها بل سألها عنه فأجابت بأسى:

ـ لقد غادر منذ فترة. .

ـ إلى أين. . ؟

ـ إلى بلاده. .

ـ وهل سيعود. . ؟

ـ ربما. .

صنعاء ـ 1996م

أرملة الفرن الجميلة

يغمرني الشوق كل صباح باكر لكي أصل أول الناس إلى «باب السبح»[1] صيفاً أو شتاء. . ! أحجزُ لي دَوْراً لتناول إفطار ساخن في حانوت الحاج «زعتر» الضيق. . وجبة «قنم». . عبارة عن لحم مفروم مشوي على سنارات حديدية «يجغصها»[2] الحاج «زعتر» بأنامله الصفراء النحيفة جداً وبوجهه الممقوع أيضاً لتصبح تلك العجينة من اللحم المفروم «كفتة». . كم أصاب بخيبة عندما أصل إلى «باب السبح» وأجد حانوت الحاج «زعتر» مقفلاً. . يدلني على ذلك لمبة كهربائية صغيرة جداً ذات لون أزرق مضاءة على الباب تدل على عدم وجوده. .

كنت قد تعودت الإطلال بنظري بلهفة من «باب السبح» لكي أطمئن لتصاعد دخان «كير» حانوت الحاج «زعتر». . فإن وجدت ذلك الدخان هدأت مطمئناً، وإن لم أجده أُصبت بخيبة أمل مؤلمة فأعرّج على بائع «البُرَعي»[3] أزاحم خلق الله السذج بنكاتهم وأخبارهم العجيبة السمجة وأرشف «مدرة»[4] من «البُرَعي» الساخن مع مسحوق الزعتر والكمون و«البسباس» الحارق، ويطيب لي تناول ذلك أمام بائع «الزلابيا» المجاور الفتى الجميل الذي يزيد من جماله وملوحة محيّاه حرارة الزيت المغلي داخل القدر النحاسي الواسع وهو يتفنن في صنع أقراص «الزلابيا» بأسلوبه الدقيق الرتيب السريع الحركات الذي تعلمه عن والده وعن أخيه الأكبر بائع الشاي، وبعض من الفول الذي كان ينفد من «قِدره» في الساعات الأولى من الصباح الباكر. . ! لم أذق أي قرص مثلها في حياتي من قبل، ومع ذلك لم أتلذذ وأنا أرشف «مدرة البرعي» اللاهبة. . كنت أتفرج على صانع أقراص «الزلابيا» بحركاته البديعة ونكاته اللاذعة وعلى

---

(1) سوق شعبي قديم في وسط العاصمة صنعاء

(2) يجغصها: يعجنها

(3) البرعي: البازلاء المطبوخة مع (الحطم) وهو نوع من البهارات الذي يضفي عليها اللون البني

(4) مدرة: المدرة: وعاء من الفخار، جمعها (مدر).

الناس في الشارع والزبائن المتلهفين داخل الحانوت الضيق أو في خارجه وعلى مداخل الزقاق الفرعي الذي غالباً ما تتناول النساء وجباتهن فيه. . .

* * *

كان حانوت الحاج «زعتر» الضيق يحتل سفل مبنى قديم عريق مكون من عدة أدوار يحتل مساحة الحانوت الضيق نفسها لكنه يتغير بحسب الارتفاع. . فالدور الذي يعلو الحانوت عبارة عن مكان صغير تتخللُه نافذتان صغيرتان جداً، أما الدور الثالث ففيه نافذتان تسمحان بدخول رأس الساكن، تطلان على الساحة، أما الدور الرابع ففيه نافذة واحدة فقط، لكنها واسعة جداً تحتل معظم واجهة الدار. . .

البناء بحانوته وأدواره الأربعة يرتبط ببناء مجاور له وعريق مثله بواسطة جسر معلق يصل الأدوار العليا لكليهما ويربط بينهما. . ظننت أن البناء ملك صاحب الحانوت الحاج «زعتر». . وكان هذا ظني واعتقادي دائماً.

* * *

عندما أطل على مدخل «باب السبح» وأتأكد من وجود الحاج «زعتر» في حانوته أعرِّج بسرعة إلى مدخل زقاق ضيق لأشتري قرصاً من الخبز الحار من فرن أُقيم داخل «سمسرة» قديمة كانت في الماضي تعصر زيت «الجلجلان» و«الترتر» بواسطة جمل عيناه معصوبتان يدور ويدور ليلاً ونهاراً حول المعصرة الحجرية العملاقة.

وأخيراً تحولت السمسرة مع الوقت إلى فرن مشهور أيضاً، ينتج صبيانه أقراصاً دافئة منتفخة وساخنة لصباح يوم بارد. . . تشرف على إدارة الفرن مديرة هي صاحبة الفرن كما خُيِّل لي. . آخذُ قرصي الساخن الخارج تواً من أتون الفرن وأضع قيمته في كف المديرة صاحبة الفرن. امرأة يداها جميلتان مخضبتان بالحناء ومزركشتان بالخضاب الأسود، تزينهما عدة أساور ذهبية لامعة متناسقة بنعومة واضحة مع بياض تلك اليدين الشمعي اللون الجميل، وعينان واسعتان تطلان من خلال «اللثمة» الموضوعة على وجهها، وصوتها الرنَّان بلهجة محببة. . .

أتجه ومعي القرص الحار الساخن أتلاعب به بين يديّ وأنفخُ عليه بفمي

لكي أقلل من سخونته المحرقة، وأزاحم خلق الله لأحجز مقعداً في حانوت الحاج «زعتر» فوراً، وأنتظر بين الدخان ورتابة صوت المروحة التي حلت محل الكير...'

* * *

أصلُ إلى فرنها وأنتظر دوري لأخذ قرصي الحار المعتاد.. أتلاعب به بين يديّ وأنفخ عليه بفمي كما هو معتاد كل يوم... أصبحت مع الأيام أنظر إليها بشغف.. أتمعن في وجهها وعينيها المكحلتين وأجزاء جسمها الفاتن... تظهر مفاتنه من خلال «زنّتها»[1] الحريرية المزركشة اللاصقة بجسمها التي تبرز صدرها البض ونعومة ثدييها الممتلئين وسلسلة من الذهب تتدلى فوق نحرها الواسع الممتلئ، تتأرجح من ثدي إلى آخر عندما تقوم بتوزيع الأقراص للزبائن...

* * *

ومن يوم إلى آخر أقترب منها أكثر بنظراتي إليها.. وبادلتني نظراتها أيضاً.. كأن تقدم قرصي قبل الآخرين إيثاراً لي حتى لو وصلت بعدهم. كنتُ متألماً لعدم بقائي لفترة طويلة كالآخرين لكي أنظر إليها وألتهم جسدها بنظراتي وأسمع صوتها الرنان باللّهجة «الصنعانية» تدغدغ القلب قبل الآذان. قلتُ لصاحبي بعد خروجنا من بوابة الفرن الكبيرة متسائلاً باندهاش:

ـ ألا ترى معي أن صوت اللّهجة الصنعانية له وقع محبب في الأذن و..

قاطعني قائلاً:

ـ صوت المرأة فقط... أما الرجال فإن أنكر الأصوات...

تنبهتُ فعلاً لذلك وصمت، فاستمر مكملاً حديثه ونحن نتجه إلى حانوت الحاج «زعتر» قال ضاحكاً:

ـ لا أعتقد أنك نسيت بهذه السرعة أصوات الزبائن في حانوت «القنم» وحانوت الكباب ودكان «البُرَعي» و«الزلابيا» وأصوات غلمان الأرملة في الفرن..!؟ يبدو أنك نسيت ذلك لشغفك بأرملة الفرن.

---

(1) زنتها: الزنة: الثوب.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف أنها أرملة..

* * *

كعادتي وصلت مبكراً إلى داخل الفرن.. نظرتُ إليها ونظرت إليّ. أبطأتُ هذه المرّة نقدها قيمة الرغيف عسى أن أطيل البقاء أمامها. نظرت إليّ وأطالت النظر.. قذفت برغيفي الساخن جداً إليّ فجأة وهي تبتسم، وارتبكتُ عندما حاولتُ التحكم بالرغيف بين يديّ.. وسقط على الأرض، وأخذته بارتباك أيضاً وأنا أحاول إعطاءها قيمة الرغيف. ضحكت بصوت هادئ ولم تلتفت إليّ، فدفعتُ القيمة لأحد غلمانها الذي نظر إليّ بخبث وحقد دفين وأخذ القيمة من يدي بعنف..!

* * *

هِمتُ بها.. أصبحتْ في خيالي ليلاً ونهاراً.. أرى صورتها وأسمع صوتها الرنّان الشجي المحبب بلهجتها الصنعانية التي لم يُخلق مثلها في البلاد...

في الصباح أصل محل عملي.. أوقّع في دفتر الحضور وأستأذن من مديري للخروج للإفطار.. كان جميع الزملاء في الإدارة، والمدير نفسه، يعرفون ولعي «بباب السبح» بما يقدمه من وجبات لذيذة.. «قَنَمْ»، كباب، «زلابيا» و«بُرَعي» ومشروبات مروية كشراب الشعير والزبيب ومختلف أنواع الحلويات «كالرواني» و«القطائف».. إلخ، يعرفون كم أنا مغرمٌ بذلك كله، لكنهم لم يعرفوا حتى الآن بهيامي بأرملة الفرن الجميلة التي كانت ألذّ من كل تلك الأكلات والمشروبات والحلويات..

* * *

عشقتها.. وبادلتني نظرات الإعجاب والاهتمام كما خُيل إليّ.. وأصبحتُ مفتوناً بها.. استولت على كل حواسي.. وأصبحت شغلي الشاغل.. في دفتر العمل أرى صورتها في كل صفحة.. في الشارع أتخيل أني أتأبط ذراعها ونسير تكاد تلتصق بي.. في المنزل أحاول كعادتي أن أقرأ كتاباً أو أن أكتب موضوعاً فأرى صورتها في كل صفحة وفي كل ورقة...

* * *

كان عليّ الاقتراب منها أكثر، رغم مخاوفي من حقد غلمانها وكرههم لي.. غيرتُ من عادتي بالوصول إلى فرنها باكراً لآخذ منها قرص الرغيف الساخن وأتجه به لتناول «القنم»، فأصبحت آخذ صحن «القنم» مع طاسة «السحاوق» اللاهب وأذهب إليها لأخذ قرص الخبز الدافئ... وأجلس على ناصية الزقاق المقابل لباب الفرن أتناول ذلك وأنا أتأملها بنظراتي اللاهبة.. وإذا سألني أحدٌ من غلمانها بجفاء أعتذر بأنني أستمتع بحرارة الشمس في هذا اليوم البارد... فيقول:

ـ ولكن حانوت «القنم» أكثر دفئاً...!!!

وأجيبه بعدم اهتمام:

ـ دخان الحانوت أصبح يزعج نظري..

فيتجه إلى داخل الفرن غاضباً...

* * *

اقتربتُ منها أكثر فأصبحتُ أرشف مدرة «البُرَعي» الساخن اللاهب على عتبة باب الفرن الكبير، وأطلب منها قرصاً حاراً مرة أخرى لأتناوله مع «البُرَعي».. ضَحكتْ بغنج صنعاني والتفتتْ إليّ بدلال قائلة:

ـ ألم تشبع في حانوت القنم...؟

ارتبكتُ قليلاً وهي تناولني قرص الخبز الساخن، ولم أجبها، وشعرتْ هي بخجلي في الإجابة لكنها ابتسمت...

* * *

اقتربتُ منها أكثر وأكثر، فأصبحتُ أتناول صحن «الرواني» أيضاً على عتبة باب فرنها الكبير.. وحتى شرابي المفضل من عصير الشعير والزبيب أيضاً.

عندما أعود إلى عملي القريب من «باب السبح» أنظر إلى ساعتي.. لقد تجاوزت ساعة وربما ساعتين.. وأهرول مسرعاً، لكن مديري المحترم وزملائي أيضاً يستنكرون بلطف تأخري، وأعتذر لهم بأن شجاراً حاداً في سوق «باب السبح» قد اندلع وأنني انشغلت لأصلح الشأن بين المتخاصمين.. كانوا

يعرفون بأنني عادة ما أصلح الشأن بين المتشاجرين فيتغاضى المدير عن ذلك وبعض الزملاء الذين يبتسمون بخبث، مما أثار هاجسي في الليل، وكنت أسأل نفسي: هل عرفوا حكايتي...؟ ربما... وحتى أصدقائي في سوق «باب السبح» ربما عرفوا ما عرفه أصدقائي في العمل.. ربما.. وبالذات عندما بدأت مؤخراً بتناول مأكلي ومشربي بعيداً عن أماكنهم.

كان سكان سوق «باب السبح» يحترمونني كثيراً من طول العشرة معهم.. يقدمون لي ما أطلبه قبل الآخرين.. ربما كان ذلك، كما خُيِّل لي، لأدبي الجم ومظهري الحسن اللائق، ولأنني مثلاً أقوم بتقديم الصحون الفارغة التي يتركها الزبائن في حانوت «القنم» أو «الكباب» لغسلها بالماء الساخن الحار.. وأقوم بإرجاع «المدر» لصاحب «البرَعي» التي يتركها الزبائن أيضاً خارج حانوته وعلى رصيف الزقاق المجاور... إلخ، لذلك كنت أعتبر نفسي بلا مبالغة نجم سوق «باب السبح»...!!

كانت هذه الألفة تغمرني بسعادة... وبالذات عندما يخاطبونني أو ينادونني بلقب «أستاذ»..

ـ الأستاذ أولاً...

ـ إفسحوا للأستاذ مكاناً...

ـ أهلاً بك يا أستاذ...

ـ لا تكلّف نفسك يا أستاذ... إدفع مرة أخرى

ـ إفسحوا مقعداً للأستاذ ليجلس...

ـ إفسحوا الطريق للأستاذ ليخرج...

ـ مع السلامة يا أستاذ...

* * *

شعرتُ بأنها تريدني أن أقترب منها أكثر وأكثر عن ذي قبل.. إلى داخل الفرن وليس على رصيف الزقاق المقابل أو على عتبة باب الفرن الكبير.. فوجئتُ بأنها أعدت كرسياً خشبياً قديماً مهترئاً قد أكل منه الدهر وعفى عليه الزمن..!! لكنني كنت أعتبره كعرش أكبر الأباطرة والقياصرة...!

عندما كان يخف الزحام من زبائن فرنها تجلس بجواري.. تحادثني

برقَّة، وأحادثها بأحسن منها. . عَرفَتْ تفاصيل كاملة عني. . وعرفتُ أنا أيضاً تفاصيل حياتها. . عَرفَتْ هيامي بها. . وعرفتُ أنا أيضاً اهتمامها بي. . وعندما أتأخر كثيراً معها كان غلمانها يزأرون، لكنها كانت تنهرهم بقوة. . . !

* * *

ذاع صيت هيامي بها. . . كما ذاع صيت اهتمامها بي. . . !! لم أكترث لذلك، فقد أجهدتُ نفسي أن أكون طبيعياً في عملي وفي سوق «باب السبح». . . قال صاحبي لي وأنا متجهٌ بصحن «القنم» إلى فرنها بينما هو قادم منه:

- هناك فرق بين الهيام والاهتمام. . . ألا تعي ذلك. . . ؟!

واصلت السير بدون أن أعيره انتباهاً

* * *

خرجتُ من باب الفرن إلى الزقاق كعادتي. . . شعرت بأيدٍ غليظة تشدني إلى الخلف وتطرحني أرضاً، وتنهال على وجهي وجسدي بالرّكل والرفس واللكمات العنيفة. . . حاولت جاهداً أن أقاوم. . وأن أبذل قصارى جهدي للدفاع عن نفسي. . استطعتُ أن أقاوم ببسالة قدر استطاعتي. . . لكنني شعرتُ بمهانة من أن يُمرّغ بي وسط التراب وأنا أمام باب فرنها. . . نهَرتهمْ هي بصوت عالٍ ليكفوا عن الشجار. . . !!

لملمتُ شتات نفسي وملبسي. . ومسحتُ بعض دماء جراحي. . وانتصبتُ كأن شيئاً لم يحدث. . . ولم أتجه صوب مقر عملي القريب من «باب السبح». . . بل أخذتُ سيارة أجرة واتجهت إلى منزلي. . بعد فترة راحة في المنزل اكتشفتُ أن جراحي من الداخل أشدُّ ألماً وأنكأ من الخارج. . .

ظللت أحوم وأحوم حول سريري داخل الغرفة وحول مكتبي أيضاً بألم. . . وربما بفكر آخر. . . !!

أُصبت بقلق وسهاد طوال الليل. . . هل أستسلم. . . ؟ هل أقاطع عملي. . ؟ هل أقاطع حياتي في «باب السبح». . !؟

* * *

اتجهتُ صباح اليوم التالي كعادتي إلى مقر عملي غير مظهرٍ لأي ألم. . . واعتذرتُ عن عدم عودتي البارحة إلى العمل لفضّ شجار طويل في «باب السبح» استُخْدِمَتْ فيه الأسلحة النارية والبيضاء. . .

عبسوا بوجوههم وأخبروني بالحقيقة. . وبأنهم مستعدون لأن ينتقموا جميعاً لي. . . أخبرتهم بأنه لا داعي لذلك وأنه لم يحدث شيء ذو بال. . . وإذا كان قد حدث فأنا المخطئ. . .

تركتهم واتجهت نحو «باب السبح» وهم غير مقتنعين بما قلته. . . تكرر ذلك عند الحاج «زعتر» صاحب «القنم» وبعض الزملاء من زبائنه. . قالوا أنهم على استعداد للانتقام لي منهم. . . وأقنعتهم بأن شيئاً لم يحدث وإذا كان قد حدث فربما كنت أنا المخطئ. . .

وتكرر ذلك في حانوت «الرواني» وحانوت «البرعي» وحانوت شراب الشعير والزبيب، وكادت دموعي تنزلق من مآقيها. . . لكنني استطعت حبسها وعلّلت ذلك نتيجة لدخان حانوت «القنم». . . !!

* * *

لم أنقطع عن «باب السبح» في أي يوم. . . وكلّما مرت الأيام نسي الناس تلك الحكاية. . . لكنني لم أزل أهيمُ بها ليلاً ونهاراً. . . أكتمُ ذلك في داخلي. . ورغم ملاحظة الآخرين لهزالي واصفرار وجهي إلا أنني كنتُ أحاولُ أن أبدو أكثر مرحاً وإشراقاً عما كنتُ عليه من قبل. . .

* * *

أخذتُ قرص الخبز كالعادة من الصبي الذي يبيعه بجوار باب حانوت الحاج «زعتر» ودخلتُ به إلى الحانوت رغم الدخان المزعج. . وقبل أن أجلس على المقعد قدمت له الصحون الفارغة التي تركها الزبائن الذين «لا ذوق لهم» كما كان يقول. . فيغسلها بالماء الساخن. . كان يعرف بأنني أشفق عليه. . فهو الوحيد الذي يقوم بالعمل كله، بعكس الحاج «مغلس» الذي يهتم بإعداد الكباب فقط بينما يقوم أحد أبنائه بغسل الصحون وأخذ النقود وتوزيع الوجبات. . . !

قدّم لي وجبتي في صحن مع صحن «سحاوق» لاهب قبل أن أجلس على الكرسي، ولم يأبه لبعض أصوات المحتجين الذين لم يعرفوني من قبل. . . وصاح بمن يقفون أمام باب الحانوت بأن يبتعدوا عنه لأن «الأستاذ» قد تضايق من الدخان. . .

وبينما كنتُ منسجماً كالعادة بأحاديث الزبائن ونكاتهم السمجة أظلم باب الحانوت ودخلت فجأة امرأة وبيديها عدة أقراص ساخنة من الخبز وزاحمت المجاورين لي واستقرت بجانبي. . . ملاصقة لي تماماً. . . دَفعتْ مبلغاً كبيراً للحاج «زعتر» لصحن كبير من «القنم» و«سحاوق» أكثر. . . عندما شعرتُ بجسدها ملاصقاً لي شعرتُ بأن شيئاً قد حدث لي. . وعندما ناولها الحاج «زعتر» الصحن الكبير من «القنم» وطاسة «السحاوق» الممتلئة سكبت كل ذلك في صحني الذي كان فارغاً. . . ونظرتْ إليّ بابتسامة حزينة ودموعها تنهمر معلّلة ذلك نتيجة دخان الفحم الذي لم يعد موجوداً بعد خروج الزبائن. . . ابتسم الحاج «زعتر» لذلك ونظر إليّ وإليها بفرح شديد. . . !!!

صنعاء ـ 1/ 7/ 1994

قصة مهاجر حقيقي

عندما سافر بحراً من «مرسيليا» كان يفكر في نوعية الهدية التي ستعجب «الشيخ». . ظل هذا هاجسه الدائم طوال رحلته الطويلة والمرهقة التي قضاها يتنقل بحراً وبراً وجواً من مرفأ إلى آخر ومن مطار إلى مطار حتى وصل إلى «أسمرة» على متن طائرة «داكوتا»، ثم براً إلى «مصوّع» التي أبحر منها إلى «المخا» بمركب شراعي عتيق وقبطان أكثر شيخوخة.

كان قد اشترى من إحدى محطات رحلته الطويلة بندقية «بمنظار مُقرّب»، آخر صيحة أنتجتها مصانع «بلجيكا»، وقنينة نبيذ كبيرة الحجم محفوظة بشبكة من الخوص الملفوف عليها بدقة وبراعة. . كان يعرف أن الشيخ مغرم كثيراً بالسلاح وأنه سيسعد بحصوله على طراز جديد. . ويعرف أيضاً كم هو مغرم بالخمرة التى لا تفارقه أبداً. . !

* * *

كان ارتياحه كبيراً عندما وصل قريته ليلاً فوق حمار متهالك، بينما كان حمار آخر يتبعهما مثقلاً بأغراض متنوعة كانت حصيلة عشر سنوات قضاها مغترباً «وراء البحار». . أما هدايا الشيخ فقد كانت معه تلازمه دائماً، فعلى ذراعه الأيسر تعلقت بخفّة البندقية «أبو ناظور» بينما احتضنت اليد الأخرى القنينة. . دخل باب منزله المتهدم واستقر بين أحضان ودموع والدته وزوجته وابنه الوحيد الذي عاش له من بين أبناء عدة ماتوا بالطاعون والحصبة والجدري.

* * *

كان مرهقاً تلك الليلة، وكان بحاجة للنوم. . عذرته زوجته قبل والدته إشفاقاً عليه. . لكنه رغم ذلك لم ينم. . كانت لا تزال هدايا الشيخ في

هاجسه.. ترى كيف سيقابل الشيخ..؟! وهل الهدايا لائقة..؟! وهل ستعجب الشيخ أم لا..؟! وتحسس بحنو البندقية «أبو ناظور» الرابضة بجواره وأغمض عينيه.

كانت البراغيث و«البق» قد أيقظته باكراً قبل أن توقظه زوجته.. وانطلق في طريقه الصاعد والهابط بين أحضان المدرجات الزراعية والحقول الخضراء بمحاصيلها المتنوعة التي تتسلق الجبال الشامخة.. كان يتوقف بين الحين والآخر ليستنشق ملء رئتيه هواءً نقياً بجانب الينابيع والعيون المائية الصافية.. يُسَلم على الناس النازلين والصاعدين «المرحل»[1] المعبد بالحجارة، متأملاً المدرجات الخضراء والسهول والوديان.. تمتم في نفسه:

- إنها ملكٌ للشيخ.. كلها.. كل هذه القرى.. كل هؤلاء «الرعية» المزارعين وأنا منهم أُجراء للشيخ.. إن لم نكن عبيداً له..!!

* * *

وصل إلى بوابة «دار الزهور»، بيت الشيخ، ببوابته العملاقة المرصع خشبها بمسامير نحاسية وبصفائح حديدية تزيد من صلابته.. كان أمام البوابة وعلى جوانبها حرس بلباسهم التقليدي تتدلى على أكتافهم بنادق «فرنصاوي» التي اشتهرت في حروب «نابليون» القديمة.. تقدم بحزم نحو البوابة ولم يلتفت، فقفز أحدهم نحوه وسأله:

- ماذا تريد..؟!
- المقيل في «ديوان» الشيخ..
- ومن أنت حتى تريد المقيل في ديوان الشيخ..؟!
- مهاجر..أحمل هدايا للشيخ.. من وراء البحار..

تردد الحراس وهم يقتربون منه ويتفحصون بفضول تلك البندقية «أبو ناظور».. وتمادوا في فحصها، فضرب على أيديهم وأبعدها عنهم ناهراً إياهم بعد أن هدد بإخبار الشيخ عن هذا التطاول.

* * *

(1) المرحل: طريق جبلي يسلكه الناس والقوافل عبر المنحدرات الجبلية.

كانت ساحة الدار واسعة يتوسطها المبنى الرئيسي المكون من أربعة طوابق حجرية.. الطابق الأسفل يكاد يكون بلا نوافذ، أما الطابق الثاني فبنوافذ صغيرة تقل حجماً عن نوافذ الطابق الثالث ذات «القمريات» الزجاجية الملونة.. أما الدور الرابع فنوافذه أوسع «وقمرياته» أكبر وأكثر جمالاً..

لا توجد في ساحة «دار الزهور»، عكس ما كان يتوقع، أية زهور من أي نوع..! ولا حتى أي نوع من الخضرة...! فلم تكن ساحة الدار التي طالما رسم لها صورة في مخيلته ـ سوى قطعة جرداء ممتلئة بروث البقر والبغال التي تقطن الدور الأسفل من الدار.. وعشرات من الخرفان التي يسوقها المزارعون كل يوم.. وبعض من الحطب الشوكي اليابس الملقى هنا وهناك..

اتجه نحو «ديوان» الشيخ الطويل الذي تشرف نوافذه العديدة على السهول والوديان والمدرجات الزراعية الخضراء التي يمتلك الشيخ معظمها، بقراها وحيواناتها.. وبناسها أيضاً..!

* * *

كان يتوقع أن مقدمه سيسر جموع الحاضرين.. أو على الأقل سيبدون قليلاً من الاهتمام بعودته من «وراء البحار».. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث..!! ربما كانوا قد نسوه.. حدّث نفسه بخيبة أمل.. نظر الشيخ إليه ملياً ولم يصدق بأن هذا الواقف أمامه هو أحد رعاياه، فقد كان نظيف الملبس.. جميل الهيئة.. حليق الذقن مُحمرٌ الوجه، قوي البنية.. تسكن تحت إبطه الأيسر بندقية عجيبة وممسك بيده اليمنى شيئاً ملفوفاً بقماش لم يكن صعباً عليه أن يعرف ما بداخله..!

كان الشيخ لا يزال ينظر إلى القادم بدون أن يأبه لنظرات الحاضرين المتسائلة... وأشار إليه بأن يتقدم. لم يفسح الشيخ له مكاناً بجانبه كما كان يتوقع، أو حتى أن يأمر له بمكان في أي جانب، بل جعله مضطراً للركوع على ركبتيه وتقبيل قدمي الشيخ.. ثم سلمه الهدايا بصمت..

* * *

شعر بالإهانة وتألم كثيراً لتلك المعاملة والاستقبال، وهو الذي ظل

منشغلاً طوال رحلته بهدايا الشيخ. .! تناول الشيخ البندقية وفحصها بإعجاب، شديد ثم ناولها للحاضرين ليتداولوها قائلاً بزهو:

ـ لم يُخلق مثلها في البلاد. . .

هزّ الجميع رؤوسهم مؤيدين. . وتزايدت عبارات الإعجاب ففرح القادم من «وراء البحار» لذلك. . ونادى الشيخ خادمه الخاص وأعطاه القنينة الملفوفة ليودعها مكان أنسه الليلي. .

انقشعت الغمة تماماً عن المهاجر بعد أن أمر الشيخ كبار القوم بإفساح مكانٍ له بينهم. . ورمى له بحزمة من «قاته» الفاخر. .

تناول غصوناً من القات وانزوى في مكانه صامتاً. . وساد الصمت في المقيل أكثر من المعتاد، فلم يرق ذلك للشيخ، فبادر بسؤال القادم من «وراء البحار» عن الرحلة ومشاقها وكيف وصل إلى «البلاد». .؟

* * *

بدأ يقص رحلته منذ مغادرته لميناء «مرسيليا» في بلاد «الفرنجة». . وكيف تنقّل من ميناء إلى آخر ومن بلدة إلى أخرى ومن بحر إلى بحر. .!! لم يعر ذلك اهتمام الشيخ أو أي من حضوره. . كان «المهاجر» يواصل حكايته وقد بدأ يتذوق «القات». . قاطعه الشيخ بملل:

ـ وكيف وصلت إلى «أسمرة». .؟!

ـ جواً. . فوق السحاب. . وتارة أخرى تحتها. . على الطائرة. .

دوت في أرجاء «الديوان» الفسيح همهمات ارتفعت إلى صحيات الحاضرين من مشائخ مجاورين وأعيان و«عدول» قرى، بل ورعايا الشيخ أيضاً. .

رمى الشيخ المهاجر بنظرة حادة وسأله:

ـ هل أنت متأكد من ذلك يا رجل. .؟!

ـ نعم يا سيدي الشيخ. . فهي طائرة من الحديد تُحلّق في السماء وتنقل المسافرين من بلد إلى آخر. .

ـ حديد. .؟! يطير في السماء وعليه مسافرون. .؟!

ـ نعم يا سيدي. .

ـ مثل بساط الريح. . ؟!

وهنا صمت المهاجر. . ولم يعد يدري ماذا عليه أن يقول. . بينما كان الشيخ يعتقد أنه قد أُحرج أمام المشايخ والأعيان المتواجدين وأنه قد أهين أمامهم. . وفي مقيله. . !

ساد الوجوم المقيل ولزم الجميع الصمت، حتى الشيخ نفسه. . كان لا بد للشيخ أن يحسم الأمر بسرعة بالرغم من الهدايا الثمينة التي جاء بها هذا المهاجر. . وكسر الشيخ الصمت بصوته الغاضب لحراسه:

ـ خذوه. . وارموه في السجن. . وكبلوه بالحديد. .

أُقتيد بعد أن كبلوه بقيود حديدية حول قدميه إلى غرفة مظلمة ذات رائحة كريهة. . ممتلئة بكل أنواع القاذورات وبعض سجناء ذوي هياكل عظمية. .

* * *

في عام لاحق، أسماه المزارعون عام «القوارح»، أغارت طائرات بريطانية على مناطق من «البلاد». . كانت الطائرات تُحلّق في سماء القرى وتطلق قنابل مدوية أفزعت الناس، وتراكض الأطفال في أزقة القرى هلعاً، وهاجت الأبقار والثيران في الحقول، وفزع الشيخ لها قبل غيره. . لقد أقنعت الطائرات الشيخ بأن هناك حديداً يطير في السماء وبأن ما قاله ذلك المهاجر كان صحيحاً. .

* * *

لم يعاتب الشيخ نفسه لحبس ذلك المهاجر القادم من «وراء البحار» الذي أهداه البندقية «أبو ناظور» التي لم يُخلق مثلها في البلاد. . لكنه وبعد حادثة «الطائرات» سأل «معاونه» أن يدعو ذلك المهاجر العائد من وراء البحار إلى المقيل، علّه يفصح عن مكنونات ذلك الوحش الحديدي الطائر. .

كان المقيل قد اكتظ تماماً، فقد كانوا جميعاً متلهفين لسماع ما سيخبرهم به ذلك المهاجر. . . وكان الشيخ قد جهّز حزمة من «قاته»

الخاص للمهاجر وأفسح له مكاناً بجانبه ينتظر وصوله... وسرعان ما عاد معاون الشيخ ودنا منه وهمس في أذنه:

ـ لقد هاجر من جديد.. إلى «وراء البحار»... منذ مدة.. ولم يعد حتى الآن...!

مستشفى ميدلسكس
لندن/ شتاء 1996م

فهرس المحتويات